الصفوة للدراسات الحضارية
Safwa Cultural Studies"SCS"

العلوم التأسيسية

مدخل لفهم العصر

د. جاسم سلطان



الطبعة الأولى 2022م - 1444هـ

العلوم التأسيسية
مدخل لفهم العصر

إعداد
د. جاسم سلطان

تصميم وإخراج فني
آية قبلاوي

الصفوة للدراسات الحضارية
Safwa Cultural Studies"SCS"

بسم الله الرحمن الرحيم

العلـوم التأسيسـية هـي حزمـةٌ مـن المعـارف خطّهـا الناظـمُ، هـو تشـكيلُ عقليـة تفهـم عصرهـا وتحدياتـه وتـرى الامـكان فتثمـره وتوسـع مـداه، عقلية تأخذ مـن الماضي العبـرة، ولكن لا تجعلـه الوجهـة، وترى أحلام الغـد دون أن تنفصل عن الواقع.

لم يكن مخططاً لهذه المحاضرات أن تتحول لكتاب مما ألقى العبء في الترتيب والضبط على الأخت رِقّ شقير -محرّرة الكتاب- والأخت آية قبلاوي -مصممته الفنية- وهو عبءٌ كبير في مادّة متنوعة من هذه الطبيعة؛ فلهما الشكر موصول ومن ورائهما كل فريق الصفوة الذين أداروا كل ذلك على مدى عشرة أشهر متواصلة دون كلل. تلك شموع الأمل تُؤذن بفجر جديد تتضح معالمه بالتدريج، ولكن العين لا تخطؤها فلكل من شاركنا وسيشاركنا رحلة البرناج الأساس ومن يقرأ هذه الأوراق باحثاً عن إشراقة الغد التحية والسلام والدعاء.

د. جاسم السلطان

المحتويات

مقدمة البرنامج التأسيسي

غالباً ما يهمل الناس المقدمات استعجالاً منهم للدخول بشكل فوري للعلوم، ولكن مقدمة هذه الرحلة ليست من النوع الذي يُهمَل، بل يجب على المتعلّم استحضارها دائماً معه في رحلة "التأسيس المعرفي".

وسأجيب في هذه المقدمة عن أسئلة هامة لا بد لنا من الوقوف عندها ابتداء..

أولاً- سبب تسمية البرنامج وأهميته

هنالك كثير من البرامج التي تعد نتائجها بشيء ما؛ بحيث إنها تخبرنا مثلاً كيف نكون قادة، أو كيف نفكر بشكل جيد.. أما برنامجنا هذا فهو يَعِدُ بالأساس لا بالنتائج الأخيرة، فنحن سننطلق من نقطة نشكّل فيها أسس المعرفة لدى المتعلّم ثم ليتابع بناءه المعرفي من حيث شاء.

إن الاستعداد للرحلة لا يقل أهمية عن الرحلة ذاتها، بل هو الضمان لبلوغ الرحلة أهدافها بنجاح.. ورحلة تكوين الإنسان معرفياً تقتضي وضع الأساس أولاً، ثم تأتي مجموعة الطوابق فوق هذا الأساس ليصبح المبنى في أحسن حال..

وإن كثيراً من المتعلّمين ممن يقرؤون كثير من الكتب ، تراهم مشتتين ويشتكون من كونهم لا يحتفظون بالمعلومات، ولا يجيدون إنزالها في مكانها الصحيح بشكل فعّال، وذلك لكونهم اهتموا بطوابق البناء ولم يهتموا بالأساس الذي سيقف عليه هذا البناء، وهذا يخلق فجوة كبيرة في العقل المثقف، كحال إنسان يبني مبناه على الرمال!

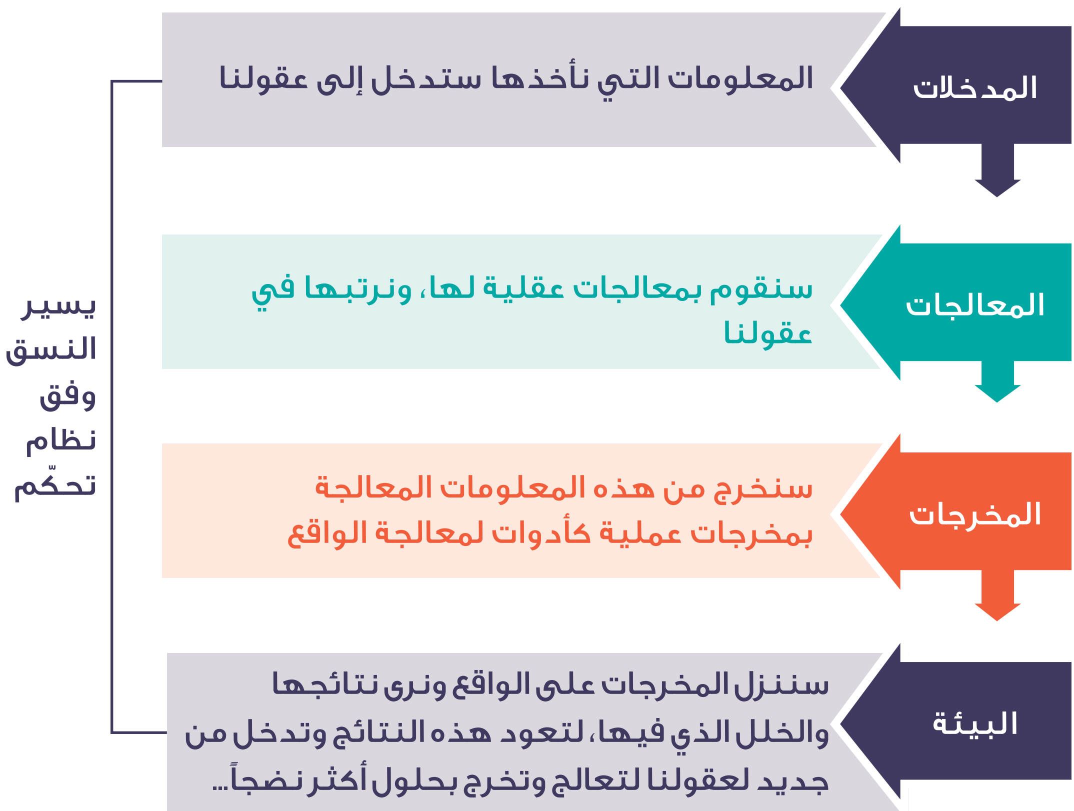
فهذا التأسيس المعرفي يعطي الإنسان أرضاً صلبة، ومساحة من الحرية بأطر من الضوابط المعرفية، ومن ثم يؤهله لإكمال البناء باختياره المعارف التي يريد أن ينتمي إليها، بعد امتلاك الأدوات التي يفكك ويفتح بها مغاليق الأمور.

والمتعلمون أشكال وأجناس، وليسوا نسخاً مكررة، وما نزودهم به في برنامجنا الأساس وما بعده هو بداية المجتهد ونهاية المقتصد.

ثانياً- النسق وتعريف النسق

المقصود بالنسق: المدخلات والعمليات والمخرجات والبيئة ونظام التحكّم، فالغاية ممن سيتلقى البرنامج الكلي أن يدخل في نسق متكامل، فهو:

- سيأخذ المعلومات ابتداء كـ (مدخلات) علمية إلى عقله..
- ثم سيجري لها (عمليات) في دماغة ويرتّبها في عقله..
- ثم سيخرج منها بأدوات (مخرجات) عملية ليعالج بها الواقع الذي يعيش فيه..
- وكلّما احتكَّ بواقعه أكثر (البيئة) وتجادل معه، كلّما تولّدت لديه معارف جديدة ليعيد الدورة مرّة ثانية، سعياً لإنضاج معارفه لإنزالها للواقع من جديد.
- وكل هذا من خلال (نظام تحكّم) يسير من خلاله.



فهذا البرنامج سيطوف بنا في مساحة واسعة من المعارف، وهو ليس مصمّماً لطالب المعرفة المجزأة، إنما لمن يريد أن يرى نسقاً متكاملاً للمعارف، وهم بالضرورة قلة القلة.. وحتى هؤلاء سيواجهون صعوبة رؤية النسق الكلي الذي تصب فيه آلاف المعلومات الجزئية، ولذلك فالاستعداد للرحلة مهم.

ثالثاً- مراحل البرنامج الكلي

سيقسم هذا البرنامج إلى مرحلتين رئيسيتين: التأسيس والتكميل، ونحن الآن في مرحلة التأسيس التي سننتقل منها إلى مرحلة تكميلية تبدأ من فهم الدين؛ وذلك لأن فهم الدين دون فهم هذه المقدمات سيؤدي إلى إرباك في الخارطة المعرفية لدى المتلقي.. وبعد مرحلة فهم الدين سنكمل مع مرحلة إدارة الواقع.

والغرض الأخير من ذلك هو إعداد جيل جديد مسلح بمعارف عصره، ومدرك للأزمة الحضارية وأبعادها.

البرنامج الكلي

1. المرحلة الأولى: التأسيس
2. المرحلة الثانية: التكميل (بيئة العلوم الشرعية التراثية)
3. المرحلة الثالثة: بيئة الإدارة المعاصرة ومنطقها

رابعاً- علاقة النسق بقاعدة "الحكم على الشيء فرع من تصوره"

هنالك قاعدة تقول:

الحكم على الشيئ فرع من تصوره

والسؤال هنا ماعلاقة هذه القاعدة بقضية النسق الكلي لهذا البرنامج؟!

وفي سبيل توضيح ذلك سنسوق قصة صغيرة لشخص أراد أن يدخل التجارة من خلال شراء عقار قديم بسعر قليل، والقيام بتجديده ثم بيعه بسعر جيّد.. وحينما تم سؤاله عن المعايير التي سيُقَيِّم من خلالها مدى صلاح العقار للشراء من عدمه، وإن كانت العملية ستعود فعلاً بالربح عليه.. فأجاب بأنه سينظر لأمور عدة منها قيمة العقار، ونوعية السوق الموجود فيه هذا العقار وهل العقارات سترتفع مستقبلاً أم ستهبط وهل أساسات المنزل قوية وثابتة، أو يحتاج فقط لإصلاحات خارجية وهل المنزل فيه مشكلة بنيوية، وأخيراً ماهي الأشياء التي تحتاج للإصلاح في أي بيت قديم وكم ستكون تكلفتها؟..

(فمن هذه الصورة الكلية التي يمتلكها عن المنازل استطاع أن يصدر حكماً من كونه سيشتري ويربح) (وإننا من امتلاكنا لتصور شامل عن المعارف الأساسية سنتمكن من الحكم على القضايا المتعلّقة بها بشكل أكثر سلامة)

فالرجل بالقصة ليس سبّاكاً ولا حدّاداً ولا كهربائياً... ولكن من خلال معرفته العامة بهذه الجوانب استطاع أن يصدر أحكاماً سليمة تقوده للربح.

فعلاقة الحكم على الشيء فرع من تصوره بالنسق علاقة أساسية؛ فمن يمتلك تصورات كلية للسياسة والاقتصاد والتاريخ والفلسفة والاجتماع وغيرها.. سيتمكن من إصدار أحكامٍ أكثر نضجاً في أنساق هذه العلوم.

خامساً- مشكلة التعريفات في العلوم الإنسانية

في إحدى الجلسات النقاشية حول تعريف القيم، احتدّ النقاش حول تعريف الحرية والعدالة ونحو ذلك.. ليسوق كل من الحضور تعريفه الذي يراه يمثّل الحقيقة ويتمسّك به..

على الإنسان الذي يريد أن يقوم بنظام تأسيسي في عقله أن يدرك أنه في العلوم الإنسانية لا يوجد تعريف جامع مانع، فالتعريفات في العلوم الإنسانية متداخلة جداً، وبالتالي يصعب تعريف شيء بها في دقة متناهية، فمن المقبول في العلوم الإنسانية أن يكون للمفاهيم عشرات التعريفات.. وعلى المؤلف بقضية ما أن يحرر ابتداء المفهوم ويسوق التعريف الذي فهمه والذي بنى عليه موضوعه.

والسبب في ذلك أن طبيعة العلوم الإنسانية تتأبّى على التعريف الواحد الجامع المانع، حتى إن أكمل التعريفات عبر التاريخ تم إثبات أنها لا تصمد في العلوم الإنسانية، فالتعريف بالحد مثلاً كان يعتبر أكمل أنواع التعريفات لكونه يذكر الجنس والنوع والفصل، ومثاله تعريف أرسطو الإنسان بأنه حيوان ناطق، فذَكَر فيه جنس الإنسان وفصله بكونه ناطق، فحتى هذا النوع من التعريفات تلقّى ضربة قاضية على يد شيخ الإسلام "ابن تيمية" وغيره من العلماء الذين انتقدوا المنطق الصوري، وكان نقدهم حاداً لقضية التعريف، فقالوا إن تعريف الإنسان كونه ناطقاً لا يمكّننا من معرفة معنى كلمة ناطق ما لم نكن قد شاهدنا الإنسان! وبذلك قد تم تعريف الإنسان بالإنسان وهذا مما لا فائدة فيه!

فحتى ما كان يعتبر أسلم أنواع التعريفات هو تعريف قليل الجدوى في العلوم الإنسانية!

والتعريفات تأخذ أنواعاً كثيرة فمنها:

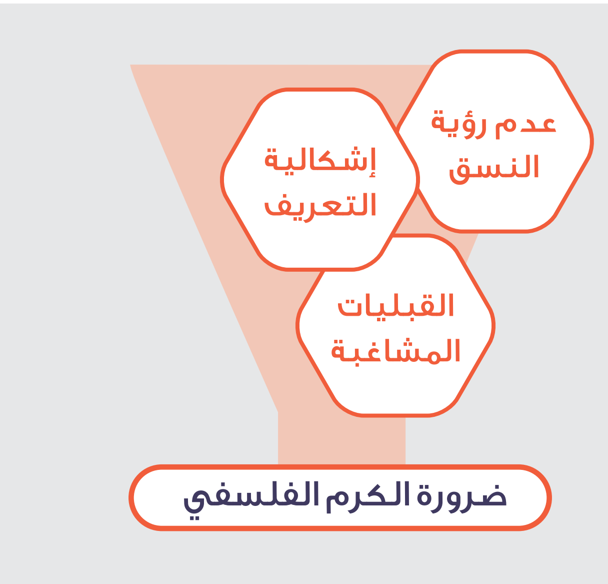
التعريف الوصفي والتعريف بالنماذج؛ فمثلاً كان بوسعنا حينما عرّفنا النسق في الفقرات السابقة أن نقول بأن النسق (عبارة عن بنية متعددة الأجزاء، تعمل بطريقة متناسقة يدعم بعضها بعضاً، لتنتج لنا شيء في نهاية المطاف)، وهذا أشبه بالتعريف الوصفي، ولكننا اختزلنا هذا كله بنموذج ذهني للموضوع حينما قلنا بأن النسق مدخلات وعمليات ومخرجات..

وهنالك أنواع أخرى للتعريفات كالتعريف الإجرائي، والتعريف القاموسي، وسنفصلّها أكثر في فقرات لاحقة..

سادساً- طلب مهم (الكرم الفلسفي)

قال الشافعي:

اِصبِر عَلى مُرِّ الجَفا مِن مُعَلِّمٍ فَإِنَّ رُسوبَ العِلمِ في نَفَراتِهِ
وَمَن لَم يَذُق مُرَّ التَعَلُّمِ ساعَةً تَذَرَّعَ ذُلَّ الجَهلِ طولَ حَياتِهِ

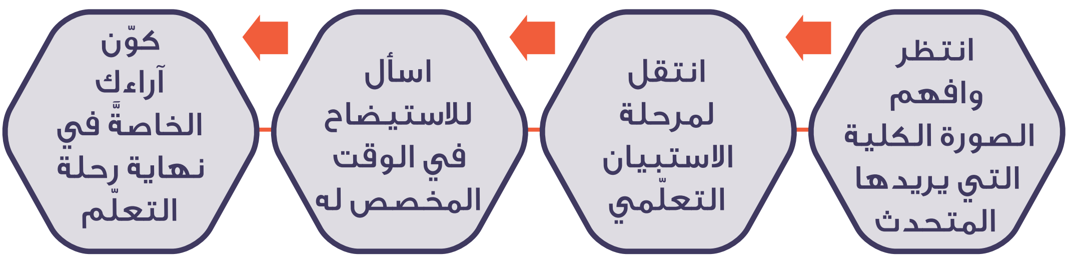


يأتي الإنسان للمعرفة محمَّلاً بقبلياته ومعارفه، وبالتالي يتلقى الجديد من المعلومات ويقارنها بمعارفه السابقة، ويستشكل أموراً ويتقبل أخرى بناء على قبْليَّاته، وتلك طبيعة إنسانية مفهومة، ولكن تصحبها ظاهرة تشغِّب على التعلم، وهي ظاهرة التسرع والاستعجال في ردود الأفعال دون انتظار اكتمال الصورة؛ بحيث لا يستكمل فهم ما يقال قبل أن يطرح السؤال! مما يحرمه من الفهم الجيد، وإذا صحب ذلك قراءة سابقة غير منظمة شغَّب كل ذلك على حُسن التحصيل..

ولذلك نقترح كحل لذلك التعامل بمبدأ الكرم الفلسفي، والذي يعني:

استكمال الصورة قبل إيراد الأحكام، وضبط قبْليَّات العقل من أن تشغب على رحلة التعلّم

خلاصة خطوات مبدأ الكرم الفلسفي:



سابعاً- استراتيجياتنا التأسيسية



استراتيجياتنا في البرنامج

التبسيط | البحث عن أرض | النماذج

التبسيط:

من استراتيجياتنا التأسيسية سيكون التبسيط أي التركيز على المهم

Simlicity means focussing on the important

1 المشكلة

أي السؤال الذي يبحث عن حل.

2 الإشكال

حيث يواجه السؤال باثنين او أكثر من الحلول المحتملة والتي لا تمتلك قابلية الحسم، فاختيار أحدها لا يزيل المشروعية عن غيره.

3 الاستشكال

حيث يواجه السؤال باثنين او أكثر من الحلول المحتملة والتي لا تمتلك قابلية الحسم، فاختيار أحدها لا يزيل المشروعية عن غيره.

البحث عن أرض:

الدورة ليست بحثاً تفصيلياً في كل مبحث؛ فمثلاً نظرية المعرفة كمبحث عميق في الفلسفة تدير جدلاً بين العديد من النظريات المتضاربة والاستشكالات غير المحلولة..

وهنا يجدر أن نمايز بين المشكلة والإشكال والإشكالية

وطبيعة الفلسفة أنها تعالج مايسمى الإشكال لا المشكلة، فهل سنغوص في الإشكاليات كمبحث فلسفي ينتهي إلى استشكال؛ أي إلى مجموعة حلول مفتوحة كما يحلوا لطلاب الفلسفة تناولها؟

نحن هنا سنسلك مسلكاً مختلفاً يتفق مع فكرة التأسيس المعرفي التي تسمح لطالب المعرفة أن يقف على أرض المعرفة؛ ابتداء من مرتكزاتها الأكثر ملائمة للبناء العلمي التأسيسي، وفي ذات الوقت نترك المجال لطالب التوسُّع أن يمارس شغفه في رحلة العلم التي لا تنتهي.. لذلك أنصح المشاركين في هذه الرحلة إتقان ما هو مطروح ابتداء، ووقف ذلك الصوت الخفي الذي يصادر اللحظة المعرفية لصالح الشغف الأكبر في المعرفة المفتوحة.. وسأضرب لذلك مثلاً يُسهِّل تصور ما أقول؛ مبحث مثل (إثبات الوجود الخارج عن العقل وهي إشكالية فلسفية كبيرة، تُطرح كالتالي (هل هناك عالم خارجي أصلاً؟) هناك في

الفلسفة من يقول بأنه غير موجود؛ فالعالم فكرة في العقل لا أكثر.. ولكن الأخذ بهذا القول هو نهاية القول، فالعلوم كلها تنهار ولا داعي حتى للاستمرار في هذه الدورة إذا كان الأمر كذلك! ولكننا نعلم أن عالمنا قائم على عكس هذا المفهوم، فنحن سنختار ما تستمر به المعرفة لا ما يقطعها، وذلك دون أن نصادر الشغف العقلي لمعرفة هذا النوع من وجهات النظر ولكن في مرحلة لاحقة من حياة طالب المعرفة، فإذا اتضح ذلك عرف الملتحق بالدورة أن الغرض هو التأسيس والتركيز لا الاستفاضة والتشقيق.

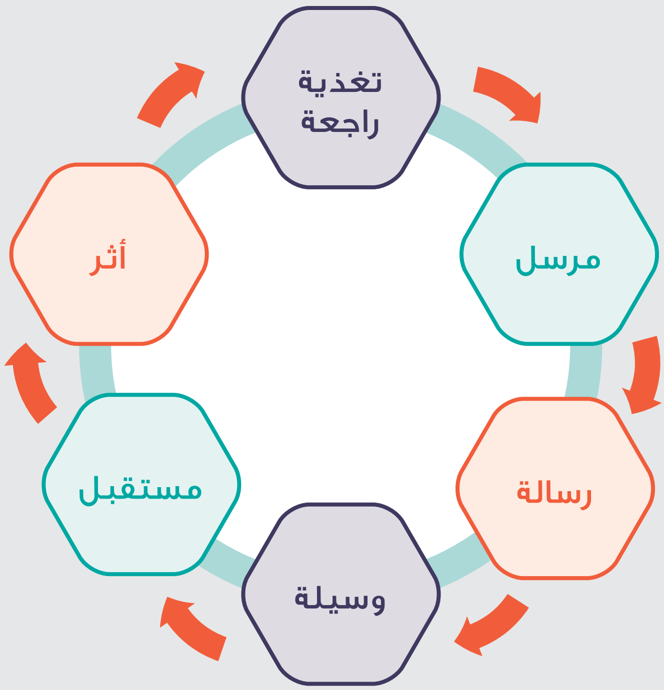
أهميــة النماذج (The mapping method):

الخرائط المعرفية تقوم بثلاث وظائف: الاستيعاب + تركيز المعلومة + ربط المعلومات ببعضها.

في رحلة التعلم لم أجد أكثر فائدة من النماذج المصغرة للتخزين والاستدعاء، فهي عندي أفضل من الكلام المسترسل، ومع أن النماذج هي تمثيل للمعرفة واختزال لها، والواقع أشدُّ تعقيداً وأكثر ثراءً.. إلّا أن عقل الإنسان محدود.. وبالتالي حاجته للنماذج جزء من تلك المحدودية، وليتضح معنى قولي سأضرب مثالاً.. حين يسأل شخص ما هو الإعلام؟ يمكن أن يتكلم الإنسان ساعات في بيان الموضوع ويدخل في تفصيلات لا حصر لها.. وغالباً ما يعجز المتابع عن استجماع الصورة لأن القائل لا يستجمعها..



ولكن المُدرَّب على استخدام النماذج يمكنه أن يقول الإعلام هو (مرسل ورسالة ووسيلة ومستقبل وأثر وتغذية راجعة) لأنَّه في ذهنه ارتسمت صورة للموضوع على الشكل التالي:



ومن هنا يسهل أن ينطلق للتفصيل في كل جزء من النموذج، فلا تضيع الصورة الكلية ولا يضيع المستمع.. ومن المهم أن يدقق المتلقي في قولنا أن النماذج اختزال من الواقع فيمكن الاستشكال عليها لأنها لا تحتوي على كافة التفصيلات ولكنها توصف بالمفيدة أو غير المفيدة؛ فإن أنتج المتلقي نموذجاً أو تبنَّى نموذجاً استحسنه فالمقياس هو فائدته في عملية التذكر ورؤية العلاقات.

استحضار النسق الكلي:

إن استحضار النسق الكلي لهذا البرنامج في ذهن المتعلّم هو أمر هام.. وسأوضّح هذا النسق من خلال نموذج مبسّط يليه نموذج أكثر تفصيلاً.

1 العقل والتفكر
2 التاريخ والدين
3 المجتمع السياسة الاقتصاد
العالم وصراعاته

1. يلزم تحديد إمكانية المعرفة من عدمها
2. يلزم معرفة لبنات المعرفة
3. الاطلاع على محاولات الإنسان لضبط المعرفة
4. محاولات الإنسان لضبط المنطق

مسار النهضة الكلي

رحلة الإنسان في التفكّر (الفلسفة)

أثر الحضارة الإسلامية

رحلة أوروبا المعرفية

الحروب الداخلية في الغرب

الدين والإنسان

مسار الحضارات

ماذا يفيدنا التاريخ

دور مالك بن نبي

كيف نفهم المجتمع

كيف نفهم السياسة

كيف نفهم الصراع العالمي

خلاصة المقدمة:

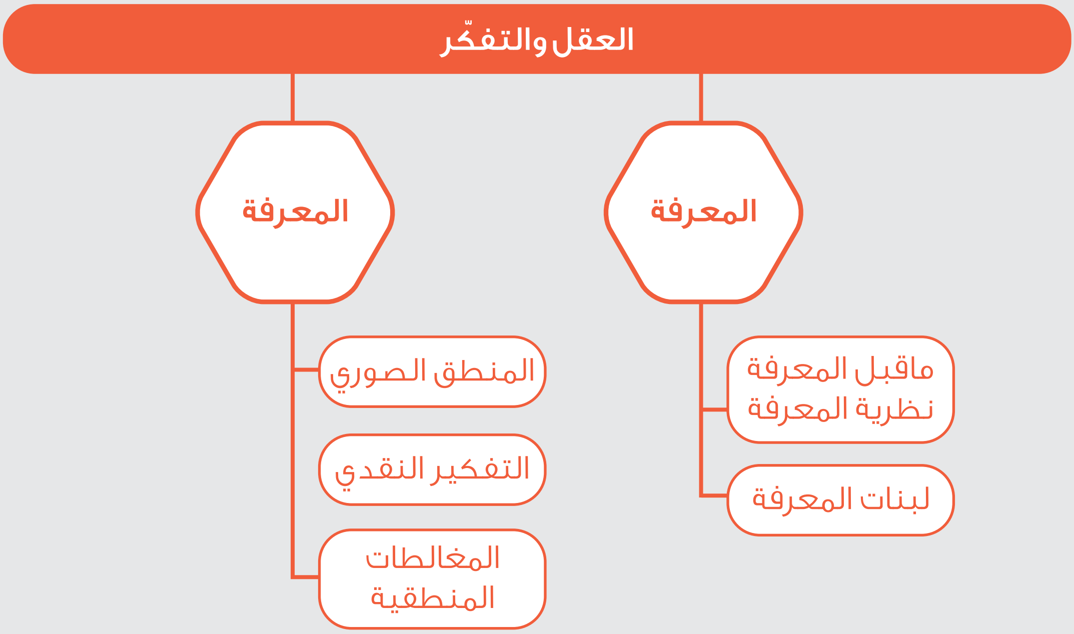
الخلاصة

- أسميناه البرنامج التأسيسي لأنه يتناول الأفكار التأسيسية من عمق البدايات، ليتمكن المتابع بعدها صناعة بناءه العلوي بيسر
- معنى كلمة النسق في تداولنا: البناء الكلي (مدخلات-عمليات- مخرجات- بيئة- تغذية راجعة)
- التأسيس هو الجزء الأول وسيتلوه جزء التكميل
- الحكم على الشيء فرع من تصوره والحياة نسق، وأحكامنا عليها جزء من تصورنا عنها
- التعريفات في العلوم الإنسانية لها طبيعتها والاتفاق عليها صعب جداً
- الكرم الفلسفي يعني أن يؤجل المتابع الأحكام حتى يستوعب مقولة الطرف المقابل بشكل جيّد
- الفلسفة تبحث في (الإشكال) وهو الموضوع الذي يحتمل أكثر من إجابة
- اختياراتنا الفلسفية في التأسيس لاتلغي اختيارات أخرى اخترناها باعتبار جدواها العلمية
- النماذج والخرائط المعرفية أهميتها كبيرة على الرغم من أنها اختزال للواقع

الفصل الأول:
العقل والتفكّر



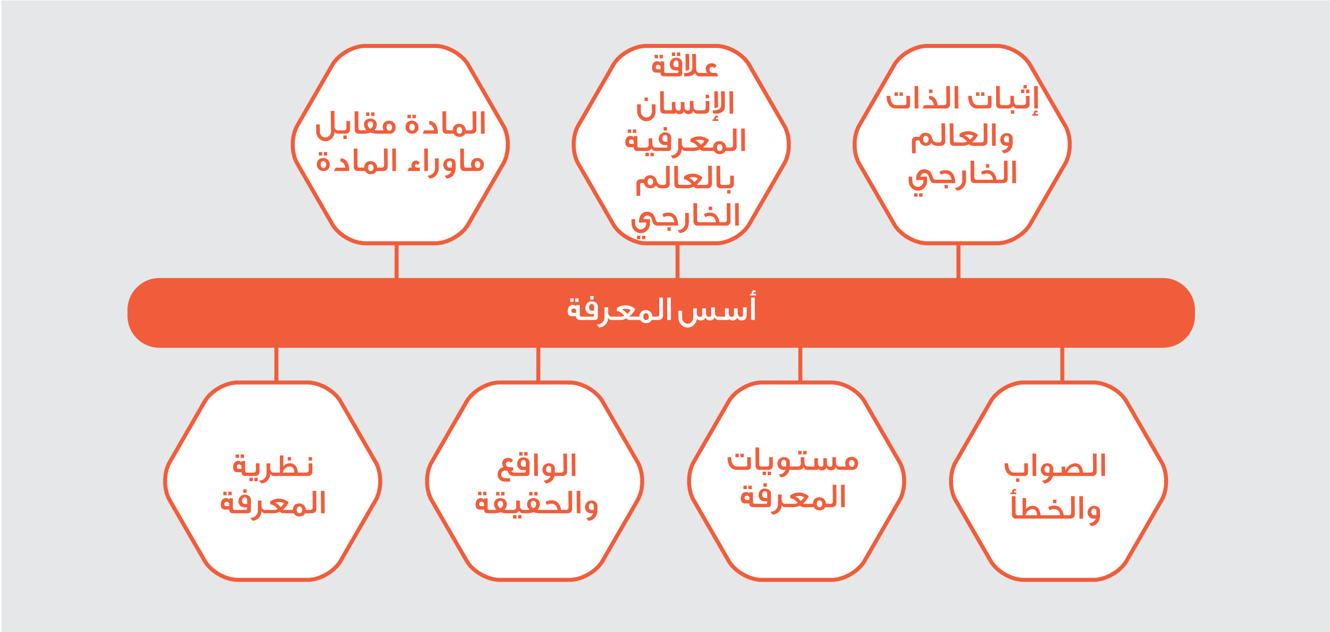
أولاً: المعرفة



1. ما قبل المعرفة

كثيراً ما يُطرح سؤال كيف يمكن لطالب العلم أو العامل بمشاريع النهضة أن يبني معرفة منظّمة لديه..؟ وإننا وبهدف الوصول إلى هذه الإجابة سنمر بهذا المبحث على بعض المحطات التي تشكلت منها المعرفة لدى الإنسان عبر العصور، وببعض ما أشكل عليه بها.. وبالتالي سننتقل من هذه المقدمات لنصل منها إلى نظرية المعرفة..

لنرى أولاً جانباً من إشكال إمكانية المعرفة قبل الولوج للموضوع من خلال ما يعرف بـ"طاولة راسل"، ويقدمه الفيلسوف البريطاني (بيرتراند راسل Bertrand Russell) على الشكل التالي: هب أن شخصاً سألني أن أُعرِّفَ الطاولة، فقلت له هي جسم مربع يشغل حيزاً مقداره كذا، لها أربعة أقدام، تستخدم للكتابة، ولونها بني، ومن ثم شرع بتغيير تلك الأوصاف وصفاً وصفاً واستبدالها؛ فمثلاً استبدل جسمها المربع بجسم مستطيل، وحجمها بحجم آخر، ولونها



بلون آخر، ووظيفة الكتابة تحولت لتناول الطعام..! فنجد أنها قد بقيت طاولة على الرغم من تبدلّ كافة الأوصاف التي ذُكِرَت في التعريف! ومع نزع تلك الصفات واستبدالها يتعقد موضوع المعرفة أكثر وأكثر.. حتى إن الإشكال لم يقف عند هذا الحد، فإن الرائي يرى شكل الطاولة من زاوية نظره هو، فيتغير الشكل مع تغير زاوية النظر، أي "المسقط الرأسي"، فإننا لو احضرنا عشرة رسامين ليرسموا الطاولة لرسمها كل واحد منهم وفق نظرته الخاصة؛ فبالنسبة للون كلما تغير الضوء تغير اللون، وقد يتغير الشكل المستطيل بتغير زاوية النظر أيضاً، وإنَّ اختيارنا لزاوية النظر التي أعطتنا الشكل المستطيل، أو ضوء النهار الذي أعطانا اللون البني لا يصادر وجود بقية الاحتمالات..

من أجل تقريب الإشكال لنفترض أن حقيقة الطاولة هي المخدة التي يغرس بها الخيّاط الإبر، والإبر هي هذه الأوصاف الخارجية القابلة للتغيير، فها نحن عند تجريد الأعراض لا نمسك بشيء محدد.. نحن فقط نلتقي بظواهر الأشياء وتغيب عنا حقيقتها الثانوية تحتها.

إن بناء المعرفة المنظمة لا يمكن إلا من خلال البدء من الصغائر، فوعينا بالمعرفة يتطلب

نزولاً للأساسات التي لا نراها في عالمنا العقلي الذي نعيش فيه، فكما أننا نبدأ بعمارة بيتٍ ما من أساسه لا من أشيائه العلوية؛ وكذلك تُبنى المعرفة..

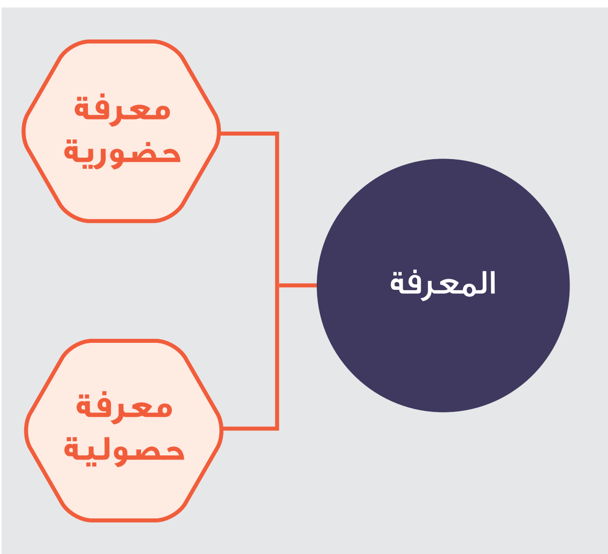
وإننا بتناولنا لأسس المعرفة في سبيل بناء معرفة منظمة سنمر على الأسّس التي تشكلت منها جذور نظرية المعرفة (Epistemology)، فسنتكلم عن الوجود والعقل وعلاقتهم ببعضهم البعض من خلال سبع محطات:

1. المحطة الأولى: إثبات الذات و العالم الخارجي:

في نقاشات المعرفة قد تتفاجئ بسؤال يشكك في إمكان المعرفة أصلاً، وفي هذه الحالة أمامك طريقان؛ إما أن تناقش موضوعاً لا تعرف جذوره، وإما أن تتوقف عن الحديث لأن النقاش انقطع حيث انعدم إمكان المعرفة أصلاً.

● تجربة الشك الجذري:

مسألة إثبات الذات تولاها (رينيه ديكارت Rene Descartes) وشاعت مقولتة "أنا اشك فأنا موجود" بصياغاتها المختلفة، فهناك ذات ما تشك، وهي الشئ الوحيد الذي لا يمكن إنكاره، واعتبرها نقطة الارتكاز الأولى لينطلق منها إلى المعرفة.



● مقولة المعرفة الحضورية:

إنّ عملية تعرف العقل (الذات الشاكة) بالوجود المحيط هي ثاني قضية كبرى في مسألة المعرفة، وإن أول سؤال يُطرح بهذه القضية هو "كيفية إثبات وجود عالم خارجي حقيقي"، فالعقل لا يتلقى معرفة الوجود بشكل مباشر، بل غالباً ما تتم المعرفة من خلال وسائط، تصلنا

بشكل ذبذبات، سواء كانت موجات صوتية أو موجات أخرى.. فتأتي على الأجهزه الجسمانية لدينا؛ فالأشعة تصل للبصر، والصوت يصل للأذنين، واللمس يصل لليدين، وهكذا.. فنحن نتصل بالعالم الخارجي عبر جهازنا العصبي الذي يتلقى الذبذبات التي تمر منه إلى العقل، ليترجمها بالأشكال أو الكيفيات التى نراها، وإن هذه الوسائط قد تكذب أو توهم صاحبها؛ فالإنسان في أثناء الأحلام قد يحزن ويتخاصم مع أشخاص ويضحك مع آخرين، ويرى عالماً ثانياً يتفاعل معه بكُلّيَتِه ويعتقد بأنّه عالم حقيقي.. كما أن تائهاً عطشاناً في الصحراء قد يرى سراباً فيجري مسرعاً ظناً منه بأنه ماء، وعندما يصل إليه سيكتشف أن حواسه قد خدعته! فما الضامن لنا أن الحواس لاتخدعنا وبأننا نعيش بالوجود الحقيقي فعلاً؟!

إن هذا أول الأسئلة المتعلقة بقضية نظرية المعرفة.. وعلى الرغم من أننا نتساءل عن الوجود الخارجي، إلّا أننا وبطريقة ما نتعامل معه على أنّه موجود، وهذا ينقلنا لأهم قضيتين نتلقّى من خلالهما المعرفة: المعرفة الحضورية والمعرفة الحصولية:

1. المعرفة الحضورية Immediate Knowledge

وهي المعرفة التي تأتينا من غير سؤال أو تفكير مسبق، وهي أول معرفة يتعرّض لها الإنسان في حياته؛ فنحن نولد من بطون أمهاتنا صفحه بيضاء، ونتعامل مع الوجود ونتفاعل معه من دون أدنى تساؤل فلسفي عن الوجود الخارجي؛ لكون معرفتنا فيه شيء من البداهة، وهذا النوع غير المفكر فيه من المعرفة يسمى "المعرفه الحضورية" التي تحصل مباشرة من دون أن نتحصّل عليها بالتفكير أو السؤال؛ فلا يُلقّننا إياها أحد أو يناقشنا بها، كما أنها تحدث دون أي نوع من أنواع القلق أو التساؤلات التي تحدث للإنسان بعدما يكبر وينضج، فعلاقتنا بالعالم عندما نولد ليست علاقه دراسة، فنتعلم المشي دون أن نسأل أو أن نطلب برنامجاً عن كيفية المشي، فيجد الإنسان نفسه في عمر التسعة أشهر يمشي فجأة، ويعيش هذا الوجود الجديد على أنّه كائن متحرّك.. وهذا النوع من المعرفة أنشأ "علم الفينولوجيا"، وهو علم كامل جوهره يجيب على هذا السؤال الضخم" "من أين أثبتنا الوجود الخارجي؟"، والجواب أثبتناه لأنّه علم حضوري إزاء الوجود الذي لايحتمل أسئلة فلسفية، وهو أعمق أنواع الوجود لكون معرفته حاصلة بالضرورة من دون أدنى جهد أو عناء أو شك.

2. المعرفة الحصولية Mediate Knowledge

وهي المعرفة التي نَتَحصّل عليها بالتفكير والتساؤل والنظر، بعد ربط الأشياء ببعضها، وبالتالي هي معرفة ليست مباشرة إنما تأتينا بوساطة البحث والتفكير والتلقين.

إن المحطة السابقة محطة في غاية الأهمية، فإذا ما غادرناها من غير إدراك أو اقتناع كامل فلن نستطيع أن نبني شيئاً بعدها؛ فإننا إن أنكرنا الوجود الخارجي أو شكّكنا به، أو قلنا بتعذّر إثباته.. فلن يبقى من داع لإكمال الحوار بيننا، فاعترافنا بالوجود الخارجي هو أول المقدمات الأساسية التي يجب التسليم بها لننتقل منها إلى قضايا أخرى تُبنى عليها، وإن إلغاءها يلغي ما بعدها، فاقتناعنا بفكرة العلم الحضوري (الذي قدّم العلم بالوجود الخارجي فطرة) ساعدتنا على أن نعبر هذه الفجوة المعقدة في الفلسفة.

وإن وجود المشككين بالوجود مما لا يقدم شيئاً ولا يؤخره؛ فالفلسفة انفتاح على أجوبة متعددة، وقد تمكنت فكرة العلم الحضوري بقوّتها أن تَعْبُر بنا تلك الفجوة لنكمل منها إلى قضايا أخرى.

2. المحطـــة الثـانيــــة: علاقــــة الإنســــان المعرفيــــة بالعالــم الخارجــي:

بعد أن أثبتنا التسليم بحقيقة الوجود الخارجي ننتقل منه إلى نوعية العلاقة المعرفية بيننا كبشر وبين العالم الوجودي، حيث قام بدراسة هذا القضية ثلة من العلماء والفلاسفة، وكانت آراؤهم على الشكل التالي:

- أرسطو Aristotle: يرى أرسطو بأننا نولد صفحه بيضاء تماماً، فعقولنا فارغة من أي مخزون علمي، وكل ما يأتينا من المعلومات ناتج عما تلتقطه الحواس من الخارج، سواء المعلومات الأولية كالشجرة والظلام..، أو الثانوية كالرياضيات والطب..، وكلام أرسطوا في هذه المسألة هو اتجاه مدرسي قائم في الفلسفة.

- أفلاطون Plato: وهو أستاذ أرسطو، ويرى أننا لم نولد صفحة بيضاء، بل لنا وجود سابق على هذا الوجود، يعني أنه بداخل جسم المولود يوجد ما هو متأتٍ من العالم الثاني

المتجلي بالروح أو بالعقل أو بشيء آخر، فبالتالي لدينا عالمين: العالم المادي الذي هو الدماغ، وعالم الأفكار وهو عالم خارجي مستقل عن عالم الدماغ، وهذا العالم الخارجي هو عالم مليء بالأفكار الكاملة التي التقينا بها في وقت ما كنا فيه خارج الجسم المادي؛ فالتقينا بشجرة كاملة، وشاب كامل، وبذكاء كامل.. فهو وجود خال من أي نقص، ثم بحلول العقل الخارجي في الجسد المادي الجديد بقيت عنده ذكريات من هذا العالم المثالي، فأي شيء سيراه بالخارج عنده له صوره مسبقة كاملة، فمهما رأى في عالمه المادي من جمال فلديه في عقله ماهو أجمل وأكمل منه؛ جرّاء صورة اختزنها في عالمه السابق الذي يسميه أفلاطون عالم المُثُل، أما عالمنا المادي فيسميه عالم الظِلال، فنولد وفي ذهننا عالم المثال، ونلتقي بعالم الظِلال الذي نمكث عمرنا فيه نقارن بين النقص والكمال. وفكرة أفلاطون هذه لعبت دوراً كبيراً في الفلسفة؛ لكونها أقرب للفكرة الدينية.

- جورج بيركلي George Berkeley: كعادة الآراء في مسألة ما، يأتي دوماً رأي مبالغ أو متطرف، فيرى بيركلي أنه لايوجد عالم خارجي أساساً، وإن ما يدور في عقولنا المتمثل بعالم الأفكار هو الوجود، وكل الذي نحن فيه ونعيشه هو وهم وخيال، فلا يوجد سوى عالم الأفكار.

- "كَانْت" Immanuel Kant: وكالعادة أيضاً في صراع مدرستين تخرج دائماً فكرة وسطية، حمل هذه الوسطية الفيلسوف "كَانْت"، الذي يرى أن العقل مزود فعلاً بأدوات أساسية للتفكير، ومن دون هذه الأدوات لايمكن أن تأتي المعرفة ولا أن نحيط بأي مسألة، إلّا أنه لا يرى أن هذه الأدوات هي عالم المُثُل الذي تحدث عنه أفلاطون، بل يرى أن عالم الدماغ لايستطيع أن يستقبل الأشياء التي تأتي من الخارج إلا من خلال فكرة الزمان وفكرة المكان، فالإنسان بمجرد أنه يسأل ماذا يوجد بعد هذا الزمن، فإنه بسؤاله ماذا قبل وماذا بعد يعني أنه ينحصر بالزمان والمكان، وسيأتي جواب سؤاله أيضاً محصوراً في إطار الزمان والمكان، وفي ذلك الاستقبال هناك على الأقل قانون أساسي لا يخرج عنهما: قانون عدم التناقض، فالعقل لا يتقبل أن فلاناً موجود في البيت وغير موجود في وقت واحد، فالعقل الإنساني يستقبل أحداث العالم من حوله في إطار الزمان والمكان اللذين قد لا يكون لهما بالفعل وجود خارجي إنما العقل لايستقبل إلا بهما، كما أنه من عدّة الإنسان المزوّد بها

الحواس التي تمكّنه من الاتصال بالعالم الخارجي، والتي تكشف باتصالها مع الوجود الخارجي فاعلية القدرات والأدوات التي زُوِّد بها الإنسان، وعليه فإن التجربة الخارجية أساسية بالنسبة لنا حيث تكشف عن فاعليه الأجهزة لدينا، ومن خلالها نتعرف على حقائق الواقع بدرجة من الدرجات.

إذاً وصلت الفلسفة في مسألة "علاقة العقل أو دوره بالوجود الخارجي" إلى أربع إجابات كبيرة، وأقرب تلك الإجابات إلى التصور السائد، هي أننا فعلاً مزودين بهذا الجهاز المعرفي المحكوم بالزمان والمكان، وأنه لدينا على الأقل قانون عدم التناقض، والحواس التي تصلنا بالخارج.

الخلاصة التي اخترناها

- الخارج موجود
- حواسنا متصلة به
- حدود الزمان والمكان
- وجود قانون عدم التناقض

وبوصولنا إلى اختيار هذا الموقف نكون قد عبرنا المحطة الثانية، بعد أن كنا قد عبرنا المحطة الأولى بإجابة ما سميناه "العلم الحضوري". وإن اختيارنا في المحطة الثانية لموقف دون آخر لا يمنع الدارس من اختيار موقف ثانٍ مغاير لذاك الذي اخترناه، ولكننا نبني هنا على ذاك الموقف بغية استمرار الحوار بيننا باتجاه ما اختارته البشرية، بأن الإنسان مزوّد بملكات ثلاث ويبني معرفته من الداخل والخارج.

تذكّـــر

إن الفلسفة تبحث في إشكال ولا تبحث المشكلة؛ أي إنها تبحث في قضايا تحتمل عدة وجوه، لا وجهاً واحداً

- **رينيه ديكارت Rene Descartes:** وهو أحد أكبر فلاسفة عصر التنوير، وهو عالم رياضيات وفيلسوف في وقت واحد، وصل إلى أن العقل قادر على إيجاد معرفة صلبة على الأقل وهو أنه يشك "أنا أشك فأنا موجود" كما أسلفنا.

أما عن مصدر المعرفة فيرى ديكارت أن المعرفة تأتينا من داخل العقل، فنحن مزودين أساساً بجهاز معرفي ويكون موثوقاً بالأفكار التي نبنيها بداخله عن طريق الرياضيات، بينما المعلومات التي نأتي بها من الخارج ليست بذات الدرجة من الثقة، وسعى لتكوين فلسفة كاملة تقوم على صناعة العالم من خلال الرياضيات باعتبار أنّ العقل هو الذي يمتلك القدرات الموثوقة، بينما الحواس تنقل لنا أشياء متضاربة من العالم الخارجي...

سميت مدرسة ديكارت بالمدرسة العقلانية (Rationalism)؛ لكونها تعتقد أن عالم الأفكار هو السيد، وأنه بالنقاش الذي يدور فيه يُبنى العالم الخارجي، وإذا اعتمدنا الرياضيات كلغة داخل هذا العالم يصبح عندنا عالم صلب نستطيع أن نفسر من خلاله العالم الخارجي.

- **فرانسيس بيكون Francis Bacon:** كعادة المدارس والآراء؛ يخرج دوماً مقابل اتجاه ما يناقضه، فيأخذ بيكون منحى آخر مغاير عن منحى ديكارت، ليرى أن جميع معلوماتنا تأتي من العالم الخارجي عن طريق التجربة، وبالتالي فإن التجربة هي التي أعطتنا جميع المعلومات الداخلية. وقد عاصر بيكون الفترة التي عاش فيها ديكارت، فكانت كلا المدرستين؛ المدرسة التجريبية (Empiricist) والمدرسة العقلية (Rationalist) على صراع دائم فيما بينهما.

من هذين المزدوجين سيتشكّل العصر بشكل من الأشكال؛ أي من تصليب المعرفة بالأرقام، ومن اختبار المعرفة بالتجارب سواء التجارب الاجتماعية أو المخبرية، ومن دمج الآليتين ببعضهما سنصل لمعرفة أكثر احتمالية من المعرفة الناتجة عن استنتاجات العقل فقط.

وإن الأمم التي لم تعبر من منطقة المعرفة هذه ستبقى عاجزة لأن الأمم الداخلة في الحسابات والتجارب هي أمم أصلب في مواجهة الواقع الذي تعيشه المجتمعات من غيرها، حيث سنجد فيها من سيصل للقمر، ومن سيصنع الأسلحة والصواريخ، اعتماداً على هذه الآليات الصلبة.

3. المحطــة الثالثــة: المــادة مقابــل ماوراء المــادة:

إن السبب الرئيسي من تشكل هذه المحطة هو التقاء العقل بالوجود الخارجي، فنَشَأَ عن هذا الالتقاء عدة أسئلة ولّدت قضايا فلسفية كبرى نوقشت على مر العصور ومن هذه القضايا:

● قضية المادة:

من القضايا الفلسفية الكبرى التي نشأت في العقل البشري هي الأسئلة المتعلقة بمكونات الكون، أو بتعبير آخر بالوجود المادي (physics)، وتناول تلك القضية فلاسفة سُمُّوا بفلاسفة الطبيعة، نشأت فلسفتهم من التقاء الإنسان بالمادة، فتساءلوا عن المادة.. ماهي؟ وممَ تتكوّن؟ ورست الإجابات ابتداءً من أنها تتكون من الماء والتراب والنار والهواء، فهي العناصر الأساسية التي يتكون منها الوجود، وظل هذ الرأي هو السائد دون حسم من فترة ما قبل الميلاد بحوالي 3000 – 4000 عام حتى القرن السابع عشر، حيث حسمته العلوم الحديثة التي أظهرت بأن الذرات هي العنصر الأساسي في تشكّل الكون.

● قضية ماوراء المادة:

لم يكتف العقل الإنساني بالبحث عن المادة وممَ تتكون.. بل امتد إلى ماوراء المادة، فالطاولة على سبيل المثال إذا جردناها من صفاتها سنصل بنهاية المطاف لكونها عبارة عن ذرات متراكبة في أساسها، ثم يأتي السؤال ماذا وراء هذه الذرة وممَ تتكون في أساسها.. وصولاً لأسئلة (الميتافيزيقا) (Metaphysics) الأسئلة الماورائية، ماذا يختفي وراء المادة، ما الذي يختفي وراء الزمن؟ وما الذي يختفي وراء المكان؟ ماذا يعني الوجود؟ وماذا يعني العدم؟ فتكونت مباحث ماوراء المادة، وهي مباحث فلسفية كبيرة شغلت الناس لعصور طويلة.

● المادة مقابل ماوراء المادة Physics vs Metaphysics



● حدود الإنسان بتلقّي المعرفة:

إن الوصول لانسدادات معرفية أوصل الإنسان لسؤال: ما أكثر ما نستطيع معرفته نحن كبشر؟ وكان من الطبيعي أن يسأل الإنسان نفسه عن قدرته للإحاطة بالمعرفة، فتكلمت نظرية المعرفة عن طبيعة المعرفة، وما هي المعرفة، وكم حدود المعرفة، وما هي وسائل المعرفة، وهل يثق الإنسان في المعرفة لديه، أم أن معرفته تتخللها الفجوات؟.. كل هذه الاسئلة الأساسية نشأت من لقاء عقل الإنسان بالوجود الخارجي.

نظرية المعرفة Epistemology

إذا أزلنا التعقيدات التي يثيرها المصطلح في الذهن فيمكن تلخيصه في سؤال واحد:
كيف نتأكد من أننا نعرف؟



4. المحطة الرابعة: الصواب والخطأ:

من المسائل التي طرأت على الإنسان وأشكلت عليه مسألة العادات الخُلُقية، حيث وجد الإنسان نفسه يعيش مع أشخاص آخرين، ومن طبيعة الحياة مع طبيعة البشر نَشأَت الأسئلة الخُلُقية عن الصواب والخطأ.

إذاً الفلسفة في جوهرها بُنِيَت على بنية العقل الإنساني وما يدور فيه من نقاش حول المادة، وما وراء المادة، وأسس المعرفة، والسؤال الأخلاقي أو غير الأخلاقي.. فهذه المسائل الأساسية التي تكونت منها المعرفة البشرية والتي ستستمر عبر العصور.

الخلاصة

العقل الإنساني واهتماماته هي الفلسفة:
هل يمكنني أن أعرف؟.....ما المادة وما ورائها؟.....
ما الصواب والخطأ؟

5. المحطة الخامسة مستويات المعرفة:

ونصل لمحطة ذات أهمية كبيرة جداً في بناء المعرفة وهي مستويات المعرفة، وسنمر على ثلاثة مستويات منها:



1. الوعي (الإدراك):

هو المستوى الأول من مستويات المعرفة، وهو مسألة أولية تلقائية غير مقصودة منا، وتحدث دون استئذان، فنحن لا نقرر الوعي ثم نعي، بل يأتينا الوعي بالمحيط تلقائياً أولياً. ويحدث الوعي بالمحيط عن طريق الحواس، فيمتد للأشياء المحيطة بنا ليعطينا نوعاً من الإدراك بها، فالمُغْمى

عليه، الذي قد ينقطع عمن حوله يقولون عنه فاقدٌ للوعي، وحتى يتم التأكّد من وعيه أو عدمه يُسأل عن مدى سمعه أو إحساسه بالمحيط، حيث يُطلَب منه المشاورة بإصبعه أو رف عينه إن لم يكن قادراً على الحركة. وغياب شيء من الوجود عن أحد الأشخاص كالصوتٍ مثلاً لا يعني عدم وجود هذا الصوت، بل قد يكون خارج حيّز وعيه، فالوجود موجود سواء دخل في وعي شخص ما أم لم يدخل.

2. العلم:

وهو المستوى الثاني من مستويات المعرفة، والعلم يجب أن يمر بثلاثة مراحل أو شروط حتى يسمى علماً:

- **المرحلة الأولى: وجود معتقد:** بأن يعتقد شخص ما اعتقاداً ما؛ فيقول على سبيل المثال: "أنا أعلم بأن هذه الدورة مفيدة"، فمع وجود هذا المعتقد يكون قد توفر لدينا أول شرط.
- **المرحلة الثانية: إمكانية البرهان على المعتقد:** وهي المرحلة التي يتمكن فيها صاحب المعتقد من أن يبرهن اعتقاده، فإن تمكن الرجل في المثال السابق أن يثبت للآخرين بأنها دورة مفيدة، نكون قد دخلنا بالمرحلة الثانية وتحقق الشرط الثاني.
- **المرحلة الثالثة: صحّة المعتقد في الواقع العملي:** بأن يطبق هذا الاعتقاد في الواقع العملي ويكون صحيحاً فعلاً.

فهي إذاً ثلاثة شروط لما يُسمى علماً: أن يكون معتقداً ومبرهناً وصحيحاً في الواقع، فإذا تحققت هذه الشروط سمي علماً، وهنالك شروط أخرى في نظرية المعرفة، إنما هذه الأسس الأولية لمقصد العلم.



3. الفهم:

إذا كان العلم بهذا المضمون.. فكيف نفرق بين العلم والفهم؟

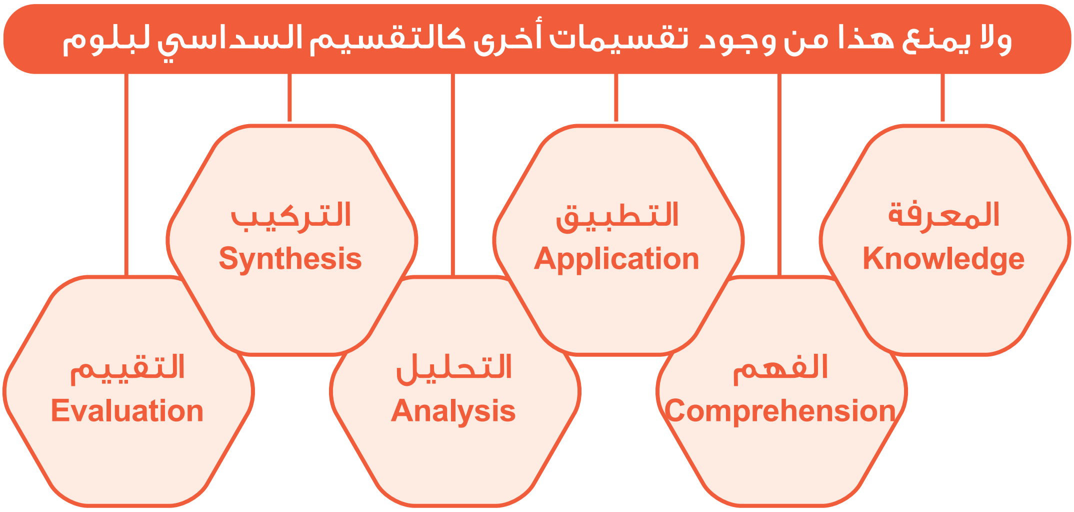
إن للفهم ثلاثة مستويات تتمثل بالتالي:

- **المستوى الأول:** حينما يُطلب من شخص ما على سبيل المثال أن يذهب للقاء سعيد في الساعة السابعة، يكون حينها فَهِم ماذا عليه أن يفعل، فيحصل الفهم في أبسط مستوياته حينما يكون المطروح جواباً لسؤال: "ماذا سأفعل؟"..
- **المستوى الثاني:** يكون الفهم في مستوى أعمق من السابق حينما يسأل الشخص: "لماذا سأقابل سعيداً؟"، فالفهم هنا هو جواب لـ "لماذا علي أن أفعل؟"..
- **المستوى الثالث:** يكون الفهم فيه للنظام الذي سيُشتغل فيه بموضوع ما؛ فنفهم النظام الذي تشتغل فيه الحادثة الجزئية، كأن يفهم رئيس قسم المبيعات وظيفته بكونها على سبيل المثال تسويق القمح، وبالتالي يفهم النظام الذي يتم فيه هذا التسويق.

إذاً مستويات الفهم ثلاثة: أن نعرف ماذا، ولماذا، والنّظام الذي نشتغل فيه. وهذه القضية من القضايا الهامة جداً في الحياة العملية، فسؤال "ماذا" هو مستويات دنيا للفهم، فعلى الإنسان أن لا يكتفي بهذا المستوى، فإذا ما اعتدنا أن نفهم إجابات "لماذا" و"نظام العمل" لشيء ما.. نكون عندها في مستويات الفهم العليا التي يحدث عندها الإبداع.

إن مستويات الفهم التي يحدث بها الإبداع هي مايكون بها التعلم بمستويات غير صفرية؛ أي التي تكون إجابات لـ لماذا، أو كيف، أو نظام العمل لشيء ما..





6. المحطة السادسة: الواقع Reality، والحقيقة Truth:

- نأتي في هذه المحطة إلى مصطلحين كثيري التواجد في الكتب وكثيراً مانُربَك بهما وهما: الواقع والحقيقة، فقد نسمع قائلًا يقول: في الواقع كذا وكذا، وفي الحقيقة كذا وكذا.. فما الفرق بين الواقع و بين الحقيقة؟

الواقع:
يتعلق بعالم الشهود كما هو.

الحقيقة:
تتعلق بصحة ادعاء ما عن هذا الواقع.

- إن الواقع في معناه العلمي هو عالم الشهود أي عالم المحسوس الذي نتلقاه كبشر في حواسنا، فلو قيل على سبيل المثال: إن محمداً موجود في الغرفة، ثم دخلنا وتحققنا من وجود محمد في الغرفة فيكون هذا هو مانعنيه بالواقع.

- أما الحقيقة فهي وجود ادعاء بأن محمداً موجود في الغرفة، فإذا ما طابق الادعاء الواقع سمي بالحقيقة.

فالواقع هو عالم الشهود كما هو، أما الحقيقة فتتمثل بادعاءاتنا البشرية عن عالم الشهود التي طابقت الموجود، سواء ما كان منها مادي أو عقلي، فهنالك علاقة بين كلا المفهومين، إلا أن هناك اختلاف بينهما، وإن معرفة الفرق بينهما من الأمور الأساسية في بناء المعرفة.

7. المحطـة السـابعـة نظريــة المعرفــة:

إن المحطات التي مررنا بها سابقاً هي أساسات نبني عليها لنصل إلى نظرية المعرفة.

فما هي نظرية المعرفة؟:

هي النظرية التي بَحَثَتْ في طبيعة المعرفة، وما المقصود منها، وما هو نطاقها الذي يمكن للإنسان أن يصل إليه، وما شروط اعتبارها معرفة؛ أي متى نعتبر أنّ الذي لدينا علم وليس فقط مجرد إدراك؟

فنظرية المعرفة هي التي تبحث في تلك المسائل الأساسية، وإن نظرية المعرفة الغربية معروفة وواضحة، فإذا ما فتحنا أي كتاب بعنوان Epistemology فسوف نجد نظرية الغرب بالمعرفة بتفصيلاتها (طبيعتها، تسميتها، حدودها...)، إنما نحن المسلمون بحاجة إلى أن نعرف عن نظرية المعرفة الإسلامية، وكيف تُحقَّق المعرفة في هذه البيئة وبضوء النظرة الإسلامية..

فما هي نظرية المعرفة الإسلامية؟ وما المصادر المعززة أو البانية لمفهوم المسلم عن المعرفة التي يستطيع الشاب أو الفتاة الداخلين على عصر الثقافة أن يعرفوا من خلالها المقصود بالمصطلح الذي يبرز تحت اسم "إسلامية المعرفة"؟.. فمن أين برزت التسمية وما قصتها؟

أول من طرح موضوع إسلامية المعرفة هو إسماعيل الفاروقي - رحمه الله - في أمريكا، وهو أستاذ لفلسفة الأديان من أصول فلسطينية.. وهو أول رئيس لمعهد الفكر الإسلامي 1981، والفكرة تدور حول قضية مركزية وهي أن العلوم الغربية تستند في العمق على تصور مادي لا يرى للغيب مكاناً في المعرفة، وأننا في العالم الإسلامي نظراً لاختلافنا في المنطلقات عن الغرب



وإيماننا بوجود معرفة تتعلق بالغيب وأن مصدر المعرفة عندنا واحد هو الله فهذا يقتضي أن تكون العلوم الإسلامية مختلفة في غايتها ومناهجها ومخرجاتها عن المخرجات الغربية وخاصة في العلوم الإنسانية وعلم الاجتماع، ومن هنا كان حلم المعهد العالمي للفكر الإسلامي أن يقوم بدورين:

الأول: نقض النظرية الغربية وبيان مفارقتها للنظرية الاسلامية التوحيدية.

الثاني: إنتاج أول كتاب في العلوم الإنسانية يتمثل تلك الفوارق ويتصف بالعلمية ويتطابق مع إسلامية المعرفة.

لكن مضى على المشروع ما يقرب من أربعين سنة ولم يتم إخراج أي كتاب يحمل هذا الوصف، بالرغم من أن حملة الفكرة علماء أفاضل مثل: القرضاوي، والريسوني، وأبو القاسم حاج حمد، والشيخ محمد الغزالي .. وبقي المشروع يراوح مكانه دون أي اختراق حتى اليوم.

وبغض النظر عن الفائدة التي قد تحققت من هذه الفكرة أو لا ..، فإن الإنسان الذي يعيش بداخل الثقافة الإسلامية بات محتاجاً ليعرف لماذا طرحت هذه الفكرة، وما هي جذورها التي نشأت عليها؟ وأين وصلت اليوم؟ وهل له من إسهام في مستقبل الحياه البشرية؟

إننا بختام هذه المحطة نكون قد مررنا على سبع محطات في موضوعنا الذي نتكلم عنه والذي هو بأساسه جزء من نظرية المعرفة، المتمثل بعلاقة العقل بالوجود الخارجي، وكيف شكلت العالم بعد ذلك، والقضايا التي يدرسها العالم، والأفكار الكبرى الموجودة فيه، المتأتي أساسها التحتي من هذه الأسئلة الكبرى التي تحيط بنظرية المعرفة.

كما أننا مررنا على موضوع مهم جداً ألا وهو علاقة العقل بالوجود؛ كيف أنتجت مجموعة علوم وتصورات، وما زالت تتفاعل في حياتنا ونعيش حولها سواء كنّا مسلمين أو غير مسلمين.

ثانياً: لبنات المعرفة

الحياة تدور حول النظريات.. منها ما هو ناضج، ومنها ما هو أولي انطباعي، والنظريات تتكون من الكثير من المفاهيم.. وأول سؤال سنطرحه ما هي النظرية الجيدة؟ ومالذي يحيط بها من مصطلحات؟ ماذا إذا كانت النظرية غير قابلة للفحص أو أنها تعتمد على معايير غير متفق عليها؟

ننتقل الآن لمنطقة مهمة في التأسيس، تتبع ماتحدثنا عنه في المبحث السابق، وهي "اللبنات الأساسية التي تُرَكّب منها المعرفة" والمتمثلة بالنماذج والنظريات والمفاهيم، التي نحتاج أن نتعرف عليها من الأساس، وأن نعرف قيمتها وموضوعها قبل أن نبدأ في رحلتنا مع المعرفة المنظمة..



اللبنــة الأولــى: المفهــوم (Concept):

كثيراً ما نسمع في العلوم الإنسانية مصطلح "المفهوم"، وقد يقال مفاهيم فلان صحيحة أما مفاهيم فلان خاطئة، فما المقصود بكلمة مفاهيم؟ وكيف يضعها العقل ولماذا ؟

قد نطلق على شيء ما اسماً ما؛ كأن نقول هذه زجاجة، ونسمي الاسم ذاته لزجاجة أخرى على الرغم من الفارق الشديد بين الزجاجة الأولى والثانية، فلماذا أطلقنا على كلتيهما ذات الاسم؟ وما الذي جعل لدينا مفهوماً واحداً للزجاجة مهما تغيرت الأشكال أو كثرت؟

إن هذا ما نسميه "المفهوم"، فعقل الإنسان مركب على محاولة إدراج الخصائص الرئيسية لفكرة ما تحت عنوان كبير، ثم يُعمم ذاك العنوان على كل ما تنطبق عليه الخصائص الرئيسية لشيء آخر..

وقد يتسع المفهوم ليشمل الأشياء المادية والأشياء غير المادية، فالصدق على سبيل المثال ليس بشيء مادي، إنما هو مفهوم موجود في العقل، فإذا ما طلبنا أن ندلل على الصدق في الواقع، فسأدلل مثلاً على فلان الذي اعترف بجريمته فأسمي اعترافه صدقاً، ففي الواقع الخارجي الصدق نفسه هو "مفهوم ذهني"، إلا أنه يتمثل في الواقع الخارجي من خلال "حالات" الصدق. ومثال آخر مفهموم الإنسان، فإذا ما رأينا محمداً أو سعيداً أو عليّاً فسوف نسميهم إنساناً، في حين أنه ليس هناك وجود خارجي لشيء اسمه "إنسان"، لكنه متمثل في آحاد الناس.

كما أنّ هناك فرقاً بين التجريد العقلي للمفهوم الذي يشمل كل هذه الوحدات، وبين التحقق العملي الذي يسمونه المصاديق الخارجية، التي هي عبارة عن آحاد الأشياء، فعندما نقول "مفهوم" فإننا نتكلم هنا عن شيء تجريدي في العقل تندرج تحته أشياء كثيرة جداً في الواقع، فالإنسان يختزن معنى تجريدياً في العقل يطلق على الأشياء الخارجية التي تحمل ذات الخصائص الأساسية مهما اختلفت خصائصها الفرعية.

المفهوم

تجريد عقلي يغطي مساحة واسعة من الأشياء في الخارج ، بشكل أفراد.

ويمكن أن ننتقل بالمفاهيم لمرحلة ثانية حينما نحوّلها لإجراءات، فإذا ما أردنا التأكد من تحقق المفهوم من عدمه، فعلينا أن نضع إجراءات للمفهوم، ومن ثم نتأكد من تحقق هذه الإجراءات، فعلى سبيل المثال للتأكد من أن مفهوم الاكتئاب ينطبق على شخص ما أو لا، نضع إجراءات لمفهوم الاكتئاب، ثم نتأكد من مدى تحقّق هذه الإجراءات على الشخص، كأن نتأكد من مدى كره الشخص لخلطة الناس، ومن مدى شعوره بالضيق وعدم الراحة، وشعوره بعدم الكفاءة أو الجدوى، وإن كان يميل للتخلص من الحياة.. فإذا تحققت هذه الإجراءات نكون قد تأكدنا من تحقق مفهوم الاكتئاب لديه.

اللبنة الثانية: النموذج أو الدايجرام (Diagram):



النموذج هو خارطة طريق لأجزاء المفاهيم وتبسيط الفهم، وتحديد خطوات تحقيق الأهداف. فالنموذج عبارة عن صور تقوم بتوصيل الفكرة بطريقة أفضل من الشرح المجرد، وهو أداة تفسير لواقع ما في الوجود، فهو يشبه النظرية من جانبها التفسيري، إلا أنه يختلف عنها بكونه لا يقتصر على التفسير فقط، بل يمتد ليشمل التفسير والتبسيط والاختزال، فقد يوضع نموذج لنظام سياسي فيه مدخلات، وحكومة، ومخرجات بشكل قرارات، ثم تغذية راجعة، ثم اختيار الجماهير، ثم أحزاب تدخل الحكومة.. وهذا ليس السياسة، إنما هو نموذج للتعبير عن العملية السياسية، فالنماذج أدوات تفسير وتبسيط تختزل الواقع، ولاتَتَضَمَّن جميع تفصيلاته، ويمكن لها أن تُعدّل وتُهَنْدَس من شخص لآخر؛ فإذا ما قال قائل: أريد أن أضيف أو أعدل في النموذج، فنقول له لا بأس أضف وعدل كما تريد، فالنماذج لا تُنعَت بالصواب أو الخطأ، بل قد تُنعَت بكونها مفيدة أو غير مفيدة، وبالتالي إن صاحب النموذج هو المسؤول عن نموذجه في نهايه المطاف..

إن عقلنا البشري مركب على النمذجة، والنماذج جزء كبير جداً من عملنا نحن كبشر، فالبشر دائمي صنع النماذج في الحياة حتى في الحياة العادية؛ فقد يتحفّظ الوالدان على صحبة ابنهما لصديق ما، بناء على أنه يخالف نموذج الصاحب المثالي في عقولهم، فلدى كل إنسان نماذج قد تطال أبسط شؤون الحياة أو أعقدها وأكبرها.. وقدرة الفرد على العمل من خلال النماذج تسهل مهمته؛ سواء في تذكر الفكرة أو في القدرة على شرحها.

اللبنة الثالثة: النظرية (Theory):

ما هي النظرية في العلوم الإنسانية؟

النظرية في العلوم الإنسانية هي تفسير منظم لحقائق وقوانين متعلقة بجانب معين من الحياة.

وهنا تبدأ أول مشكلة.. فما الفرق بين النظرية والحقائق في هذا التعريف؟

الحقائق: نحن نلاحظ ظواهر معينة تتكرر أمامنا، فمثلاً ابن خلدون لاحظ حقيقة قيام الدول وسقوطها وتماثل أعمارها بين النشأة والسقوط.. فتلك حقائق لا تقبل الإنكار، ويمكن أن يلاحظها أي باحث آخر ويتأكد منها.

النظرية: هي تفسير منظم لتلك الحقائق، بمحاولة فهم ما يقف خلف تلك الظاهرة ويفسرها.

ما هي النظرية في العلوم التطبيقية؟

هي ذاتها من ناحية تبسيطية فهنا تُلاحَظ أيضاً ظواهر كونية؛ كسقوط الأجسام إلى الأرض باستمرار، أو وجود ثقوب سوداء في الفضاء الخارجي، وتباعد النجوم باستمرار، ووجود بقايا إشعاعات في خلفية المشهد الكوني.. وعندها يضع العلماء تفسيراً يحاول تعليل الظواهر؛ سواء كان سقوط الأجسام للأرض كما في نظرية الجاذبية أو خط رابط يفسر تلك الظاهر المتعددة في الفضاء بتعليل محتمل كما تفعل نظرية الانفجار الكبير.

لكن ما الفرق بين الفرضية غير المختبرة والنظرية؟

نحن نضع فرضية أو فرضيات، وهي أقرب الاحتمالات التي يمكن أن تفسر الظاهرة، وهي تبقى افتراضات إلى أن يتم اختبارها والتحقق من قدرتها التفسيرية؛ أي درجة احتماليتها بمعيار إحصائي رقمي، أو مصادقتها من قبل نتائج علمية جديدة.. فمثلاً قيمة نظرية الانفجار الكبير زادت بعد اكتشاف "مسبار هابل" وتوسع الكون، واكتشاف الموجات القصيرة المنتشرة في الكون، واكتشاف العنصر الخفيف وانتشاره في الكون.

والنظريات هي نوع عقلاني من التفكير المجرد، يتعلق بظاهرة ما، حيث تتم ملاحظة الظواهر المتعددة ومحاولة الربط بينها بتفسير واحد يجمع هذه الظواهر بشكل منطقي.

وإن عقولنا البشرية مبرمجة على التفسيرات لأبسط الوقائع المبهمة، فمثلاً قد يرى رجل في الشارع ثلاث سيارات تصادمت مع بعضها، وقد انزوت منهم سيارة متضررة إلى الجهة الثانية من الشارع، فحينها سيحاول عقل الرجل أن يربط الظواهر مع بعضها ليقدّم تفسيرات لانزواء هذه السيارة. وإذا وسّعنا زاوية النظر ودخلنا إلى العلوم وجدنا أنها ممتلئة بالنظريات، فنظرية داروين على سبيل المثال نجد حولها صراعات كثيرة، بين من يرى صوابها، وبين من يرى العكس، وكذلك نظرية الانفجار الكبير(Big Bang Theory) التي تشرح نشأة الكون في لحظة ما من مليارات السنين، من انفجار غازات مجتمعة، تكونت منها مجموعات الكواكب الموجودة والشمس، وقد أتوا بهذه النظرية من ملاحظتهم لغبار في خلفية الكون، ولثقوب سوداء بداخل هذا الغبار بحيث أنها تبتلع أي شيء يمر بها، ومن ملاحظتهم أن المسافة بين النجوم باتساع وتباعد مستمر، وبرصدهم للموجات السلكية واللاسلكية وجدوا صوت تشويش من موجات أخرى، ففسروا هذه الظواهر مجتمعة بانفجار إشعاعي كبير حدث في لحظة ما من التاريخ الكوني ولا زالت تتسع وتتكثّف منها الكواكب، أما الفجوات الكبيرة الموجودة فهي عبارة عن نجوم انفجرت فكونت فراغات هائلة أصبحت مكنسات فضائية... وانبنت على هذه النظرية الأبحاث العلمية لمحاولة تعزيزها ودعمها بحيث أصبحت هي التفسير الأغلب للوجود، ولا يخلو الأمر من نظريات أخرى؛ منها ما يقول بانكماش الكون وليس باتساعه..

إذاً النظريات عبارة عن محاولات الإنسان لتفسير ظواهر معقدة من خلال تفسير واحد يربط ويبسط العلاقة بين هذه الظواهر، وهي ليست بالضروره صحيحة، فتتنافس النظريات في الدائرة نفسها وفي الزمان نفسه، وتتوقف شدة قبولها من عدمه بناء على قدرتها التفسيرية لظواهر أكثر؛ فكلما كان التفسير أبسط وشمل ظواهر أكثر كلما كانت النظرية أقوى، وكلما استطاعت النظرية أن تقف أمام النقد الموجّه لها كلما استطاعت أن تهيمن أكثر، فنظرية داروين ونظرية الانفجار الكبير مهيمنتين في عصرنا رغم كل الهجوم الذي نسمعه، لكون التفسيرات التي قدمتها النظريتان فسرتا كثيراً من الظواهر الموجودة في العلوم البيولوجية، والأدلة الداعمة لهما كثيرة جداً.

إن النّظريات جزء أساسي من العلم، والمعرفة الإنسانية، وطبيعة العقل الإنساني، وكما أنه يصنع نماذج فإنه أيضاً يقيّم نظريات، فيحتاج الإنسان الداخل إلى مجال المعرفة أن يدرك جيداً أنّ النماذج هي عبارة عن نظريات مصغرة، وأنّ النظريات الكبيرة هي أدوات تفسيرية أيضاً، لكنّها مكبَّرة قليلاً عن النماذج، مع ضرورة التنويه بأن بعض الناس يتناولون النموذج والنظرية بالمعنى ذاته..

لكن ما هي النظرية الجيدة؟

يقال عن النظرية أنها جيدة إذا كانت تقدم تفسيراً متماسكاً لظاهرة ما، وتجيب عن عدد كبير من جزئياتها ، وتساهم في توضيح علاقة الأجزاء الملاحظة ببعضها، وتفتح الأفق لمزيد من البحث، وقابليتها للرفض، وأخيراً يوجد أهم شرط أنها مفتوحة على الفحص المستقل.

استخدام المجاز:

والنظريات في العلوم الإنسانية كثيراً ما تستخدم المجازات لتوصيل الفكرة، وتكثر استعاراتها من حقول أخرى.. فعندما يشبِّه ابن خلدون الدولة بمراحل عمر الإنسان من الميلاد إلى الطفولة فالشباب فالمشيب فالموت، أو عندما يستخدم شخص وصف الدولة بالكائن الأميبي (Amoeba)؛ ليبرر تصرفها بغزو الآخرين، أو يقرر شخص استعارة البقاء للأصلح من علم البيولوجيا إلى حقل العلوم الإنسانية؛ فيولد مبرر لإبادة الضعفاء.. في كل هذه الأحوال يلعب المجاز دوراً كبيراً في النمذجة والتبسيط.

متى تكون النظرية علمية؟

حتى تكون النظرية علمية لها شروط عدة، ومن أهم هذه الشروط كما قال "كارل بوبر" أن تكون قابلة للتكذيب، وشرط تكذيبها أن تكون قابلة للبحث، فإذا كان الشيء لا يقبل التكذيب لا يكون علمياً؛ لأن العلم هو تراكمي مستمر، والتفسير الذي لا يقبل التكذيب يدخل في الرجم بالغيب، فالعلم مبني على أن التفسير باستمرار يحمل معه احتمال الخطأ.

وإذا ما أردنا في هذا السياق أن ننزل للساحة العملية فعندنا ما يسمى نظرية المؤامرة، التي ترى أن كل ما يحدث في الكون هو من تدبير قوة خفيّة شيطانية، وإذا ما نظرنا للعالم من حولنا سعياً لتأكيد النظرية أو إضعافها سنجد أن هناك صراعاً واضحاً للإرادات، فلو قلنا

إن الأمريكيين هم الذين خططوا لما حدث في أفغانستان فلا تسويغ إذاً لهزيمتهم وخروجهم منها، وكذلك لهزيمتهم في الفيتنام، فهل قرروا بعد أن أنفقوا الأموال والطاقات في الفيتنام أو في أفغانستان أن يُخرِجوا أنفسهم منها؟!

وهنا علينا التنبه للقضايا التالية:

1 أولاً

إن المُشاهَد في عالم الحياة أن هناك تدافع إرادات، وإنكار ما هو واضح لصالح ما هو محتمل يضعف نظرية المؤامرة.

2 ثانياً

نظرية المؤامرة تختزن بداخلها ذكاء القوى المسيطرة وعدم احتمالية تعرّضها للخطأ، وهذا ما يكذّبه الواقع العملي، فباستقراء التاريخ نجد فشلاً ذريعاً للقوى والحكومات الكبرى في كثير من القضايا.

3 ثالثاً

إن النظرية تختزن فكرة أن العالم يسير وفق تخطيط محكم، وهذا أيضاً ما يعارضه الواقع في كثير من الأحيان، ففي حين أن كثيراً من تخطيطات الحركات الإسلامية قد فشلت في الانقلاب على حكوماتها، نجد أن حادثاً ظرفياً غير مخطط له في تونس لسيدة تصفع شابّاً فيحرق نفسه من اليأس يُحدِث ما لم تحدثه كل الخطط الموجودة، فيُؤجج ثورة تصل آثارها لآخر العالم العربي!

4 رابعاً

يختزن الشخص المؤمن بنظرية المؤامرة بداخله انطباعاً بعدم إمكانية تكذيبها؛ فإذا ما ناقشنا نظرية المؤامرة مع أحد ممن يؤمن بها؛ فسيكون الشاب الذي أحرق نفسه والمرأة التي صفعته جزءاً من المؤامرة؟ وأيضاً الفشل الأمريكي في فيتنام وأفغانستان جزءاً من المؤامرة أيضاً، وإن من أهم شروط علمية النظرية أن تكون قابلة للتكذيب.

فنظرية المؤامرة أشبة بنظرية "كارل ماركس" المادية التي يرى أن فيها حتميات لا تُخطئ!

إن هذا العناصر التي تجعل من نظرية المؤامرة أمراً غير ممكن لا تلغي فكرة وجود التخطيط في العالم، وقوى مهيمنة، ووجود أخيار وأشرار، فكل ذلك موجود ولكن ليس بالشكل الذي تخبر به نظرية المؤامرة.

وإننا وبفهمنا للفارق بين النموذج والنظرية والمفهوم نكون قد بنينا خطوة ثانية في المعرفة، وتسلّحنا بأدوات قوية ندخل بها نافذة المعرفة، وأصبح بيننا لغة مشتركة نتكلم بها، من أجل المباحث القادمة.

خلاصة الحديث عن النظرية



ثانياً: المنطق

1. المنطق الصوري الأرسطي

كلنا نفكر... لكن لسنا جميعاً نسأل كيف نفكر.. وحين نصل لموضوع أننا نريد أن نحسّن من أساليب التفكير، وأن نمسك بالعملية عن وعي.. فلا سبيل لذلك إلا بالإمساك بزمام اللغة المتعلقة بالموضوع...فكلمات مثل الموضوع، والمحمول، والقضية، والتعريف بالحد وبالرسم.. أساسيات للإمساك بالموضوع.. فإن خوض مغامرة الإمساك بالمصطلحات هو ما يهمنا اليوم.

سنتناول في هذا القسم من البرنامج التأسيسي "المنطق"، وعلى القارئ أن يلتزم بمبدأ "الكرم الفلسفي"، والذي يُقصد به تأجيل الأحكام لما بعد مرحلة فهم المادة واستيعابها ونضجها، ثم له بعد ذلك أن يتصرف ويعمل عقله بالنقد الذي يريد.

كناّ تكلمنا سابقاً عن احتكاك العقل البشري مع الوجود الخارجي الذي ولّد أسئلة عدة لدى الإنسان؛ في المادة وتكوّنها، وبما وراء المادة، وعن المعرفة أو إمكانية المعرفة، وعن الأخلاق والقيم، وهذا ما سيقودنا إلى المنطقة التي سنتكلم فيها الآن، ألا وهي العقل وكيف نضبطه من الشطط والخطأ..

فالعقل لدينا قد يخطئ أو يتوهم أحياناً، ويصيب في أحيان أخرى، فكيف يمكن أن نضبط العقل بأدوات تستطيع أن تعطيه أفضل فرص الإجابة عن الأسئلة، والمقدرة على محاكمة منطقية للمعلومات الموجودة لديه؟

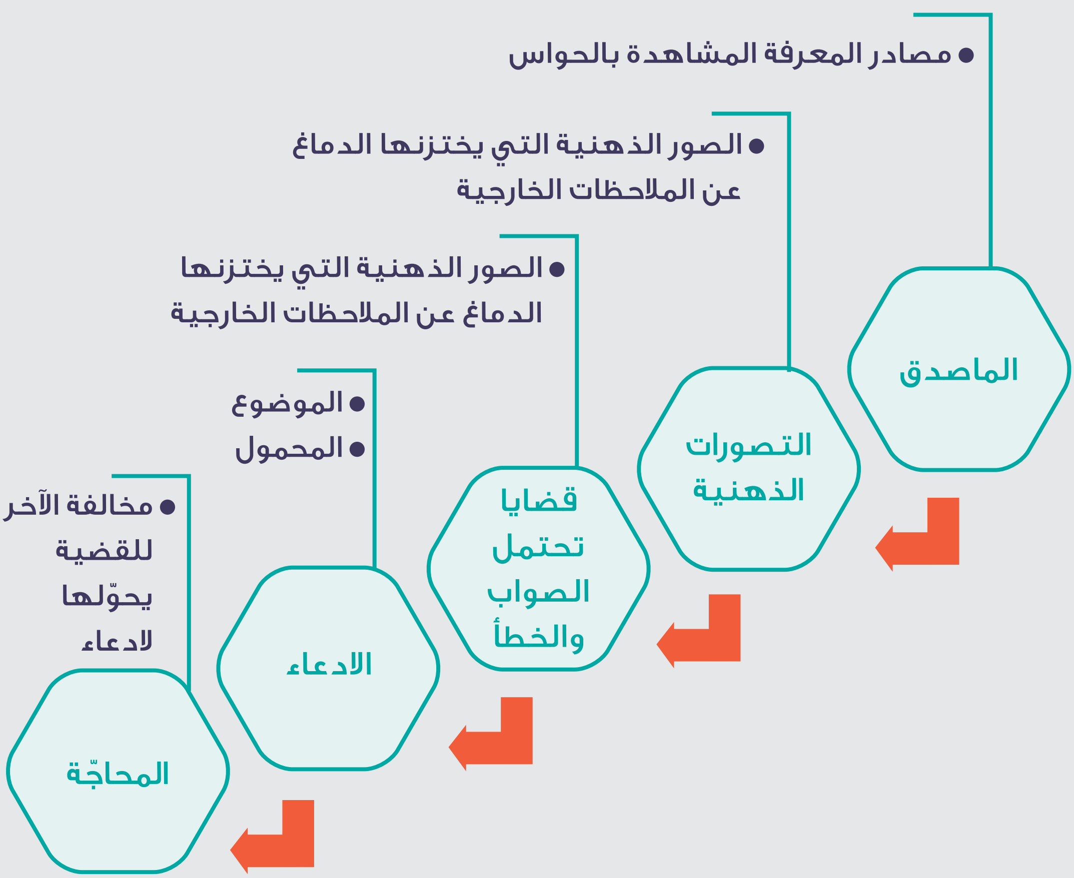
من أوائل من فكر في هذا الموضوع بطريقة منظمة هو "أرسطو" الذي ارتبط اسمه دوماً بالمنطق الصُّوري.. وقبل البدء بالحديث عن المنطق الصوري أو النقدي، نستعرض حواراً بسيطاً واقعياً (حدث فعلاً): بين مدرس وأحد تلامذته.. فبعد أن أنهى المدرس مادة أرسطو

سأل الطلاب: هل استفدتم من المحاضرات التي طرحناها في المنطق الصوري لأرسطو؟ فتجرأ أحد الطلاب ورفع يده وقال: والله لم أستفد شيئاً من كل الكلام الذي قلته، فوقف المدرس قليلاً ثم قال: لماذا لم تستفِد، قال: لأنّنا نحن لا نتحدث بهذه الطريقة.. وكان الطالب يقصد طريقة المنطق الأرسطي، والذي من أشهر أمثلته: "كل إنسان فان، وسقراط إنسان، إذاً سقراط سوف يفنى"، فالطالب يقول لا أحد سيتكلم بهذه اللغة في الحياة العادية، فطريقة كلامنا ومقالاتنا مختلفة جداً عن هذه الطريقة، ففكّر الأستاذ قليلاً فيما قاله الطالب، ثم أجابه: كلامك صحيح سوف أفكّر في الموضوع، لأن الموضوع جدي، فأمضى الأستاذ خمس سنوات من عمره وأنتج ما يسمى "بالتفكير النقدي" المختلف تماماً عن المنظومة التى وضعها أرسطو "المنطق الصوري"، إلّا أنني ومن مفارقات الموضوع سأبدأ بالمنطق الصوري أولاً لأنني سأستمد منه أساسات وأفكار تهمنا في المنطق والتفكير النقدي.

إن المنطق في جزء منه معقد، ولكن المبادئ الأولية في المنطق هي أمور يسيرة، وإن الجزء المعقد منه لا نحتاجه في العصر الذي نعيش فيه، وما سنتناوله في الفقرات القادمة من المنطق هي الأجزاء البسيطة التي تهمّنا..

سنتكلم بداية عن المنطق الصوري من أجل أن ننقله معنا للمرحلة القادمة.. وسنقسم حديثنا إلى عدة مراحل تتمثل بالتالي:

- في الحياة الطبيعية تصلنا أمور عدة عبر الحواس تسمى في المنطق (الماصدق)
- نضع في مقابل الماصدق أسماءً كاختزال لها في الذهن (تصوّرات)
- ومن هذه الأسماء نكوّن جملاً كانطباعات
- وإذا ما كانت تحتمل هذه الجمل الصواب أو الخطأ تسمى في المنطق (قضية) كقولنا: الشجر مثمر
- وإن القضية تتألف من الموضوع (الشجر)، والمحمول (مثمر)
- حينما نتبنّى جملةً فيها حكمٌ قد يخالفنا الآخر بمدى صوابيته يسمى بالمنطق (ادعاء)، مثلاً: إذا ما ناقشنا أحداً ما بكون الشجر مثمراً.
- وعندما نقوم بالدفاع عن صواب الادعاء بمجموعة جمل تسمى هذه الجمل (المحاجّة)؛ بما أن كذا.. فالشجرة كذا.



وإن القضايا أو الادعاءات التي نحملها قد تكون قضايا كبرى كادعاء لباحث ما بأن الحضارات تزول وتنقرض، وقد يتم إثباته ببحث كبير (كمقدمة ابن خلدون)، أو قد يكون آيديولوجيا معينة، أو خطاب لسياسي...

إننا بمعرفتنا لمصطلحات المنطق هذه (الماصدق، والقضية، والموضوع، والمحمول، والادعاء، والقضية، والمحاجة) نكون قد أمسكنا بأولى أدوات علم المنطق.

فما فعله علماء المنطق هو أنهم رتبوا لنا طريقة "التفكير في التفكير" حتى نطرح القضايا ونحاجج عليها بشكل سليم، ونقيّم القضايا المطروحة علينا ومدى صحة حجاجها.

فمثلاً لنفترض أن شخصاً ما ولد حنفياً أو حنبلياً أو... وتعلّم المنهجية التي يفكِّر بها أهل بيئته ممن يحتذون هذا المذهب، وتعلّم النقاش والرد وفق منهجيتهم في التفكير، وأصبح

يحاجج ويدافع ويناقش وفق هذه المنهجية للدفاع عن هذه القلعة، ولكن "التفكير في التفكير" هو مايدع الإنسان يفكّر كيف بنى قومه هذه القلعة ولماذا بنيت؟ وهل فعلاً لديه معايير ليقيِّم صوابية هذه القلعة؟ فوظيفة التفكير الناقد وعلماء المنطق أن يُقدِروا الإنسان على التفكير بالأسس التي بنيت عليها القلعة، وهل هي صواب أم خطأ، وكيف يمكن تحسينها وتطويرها؟ وكيف يتم اكتشاف ما إذا كانت تحمل خطأً بنيوياً في أساسها؟ فالمنطق يخترق برمجيّات العقل التي دخلت إليه على أنها مسلّمات ويقيّمها، فلا يبقى عقله أسيراً لشيء، ويغدو قابلاً للتفكير بذاته.

إن علم المنطق يمكّننا إذا أحسناه من التفكير بذواتنا، فبدل أن نوكّل إنساناً بأن يفكر عنا ويعطينا الإجابات ويصبح وصياً علينا نصبح قادرين على التفكير بأنفسنا، وإن تمكين الإنسان بأن يفكّر بذاته هو أعظم تحرير له؛ لأن هذا أساس المسؤولية الأخلاقية لدى الإنسان، وأساس المحاسبة أمام الله تعالى.



كيف نقيّم منطقياً أو كيف نتأكد بطريقة عمليّة منظمة من صوابية ما تطرحه عقولنا وما يطرحه الناس؟

سنحاول تفكيك مايُطرَح بطريقة منظمة فيبدء من نقطة الواقع الذي (ما صدق) عليه الناس، ثم سننطلق لمنطقة المصطلحات للتأكد من الاتفاق على المعنى، أو من كوننا فهمنا المصطلحات بحسب المراد منها، فهنا يجب أن نضع تعريفات واضحة للمصطلحات للتأكد من فهمها بشكل علمي.

وحينما يتحول الطرح لادّعاء، ويُدعّم من قبل صاحبه بالحجاج، حينها يتوجب التأكد من صحة الحجاج، وبشكل تفصيلي هناك بعض القضايا التي تجب مراعاتها والتي سنفصِّلها بلغة واقعية من خلال التالي:

1. أولاً: تحديد القضية:

(حكم يحتمل الصواب والخطأ ويشكل أرضية للتنازع)

لنتخيّل سوياً مشهداً من لعبة كرة القدم التي يتوسطها الحَكَم في الملعب (الماصدق)، وإذ بلاعب من اللاعبين يرسل الكرة إلى صاحبه ليضربها برأسه وتدخل المرمى، فيصفّر الحكم قائلاً: هدف صحيح.. إن من جملة الحَكَم هذه التي قالها "هدف صحيح" يبدأ أول المنطق، فالحَكَم استخدم كلمتين كلمة "الهدف" وهي التي تصب بكون الكلام عن الهدف، فالهدف هو (الموضوع) الذي يُتكلم عنه، والكلمة الثانية "صحيح" والتي تفيد بصحة الهدف وهو (المحمول) بتعريف المناطقة، فلدينا مفهومان رُكِّبا على بعضهما فخرج منهما (قضية) أنّ الهدف صحيح، وهذه الجملة تختزل الموضوع المتعلق بقضية التفكير النقدي، بل حتى التفكير المنطقي؛ لأن جميع الحوارات التي تدور حول المنطق تدور بهدف التأكد من الدعاوى التي قد يُختَلف عليها، فسيأتي بعد حُكم الحَكَم من سيختلف معه سواء بحجة وجود تسلل، أو لوجود مشكلة أخرى.. فالحَكَم قام (بادعاء)، وهذا عمق المنطق؛ وجود ادعاء، وكيف نتأكد من أنه صحيح أم خاطئ..

2. ثانياً: تحديد نطاق الادعاء:

(الهدف صحيح أم بعض الأهداف صحيحة، أم كل الأهداف صحيحة، أم لا شيء من الأهداف صحيح، أم بعض الأهداف غير صحيح....هل نطاق الادعاء مهم؟)

إذا ما انتقلنا إلى حوار ثلاثة من المتفرجين في المدرجات في اللعبة نفسها ، سنجد شخصاً يقول: هذا هدف جميل، وشخص آخر بجانبه يقول: إن بعض الأهداف في هذه المباراة جميلة، والثالث يقول: إن كل الأهداف رائعة في هذه اللعبة.. فهل هذه الجمل لها المعنى نفسه، أم أنها مختلفة عن بعضها البعض؟

إن هذا ما يسمونه في المنطق "نطاق الادعاء"، فصاحب القول الثالث تحمَّل ادعاءً ضخماً جداً؛ فأي وجود لمشكلة صغيرة بهدف ما في المباراة سيُفقِد كلامه الصحّة، أما صاحب القول الثاني فقد خفف الحمولة عن نفسه، على غرار الأول الذي حصر نطاقه بهدف واحد فقط.. فالقضية هنا هي مدى نطاق الادعاء الذي يتحمله الشخص المدّعي، وتحديد نطاق الادعاء مسألة في عمق عملية التفكير النقدي، والناس كثيراً ما تلعب في نطاق الادعاء أثناء الحوارات؛ فقد أكتب مقالاً وأقول فيه بعض المسلمين لا يتمتعون بالأخلاق الحميدة، فيأتي شخص ما ويوسع نطاق الادعاء، ويكتب رداً عليّ يقول فيه: هذا الشخص الذي يقول إنّ المسلمين لا يتمتعون بالأخلاق..! أنا لم أقل "المسلمين"، أنا قلت "بعض المسلمين"! لكنّه وسع نطاق الادعاء حتى يُسهِّل مهاجمه الكلام الذي قلته.. فوظيفة التفكير النقدي حمايتنا من هذا النوع اللاأخلاقي في التعامل، فمن المهم جداً أن نحتفظ بنسبة الادعاء الصحيحة للقائل.. وإن عادة كثير من الناس في المناكفات الكلامية أن تعتدي على نطاق الادعاء؛ فقد يقول قائل: إن أمريكا في حالة تراجع اقتصادي، فيأتي شخص آخر يقول أنت قلت أمريكا سوف تنهار، فيُحَمِّل كثير من الناس نطاق الإدعاء أكبر مما يحمل، وهذا لا يعتبر من الرشد في التفكير النقدي.

3. ثالثاً: تحول الادعاء إلى قضية تحتمل الصواب أو الخطأ:

إن الهدف الذي دخل أثناء المباراة سينتقل الحديث عنه للتلفاز، فعادة ما يأتون بثلاثة معلقين أو أكثر ، ويبدأون بالنقاش، فيقول شخص منهم: الهدف هذا ليس صحيحاً، هو تسلل، فيرد عليه الثاني قائلاً: الهدف صحيح مئة بالمئة، أما الثالث فيقول: لست متأكداً، نحن بحاجة تقنية الـ (var). وهذه التقنيّة تقوم على مراجعة القرارات التي يتخذها حَكَم

المباراة باستخدام لقطات الفيديو.. فنشأت بينهم قضية يمكنهم الذهاب بها إلى المحكمة العليا، وهذه القضية هي جوهر المنطق.

فالحَكَم أثار القضية ابتداء في الملعب، ثم انتقلت إلى نطاق ادعاء عند الجمهور، ثم انتقلت إلى المعلقين، ونشأ بينهم حوار حول صحة الهدف من عدمه، فأصبحت قضية للنقاش تحتمل الصدق أو الكذب، والقضية التي تحتمل الصدق أو الكذب هي عباره عن عمق ما يسمى التفكير النقدي كما سنرى لاحقاً.

4. رابعاً: تحديـد المـوضـوع:

(حين يضيع الموضوع يقول من شاء ما شاء.. هل الموضوع هو الهدف الثاني في المباراة أم هدف من مباريات سابقة أم حتى هدف لفريق آخر.. وما هو الموضوع؟)

ننتقل إلى مشهد في الشارع حيث يخرج شخص ما إلى الخارج، فيرى شخصين يتضاربان ويتشادّان حول صحة الهدف في اللعبة، فيسأل هذا الشخص عن السبب أو الموضوع الذي يتم الشجار من أجله.. إن تحديد الموضوع أمر في غاية الأهمية، وفي واقعنا كثير من النقاشات تدور ونحن لا نعرف ما الموضوع، فالموضوع في المثال أعلاه هو الهدف والحُكم عليه، وكذلك لو قلنا أمريكا سوف تنهار فالموضوع هنا هو أمريكا، والانهيار نُسِبَ إليها، كذلك لو قلنا العالم الاسلامي الآن يشهد صحوة؛ فالموضوع هو العالم الإسلامي والصحوة نُسبت إليه، فبمعرفتنا للموضوع نكون قد أمسكنا الثور من قرنيه كما يقال، أي أننا بدأنا نعرف عن ماذا يدور الكلام، ففي بعض الأحيان يأتي شخص ما يتكلم في عشرة مواضيع، لا تعرف ما هو الموضوع الذي كان يتكلم عنه، وكلما حاولنا الإمساك بطرف الموضوع انتقل لموضوع آخر، فبعض الناس تتلاعب بالموضوع كما تتلاعب بنطاق الادعاء.

فالتفكير النقدي والمنطق يعتنيان جداً في تحديد الموضوع، وعلى أساس فهمه وتحديده تُرى النسبة بين الموضوع وماحُمِّل عليه، وهذا يسمى الموضوع والمحمول، والقضايا الحملية كلها من هذه النوعيات؛ ففيها موضوع حملناه على حُكم من الأحكام.

5. خامساً: الاستنباط وأهمية التعريف في محاجّات إثبات الادعاء:

(بما أن القانون يقول إنه إذا عبرت الكرة خط المرمى بكُلّيَّتِها فهي هدف، وبما أن تقنية الـ(var) متفق عليها وهي تقول إنها عبرت بكُليّتها فالنتيجة أن دخول الكرة أحدث هدفاً صحيحاً)

لنفترض أن قضية الهدف لم تتوقف عند هذا الحد، وأنّ الفريق الثاني لم يقبل بالنتيجة، والهدف هذا هو هدف حاسم لكأس العالم، فاجتمعت لجنه التظلُّم، وقال قائلهم بأنّ الهدف يُحتسب إذا ما قد عبَرت الكرة بكلّيتها خط المرمى، وحسب تقنيه الـ (var) قد عبرت خط المرمى فالهدف صحيح.. فهذا النوع من العمل يسمونه الاستنباط في سبيل المحاجة وإثبات صحة الادعاء، وفي داخل الاستنباط قضية هامة جداً ودقيقة جداً وهي التعريف، فالقائل بالمثال استخدم تعريفاً محدداً: "الكرة إذا عبرت بكلّيتها خط المرمى مع صحة العوامل الأخرى بعدم وجود تسلل أو نحوه، وأكدت تقنية الـ var ذلك فنحتسبه هدفاً صحيحاً"، فقُدِّم تعريف لقضية "صحة الهدف" المتفق عليه بين الناس، وتم اللجوء إليه من أجل حسم الخلاف الموجود بينهم، فيعتبر التعريف من أهم قضايا المنطق، وبوجوده نستطيع الإحاطة بالقضية والتحاور حولها، ولو قُدمت تعريفات غامضة للأشياء لافتقرنا لشيء نحتكم إليه؛ فعندها كل شخص سيقول ما يريد بالطريقة التي يريد، ويستطيع أنّ يسرح ذهاباً وعودة



دون ضبطٍ للكلام بمعيارٍ محدد، فعلى افتراض عدم وجود تعريف واضح للهدف، فسيقول قائل بعبور نصف الكرة للمرمى بأن الهدف صحيح، وآخر بعبور ربعها.. فينتج لدينا تعريفات متضاربة، ولذلك يقال لا مشاحَّة في الاصطلاح، فمعرفتنا الجيدة بالقضية المطروحة وفهمها الدقيق يوصلنا للتفاهم حول النطاق المطروح..

وبعد أن أدركنا أهمية التعريف باستنباط الأحكام، يبقى السؤال كيف نصل للتعريف؟، وماهو التعريف الأنسب لشيء ما؟..

إن التعريف بأصله هو إزالة الغموض عن الألفاظ، فلو قلتُ مثلاً كلمة "حنكش" واستمريت بالحديث عنها لساعات دون أن أُعرِّفَها.. فغالباً لن يفهم المستمع ما أريد ما لم أقم بإزالة الغموض عن الكلمة أو الفكرة، وعلى سبيل المثال كثيراً ما يمرّ معنا لدى قراءتنا لبعض الكتب عبارة "الإنسان حيوان ناطق"، ونجد أن معظم الناس يحفظونها ولا يعرفون شيئاً عن الموضوع، فقد يقولها شخص ما.. ويأتي شخص آخر يجادله فيقول: إن الإنسان ليس بحيوان، فالإنسان كائن مكرَّم.. فبمثل هذا الحوار يتحدث كِلا الشخصين بموضوعين مختلفين تماماً، فتعريف الإنسان بكونه حيوان ناطق هو تعريف متفق عليه في المنطق، والفرضية المنطقية الموجودة وراء هذا الموضوع بأنّنا بإمكاننا في علم المنطق وضع كل شيء نريد تعريفه في إطار جنس معين ونوع معين، ثم نفصله بفاصل ما عن بقية الأشياء الموجودة، فعندما أقول الإنسان حيوان ناطق؛ أكون قد ستخدمت أداة أنّ الإنسان كائن من جنس الحيوانات، لكن داخل هذا الجنس هناك أنواع متعددة..، وبقولي أنّه ناطق – أي أنه يمتلك العقل - أكون قد فصلته عنهم، فهو مختلف عن الزرافة وعن الفيل وعن الأسد..، وعن البقية الموجودين بأنه ناطق، إذاً هو يدخل في نوع ويدخل في جنس ونفصله عن بقيه المجموعة التي ينتمي لها بفاصل واضح بين هذه الأشياء، وهذا كان التصوّر الأرسطي القديم الذي نُقِد، إلَّا أنه لا زال كثير من الناس يتكلمون عنه حينما يُدَرِّسونَ المنطق بشكل من الأشكال..

6. سادساً: التعريف:

(الأول: كيف عرفت أن هذا هدف؟ الثاني: وفق التعريف المتفق عليه هذا هدف)

للتعريف أنواع عدة يجدر بنا أن نذكر بعض منها للضرورة في هذا المقام:

- التعريف القاموسي:

وهو الشرح الذي يقدمه القاموس لمصطلح ما يراد تعريفه، فكلمة "صحيح" يخرج من القاموس أن مرادفها اللفظي كلمة "صواب"، وخلال تعميق البحث أكثر قد نجد أنّها تعني "مقبولاً" أو "حسناً"، فإذا قام المعنى القاموسي بإيضاح جيّد للمصطلح المراد فهمه نكون قد عرّفنا به، ونسميه تعريفاً قاموسياً.

- التعريف الإجرائي:

كأن يأتي شارح للإجراءات التي توضح لنا المصطلح؛ فيَشرَح على سبيل المثال الإجراءات التي تجعل من الهدف هدفاً صحيحاً، فيقول: إذا عَبَرَت الكرة المرمى بكلّيتها، وشوهد ذلك بالجهاز الإلكتروني الموجود، سنعتبر الهدف صحيحاً، فنكون قد وصلنا لتعريف "الهدف الصحيح" من خلال شرح إجراءاته.

- التعريف بالتقسيم:

والمقصود به التعريف من خلال ذكر أقسام الشيء؛ كالشِعر الذي يذكر في اللغة العربية بقصد تعريف الكلام، القائل:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم   واسم وفعل ثمّ حرف الكلم"

فتم بذلك تعريف الكلام بأقسامه كونه اسم وفعل وحرف.

- التعريف بالتمثيل:

بأن نعرّف الشيء بالتمثيل عليه بأمثلة من شأنها توضيح المعنى وإزالة الغموض عنه، كأن أعرّف الإنسان لسائل من خلال التمثيل بفاطمة وأحمد وزيد.. والكثير من الأنواع الأخرى للتعريف التي لايسع المقام ذكرها..

فلدينا إذاً مستويات من التعريف، ووظيفة التعريف الأساسية تكمن في إزالة الغموض عن الألفاظ وإلا ضاع الحوار والنتائج، ولذلك نجد في الكتب العلمية عادة قائمة بالمفردات وتعريف الكاتب لها، تحسّباً لئلّا يحاسَب على مالم يقصده حينما استخدم تلك المصطلحات.

وإلى هنا نكون قد أتممنا مقدمة ما يسمى "التفكير النقدي" واقتبسنا تلك المقدمة من المنطق الصوري الأرسطي، وقمنا بشرحها بطريقة مبسطة جداً وبأمثلة واقعية، لتبقى في ذهن المتعلم ليكون قادراً على استدعائها بسهولة ويسر، فمن الحَكَم في الملعب، إلى الجمهور داخل الملعب، إلى الجالسين على طاولة الحوار، إلى الشجار خارج الملعب إلى التظلُّم.. فكل من الأمثلة التي وردت توضح قضية من القضايا التي نحتاجها في التعامل مع التفكير النقدي..

2. التفكير النقدي

مررنا في القسم السابق على بعض أسس المنطق الصوري لأرسطو التي سوف نستفيد منها في كلامنا عن التفكير النقدي.. وإننا نستذكر هنا قصة الشاب الذي تَحَفَّظَ على طريقة أرسطو انطلاقاً من أننا لا نتكلم بهذه الطريقة (بما أنّ كذا.. إذاً كذا.. وننتهي بالنتائج)، فكلامنا عادة هو سرد عام يستمع الآخر إليه ويحلله بطريقته، ونسمي هذا التحليل والمحاكاة لطريقة البشر الطبيعية التي يتكلمون بها "بالتفكير النقدي"، فبعيداً عن كل التعقيدات سندخل للتفكير النقدي انطلاقاً من سؤال:

كيف نستطيع القيام بمحاكمة للمقالات أو الأطروحات المُتَكَلَّمة بطريقة الناس الطبيعية، بحيث تكون تلك المحاكمة موضوعية ومنصفة للكاتب ولعقليّة القارئ أيضاً؟

في هذا الموضوع سنقف أولاً على كتاب مهم جداً وهو كتاب "التفكير النقدي" للدكتور الشاب عمر ياسين، وهو كتاب ننصح الشباب بقراءته، مع التنويه بأن قراءة هذا النوع من الكتب يحتاج جهداً كبيراً؛ وذلك لطبيعة المادة التي يتناولها، فطبيعة مادته لا تحتمل طرحاً مبسطاً بأكثر مما جاء في الكتاب.. ومع جميع التحديات التي ممكن أن تعترض القارئ فإن العائد من كتاب كهذا عائد كبير جداً، كما أنه مما يجدر قوله لقارئ الكتاب أو دارسه إنه من المهم جداً التَمكّن من الأمثلة التي طرحها المؤلّف، حتى تصبح جزءاً من التكوين العقلي للقارئ، حيث إن كثيراً من القراء ينتقلون لتطبيقات خارجية ليزيدون كفاءتهم قبل إتقان المادة التأسيسية، مما يُحدِث خلل في الفهم والتطبيق.

ومن صور حرص العلماء على فهم الكتب قصة لطيفة لابن سينا، يقول فيها: إنه قرأ أحد كتب أرسطو بموضوع ما وراء الطبيعة أربعين مرة ليفهمه، حتى أصبح يتذكر كل جزئيات الكتاب دون أن يستطع فهم المقصود منه أو الإمساك بتلابيبه! فيأس من الكتاب تماماً.. وفي أحد الأيام مرّ على أحد الباعة فأقنعه بشراء كتاب بثمن بخس، في نفس موضع الكتاب السابق فردّه في البداية معتقداً أنه لا فائدة له منه، فبعد أن أخذه لإصرار البائع فإذ بالكتاب يشرح المادة التي هو يحفظها عن ظهر قلب، ولشدة سعادته لفهمه لذاك الكتاب أخيراً تصدّق باليوم الثاني باليسير شكراً لله.

فالمغزى من هذه القصة ضرورة تمكّن الإنسان من بعض الكتب القيّمة التي تغنينا أحياناً عن كتب كثيرة جداً، وهذا شأن كتاب الدكتور عمرو ياسين؛ فالتمكن من الجزئيات الموجودة في الكتاب سيسعفنا بالنافع للعمر كله، فعلى القارئ أن يتمكن من الأمثلة الموجودة، ويحاول لأكثر من مرة في الأمثلة ذاتها إلى أن يصبح الأمر بالنسبة له طبيعياً وراسخاً، أي أن يغدو قادراً على التفكير بهذه الطريقة، حتى لو لم يمسك ورقة وقلماً، وهذا ما يُسمى (Second Nature)، أي يكتسب طبيعة ثانية تصاحبه في الحياة، فيغدو الموضوع تلقائياً؛ حادثاً من غير تكلّف.

أمور هامة في التفكير النقدي قبل البدء

- التفكير النقدي ليس موضوعه المناظرات وهزيمة الآخرين.
- التفكير النقدي وسيلة لمعايرة المحاجّة كمقدمة لمعرفة أوجه قصورها.
- التفكير النقدي هو وسيلة لإنصاف المخالفين وإعطائهم ميزة الشك لصالحهم.

1. أولاً- تناول الادعاء في التفكير الناقد

طرح الموضوع:

لو طُلِبَ من شخص كتابة مقال عن أضرار التدخين، فمن الطبيعي أن يبدأ برأيه الذي سيدافع عنه: (التدخين ضار ويجب تركه)، وهذه العبارة تتضمن الموضوع والمحمول، ثم يسوق البراهين الداعمة للادعاء عن مضار التدخين ما وسعه الأمر، ثم يختم بالنتيجة مثلاً (التدخين ضار بالصحة والمال فاتركوه).. هكذا تعلمنا الإنشاء في المدارس.. فالباحث يبحث عن القضية أو الادعاء ثم البراهين وصدقيتها ودرجة ترابطها ثم النتيجة.

محامي الشيطان:

لطرح أكثر احترافاً هناك مرحلة يبحث فيها الطارح لموضوع ما عن ما هو أكثر، فيتوقع الاعتراضات التي يمكن أن يثيرها مؤيدوا التدخين ويرد عليها، فجزء من الحجاج الناجح هو في تفنيد ما يمكن ان يثيره الطرف المقابل. وهكذا تتكامل الحجة.



2. ثانياً- أنواع القضايا والسياقات:

القضايا التي يتناولها المنطق تأتي بأشكال مختلفة إما بسيطة أو مركبة:

- **القضايا البسيطة:**

مثال: الأرض كروية/ التدخين ضار.

● القضايا المركبة:

تتنوع أشكال القضايا المركبة التي يعالجها المنطق، وقد يتم التنازع على قضية قائمة أو مستقبلية أو حتى من الماضي أو قياسات أو نظريات أو ما ورائيات.. كقولنا (إذا درسنا سننجح.. الحرب إما ربح أو خسارة... السفر متعة وفائدة... إذا جاء الشتاء وزرعنا فسنحصد ونبيع ونخزّن.. خلال عقد من الزمن ستعمل جميع السيارات على الكهرباء...)، فهذا الكلام كله داخل في التفكير النقدي، لكونه يتضمّن القضية التي حمّلنا عليها حكماً ما..

إن الادعاء في المنطق حينما يتكوَّن من جملتين معطوفتين على بعضهما البعض يشترط صحة كلاهما حتى يُعتبر الطرح صحيحاً منطقياً؛ فما دام هناك ادعاء مجموع في جملة واحدة، فعلينا أن نبحث عن صحة الأمرين سوياً..

فمثلاً:

- الحرب إما ربح أو خسارة (قضيتان في ادعاء واحد وصحة إحداهما تنفي صحة الأخرى).
- السفر متعة وفائدة (قضيتان في ادعاء واحد، ويشترط أن تصح القضيتان حتى يصح الادعاء).
- إذا جاء الشتاء زرعنا وحصدنا وخزّنّا وبعنا (عدد من القضايا في ادعاء واحد، فصحّة الادعاء الواحد يستلزم صحتها مجتمعة).

في بعض الأحيان قد تكون الجمل أكثر تعقيداً من ذلك، كأن يقال: "المباريات تحتاج للتقويم، لكن ذلك يحتاج الى جهد ووقت"، فلدينا في هذه القضية ثلاثة أمور مجتمعة في طرح واحد؛ "إن المباراة تحتاج إلى تقويم، والتقويم يحتاج إلى جهد، ويحتاج إلى وقت"، ولصحة القضية منطقياً يجب أن تكون العبارة صحيحة بأجزائها الثلاثة، فإن تعدد القضايا التي تحتمل الجمع بينها بالطرح الواحد يُشترط لصحّتها صحة جميع القضايا.

أهمية السياق:

وهنا يجدر التنويه.. بأن المنطق النقدي يفرّق ويميز بحساسية عالية بين العبارات التي تقبل الجمع، والعبارات التي لا تقبل الجمع، ومن هنا تأتي أهمية السياق، إذ من المهم جداً حينما نتعاطى مع القضايا أن ننظر للسياقات التي وردت فيها، فمثلاً:

- لنفترض أنك ذهبت إلى مطعم، و قلت للمسؤول هناك أريد لائحة الطعام، فقال لك إمّا أن تطلب طبق اللحم أو السمك أو الدجاج.. فهنا لايقصد بـ (أو) التخيير، لكن إذا كنت في الطائرة، وجاءت المضيفة، فقالت يوجد لدينا دجاج أو سمك فهنا أنت في خانة الاختيار.
- أن تطلب سمك أو دجاج أو لحم (في المطعم) لا تعني عدم إمكان طلبها جميعاً.
- أما أن تطلب سمك أو دجاج أو لحم (في الطائرة)، فهذا يعني أن لك خياراً واحداً.
- ففي هذين المثالين توحّد شكل الادعاء، إنما اختلف مضمونه لاختلاف السياق الذي ولد فيه، وعندما يغيب السياق الذي ولد فيه الحديث سيؤثر غيابه على الفهم بشكل كبير جداً. فحينما يسوق أحدهم نصاً مقتطعاً فنحن بحاجة للعودة لسياقه الذي جاء به، كأسباب النزول، والسياق الاقتصادي، وسياق المخاطَبين، والحدث الذي جرى من قبل واستدعى هذا القول.. وإن كل تغيير في هذه السياقات الواردة يمكن أن يؤدي لاختلافات في معاني النص ومراداته.

3. ثالثاً- التفكير النقدي حارس على بوابة العقل:

قدم الدكتور عمرو ياسين تعريفاً جميلاً للتفكير الناقد، فوصفه بأنه "حارس على بوابة العقل"، فمن بوابة العقل لدينا نُخرِج أفكاراً للناس ونستقبل أفكاراً منهم. وللتفكير النقدي كحارس للعقل أدوار عدة يقوم بها منها:

تقويم قيمة الادعاءات:

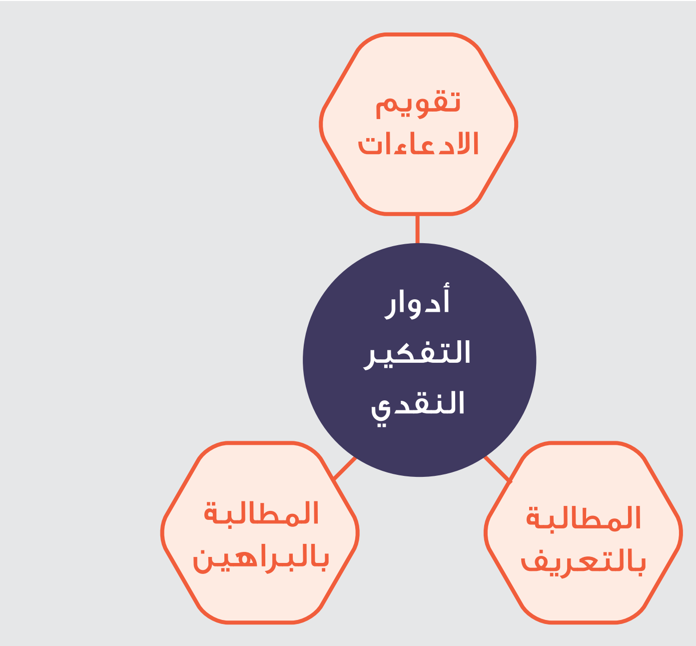
إن أول مايقوم به التفكير النقدي هو تقويم ادعاء ما إن كان بحاجة للتفكير أم لا ، فكثير من القضايا تمر على الإنسان ولا يلقي لها اهتماماً، في حين أن هناك قضايا صغيرة يقف عندها، وذلك وفقاً لفرز العقل لها.. فهذا الحارس منتبه انتباه شديداً جداً لقيمة الأشياء التي تقال له، سواء كانت من عنده للآخرين أو من عند الآخرين له.

مطالبة المفاهيم بالتعريف:

وهذا ماتحدثنا عنه سابقاً، فالمنطق لا يسمح للعقل بأن يتعامل مع المفاهيم الغامضة، فهو يطالب دائماً بتعريفات لإزالة الغموض عن الألفاظ.

مطالبة الادعاءات بالبراهين:

إن التفكير النقدي يقوِّم صحة الادعاءات بتقويمه لصحة البراهين المتعلقة بها، فلا يُسمح للعقل بأن يأخذ القضايا بطريقة ساذجة لمجرد سماعه للكلام.. بل يطالب دوماً ببراهين تثبت صحة الادعاء، فمثلاً إذا أتيت بادعاء فقلت "إنّ أمريكا سوف تسقط في عشر سنين"، أو قلت "إنّ فلسطين سوف تتحرر في عام (2023)" ماهو البرهان على هذا الموضوع؟..



إن أمّة لا تحسن بناء العقلية النقدية، بحيث تستطيع القيام بهذه الأدوار الثلاثة، هي عادة ما تكون أمّة متخلفة.

كيف يتعامل التفكير النقدي مع الأرقام؟

حينما تساق الإحصائيات والأرقام؛ فلا بد بالنسبة للتفكير النقدي معرفة خلفية هذه الأرقام والإحصائيات ودلالاتها!

فعندما يقول شخص ما (تقدمت للعمل والحمد لله كنت الأول وفزت بالوظيفة)، فللوهلة الأولى يبدو الأمر رائعاً، ولكن لو علمنا أنه المتقدم الوحيد فالوضع سيختلف..

عندما يكون في الادعاء رقم مثل (منتجنا هو الخامس على مستوى العالم)، فنحن نحتاج إلى أن نطرح أسئلة عن خلفية الرقم لنقارن قيمة الادعاء، فصاحب الادعاء الأول ادعاؤه صحيح، ولكن قيمة الفوز بوظيفة هو الوحيد المتقدم لها ستختلف فيما لو كان التنافس

مع عشر متنافسين، والادعاء الثاني أيضاً مرتبط بعدد الشركات التي تقدم المنتج ذاته، فالخامس على مئة شركة شيء ذو قيمة، ولكن الخامس على ست شركات يعني أنه يأتي قبل الأخير بدرجة.. فقيمة الادعاء تختلف عن صحته، فالصحة موجودة في الحالتين، ولكن القيمة تعتمد على الخلفيات الرقمية التي نقارن الرقم بها.

4. رابعاً- أمثلة ومعالجات:

سنفصّل قبل ختام هذا المبحث من خلال مثال تدريبي بسيط لنوضح فكرة تقويم الادعاء وكيفية معالجة التفكير النقدي للقضايا:

الادعاء: "هناك من يقول إنّ خمسة من آخر سبعة رؤساء جمهورية في أمريكا حتى عهد الرئيس أوباما كانوا ممن يستخدمون اليد اليسرى (عسراويين)"

سؤال الصحة: للتأكد أن المعلومة صحيحة ومعروفة.

سؤال القيمة: يبحث إن كان الطرح هو مما يحتاج إلى بحث، وكيف سنفحصه وكيف يعمل التفكير النقدي؟

السؤال عن قيمة هذه المعلومة ما هي؟ وكيف نستطيع أن نضع ميزاناً لهذه المعلومة؟ وهل نأخذها بجدية أم لا ؟ وهل تعني شيئاً أم لا ؟ هذا يتحقق من خلال الخطوات التالية:

الخطوة الأولى التحقق من الأرقام:

يجب أن نرصد كمرحلة أولى النسبة.. والنسبة هنا هي خمسة رؤساء من سبعة يعني هناك احتمال بنسبة 70% تقريباً أن يأتي رئيس أعسر للحكم، وهذا الرقم كبير جداً، يعني لو تنافس أمامنا أشخاص وتبين أنّ هناك شخصاً أعسراً ففرصته بالنسبة للباقين عالية جداً.

أما الخطوة الثانية:

فهي رصد الخلفية الاجتماعية لمنطقة الإحصاء عموماً، أي إن كانت نسبة الناس الذين يكتبون باليد اليسرى في أمريكا 70% فلا يبقى دلالة للطرح، أما إذا تبين أن نسبتهم 10% فدلالة الموضوع قائمة، والنسبة ليست بيسيرة.

أما الخطوة الثالثة:

فسنقوم بإحصائية أوسع في خلفية الأشخاص المعنيين، أي سنرصد بقية الرؤساء في أمريكا قبل هؤلاء السبعة، فيتبين أن هناك 37 رئيساً أمريكياً، ولكن كم منهم كان يستخدم يده اليسرى؟، فتبين أنهم ثلاثة فقط أي 8%، مما يعني أن النسبة قريبة جداً من النسبة العامة في المجتمع الأمريكي، وبالتالي لا يوجد فرق.. لكن بالنسبة للسبعة الآخرين فالنسبة عالية جداً، إذاً فالمعلومة أصبح لها قيمة!

فيجب علينا أن نجد لها تفسيراً، فما هو التفسير المنطقي لهذا الطرح؟

إن وظيفة المفكر النقدي أن يرى أفضل تفسير محتمل لهذه الظاهرة، وهنالك عدة تفسيرات قُدّمت أو يمكن أن تقدّم في ذلك:

1. **التفسير الأول:** إن التفكير الحدسي عند الأشخاص الذين يستخدمون يدهم اليسرى أعلى من الأشخاص الذين يستخدمون يدهم اليمنى، والحدسي هو من يتّخذ القرارات دون احتياج لإمساك ورقة أو قلم، أو تفكير، فتنتج قراراته عن الحدس، كالتاجر الذي لديه مقدرة على معرفة الصفقات الجيدة دون برهان، فيقال إن لديه شبكة عقلية من الخلايا داخل ذهنه تسمح له أن يتخذ قراراً أسرع من بقية النّاس، فيقال إنّ الأشخاص الذين يستخدمون يدهم اليسرى عندهم هذه الشبكة قوية.
2. **التفسير الثاني:** إنّ بعض الدراسات النفسية تقول بأن الناس الذين يستخدمون يدهم اليسرى شخصياتهم مهيمنة، مما يعني أنهم يحبون السيطرة، وهذا مناسب جداً للعمل السياسي.
3. **التفسير الثالث:** إنّ النّاس الذين يستخدمون يدهم اليسرى عادة يتمركزون في مجالات المحاماة والتمثيل والهندسة.
4. **التفسير الرابع:** إنّ الشخص الأعسر لديه قدرة خطابية أعلى من الشخص الأيمن، وهذا ينفع كاحتمال لأنّ السياسي هو خطيب جيد، وبالتالي يستطيع إقناع الجماهير.
5. **التفسير الخامس:** إن بعض النّاس العُسْر يتعرضون منذ صغرهم لضغوط من أجل أن يستخدموا يدهم اليمنى، فتنشأ عندهم شخصية عنيدة تستطيع أن تصمد في وجه مشاكل الحياة.

فأصبح لدينا خمسة احتمالات، بعد أن حسمنا أن هذه الملاحظات هامة، ويبقى السؤال: أيّ تلك الاحتمالات هو الأرجح؟ وعلى افتراض أنه تم ترجيح احتمالين، احتمال أنّ الأشخاص العُسْر يتعرضون لضغوط وهم صغار من أجل يكتبوا باليد اليمنى. فتنشأ عندهم شخصية قادرة على المقاومة، واحتمال المهن، وقد تم الرد على الاحتمال الأول بأن عملية الضغط على الأطفال من أجل استخدام اليد اليمنى انتهت في أمريكا في العام (1960)، وبعض الرؤساء كأوباما أصغر من هذا السن، فكيف فاز وهو أعسر؟، إذاً نزيل هذا الاحتمال.

وأما الاحتمال الثاني فإن ثلاثة من هؤلاء السبعة هم محامون، مما يعني أن نسبة 42% يناسبون فكرة المهن، وإذا اتضح لنا أن نسبة المحامين من الناس العُسْر 40%، فالمعلومة أصبحت أكثر قوة لترجيح فرصة المحامي الرئاسية.. فهنا قمنا بما يسمى المفاضلة بين التفسيرات، وهذا نوع من أنواع التفكير النقدي.

إذاً من أوائل العمليات الرئيسية في التفكير الناقد، عملية "تقويم الادعاءات" التي تتم على خطوات، أولها تقويم الادعاء من حيث الأهمية؛ فإننا لن نقف عند كل ادعاء ونحاول تحليله مالم نتأكد من أهميته، ومن ثم إذا ما تأكدنا من أهميّته نشتغل على الادعاء بما يسمى التفكير النقدي، فنبحث عن تفسيرات للادعاء، ومن ثم نرجّح - بناء على معايير معينة - تفسيراً واحداً هو الغالب من التفسيرات.

5. خامساً: أهمية التفكير النقدي في تحطيم الأصنام

مما يهم استحضاره عند الحديث عن أهمية التفكير النقدي في حياتنا الأصنام التي تعترضنا في الحياة التي نحتاج في سبيل تحطيمها والتخلّص منها للتفكير النقدي، وممن كتب عن هذه الأصنام "فرانسيس بيكون" (Francis Bacon) الذي كتب كتاباً هاماً في المنهج التجريبي أسماه (الأورجانون الجديد) أو (المنهج الجديد)، ويخبرنا بيكون في كتابه أن الإنسان يعاني بُنيويّاً من أربعة تحديات يسمّيها أصنام العقل؛ لأن الإنسان إذا لم يتحدّاها ستحجبه عن التفكير السليم، في حين تترجم في الكتب بأوهام العقل الأربعة، وهي:

أولاً: صنم القبيلة: بحسب تسميته عند بيكون، وسنسميها نحن (البرمجة الأولى)، وهي ما تلقّنه لنا الأسرة ومحاضن التربية من تصورات، التي تصبح مع الوقت مسلّمات

نستقبل بها العالم الخارجي، ونحاكم إليها الأشياء دون أن نضعها ذاتها موضع المسائلة، وقد يتم إضافة ما تم نقله من إيديولوجيات ومذاهب كبرمجة ثانية فتتحول لتصبح كأداة للتفكير ولا تقبل أن تتحول لموضوع للتفكير.

ثانياً: أصنام الكهف: وسنطلق عليها (كاميرا العقل)، إن الأجهزة العصبية متفاوتة بين الناس؛ سواء في جودة التلقي، أو في ردود الأفعال، فالموروثات الجينية تتفاوت بين شخص وآخر، وهذا يؤثّر في أحكامه.

ثالثاً: أصنام السوق: وسنطلق عليها (التفاعل مع المحيط)، فالمحيط البشري يشحننا بالعواطف، وقد يوجه ردود أفعالنا العاطفية في الحب والبغض، لاسيما في القضايا المحمّلة بالعواطف كالحروب والخصومات، فأمثال تلك القضايا قد يغيب معها العقل.

رابعاً: أصنام المسرح: وسنطلق عليها (الأفكار المحصنة من السؤال)، فعلى مسرح حياتنا يحاول المخرجون أن يركزوا انتباهنا على أشياء ويحجبوا عنا أشياء، والأفكار التي لا يريدون منا نقاشها يسيّجونها بالحصانة الموهومة (التخويف والترهيب)، فيصبح الاقتراب منها غير متَخَيَّل وكأنها فوق المساءلة.

والتفكير النقدي هو أداتنا للتقليل من آثار تلك الأوهام والأصنام من خلال:

كشف بنية المحاجة/ كشف الفرضيات المختفية/ التأكد من حضور المحاجة المضادة

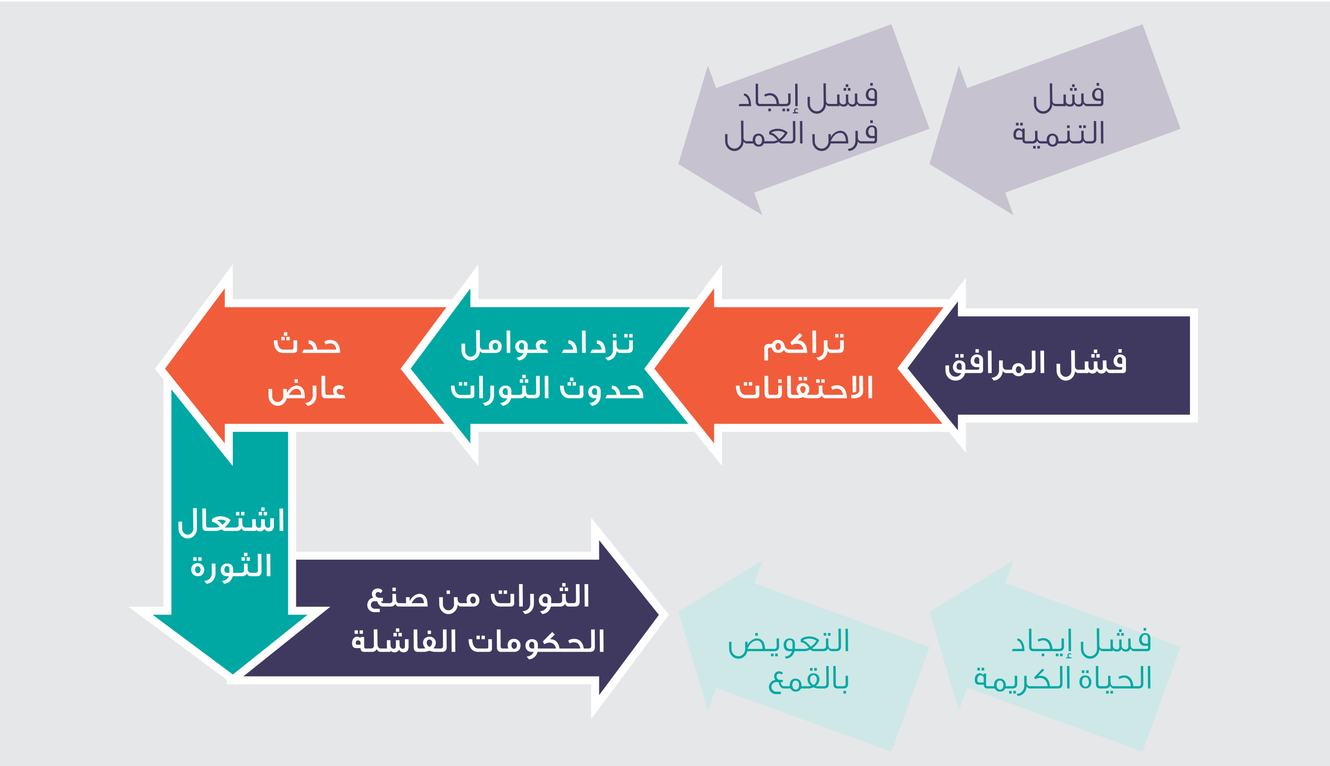
6. سادساً- تقويم المحاجة:

المحاجة	النتيجة	التفسير	الفرضيات المضمرة	درجة اعتبار الحجة المضادة
هي بناء منطقي من المقدمات التي تفضي للنتيجة	هي ما نسعى لإثباته	هو يساق للبيان لا للإثبات.	ما يختفي خلف المحاجة من مقولات.	

<u>مثال:</u> الثورات - بمعنى خروج الناس لإسقاط الحكومات - هي من صنع الحكومات الفاشلة؛ فحين تفشل الحكومة في التنمية، وتفشل في توفير فرص العمل، وتفشل في بناء المرافق، وتفشل في توفير حدود العيش الكريم، وتعوض الفشل بأدوات القمع، تتراكم الاحتقانات، وتزداد عوامل حدوث الثورة، ومع أي حدث عارض تندلع شرارة الثورات. فالثورات بامتياز هي من صنع الحكومات الفاشلة.

بنية المحاجة هنا على الشكل التالي:

فبنية المحاجّة تساعدنا على فهم طريقة الاستدلال، وتمكننا من إدراك الفراغات بين المقدمات إن وجدت.



التفسير:

لننظر إلى عبارة (الثورة بمعنى خروج الناس لإسقاط الحكومات)، في المحاجة سنجد أنها تفسير لكلمة ثورة، وزوالها لا يؤثر في المحاجة.

الفرضيات المضمرة:

سنجد أن خلف كل الأسباب فرضية اعتبرها الكاتب مسلَّمة؛ وهي أن الحكومات هي التي تتخذ القرارات وتضع السياسات لكل المجالات التنموية والأمنية، وهي هنا فرضية صحيحة.. ولكن لو نظرت الى محاجّة من جنس آخر كقول (اليوم إجازة، ونحتاج لبعض الراحة، وأنا اشتريت تذكرتين إلى السينما حتى نستمتع بالمشاهدة)، فالفرضية من شراء التذكرتين أن الشخص الآخر وقته فارغ اليوم، وأنه يحتاج إلى الراحة، وأنه لا مانع عنده أن يشتري أحد عنه التذكرة، وأنه يحب السينما، كلها فرضيات قد تصح أو لا تصح.

المحاجة المضادة:

يمكن أن تبني المحاجة المضادّة إما على أخطاء في بنية المحاجة، أو على أفكار مضمرة في بنية المحاجة لم يقلها صاحبها، وإن من كمال المحاجة أن يقوم مقدم المحاجة بوضع اعتبارات الطرف الآخر، ويعرض سبب عدم اعتبارها عنده.

في أغلب الأحوال عندما نواجه ادعاء ما -سواء عند قراءة أحد الكتب، أو سماع محاضرة ما- يكون صاحب الادعاء غير موجود، وبالتالي هناك فارق كبير بين وجود صاحب القضية الذي يدافع عن قضيّته وعدم وجوده، فوجود صاحب الادعاء يسهّل علينا السؤال عن التعريفات، والسؤال عن الفجوات داخل الحجاج الموجودة، حتى إننا نستطيع أن نستوضح منه مقصد ما التبس علينا فهمه، ولكن بغياب صاحب الادعاء هناك قابلية ما للظلم، بمعنى أننا قد نفترض أشياء على لسانه، وقد نحمّله ما لا يحتمل، وبالتالي فإن من وظيفة التفكير النّقدي تنقيح الافتراضات التي تأتي على غير لسان صاحبها..





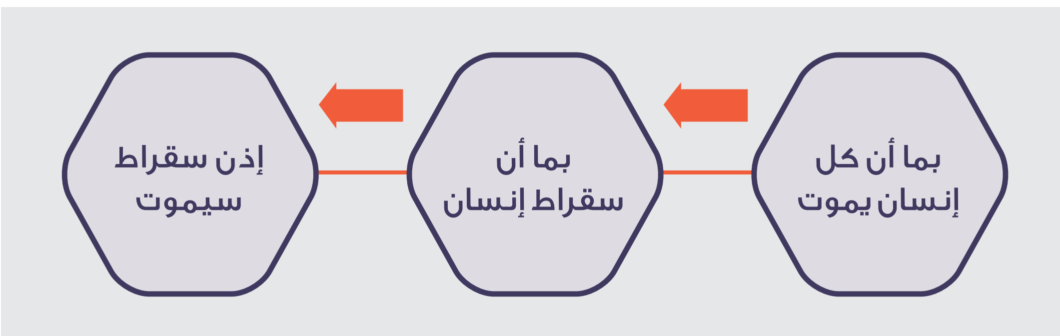
7. سابعاً- الاستنباط والاستقراء

الاستنباط

كثيراً ما سيستمع المتعلم أو القارئ في رحلته إلى مصطلحي "الاستقراء والاستنباط" ويحتاج أن يتعرف لهاتين القضيتين ويدرك الفرق بينهما..

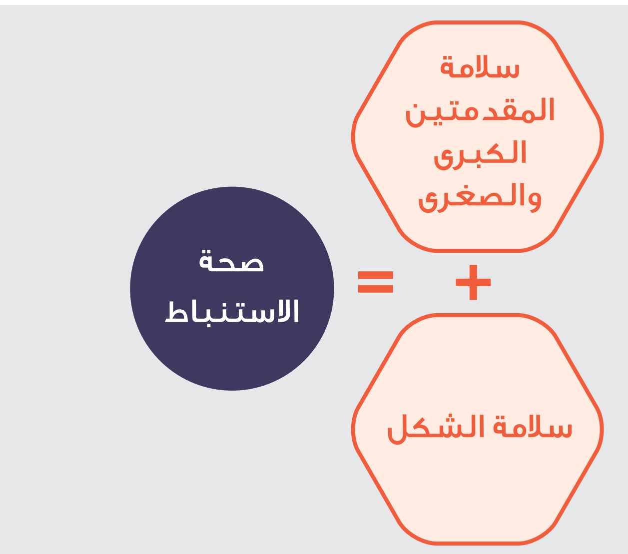
إن التفكير الاستنباطي يبدأ عادة بمقدمة كبيرة يعتبرها مسلّمة؛ أي قضية واضحة المعالم وينطلق منها لقضية أصغر فيضعها تحت العنوان الكبير ويخلص منهما لنتيجة..

انظر لتسلسل المحاجة القصيرة التالية:



فهناك مقدمة كبرى مقبولة (كل الناس تموت)، وهناك مقدمة صغرى (سقراط إنسان)، فالنتيجة تبدو منطقية وحتمية (أن سقراط سيموت). فالحكم بموت سقراط حتمي إذا صحت المقدمتان الكبرى والصغرى، وذلك هو الاستنباط.

وإن بنية المعارف في العصور الوسطى كانت تقوم جوهرياً على فكرة الاستنباط، فمثلاً: فكرة تصوّر الكون في شكل دائري في العصور الوسطى انبنت على تصور أن الشكل الدائري هو أكمل الاشكال، والكامل هو (الله) لا يخلق إلا كاملاً؛ وهو الكون، فلا بد أن يكون الكون دائرياً. ومن هنا نرى صور مركزية الأرض والكون يدور من حولها بشكل دائري. وعلى الرغم من أن المنهج التجريبي الاستقرائي كان حاضراً في أعمال أناس كأرسطو وأرخميدس، إلا أن الطابع العام كان استنباطياً نظرياً.

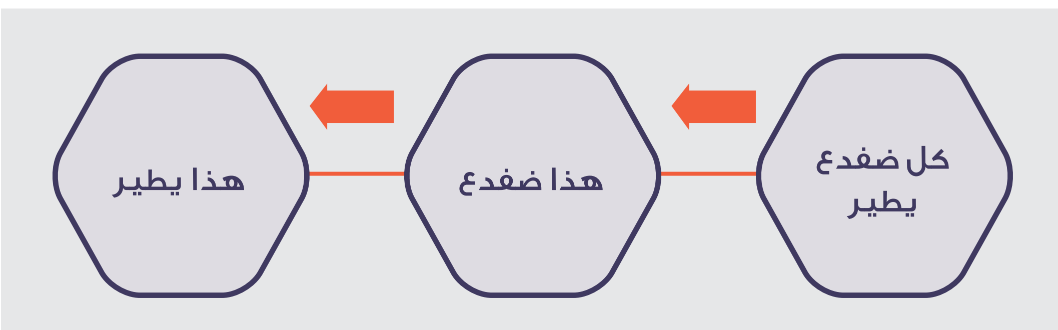


وقد حدّ المنهج الاستنباطي من العلم بشكل كبير؛ بحيث إننا لم نعد نلاحظ الواقع وتغيراته، بل أصبحنا نضع قاعدة ونضع تحتها عنواناً معيناً، ومن ثم نحصل على النتيجة التي نريدها بالشكل الذي نريده.

صحة الاستنباط يحتاج إلى أمرين:

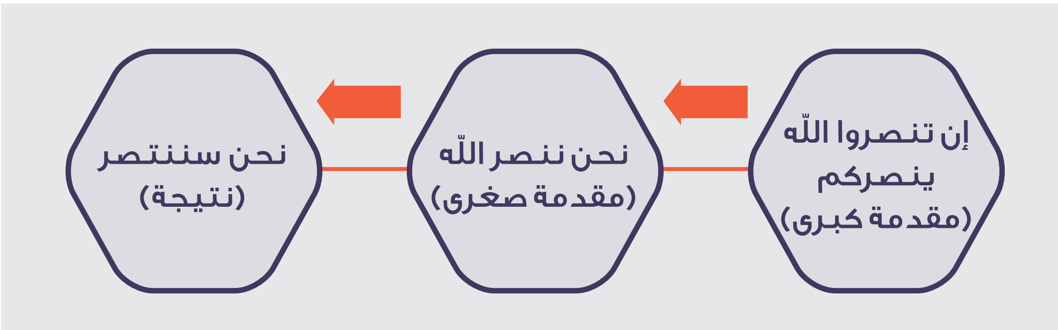
- سلامة الشكل
- سلامة المقدمتين الكبرى والصغرى

مثال على سلامة الشكل وخلل المقدمات:



إن التعامل مع المنهج الاستنباطي مهم جداً خاصة في بيئاتنا؛ حيث يتم استدعاء نص قرآني أو حديثي واعتباره مقدمة كبرى، ووضع حالة يراد حكمها كمقدمة صغرى، ثم استخلاص النتيجة.. وهذا كثير في الخطابة عندنا، وفي الأحاديث العادية، وخاصة تلك التي تحمل طابعاً دينياً، وبالمثال يتضح المقال. فمثلاً:

في معرض القيام بمواجهة جيش مدجج بالعدد والعتاد والانضباط والتدريب يتم استخدام المنطق التالي لتبرير المواجهة بالقوة من فئة قليلة العدد والعتاد والتدريب:

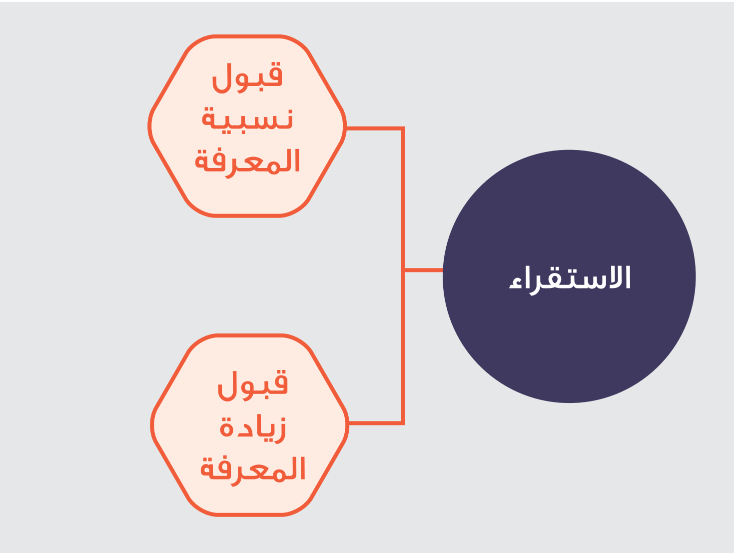


للوهلة الأولى يبدوا منطقاً محكماً، ولكن إذا ما حاولنا أن نحلل المقدمة الأولى ونفحصها فحصاً عميقاً؛ بمعنى فحص معنى (نصر الله) في القرآن والسيرة، فسوف نلاحظ عدة أمور: لماذا امتنع الرسول وهو أولى الناس بنصر الله عن القتال في مكة؟ ولماذا دافع في مرحلة وهاجم في مرحلة وهادن في مرحلة؟ ولماذا كان يبحث في القبائل عمّن يتكاتف معه إلى أن جاء الانصار واحتضنوه في المدينة؟.. فبعد هذا الجهد من النبي صلى الله عليه وسلم أصبح لديه كمّاً نوعياً ليبدأ معه المعارك، ومن ثم يأمل بنصر الله عزوجل

فالأَولى بأسباب النصر أن تتم بطريقة علمية منهجية، فلو درسنا الحروب بأشكالها المختلفة؛ مثل الحروب المتكافئة، وحروب القلة غير المتكافئة، والشروط الموضوعية لنجاح القلة كما في فيتنام وغيرها.. لاكتشفنا أن مفهوم (إن تنصروا الله ينصركم) ليس بمفهوم ساذج ينطبق على أية حالة، وإن مقولة (نحن ننصر الله) إذا لم تحقق شروط الدراسة الاستقرائية للسنن قد تقود لكوارث.

وإن هذا الشكل من التفكير الذي كان سائداً في مجتمعات القرون الوسطى لا زال البعض يعيش فيه إلى اليوم!.

الاستقراء:



لقد كان الانتقال من المنهج الاستنباطي إلى المنهج الاستقرائي صراعاً مريراً في أوربا، بدأ منذ تعرُّض شخص مثل روجر بيكون للمدخلات التجريبية في الكتابات الإسلامية الأولى المترجمة في الجامعات الفرنسية في القرن الثالث عشر، ولم تبدأ مرحلة الاعتراف بقوته إلا مع كوبرنيكس وجاليليو، ونضجت أفكاره مع فرانسيس بيكون، وتوّجت بأعمال نيوتن.. وهكذا تجذَّرت أرجحية المنهج التجريبي المعتمد على الاستقراء.. فما هو الاستقراء؟

الاستقراء هو الانطلاق من الجزئيات لوضع القاعدة العامة، فهو منهج قائم على ملاحظة الواقع ودراسته، واعتبار أن النتائج احتمالية وليست يقينية، وبالتالي لو جاءت دراسة أدق أو تغيّر الواقع لتغيّر الاستنتاج، وبالتالي يبقى الإنسان منفتحاً على العلم وتغيّرات الواقع.

فمثلاً من الملاحظ أن بحارة السفن يصابون بنزيف اللثة، وعدم شفاء الجروح، وتساقط الأسنان أثناء الرحلات الطويلة، والموت، وأن بعض البحارة لا يصابون بالداء ذاته، والقاسم المشترك بين من لا يصابون أنهم يأكلون الليمون، فتُجرى تجارب على عينة كبيرة بإعطائها الليمون، فتُشْفى، فتُعمَّم قاعدة أن في الليمون مادة تمنع المرض..

ومثله ما حدث مع نيوتن، فمن ملاحظة تكرر سقوط الأجسام من الأعلى إلى الأرض استنتج وجود الجاذبية، فالجسم ذو الكتلة الأكبر يجذب إليه الجسم الأقل كتلة، والأرض كتلة كبيرة تقوم بجذب الكتل الأقل إلى مركزها، وبتكرار التجربة والحسابات وضع قانون الجاذبية العام.

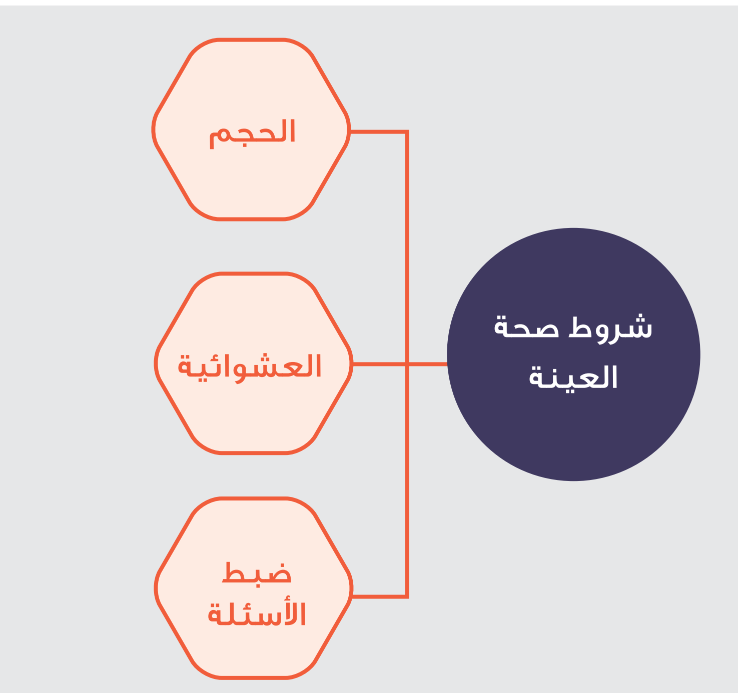
خطوات المنهج الاستقرائي:

فملاحظة عابرة مثل عدم إصابة من يأكل الليمون بالنزيف (داء الاسقربوط) تم تجريبه على المصابين فشفوا، ومنه عُرِف الفيتامين (س). فمِنْ جَمْعِ البيانات الجزئية عن الظاهرة المدروسة إما بشكل كامل (استقراء كامل) أو بشكل ناقص (استقراء ناقص) يتم استخلاص القوانين العامة. وبطبيعة الحال كلما صغرت العينة المدروسة كلما قلَّت القدرة على التعميم والعكس صحيح، وبتحقيق شرط عدم تحيز العينة، ونقصد بالتحيز فقدان شرط العشوائية، فلا يمكن الاعتماد مثلاً على شعبية كرة القدم في بلد ما بسؤال مرتادي الملاعب عن رأيهم في اللعبة؛ إذ من الطبيعي أن تكون النسبة 100%.

إن العلم الحديث مبني على هذه الفكرة، فكرة الاستقراء والاحتمال وقابلية التغيّر المستمر في الأحكام داخل الكون الذي نعيش فيه، فتظهر نتائج الاستقراء نتائج احتمالية، بينما يعطينا الاستنباط نتائج تبدو في شكلها الخارجي قطعية ولكنها في الحقيقة قد لاتكون كذلك.

شروط صحّة العينة في منهج الاستقراء:

حجم العينة:



إن صحة الاستقراء مرتبطة بشكل أساسي بحجم العينة؛ فمثلاً حينما نقوم بإحصائية على الشعب البريطاني عدد المشاركين فيها 80 مليون من أصل 90 مليون نسمة فلو استنتجت من هذه الإحصائية أن الناس لا تريد الأسرة الحاكمة، فاستنتاجي يكون هنا قوي ومنطقي لكون النسبة كبيرة مقارنة بعدد الشعب، ولكن لو كانت العينة فيها 100 ألف من أصل 90 مليون نسمة و90 بالمئة منهم قالوا لا نريد الأسرة

الحاكمة فالاحتمالية هنا أصبحت ضئيلة، ولا أستطيع أن أصل منها لنتيجة أن الشعب لا يريد الأسرة الحاكمة، فكلما زادت العينة كلما كانت النتائج أكثر قرباً للواقع.

● عشوائية العينة:

إن من الشروط الأساسية أيضاً في العينة عشوائيّتها؛ أي تنوع الأوساط التي تؤخذ منها العينة، فلنفترض أننا نريد أن نقوم بإحصائية لمحبي كرة القدم في منطقة ما، فذهبنا إلى الملعب وقمنا بالإحصائية على الجمهور هناك! فهذه العينة لا يمكن اعتبارها دليلاً على أن الشعب في تلك المنطقة يحب كرة القدم، لأن العينة التي نستطيع أن نؤمن بنتائجها يجب أن تكون ملتقطة من أماكن مختلفة ومن جميع الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم واتجاهاتهم.

> العينة في الاستقراء كلما كانت أكبر والعشوائية فيها أكثر.. كلما كانت دلالاتها أقوى وأوثق في إيضاح الواقع الموجود

● نوعية الأسئلة المطروحة:

إن طبيعة الأسئلة المطروحة أمر في غاية الأهمية، حيث يجب أن تكون الأسئلة مصممة لمعرفة الحقيقة، لا لتلقين المستجيب ما يجب أن يختار.

فتحتاج العينة إذاً إلى توفّر ثلاثة شروط: حجم العينة، وعشوائية العينة، ونوعية الأسئلة المطروحة على الجمهور.

لقد أصبح طابع العصور الحديثة هو الاستقراء، وهو بالرغم من نسبيته، إلا أنه أداة العلم والمعرفة المنفتحة على التجدد.

8. ثامناً- القياس والتشبيه:

في هذه الفقرة سنتعرّض لقضية في غاية الأهمية في التفكير النقدي، وهي القياس والتشبيه، فكثير ما يلجأ الناس بطبيعتهم لضرب الأمثلة، ولضمان صحة التشبيهات والأمثلة، علينا أن ندرك معنى القياس والتشبيه بشكل واضح؟

أولاً- التشبيه:

نقول مثلاً: الرجل كالأسد في شجاعته: فهناك المشبه (الرجل)، والمشبه به (الأسد)، ووجه الشبه (الشجاعة)، وأداة التشبيه (ك)، وتأتي عملية التشبيه بمختلف الأشكال كأن يتم إلغاء وجه الشبه (الرجل كالأسد) أو أداة التشبيه (الرجل أسد في الشجاعة).. لكن روح الموضوع واحدة.. ففي كل الأحوال ليس هناك تطابق، ولكن هناك وجه للتشبيه وفروق، والذي يعني هو تحديد أوجه التشابه والافتراق، لأن ذلك ما سيحدد منطقية التشبيه أو قصورها المنطقي.

ثانياً- القياس:

في المنطق الصوري يقصد بالقياس المحاجة القصيرة، مثل: (العالم متغيّر، وكل متغيّر حادث فالعالم حادث)؛ أي مقدمة كبرى، ومقدمة صغرى، ونتيجة.

أما القياس في المنطق الأصولي فهو وجود حادثة قديمة لها حكم منصوص، ومقارنتها بحادثه معاصرة حكمها مجهول، وعن طريق التشابه بين علة الحكم الأول وعلة الحكم الثاني، مثل: (الحكم بتحريم المخدرات قياساً على حكم الخمر المنصوص لوجود علة الإسكار في كل منهما)

وأيضاً مثال حول إشكاليات دعوى التشابه كمبرر للحكم:

من المقولات الشائعة بين المسلمين: أن المسلمين هزموا امبراطوريتين (الفرس والروم) في وقت واحد! وبما أنهم استطاعوا أن يهزموا امبراطوريتي ذاك الزمان، فسيستطيعون أن يهزموا امبراطوريتي هذا الزمان، والامبراطوريتان هنا كناية عن (روسيا وأمريكا). فيبدو الأمر وكأنه تشبيه بسيط؛ فإذا كنا واحداً ضد اثنين وفزنا، فاليوم أيضاً سنفوز..

والسؤال: هل المثال أو التشبيه هنا يعتبر تشبيهاً صحيحاً؟! وهل وضعية الفرس والروم في تلك اللحظة التاريخية كوضعية روسيا وأميركا اليوم؟ وهل وضعية المسلمين آنذاك كوضعيتهم اليوم؟! وما الأشياء التي لم نُدخِلها في المقارنة وقد تؤدي لنسف المقارنة بالكلية، وتنفي وجودها من الأصل؟! فإننا عندما نشبّه شيئين ببعضهما تكون درجة التقارب والاختلاف بينهما مهمة جداً، فللوصول للنتيجة الصحيحة يجب أن تكون درجة التشابه عالية بين الاثنين، والتشابه هنا لا يعني التطابق، فالتطابق يودي لعدم حاجة المقارنة من

الأصل، ولكنني نقصد بالتشابه أن يكون كل من المشبَّه والمشبَّه به بدرجة مقبولة من أوجه التشابه. فعلى سبيل المثال:

هنالك من كَتَبَ يقول: "70 بالمئة يعتقدون بضرورة إنهاء ظاهرة الفقر في العالم، والأمين العام للأمم المتحدة يقول ذلك ممكن، فهو هدف كبير، ولكنه ليس أكبر من إنهاء العبودية، أو من وضع شخص على سطح القمر". فهل إنهاء الفقر في العالم يقارن أو يشبّه بالوصول إلى سطح القمر؟ وهل المقارنة هنا منطقية؟

إن قوة التشبيه يكون في مدى قوة درجة الاقتراب من التماثل بين الظاهرتين الموجودتين

الجواب: إننا حينما نضع القضيتين أمام بعضهما ونبحث في الفوارق نجد أن النزول على القمر هدف سهل التحقيق مقارنة بقضية إنهاء الفقر في العالم، فإذا درسنا القضية من عدة زوايا فيكفي أن يرى رئيس دولة كبرى مثل أميركا أن على العلماء أن يصلوا إلى القمر، ومن ثم يترتب على تلك القضية تحديد الزمن الذي سيصلون فيه، وتحديد الأطراف المسؤولة وهي عبارة عن مؤسسة ناسا مثلاً، والأطراف التي يحتاجون إلى تعاونهم هم الموظفون في ناسا، أما عن درجة المقاومة لهذه العملية فهي غير موجودة لأن الحكومة تريد والعلماء يريدون، فالموضوع سهل وبسيط، ولكن إذا بحثنا في مشكلة الفقر في العالم، فتحديد الهدف أمر ليس بالبسيط؛ فماذا نقصد بإنهاء الفقر في العالم؟ وعملية تحديد الزمن، أي متى سينتهي الفقر أمر صعب جداً، وكذلك تحديد الأطراف الذين سيشاركون؛ فكيف ستتعاون الأطراف، مثل أمريكا وروسيا واليابان والصين والهند وباكستان وبينهم خلافات.. فهم لم يقبلوا التعاون بالقضايا الأبسط، فكيف سيتعاونون بموضوع القضاء على الفقر!

9. تاسعاً- التحيزات البشرية في التفكير النقدي:

بوصولنا لهذه النقطة نكون قد وصلنا إلى آخر مسار التفكير النقدي، وقبل أن ننهي المبحث سنقف عند أمر هام متمثّل بالتحيّزات البشرية، فالإنسان الذي سيقدم على التفكير النقدي محمّل بطبعه بالتحيّزات، فهو يريد للمحاجّة أن تنجح، أو يريدها أن تسقط، فكيف سينتبه لدوافعه الداخلية؟

تحريف مقولة الطرف المقابل:

كنا قد أسلفنا بأن التفكير النقدي ليس انتقاماً من الطرف الآخر، إنما هو محاولة لإنصاف الطرف الآخر، ولكن هذه المحاولة ستمر أيضاً بتحيزاتنا الذاتية، فمثلاً: إذا تصفّحنا وسائل التواصل الاجتماعي، وراقبنا آراء وأقوال مؤيدي الأديان واللاأديان بحق بعضهم، وكيف يتم تغيير مقولات أهل ديانة أخرى فقط من أجل الانتصار للذات، سنجد عندها العالم مليء بعدم الانصاف! وذلك لأن التحيّزات الإنسانية لا يُتْخَلَص منها بسهولة، وهذا مما يجدر التعامل معه بانتباه.

الإيهام بادعاء الخبرة وتغطية المصادر:

إن من أكبر
ما تعانيه المجتمعات
العربية والإسلامية جهازها
المعرفي، وعدم مقدرتها
في الحكم على
الأشياء بسلامة

في التعقيبات على ظاهرة كورونا سنجد من يقولون أن العالِم الفلاني أو المؤسسة الفلانية قالت عكس ما تقوله كل الدوائر العلمية الموجودة، وعادة تكون أسماء ملفتة ولامعة ، إنما الوزن العلمي لها غير واضح، أو هو ممن لا يُسأل عنهم! فوظيفة التفكير النقدي هنا أن يحمينا من "المصادر الموهومة"، التي من السهل تشكيلها وكأنها حقيقية وواقع، والبشر في كثير من الأحيان يتركون الأدلة الكبيرة لصالح الأدلة الجزئية، وهذا نراه بوضوح أيضاً إزاء فكرة "نظرية المؤامرة" الواضحة جداً في قضية انتشار كورونا، ففي الوقت الذي لدينا فيه آلاف المرضى في المستشفيات حول العالم، والإحصائيات التي تبرزها الحكومات من مصابين وأموات، والاقتصاديات المتدنية التي تشهد على حجم الكارثة الموجودة.. يمكن لشخص ما لا يحمل التفكير النقدي أن ينظر إلى خبر صغير ساقته صحيفة أو مقولة لشخص ينفي فيها وجود الفايروس! بغض النظر عن كمية وتضافر الأدلة الكبيرة التي تشير في الاتجاه الثاني.

إذاً التفكير النقدي هو حارس على بوابة العقل، وكلما كان هذا الحارس أكثر كفاءة كلما كانت الأشياء التي نخرجها للآخرين أو نستقبلها من الخارج منضبطة.

ما تم بيانه هو تمهيد وتأكيد على أهمية التفكير الناقد، إلا أن هذا الطرح لا يغني عن قراءة كتاب "التفكير النقدي" والتمكن من أدواته للأشخاص الذين يريدون أن يشاركوا في مشروع النهضة، ويصنعوا المجتمعات العربية والإسلامية، فإن أكبر ما نعانيه هو بسبب جهازنا المعرفي وقدرتنا في الحكم على الأشياء.

3. المغالطات المنطقية

أين مكمن الخطأ في مقولات مثل

لنا الصدر أو القبر... تقول لشخص: لن ينجح الموضوع الفلاني لأنك لا تمتلك المعرفة ولا المال له وهو يحتاجهما، فيقول لك: اللّه قادر على كل شيء.. كل من قابلتهم يؤكدون صحة الموضوع فلماذا لا تصدق؟...حدسي يقول بأن الخبر صحيح.. الخبر متداول في الواتس أب فهو صحيح بالتأكيد...

تتكرر المغالطات المنطقية بين النّاس بكثرة، بحيث تأخذ الشكل الخارجي للمنطق السليم ، مما يصعّب على الناس اكتشافها في كثير من الأحيان، وهذه المغالطات تأخذ أشكالاً عديدة نوجزها فيما يلي.





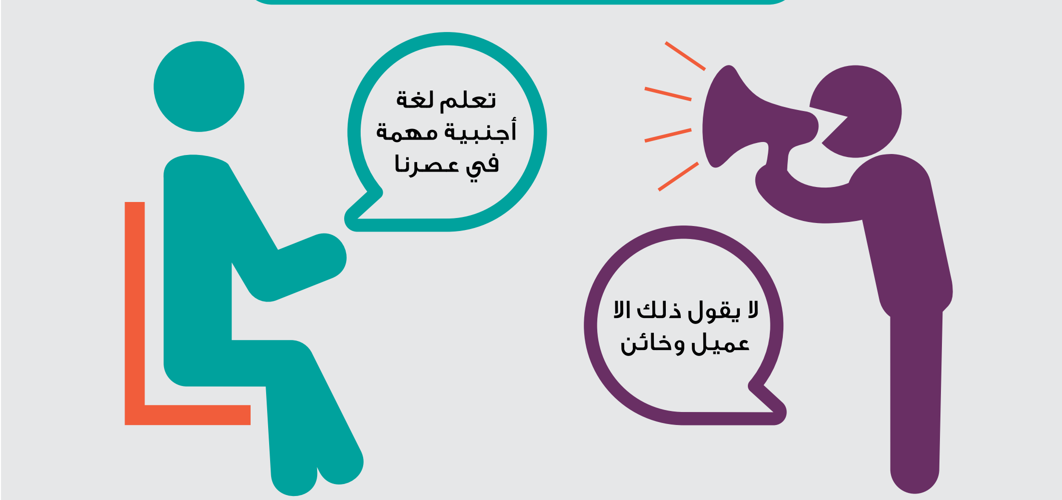
1. أولاً– مغالطة الهجوم الشخصي:

وهي أشهر مغالطة يمكن أن يتعرض لها الإنسان، وفيها يتم حرف الموضوع عمّا هو عليه وتحويله إلى هجوم على الشخص الطارح للموضوع، ومن أبرز أمثلته ما نشاهده في بعض البرامج التلفزيونية كبرنامج الاتجاه المعاكس.

لنأخذ مثال حديث حول قضية التبادل الثقافي مع الغرب، وفيها رأيان؛ رأي مؤيد لضرورة ذلك ويدعمه بالبراهين، ورأي آخر يرى أخذ الصناعات فقط وترك الأفكار، فبينما يسوق الطرف الأول البراهين التي تؤكد ضرورة التبادل الثقافي، يرد الآخر فيقول: أنا لا أعتقد أنّ هناك خيانة أعظم من هذا الكلام الذي يقوله صاحبنا، فهذا هو ما تريده الشيوعية والصهيونية والإمبريالية والقوى الظلامية التي تريد أن تسحبنا للخلف، هؤلاء النّاس أمثال هذا الشخص عملاء.. فينتقل من الحديث عن الثقافة إلى الحديث عن الشخص،

وهذه مغالطة منطقية كبيرة جداً يقولون عنها في الاصطلاح العادي "تَرْكُ الرسالة والإمساك بخناق الرسول"، مثلاً مشركو قريش في الغالب لم يناقشوا قول لا إله إلا الله، إنما اتجهوا إلى شخص الرسول الكريم فقالوا عنه ساحر وكذاب ومجنون، وهذا النوع من المغالطات المنطقية مشهور جداً في حوارات كثيرة.

الهجوم الشخصي

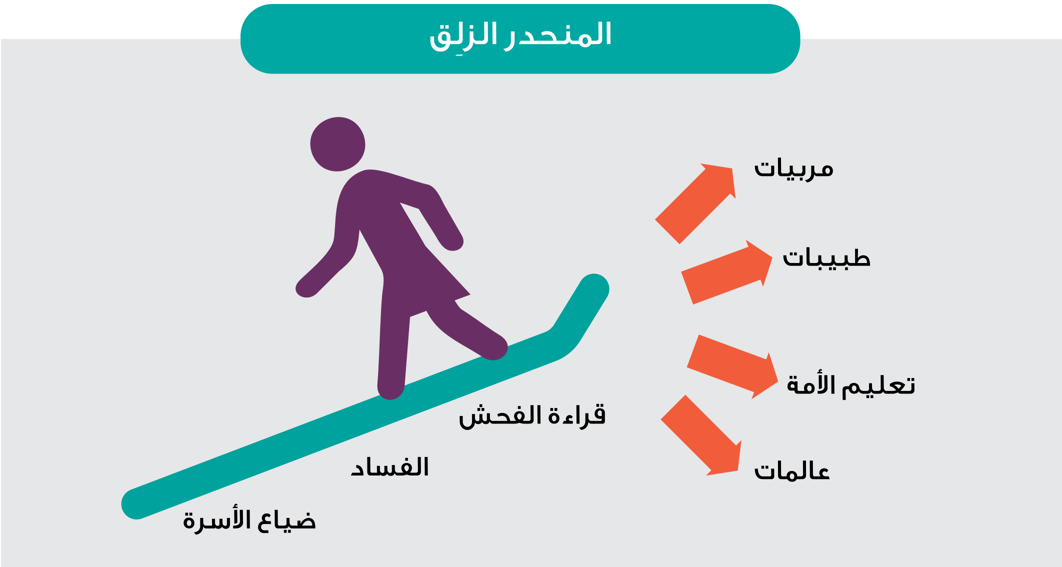


2. ثانياً- مغالطة المنحدر الزلق:

وهو نوع مشهور جداً في المغالطات المنطقية، يسمونه المنحدر الزلق (Slippery Slope) ويعني اختيار أسوء سيناريو محتمل من بين احتمالات حسنة ويُبنى عليه القرار، وهذه المغالطة استخدمت كثيراً في محاربة تعليم المرأة، فكان الكثير من الناس ينادي بمنع تعلّم المرأة لكونها إذا تعلّمت لربما ستقرأ روايات فيها فحش، وستبدأ بالعلاقات، وسيعمّ الفساد وبالتالي ستضيع الأسرة، فاعتبروا تعليم المرأة طريقاً منحدراً سيفسد العالم به. في حين أن هذا المنحدر هو احتمال واحد مقابل احتمالات عدّة، فيمكن للمرأة أن تصبح مربية ناجحة، ويمكن أن تصبح طبيبة، كما يمكن للنساء أن يصبحن عالمات في العلوم التي تحتاجها الأمة، وأيضاً المرأة المتعلّمة ستخلق بيئة ثقافية في بيتها وهذا سيصب في مصلحة الفرد والمجتمع.

وأيضاً لدينا مثال الذهاب بتجلّيات بعض المفاهيم للمنحدرات بغرض إبعاد الناس عنها،

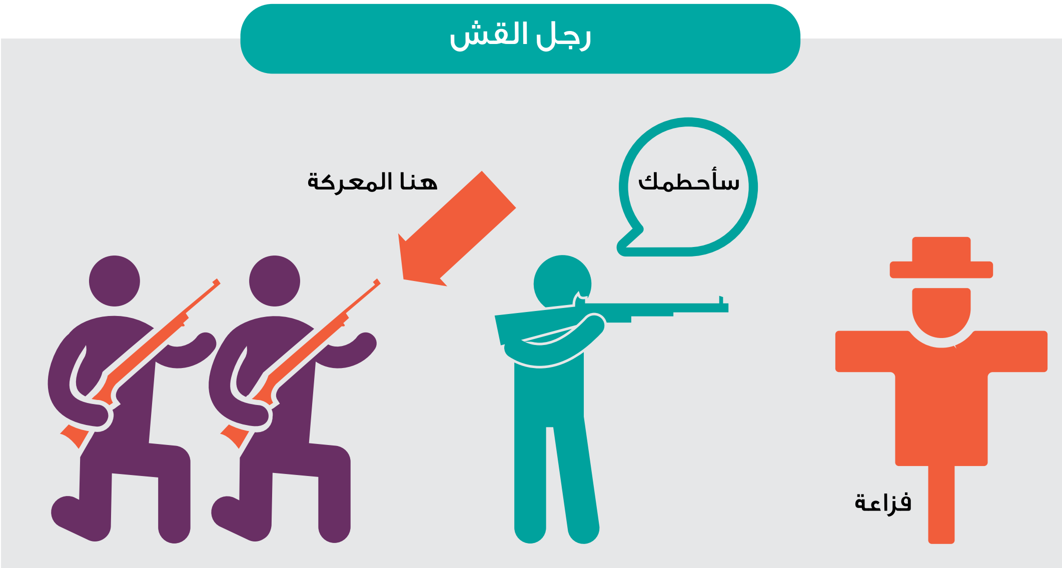
كالمناداة بالحرية مثلاً، فالحرية قد تعني حرية الكلمة، أو حرية المعتقد، أو حرية السفر والتملّك، ومن احتمالات الحرية أن تودي بصاحبها للفساد والتخريب، فيأتي شخص ما ويرفض الحرية بمغالطة أخذه لاحتمال المنحدر، فاختيرت أسوء السيناريوهات، في حين كان يمكن لسيناريوهات أخرى أن تكون هي المخرج!



3. ثالثاً- مغالطة رجل القش:

رجل القش كناية عن فزاعة مصنوعة من القش على شكل إنسان لإخافة الطيور وإبعادها عن الحقول.. والسؤال لماذا سميت هذه المغالطة بمغالطة رجل القش؟

إن رجل القش هذا لا يقاتل، إنما هو عبارة عن خشبة، فإن كان أمامك شخص قوي ولا تريد مواجهته، فتأخذ عصاك وتضرب رجل القش، لكونه لا يرد الضربات، ومثال ذلك أن يتحدّث شخص في موضوع ما، وبجواره شخص آخر يريد أن يحارب الفكرة التي يتحدث بها، ولكن الفكرة في أساسها قوية ويصعب محاربتها، فلا يملك لذلك سبيل، فيتصيّد من طرحه مثالاً مبالغاً فيه، أو نسبة مؤية خاطئة، ويهاجمه بهذا الخطأ، أو قد يتقوّل عليه ما لم يقله ويحاربه به، أو يناقشه بقضايا خلافية يحيد بها عن الطرح الأساسي لطرح يستطيع أن يحاربه من خلاله.

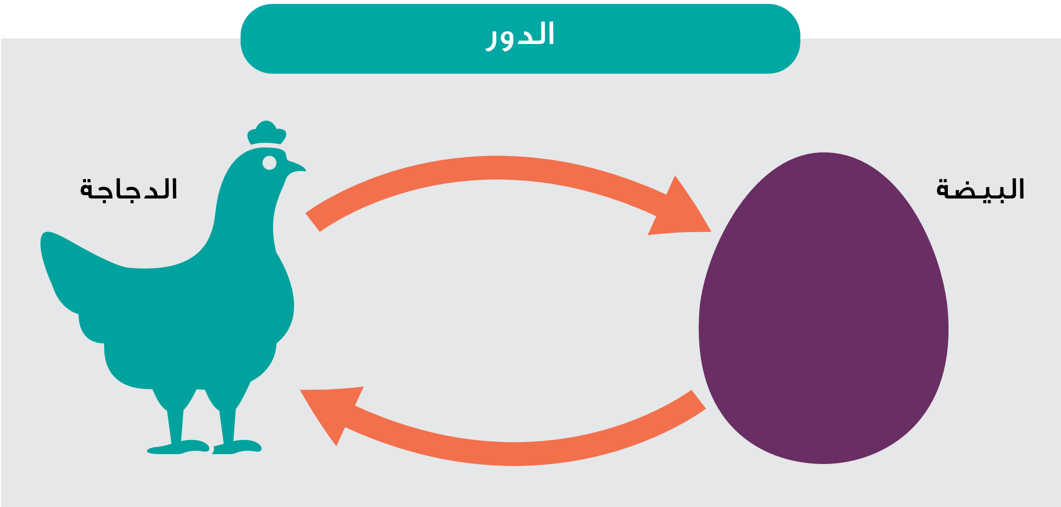


4. رابعاً- مغالطة المنطق الدائري:

وهو ما يسمونه (Circular Reasoning) الدور أو المصادرة، بأن نجيب جواباً لا يفيد الإجابة، بل نصادر الإجابة بالجواب المطروح؛ وهذا كسؤال من أين أتت البيضة؟ من الدجاجة. ومن أين أتت الدجاجة؟ من البيضة.. وهكذا إلى ما لا نهاية.

وهذا نجده في حياتنا عند سؤالنا لشخص من معتنقي المسيحية "ما الدليل على أن المسيح ابن الله؟"، فيجيبنا بأن الكتاب المقدس هو الذي يقول ذلك، وإذا سألته من الذي أحضر الكتاب المقدس، يجيبك بأن ابن الله هو الذي أحضره! فتكون الإجابة بأن ابن الله هو الذي قال إنه ابن الله، فهو لم يضف شيئاً للمسألة.

وأيضاً هناك مثال هام في هذا الطرح، فقد نسمع هذه المغالطة من أحد المسلمين فيقول: إن الإسلام فيه حلول لكل شيء، فإذا أجبته أن واقع المسلمين المتدهور اليوم لا يقول ذلك، يجيبك بأن المسلمين لايطبقون الإسلام الصحيح وهذا سبب تدهور حالهم، وإذا سألته لماذا لا يطبق المسلمون الإسلام الصحيح يقول لك: لأنهم لا يلتزمون بمنهج الصحابة.. وهكذا إلى حالة الدوران في الحلقة ذاتها دون إيجاد إجابات حقيقية، فهنا لم يتم إضافة شيء للحوار، بل قمنا بمصادرة المطلوب، فكيف لفكرة ما أن تثبت نفسها بنفسها! فهذا منطقياً مرفوض، ويندرج ضمن المغالطات المنطقية.



5. خامساً– مغالطة الثالث المرفوع:

وهي مغالطة مشهورة جداً، متعلقة بقضية إهمال المنطقة الوسطى، هناك بيت شهير في الشعر العربي يقول:

ونحن أناسٌ لا توسطَ عندنا   لنا الصدرُ دون العالمين أو القبر

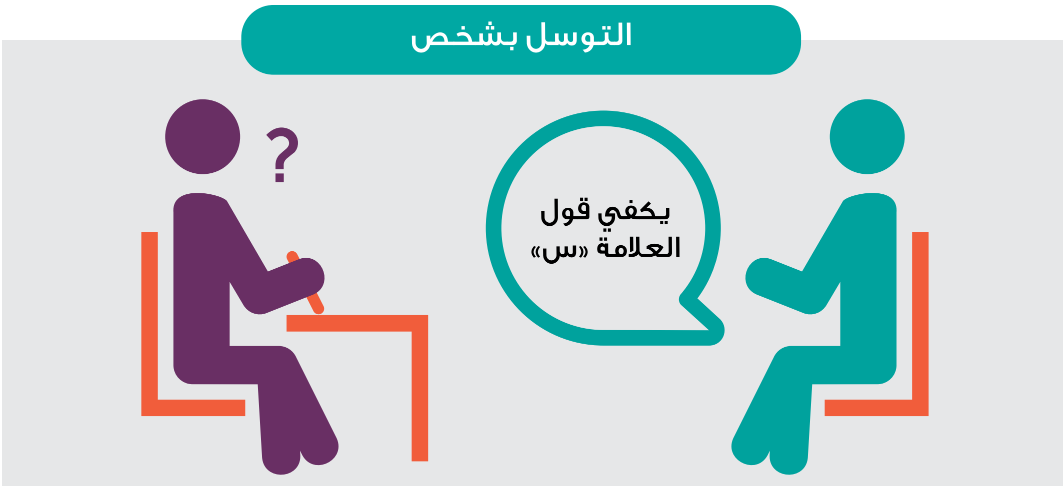
فبين الصدر والقبر مساحة كبيرة جداً، فهذه المغالطة تقول إنه لا يوجد شيء في الوسط، إما الأول أو الأخير، إمّا أن تكون أبيض أو تكون بالسواد المطلق، إما إسلام أو غير إسلام، إما علمانية أو غير علمانية.. والحال أن الخيارات الحَدّية هذه في أغلبها تصطدم بالواقع، والعالم غير مرتّب على هذه الكيفية، فغالباً ما تلتقي الخيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية



والوطنية في المنتصف.. فالمجتمع لايحتمل هكذا نوع من الاختيارات، فلا بد اليوم من منطقة في المنتصف تلتقي فيها الاختيارات من أجل أن يستقر المجتمع ويبني نفسه بنفسه، فالخيارات الحدِّيّة تدخل في المغالطات المنطقية في كثير من أحوالها.

6. سادساً- مغالطة التوسّل بشخص:

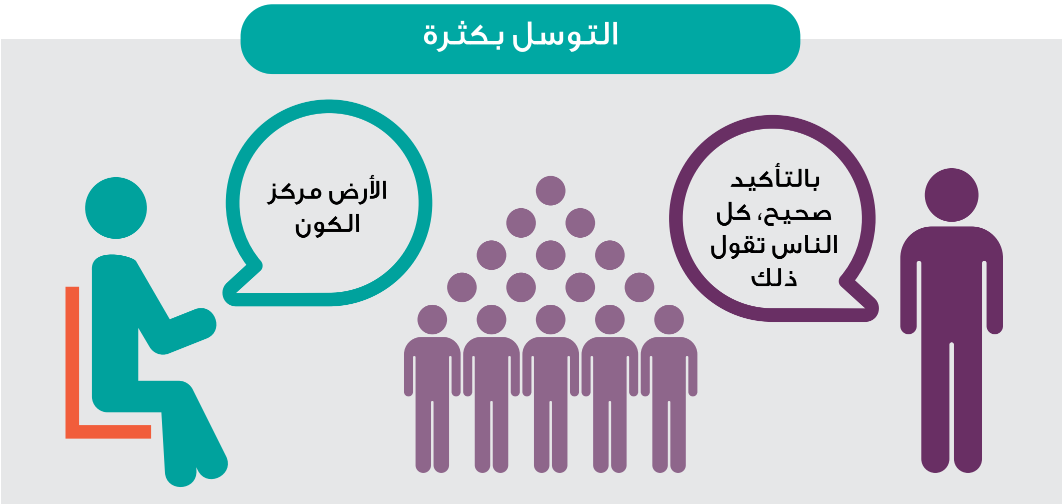
وهذه أيضاً من المغالطات الشهيرة، وتحدث بأن يتوسل الإنسان بدليل وهو ليس بدليل، كأن يقول قائل: هذا القول قال به العلامة فلان أكبر علماء عصره وزمانه، وهذا الشخص يؤكد على أنّ الأرض ليست كروية! فنحن هنا لا نناقش عظمة فلان، بل نناقش كروية الأرض، وهذا الموضوع يحتاج لدليل علمي، ولدينا حقائق موضوعية تتعلق بالطيران وبالأقمار الصناعية وبالتلسكوبات وبالحسابات الرياضية تشير إلى كروية الأرض، فعظمة الشخص بذاتها ليست دليلاً، وتحويل النقاش من القضية إلى الشخص يعتبر مغالطة منطقية.



7. سابعاً- مغالطة التوسّل بالكثرة:

كثيراً ما نسمع سؤال يوجّه لشخص ما عند مخالفته للسائد: "هل جميع الناس مخطئة وأنت الوحيد الذي على صواب؟!"، فهذا السؤال ينطلق من مغالطة التوسّل بالكثرة، فالكثرة ليست دلالة الصحة، بل هناك أحداث كثيرة جداً في تاريخ البشرية كانت البشرية كلها على اعتقادات خاطئة، ومنها مثلاً اعتقاد الناس بفترة من الفترات بأن الأرض هي مركز

الكون، وهو اعتقاد ساد لسنوات طويلة لدى ملايين من الناس، إلى أن جاء العلم ليثبت أنّ الأرض ليست مركز الكون، إنما هي كوكب صغير يدور حول الشمس، والشمس جزء من مجرة فيها ملايين الشموس وملايين الكواكب.



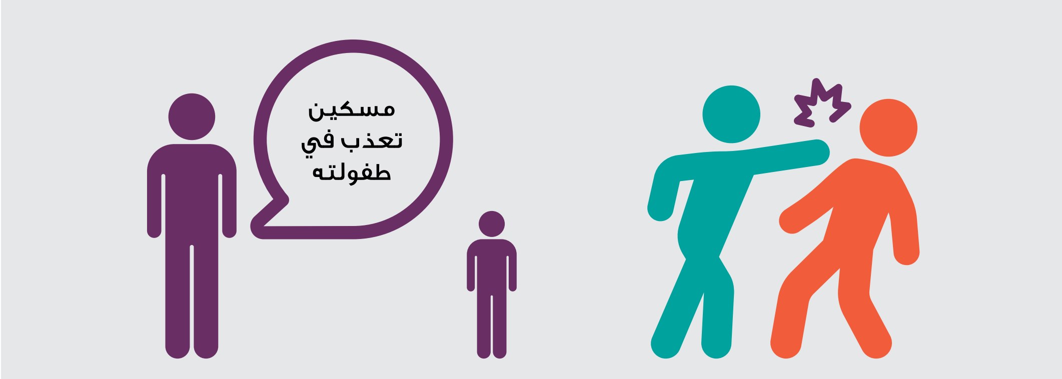
8. ثامناً– مغالطة التوسّل بالفعل الشائع:

هو أن يميل الناس لتصحيح فعل ما توسّلاً بكونه فعل شائع بين الناس، كأن يقول قائل "الناس كلها تكذب" فكثرة فعل الناس لأمر ما لا يمكن اعتباره دليلاً على صحة الفعل، فالحسم بالحكم على الفعل يكون بالنظر بالفعل ذاته من حيث الصحة أو الخطأ.



9. تاسعاً- مغالطة التوسل بالعاطفة:

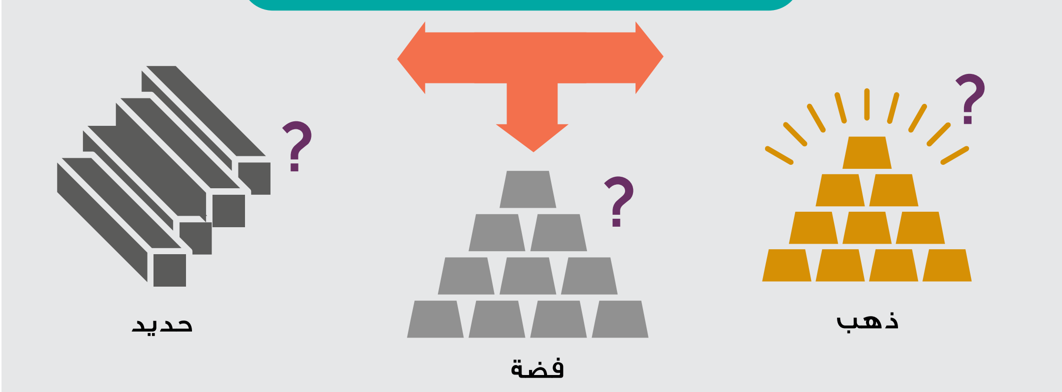
التوسل بالعاطفة



وهي مغالطة تسود بكثرة ـ في أواسط الناس، ومن أمثلتها أن يقف محامي خلال دفاعه عن أحد القتلة فيقول: انظروا إلى طفولته المعذبة، وكيف عانى ـ في صغره! فتثار العاطفة نحوه، وهذا نجده ـ في بيئاتنا بكثرة ـ في القضايا التي تحمل طابعاً عاطفياً دينياً، كأن يصرخ أحدهم ـ في ردة فعل على انتشار فجور ما ـ في المجتمع: أين الإسلام؟! أين دين الله؟! ويحوّل الموضوع إلى قضية عاطفية، تؤثر بالناس بشكل عاطفي وتعطل عليه عقله، علماً أن موضوع كهذا جدير أن يُتناول ـ في نطاق علمي بعيداً عن العاطفة.. وهذه القضايا تكثر ـ في الخطابة ويجب الحذر الدائم منها لكونها قد تشحن بعواطف معينة وتهيجها ـ في مكان خاطئ!

10. عاشراً- مغالطة التوازن (Balance Fallacy):

مغالطة التوازن



وهو اختيار رأي وسط بين الآراء سواء كان صحيحاً أم غير صحيح، بغية حل الخلاف والموازنة بين الطرفين، كأن يقول شخص ما إن السماء خضراء كرأي وسط بين مختصمين على أنها زرقاء أو صفراء، وهذا قد لا يفيد شيئاً بالوصول إلى الحقيقة، فالطرح بهذه الكيفية ينتج عنه في كثير من الأحيان ما نسميه مغالطة التوازن.

11. حادي عشر - مغالطة الديك:

هي مغالطة يُعتَقَد فيها أنه نتيجة تَتَابع حدثين متتاليين فإنّ أحدهما هو سبب للآخر، ورُبِطَت هذه المغالطة بالديك لربط البعض ظهور الشمس بصياح الديك، فكل مرة تطلع الشمس فيها يصيح الديك، وبالتالي يعتقدون أن سبب ظهور الشمس هو صياح الديك! وهو ربط غير منطقي لخلو العلاقة بينهما، وهذا أشبه بشخص يربط تسجيل الأهداف بسبب شرائه لأحد الأحذية الرياضية!



12. ثاني عشر- التشبيه المغلوط:

وهو ما يسمونه (Analogy Fallacy)، وهو تشبيه زائف، مثل أن نقول: فلان كسول لأننا نعرف أن ابن عمه شخص كسول، فهذا مايسمونه مغالطة التشبيه.

إن كثيراً من المغالطات المنطقية تستخدم بحسن نية ضمن الأسرة من أحد الأبوين، أو ضمن فئات المجتمع.. أو على أصعدة أكبر وأوسع.

وبختام هذا الفصل نكون قد تحدثنا عن مقدمة في المنطق الأرسطي الصوري، وتكلمنا عن أهم الأشياء في التفكير الناقد وعن المغالطات المنطقية السائدة، غير أن ما أوردناه لا يغني عن قراءة كتاب منظَّم في تلك الأبواب، منها كتاب الدكتور عمرو ياسين "التفكير النقدي"، أو كتاب "رجل القش" للمؤلف يوسف صامت بوحايك، فكِلا الكتابين ينفعان جداً في بناء منظومة عقلية منظمة تسمح بنقاش الأشياء بطريقة موضوعية.

الفصل الثاني:
التاريخ والدين والفلسفة



المسار الكبير لتاريخ ومستقبل فكرة النهضة في المنطقة العربية والإسلامي

- **المسار الكبير للنهضة**
  - إنسان ما قبل الحضارة
  - إنسان الحضارة
  - أفول الحضارة
  - إنسان مابعد الحضارة
- **المادة**
  - محاولات التشخيص
  - عدم إدراك نقطة ارتكاز العصور الحديثة
  - الواقع وفرز الأفكار
  - أفق اليقظة
  - المهام الثلاث
  - الشرائح الثلاث
  - مؤشرات النهضة
  - الإسهام حضاري
  - ضمانات الاستمرار

المسـار الكبير للنهضة

نحتاج بداية في هذه المرحلة أن نمرّ على الخارطة الكبرى لمسار النهضة الذي نتحرك ضمنه..

وعلى أهمية هذا المسار لطالب العلم والعامل على النهضة، غير أنه كثيراً ما يَفقِد هذا الشخص معالم هذا المسار فلا يدري في أي مرحلة يسير، وفي أي سياق تتموضع المرحلة التي يعمل فيها، وما المقصد من كل مرحلة. فنحن إذاً أمام قضايا مهمة:

الإحاطة بالمسار الكلي لفكرة النهضة في المنطقة العربية والإسلامية.

فهم المعنى من وراء هذا المسار.

فإذا تمت الإحاطة بهذه القضايا ستتضح لنا معالم سيره ووصوله، وندرك إلى أي مرحلة وصل مشروع النهضة، مما سيؤهلنا لأن نكون أقدر على السير نحو النهوض وحمل قضيته، وكذلك تمكين من سيكمل السير بعدنا من حملها إلى فضاء جديد أيضاً.

وسنستعين في طرح بعض القضايا بأعمال وأفكار "مالك بن نبي" رحمه الله، التي ستكون العدة أيضاً في شرح الخارطة، و لغة الوصف.

المسار الافتراضي للحضارة في المنطقة العربية:



1. إنسان ما قبل الحضارة وتفاعله مع الرسالة:

من التقسيمات الرائعة التي قسّمها "مالك بن نبي" رحمه الله مرحلتي الإنسان ما قبل الحضارة وما بعدها، فاعتبر أنّ مشروع الإسلام أو مشروع الإنسان الجديد الذي تنزَّل مع رسالة (اقرأ) قد وافق نزوله في شبه الجزيرة العربية الإنسان الذي يسميه "بن نبي" إنسان ما قبل الحضارة، وإنسان ما قبل الحضارة هو إنسان خام، بمعنى أنّه صفحة شبه بيضاء، فجدله مع الرسالة ليس بالجدل الفلسفي المعقد، بل حتى إن إسلامه إسلامٌ بسيط لم تمر عليه الأيدي الكثيرة من الفلسفات والأفكار والتصورات، فكان سهلاً أن يتم استقطابه، فأهل المدينة قد جاءهم شخص واحد فقط هو "مصعب بن عمير"، وتحدث مع القوم، وكان من ضمنهم قائدان من قادة المدينة المنورة، فاقتنعوا بكلامه وذهبوا إلى قومهم، فأسلمت أقوامهم، وأصبحت هذه القبائل جند الإسلام وروحه، أما في يومنا الحالي فإن الشخص منّا إذا جاء ليكلم ابنه بموضوع بسيط، لا علاقة له بتغيير معتقدات، سيجد عدد من المشكلات تعترضه في النقاش. فالبيئة في وقت نزول الرسالة لم تكن محملة بحمولة معقدة ومركبة من الفلسفات والأفكار، فالفكرة إذا ما وصلت إلى قلب إنسان حينها كان تبنّيها سهلاً وتفاعله معها سهل أيضاً.

2. إنسان الحضارة:

سيدخل إنسان شبه الجزيرة العربية مرحلة الحضارة، ويأتي هنا السؤال: إنه وإن كانت معطيات البيئة المتمثلة بالإنسان والتراب والوقت متوفرة في كل تجمع بشري، فما الذي يجدُّ على الإنسان والتراب والوقت ليحوّلهم إلى قيمة تصنع الحضارة؟ يرى "مالك بن نبي" أن الفكرة الناظمة الدينية هي التي جدّت على البيئة التي صنعت الحضارة، ولا يرى ابن نبي أن هذه الفكرة محصورة بكونها دينية إسلامية بالضرورة؛ فكل فكرة قادرة على تنظيم الجماهير وبث معانٍ جديدة، وفاعلية مختلفة للإنسان والتراب والوقت يمكن أن تصنع حضارة، فإنسان الجزيرة العربية التقى بالفكرة الناظمة التي جعلت لحركته معنى، وهذا نلحظه في كلام الصحابي الجليل "ربعي بن عامر" إلى "رستم" قائد الفرس، حينما قال: "جئنا لنُخْرِج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"، فهذه المعاني الكبيرة المختزنة في تلك الكلمات البسيطة التي قالها تدل على أنّ الصفحة البيضاء لدى ذاك

الإنسان البدوي قد حُمِّلت بمعنى وتصور عميق للحركة، تجلّى بفعلهم التنموي الحضاري والاجتماعي والإنساني لتحرير الإنسان.

انطلق أهل الجزيرة العربية وفتحوا بلاد الشام، ومصر، وبلاد فارس، ثم جاء العصر العباسي، ونشأت حضارة أخذت بعصارة الحضارات اليونانية والفارسية والهندية، وتحولت البيئة في عصر المأمون إلى بيئة علمية صرفة، سادت فيها نقاشات عميقة تركت آثارها و بصماتها إلى يومنا هذا، فانتقل المجتمع العربي في تلك المرحلة من البسيط إلى المركب، ومن بيئة الصحراء وأفكارها البسيطة إلى بيئة معقدة مليئة بالنقاشات الفلسفية والرياضية والفلكية والعقائدية والفقهية..، وتحول المجتمع إلى مركب شديد الحركة والكثافة، ورغم أن تلك الحركة خفّت بعد المأمون بشكل كبير في بدء العصر العباسي الثاني، إلا أن الإشعاعات الحضارية توالت من الحضارة الاسلامية وألقت ببذور كثيرة ستستفيد منها الحضارات المعاصرة في الانتقال لعصورها الحديثة.

3. أفول الحضارة:

مع تنامي الوقت وبنهاية العصر العباسي الأول بدت الحضارة الإسلامية مرهقة، وتسللت فيها عوامل الضعف، فكان أكبر شواهد ضعفها أن أصبحت البيئة جاذبة للخصوم لاحتلالها.

لم يكتشف العالم الإسلامي ضعفه الحقيقي مع غزو المغول والصليبيّين نظراً لاستطاعته ردّ الحملات الصليبية، ولعدم حمل الصليبيّين حينها مشروعاً حضارياً أو أفكاراً متفوقة على أفكار البيئة العربية.

استمر التردّي المعرفي في المنطقة العربية، بينما شهدت أوروبا انتعاشاً كبيراً في مساراتها الإدارية والفكرية وفي تطورها العلمي والمعرفي، وقد عزز استمرار الانتصارات العسكرية على أيدي الأتراك حالة الغفلة، فلم تتنبه البيئة العربية إلى حجم الفجوة المعرفية المتسارعة النمو بين القسم الأوروبي وبين القسم المشرقي.. إلى أن جاءت حملة نابليون بونابرت إلى مصر عام 1798م، فهنا جاءت الصدمة الحضارية للمسلمين، ففي حين كانوا على اعتقاد بأنهم مَخْزَن العلوم، إلا أنهم صدموا بما وصلت إليه أوروبا ، وقد وصف المؤرخ "عبد الرحمن

الجبرتي" في كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" حال الصدمة التي تلقتها البيئة العربية بحملة نابليون، فشخّص الوضع الاجتماعي والوضع العلمي وتفاعُل النّاس مع الأزمة وأحوال النّاس الاقتصادية والمعرفية والدينية.. فضَمّن الجبرتي كتابه قصة حقيقية للوضعية التي التقى فيها المسلمون بنابليون وحجم الصدمة آنذاك.. وهذا سيقودنا إلى مرحلة إنسان ما بعد الحضارة.

4. إنسان مابعد الحضارة (إنسان الانتظار):

من الحضارة، إلى التراجع، إلى الأزمة - التي لم يُشْعَر بوجودها -، إلى الصدمة العنيفة.. كانت صدمة عنيفة جداً ومزلزلة نفسياً وحضارياً ومعرفياً، ولّدت عشرات الأسئلة في البيئة العربية، ووُلد بتلك الصدمة إنسان ما بعد الحضارة.

وإنسان ما بعد الحضارة بحسب مالك بن نبي لديه مشكلتان:

المشكلة الأولى: مشكلة اليأس التي سمّاها ابن نبي (فقدان الروح)، أي إن إنسان ما بعد الحضارة بلا حلم للمستقبل، وفاقد للفاعلية في بيئته.

المشكلة الثانية: مشكلة الخلل في الجهاز المعرفي: فإنسان ما بعد الحضارة لديه خلل في تلقي المعرفة وتفعيلها وتشغيلها والاستنتاج منها.



فتولّد من هذا الإنسان ما يسميه ابن نبي إنسان الانتظار؛ وهو الإنسان الذي يعتقد أن المشاكل ستحل بمعجزة ما! فإذا ما سبَّح كثيراً فإنه قد يستطيع الطيران في الهواء، أو المشي على الماء، وستُطوى له المسافات آذنةً بحدوث المعجزات، وإنه بمجرد أن يمسك سبحته طوال النّهار فستنفتح له العوالم الأخرى التي ستقوده إلى المعجزات الكونية الموجودة.

إنسان الانتظار هذا ينتظر مُخَلِّصاً يأتي عبر الزمان، فهو يعتقد أنّ الزمان يسوء يوماً بعد يوم، والقيامة قادمة لا محالة، وأن العناصر التي يراها حوله ليست أشياء تولِّد فيه استفزازاً لطاقة الفعل، إنّما هي عبارة عن لحظات الاحتضار الأخير، ويأتي جيل بعد جيل يحملون جميعاً هذه السمات الأساسية بإنسان الانتظار.

5. مرحلة الصحوة:

انطلقت في الأمة منذ حملة نابليون إلى يومنا هذا محاولات مستمرة للخروج من حالة الأفول الحضاري، وطبيعة مرحلة الصحوة أن فيها حماساً شديداً، ولكن يصحبه قلة رشد أيضاً، فأخطاؤها كبيرة وفادحة نتيجة أنها جاءت عقب سُبات عميق، فالصاحي من نومه على منبّه شديد الوقع قد يرتطم بمن حوله، فيؤذي نفسه أو يؤذي غيره بخطواته غير الواعية بعد، ومرحلة الصحوة هي المرحلة التي لا تزال أمتنا تمر بها منذ حملة نابليون إلى يومنا، ويفترض بأننا يوماً ما سننتقل لمرحلة اليقظة التي يكون الإنسان بها أكثر انتباهاً وفهماً للأمكنة التي يتحرّك فيها، فيدرس محيطه بشكل جيد، ويحاول أن يرسم مسارات أكثر دقة وعلمية للانتقال من واقع إلى واقع.

1. محاولات التشخيص:

استُقبِلَت الصدمة عند دخول نابليون إلى مصر، ويصوّر "الجبرتي" في تاريخه كيف أن الإنسان العربي حينها لم يكن قد أدرك بعد أين نحن وأين أصبحت فرنسا، فيحاول التصدي آنذاك لحملة نابليون بالعصي، والوسائل البدائية!

بعد ثلاث سنوات اضطر نابليون للعودة مهزوماً إلى فرنسا مخلِّفاً آثاراً وتصورات فكرية هامة، وبرزت أسماء كبيرة حاولت مقاربة وفهم أسباب تطور الغرب، لتوظيفها في محاولة نهوض بلادهم، ومن هذه الأسماء:


محمد علي
استقطاب الصناعات
الطهطاوي
تتبع المسلك الغربي
كتاب تخليص الإبريز
خير الدين
إحضار نظم الإدارة الأوروبية
كتاب أقوَم المسالك
الأفغاني/ الكواكبي
تغيير المسار السياسي
محمد عبده
المسار الثقافي
محمد رشيد رضا
المسار الإحيائي
حسن البنا
الدولة الإسلامية
المودودي/ قطب
طليعة من الصفر
القاعدة/ داعش
التسلّح والقتال
حسن الترابي
التحالف مع العسكر



وحينما أراد "محمد علي باشا" تجديد الحياة في مصر والنهوض بها قرر استقطاب الصناعة الغربية، فاستقطب أصحاب الصناعات من الغرب، وابتعث الفنيين المهنيين من حاشيته إلى فرنسا ليتعلّموا ويستقطبوا الصناعات، وخاصة الصناعات البحرية كبناء السفن، والصناعات العسكرية كصناعة الأسلحة..

تضمنت نهضة محمد علي عدة مشاكل، حيث كان التصور بأن النهضة تعتمد على حلول ببساطة تطوير الصناعة، كما أن هذه النهضة قامت على الاستقطاب الخارجي أكثر من الاعتماد على تأهيل الشعب لإحداث النهضة المرجوة، فبنى محمد علي باشا أسطوله العسكري، وتطورت مصر في الصناعة وأصبحت تُصنِّع سفنها، وإنما المشكلة أن اعتمادها في ذلك كلّه كان على غير المصريين، ولم تكن هناك أي منابت ثقافية حقيقية، فأول ماحاول الأوروبيون تفكيك هذا البناء الذي لا أساس حقيقي له من الشعب لم يعد هناك ما يُبنَى

عليه ثانية! وهذا إذا ما قارنّاه بألمانيا فسنجد بأنها قد فُكِكَت بالكامل، ولكن أُعيد تركيبها لوجود العقل الذي يمكن له أن يعيد البناء.

> اتّسمت الأفكار الأولى التي تصبو لإحداث النهضة عموماً ببساطة الحلول واستنساخها.. كجلب الإدارة أو جلب الفنيين، أو فهم الحياة الأوروبية الاجتماعية ومظاهرها من زواج وطلاق وفنون.. ونحوه.

وكان من ضمن المبتَعَثين في حملات "محمد علي باشا" شخصية كبيرة اشتهر بُعدُها في الحضارة الإسلامية وهو "الإمام رفاعة الطهطاوي"، حيث كان للطهطاوي شيخ أوصاه بالذهاب لفرنسا لدراسة المجتمع الفرنسي بشكل عميق وكتابة أسباب التفوق فيه.. فذهب مبتعثاً ليؤمّ طلاب البعثة، فأمضى خمس سنوات تعلّم فيها اللغة الفرنسية، واختلط بالمجتمع، وكتب عن تفصيلات الحياة الفرنسية كتاباً أسماه "تخليص الإبريز في خبر باريس"، أي تخليص الذهب من الشوائب التي تحيط في معرفة أخبار أهل باريس، وقد وجد أن نهضة أمتنا تبدأ من احتذاء مسلك الغرب؛ بأن نأخذ كافة ما فعلوه من فنون وآداب ومسرح وصناعات ونحو ذلك.. فكانت حلول الطهطاوي باختصار أن نقوم بنسخ ما لديهم، ونلصقه في مجتمعاتنا، وهذا ما لا يمكن بشكل من الأشكال؛ فنسخ حلول الحضارة الفرنسية التي تراكمت ومرّت بمراحل من التطور حتى نضجت بمرور السنين، ولصقها ببلد يعيش ببساطة وسكون منذ أيام المماليك لا يمكن له أن يُحدِث تطوراً أو نهضة ، فحتى وإن قُدِّمت الحلول الجاهزة فإن المجتمع لا يمتلك أدوات التنفيذ لها.

وكان "خير الدين التونسي" أيضاً في الحقبة نفسها، وكان من عِلْيَة قومه آنذاك، وقد فرَّغ وقته لدراسة المجتمعات الغربية، وجلس ثلاث أو أربع سنوات في أوروبا، درس فيها النظام الاجتماعي والسياسي والعسكري، وكيفية تدبير المالية في هذه الدول، ثم ألف كتاب "أقوم المسالك" الذي رأى فيه بأنه لو تم إحضار فنون ونُظُم الإدارة الأوروبية إلى المنطقة العربية الإسلامية فسيحدث تحول كبير على غرار التحول الذي حدث في أوروبا، وفعلاً حاول التونسي ذلك، وعرض خطته على كبار الناس، ولكن نظراً لعدم جاهزية المجتمع لذلك تم رفض محاولاته، وقد ماتت أفكاره، وحُورِب بشدة، وانتهت حياته بطريقة عسيرة..

سيظهر بعد ذلك شخصيتان هما "جمال الدين الأفغاني" و" عبد الرحمن الكواكبي" وكانا يريان أن المشكلة هي مشكلة سياسية، وأنه يتوجب تغيير النظام السياسي وإزالة الاستبداد، فأقام الأفغاني مجلة العروة الوثقى، وكافح كفاحاً مريراً في محاولة تغيير المسار السائد، وإقناع النخب السياسية الحاكمة، فحُورِب بشدة، لدرجة أنه يحكى بأنه مات مسموماً. والكواكبي وضع كتابه الشهير "طبائع الاستبداد"، لكن أيضاً لم تستطِع المجتمعات الاستجابة لتلك الحلول.

أما "محمد عبده" - تلميذ الأفغاني- فقد كان ينادي ابتداءً بأفكار الأفغاني، ولكن بعد هزيمة ثورة عرابي رأى بأن تغيير المسار السياسي ليس هو الحل، فاتجه للمسار الثقافي، ودعا لتطوير التعليم، وإلى إدخال التعليم الغربي للمنطقة حيث سيصبح لدينا تعليماً حديثاً مَدَنِيّاً إلى جانب التعليم الديني في الأزهر والمدارس الشرعية، وسيصبح لدينا عقول قادرة على تحمّل التغيّر الذي نحتاجه، ولكن على الرغم من دخول التعليم المدني إلى الأزهر والمدارس الشرعية، إلا أنه لم تتحقق النهضة المنتظرة!

2. غياب الوعي بنقطة التحول الجوهرية في العصور الحديثة:

سنجد في فترة اليقظة الكثير من المحاولات الجادة من أناس مخلصين قاموا بأعمال عظيمة، إلا أن هذه الأعمال لم تكن تمتلك الرؤية الحقيقية لسبب الأزمة.

> لم يدرك العاملون على النهضة في فترة الصحوة أن الذي تغيَّر في العصر ليس مجرد حوادث صغيرة فقط! إنما هي تغيرّات في الأرضية التي يقف عليها العصر فكرياً ومادياً وعسكرياً ولغةً ومفاهيم وتصورات..

في أواخر حياة الأفغاني ومحمد عبده بدأت قضية النقاش حول أيهما أفضل: الحضارة الغربية أم الإسلامية؟ وكان ذلك نتيجة تعرّض المسلمين في الهند آنذاك لكثير من الانتهاكات على أيدي الإنجليز، فتحول النقاش من "ماذا نأخذ؟" إلى "من أفضل نحن أم هم؟".. وإيماناً بعظمة وشمولية الدين الذي نؤمن به، والذي لايملكه الغرب، بدأت تسود فكرة بأن الحل موجود في الماضي ولكنه مُهمَل، ويتوجب علينا أن نعيد البحث سعياً وراء تلك الحلول.

ومن هنا تبنّى "محمد رشيد رضا" تلميذ محمد عبده فكرة إحياء التراث، فأعاد طباعة الكتب القديمة، وبما أن الجهاز المعرفي الموجود لدينا يقوم على القياس؛ فبالتالي كان المطلوب دائماً أن نبحث في الماضي عن حادثة تشبه حادثة أخرى في هذا العصر لنقارن بينهما حتى نستطيع أن نستنتج! فكان الظن أن الذي تغيّر أمور وحوادث صغيرة إذا ركّزنا العمل عليها معاً ستحل الأزمات!

فبعد أن كانت المحاولات السابقة تتجه للمستقبل، أصبحت المحاولات تتجه نحو الماضي، وإذا لم نجد ما نريده في الماضي، أخذنا نتاجات الحاضر ووضعنا عليها آية أو حديث لتصبح وكأنها نتاج الماضي، وقد انتشرت فكرة (أن الحلول موجودة في التاريخ) انتشار النار في الهشيم!.

3. الواقع وفرز الأفكار

ولّدت فترة الإحيائية والجذب للتراث هذه تصوّراً آخر بأننا لا ينقصنا معرفه ولا علم، وبأن كل شيء موجود لدينا في التراث، وعلينا أن نستنتجه بطريقة ما، وتأثّر الإمام "حسن البنا" بهذه الاتجاه لينادي بفكرة أننا نحتاج إلى أن نبدأ من منطقة معينة، وهذه المنطقة ستقوم بها دولة إسلامية نموذجية على غرار الخلافة الإسلامية الأولى التي ستجمع شتات المسلمين.. ومن أجل هذا الغرض كان لا بد من إنشاء تنظيم مختلف عن التنظيمات الأخرى، وظيفته الوصول للحكم، ويطبّق ما يتوقّع أنه موجود في التراث على الحاضر، وقد أخذت هذه الفكرة مداها أيضاً وتضحياتها، وفي نهاية المطاف انكسرت الموجات على الموجات ولم تؤتِ الحلول ثمارها!

سيأتي من يقول إن الحل ليس في قضية الدولة مباشرة، إنما الحل في العودة إلى الوراء ثانية، وإنشاء طليعة خاصة، وهذه كانت فكرة "المودودي" و"سيد قطب"؛ إنشاء طليعة من الصفر، تبدأ على تعليم لا إله إلا الله، وتتعلم الإسلام تدريجياً.. وفعلاً أخذ المودودي منطقة في باكستان سمّاها المنصورة، وبدأ يستقطب الأفراد الذين قرروا أن يتبرّؤوا من المجتمع ويعيشوا حياة مختلفة، ولكن أيضاً هذا الحل لم يؤتِ ثماره، ولم ينجز وعوده في البيئة.

ومع فشل الحلول الآنفة المتمثلة بحل الدولة وحلول الطليعة، نشأ اتجاه يعتقد أن ما ينقصنا هو القوّة والتزوّد بالسلاح، فإذا ما تم التزوّد بالسلاح والقتال يتحقق قوله تعالى ﴿كم

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وكما حدث مع الرسول وصحابته سيحدث معهم.. فخرجت مقدمات أفكار الجماعات الإسلامية التي قررت حمل السلاح، لتتبلور لاحقاً بالقاعدة وداعش، وبلغ الموضوع مداه في أفغانستان مع فكرة إخراج الروس، فبدأ يتوافد الشباب ووصل السلاح، وبدأت روسيا بالخروج، ولكن انقلب الحدث بأن بدأت الجماعات تتقاتل فيما بينها بعد خروج الروس، و انقلبت "آيات الرحمن في جهاد الأفغان" إلى قتال بين الأفغان أنفسهم، وبعد أن كان صراع على الاستقلال، تطوّر لصراع القاعدة، والحرب على الغرب في دياره وعلى قواعده في الخارج، ثم ظهرت داعش التي أنشأت دولة على الأرض، وجمعت السلاح والمقاتلين. وإن هذه الاتجاهات العنيفة قد مثّلت الصيحات الأخيرة للحلول المحتملة التي حاولنا أن نتجنبها في بدايات المراحل، والتي بظهورها بدأت البيئة العربية المسلمة تستنفذ طاقة الأفكار القديمة بشكل كبير، فبعد أن فقدت الاشتراكية جاذبيتها بالتجارب المتعددة الفاشلة التي مرت بها، وكذلك القومية، فقد بقي داخل الساحة التيار الإسلامي الذي كان على حلم الخلافة ووعد الخلافة، والذي تمثل عموماً بالتيارات المدنية التي انتهجت السلمية في عملها العام، ليتبع تلك التيارات تيارات أعنف وأشد.. تعتقد أن التيارات السابقة مُفَرِّطة وأن الحل في حمل السلاح والقتال، فبلغت مداها بموضوع داعش والمحاولات التي قامت بها في سبيل إنشاء كيان سياسي في العراق وسوريا وفي المناطق المحيطة..

في أثناء هذه الفترة نادى الدكتور "حسن الترابي" بأن فكرة التنظيم الاجتماعي الواسع دون اختراق للجيش والتحالف معه لن ينجح، وبالتالي لا بد من هذا الاختراق، ونجحت التجربة في السودان، وبدأ الحلم يتبلور ثانية، معتقدين بأن السودان هي الأرض التي سينطلق منها التغيير، وسيتحقق لها حلم الخلافة، فذهب كثير ممن شارك في حرب أفغانستان إلى السودان؛ باعتبار أن الحلول موجودة في التراث، فلم يبقَ أمام الترابي وجماعته سوى أن يطبّقوا الحلول، وقد أخذ التطبيق مداه خلال 33 عاماً، ولكن الصدمة أن الحركة انهارت انهياراً ساحقاً بعد الرفض الاجتماعي، والحراك الذي نشأ ضدها!

وكان الحل الأخير الذي نتج عن توالي الخيبات والاحتقان الكبير لدى الشعوب العربية هو الحراك الشعبي (ثورات الربيع العربي)، وكان كافياً لانطلاقها أن تصفع سيدة شاباً في تونس فيحرق نفسه، ليتابع الفتيل اشتعاله إلى بقية الدول بمطالبات الديمقراطية والعيش

بإنسانية. ليتخلل ذلك المشهد محاولات الإسلاميين إقامة حلمهم تمهيداً لقيام الدولة الإسلامية.

وينتكس الموضوع مرة أخرى انتكاسة كبرى، نتيجة ما خلفته الثورات من أسى وحزن ونكبات، وتظهر موجات الإلحاد والتشكيك، هذا بالإضافة للخصام الذاتي، والحركات التي يصارع بعضها بعضاً؟

وهكذا تكفل الواقع بفرز الأفكار وتجربتها على محكّاته، فاستنفَدَها ووفَّر كثيراً من عناء النقاشات النظرية بعد أن تبين عجز تلك المحاولات وحاجة الواقع لغيرها من الحلول.

4. أفق اليقظة:

ومع أن قسماً من الشباب خرج مأزوماً يائساً من حركات الربيع العربي.. إلّا أن قسماً آخر بدأ يتطلع إلى فضاء جديد وحيوية جديدة..

وبدأت تساؤلات كبرى تطرح نفسها على الساحة، وبدأت محاولات إعادة النظر في أصول الفقه، وظهرت فكرة مقاصد الشريعة، وأهمية تفعيل فقه الضرورات وفقه الأولويات، وفقه الموازنات والنوازل، فبدأنا نستشعر حاجة إصلاحية جديدة علمية.. إلا أن الجهاز القديم ظل ينازع بشكل قوي جميع هذه التيارات، متهماً إياها بالليبرالية والعلمانية والتمييع.. ولكن صوت العصر طاحن، وإيقاف عجلة التحولات أمر متعذّر!

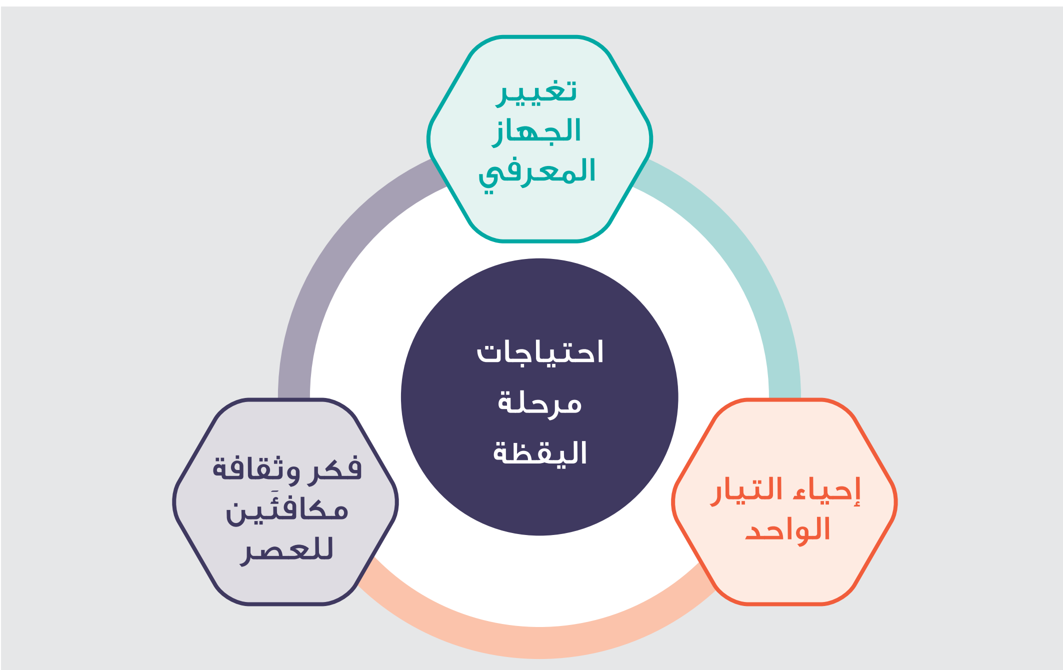
5. مهام مرحلة اليقظة:

أعقب المرحلة السابقة عملية مراجعة للجهاز المعرفي، وعمليات البحث عن فضاء جديد لتحقيق الفعل النهضوي داخل المجتمعات العربية والإسلامية، وهي المرحلة التي أسميها "بدايات مرحلة اليقظة" وهي مرحلة نحتاج بها إلى ثلاثة تغييرات كبرى رئيسية:

- **التَغَيُّر الأول: تَغيُّر الجهاز المعرفي** من فكرة الاستنباط إلى فكرة الاستقراء، ومن فكرة الاستعلاء على الواقع إلى إشراكه في اتخاذ القرارات. فإن الحلول السالفة تؤكد لنا

وجود خلل جذري في الجهاز المعرفي الذي نُنْتِج من خلاله الحلول، فجميع الحلول السالفة ناتجة عن الاستنباط ومستعلية عن الواقع. فمن أين جاءت فكرة أن البعث الإسلامي الجديد سيكون من السودان، والسودان بلد فقير بموارده ومتآكل بالحروب الأهلية؟! فهذا كله خيال فوق الواقع يحدث لأن الواقع ليس جزءاً من الجهاز المعرفي الذي نتحرك فيه.

- **التغيُّر الثاني: إيجاد فكرة التيار الواحد** وهذا يحدث بإيجاد القاسم المشترك الأكبر في المنطقة بين القوميين والعلمانيين والإسلاميين والليبراليين بفئاتهم المختلفة، فنتحرك رغم الاختلاف، ونستمع لبعضنا البعض من أجل النهوض بالوطن؛ باعتبار أن لا أحد منا يمتلك الحقيقة كاملة، إنما نتكامل بالأجزاء التي نمتلكها، فنتعاون مع الآخرين في سبيل بناء وطن مستقر وعادل للجميع، فتتحول عملية بناء القلاع بين الفئات المختلفة إلى عملية مد جسور فيما بينهم، وإلا ستأتي الفرص وتضيع كما حدث في الربيع العربي.
- **التغير الثالث: العمل على توليد فكر وثقافة مكافئَين للعصر:** وفي هذه الجزئية يصب البرنامج الذي نعمل فيه.. بأن نوجد ثقافة مكافئة للعصر؛ تسمح لنا بأن نرى المنطقة التي نتحرك بها ومجريات العصر المعقّد، وما الأفكار التي نحتاج أن نستحضرها عندما نتحدث عن العصر ومتطلباته.



إننا في أمس الحاجة لتيار يحاور بعضه البعض، ويحسن الحديث البيني، وإلى تغيير ضخم في الجهاز المعرفي لينقلنا من عصر الى عصر جديد، وإلى ثقافة مكافئة للعصر ندرك بها التحولات الكبرى التي حدثت في الأفكار، وكيف أنها لم تعد أفكاراً بسيطة ساذجة كتلك التي كانت في القرون الماضية، فأفكار اليوم معقدة مركبة، والنقاش فيها صعب وليس يسيراً.

وبولادة هذا التيار العام في هذه المواصفات والتي أسميها "الكتلة الحرجة" من احتياجات أي مجتمع من التواصي بالخيرية، والتواصي بالعمل المشترك، وإقامة أوطان حرة وكريمة.. سيصبح من السهل أن تلتقي مع بعضها البعض ما نطلق عليه الشرائح الثلاث..

6. الشرائح الثلاث الضرورية لقيام الأوطان:

شريحة البدء: وهي الشريحة التي تتحرك الآن في المجتمع.

شريحة التغيير: بيدها مقاليد الأمور والحكم، سواء وصلت عبر انتخابات أو بدون انتخابات، فهذه الشريحة قادرة على التقاط الأفكار الحيّة المطروحة داخل المجتمع ودعمها.

تطلعات المجتمع: حيث تلتحم شريحتي البدء والتغيير مع تطلعات المجتمع في الحرية والعدالة والكرامة.

7. مؤشرات النهضة

إذا ما اجتمعت الشرائح الثلاث فعندها تكون هناك رافعة لإحداث التحولات الأساسية الكبرى المتمثلة بـ:

1. كون المجتمع يحمل هوية جامعة تسعى للتجميع لا للتفتيت.
2. وجود علم يتعدى مسأله اجترار العلوم.. إلى مسأله إنتاجها والبحث فيها، والنظر في العالم الذي نعيش فيه، وصولاً لسعة وسائل العمران.
3. أن يصبح النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي مناسباً لمتطلبات الأجيال القائمة، ويغطي احتياجاتهم النفسية والمادية.
4. أن يكون هناك اتجاه في المجتمع قادر على الدفاع الذاتي وتحقيق الأمن القومي؛ بحيث أن المجتمع لا يتعرض للابتزاز.



8. عودة النهضة والإسهام الحضاري:

بتوفر الشروط الأربعة الآنفة الذكر تكون فكرة النهضة قد قامت داخل المجتمع، ويكون ما تبقى عبارة عن مسار تكميلي.. وإن المجتمع إذا وصل لمرحلة النهضة يستطيع عندها أن يختار منطقة إسهامه الحضاري بين المجتمعات.. فإذا ما سألنا اليوم عن الإسهام الحضاري لدولة صغيرة كـ "سنغفوره" على سبيل المثال؛ سنجد لديهم جوانب معينة طوَّروا البحوث فيها واهتموا اهتماماً شديداً بها.. فإذا ما احتاج العالم من هذه البحوث شيئاً، سيقصد "سنغافوره". وبهذا أصبح لها إسهاماً في الوجود الكوني الواسع. وبالتالي ليس بالضرورة أن نمتلك حضارة مهيمنة على الآخرين؛ فهذه مساحة ضخمة جداً من الفعل.. لكن أن نجد منطقة نُسَاهِم بها في الحضارة العالمية، فهذا ما تقوم به معظم المجتمعات الحديثة؛ بأنها تقوم بتبادلية تعطي من خلالها العالم شيئاً وتأخذ منه أشياء.

9. ضمانات الاستمرار:

إن آخر ماسنتكلم به في هذا المبحث؛ نموذجاً جميلاً طرحه أستاذنا "حسن بن حسن"، ضَمّن به بنوداً تُعتبَر ضمانات لاستمرار نهضة المجتمع.. وهي بنود ثلاثة تتمثل بما يلي:

الضمان الأول: استنبات محرك النقد داخل المجتمع وضمان قوّته ونفاذه:

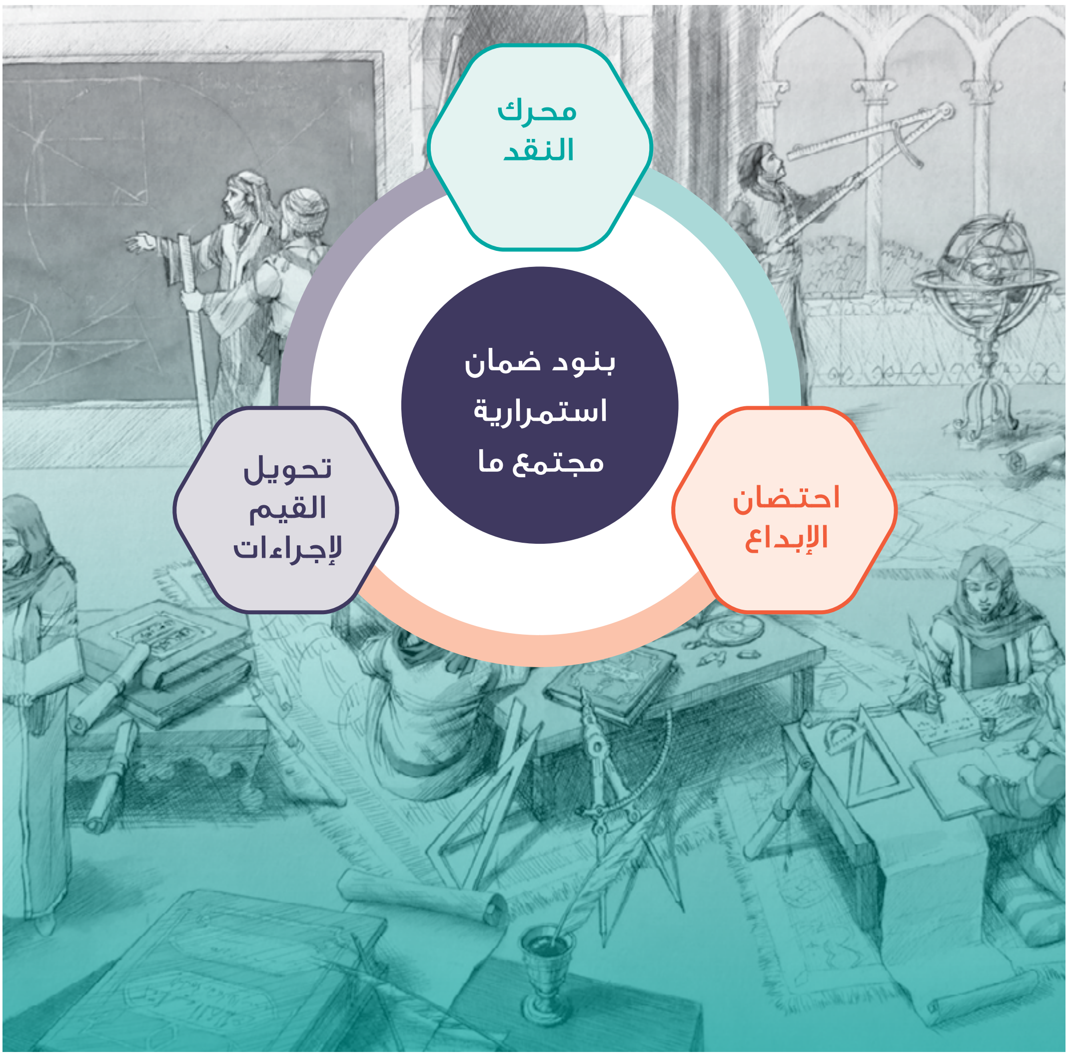
فإن المجتمعات التي تخاف من النقد مجتمعات تضمن دمارها، والمجتمعات المستمرة في نقد ذاتها، تعلم أن محرّك النقد هو الضمان الحقيقي لها للإقلاع والإبحار ولرؤية الزوايا الغامضة في حركتها الاجتماعية.

الضمان الثاني: احتضان الإبداع من قبل المجتمع

فالمبدعون اليوم كُثُر، إلّا أنهم يتسربون في أنفاق الحياة دون أن نستشعر وجودهم، أو أن ننتفع بهم، وإن المجتمعات الحيّة تبحث عن هؤلاء المبدعين؛ لكونهم ثروة هشة تتبدد بسهولة.. فتجمعهم وتستفيد من طاقاتهم في عملية الإحياء الحضاري.

الضمان الثالث والمهم: القدرة على تحويل القيم إلى إجراءات

فمن السهل جداً التحدث عن قيم كبيرة، لكن هل لنا القدرة على تحويلها لإجراءات واقعية؟ فقد يقول قائل: الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان.. ﴾ ونعتقد أن هذا كافٍ لإنتاج العدل والإحسان! إلا أنهما واقعياً لن يتحققا إلا إذا مرّا بشروطٍ ورحلة عمل تحولهما من كلمات لإجراءات، ومن إجراءات إلى نظام.



أخيراً.. إنَّ هذا النموذج الذي تكلمنا عنه في هذا المبحث، والذي أسميناه "المسار الكبير لفكرة النهضة" يحتاج من رواد المشروع إلى:

أولاً

أن يتقنوه إتقاناً جيداً وهذا يتحقق بمعرفتهم للنقلات المختلفة التي تكلمنا عنها.

ثانياً

أن يملؤوا الفراغات، فقد تضمن الطرح كلاماً عاماً، وذكرنا مراحل تاريخية معينة دون أخرى..

فهؤلاء الرواد يحتاجون إلى أن يقوّوا هذه الطروحات وينضّجوها لديهم، حتى إذا درسوا النموذج يستطيعون التعامل معه بأريحية ومن ثم يستطيعون تدريسه، وإن تعبئة الفراغ للنموذج وتنضيجه بالمعلومات بات متاحاً بكبسة زر نستطيع من خلالها الوصول للمادة التي نريد.

الفلسفة
لماذا سندرسها؟



وفق الخطة التي نسير بها لإيصال البرنامج يفترض بنا بدأ الحديث عن الفلسفة..
وهنا قد يسأل سائل ما لي وللفلسفة وعلمها في تعلّمي لمثل هذا البرنامج؟!..
سنحاول استشفاف الجواب من خلال السطور اللاحقة من هذا المبحث..

ما إن دخلنا على أي موضوع بعد: ماذا؟ ولماذا؟!

فقد دخلنا حقل الفلسفة

ننوّه هنا بأن الإنسان ما إن يدخل بمنطقة "لماذا" فإنه قد دخل في الفلسفة دون أن يشعر؛ لأن الفلسفة في عمقها محاولة لفهم الأشياء وتعليلها وهذا أعمق من مجرّد معرفتنا لكيفياتها، فمرحلة سؤال (ماذا ولماذا) هي بوابتنا للفلسفة.

وقد كانت البشرية قد بدأت العلم مع مرحلة تساؤل بـ "كيف؟"، ثم انتقلت نقلة كبيرة إلى"لماذا؟"، ومحاولة فهم "ماذا؟"، ثم جاء العلم الحديث ليبحث في الموضوع بحسب الأدلة التي تتاح في الواقع العملي الذي يحيط بالإنسان من خلال "كيف تتحقق؟".

فقد دخلنا حقل الفلسفة

كيف	ماذا	لماذا	كيف تتحقق؟
سؤال يتعلق بقوانين المادة: كيف يحدث ذلك الأمر	سؤال الماهية، أو حقيقة الشيء	سؤال التعليل ومحاولة الكشف عن الأسباب والغايات	سؤال التحقق التجريبي

فالفلسفة محاولة للإجابة عن التساؤلات السابقة، وبالتالي هي مجال معرفي يحاول تقديم أجوبة على أسئلة الإنسان الوجودية في محاولة لفهم نفسه وفهم ما يحيط به. .

الفلسفة وأثرها في العلوم: من الطبيعة للذرة

سنبدأ بالكلام عن أولى محطات الفلسفة التي نحتاج استصحابها معنا في مسيرتنا، وهي التقاء العقل بالطبيعة.. فكان نتيجة التقائه أن رأى الجبال والأنهار والغيوم والبحار والحيوانات والنباتات.. وبما أن الفلسفة باستمرار تَعبُر من الحسي المادي إلى المجرد العقلي؛ فإن الفيلسوف لا يقنع بأنه سيتعامل مع الجبل على أنه مادة خارجية فقط (حجم وطول وعرض وارتفاع ومساحة وتشعبات..) بل سيحوّل هذا الجسم المادي إلى سؤال معرفي عقلي، فكانت أُولى الملاحظات الكبرى التي خطرت في عقل الفلاسفة (فلاسفة الطبيعة) أنهم لاحظوا أن الطبيعة في تغير مستمر وفق نظام ما، أي أن الفيلسوف حينما وقف أمام شجرة وجدها في الربيع مكتسية خضراء، وبساط الأرض ممتد أمامه ملوّن بأفضل الألوان، والحيوانات تلعب في كل مكان، وإذا دخل الخريف سقطت أوراق الأشجار واختفت الحشائش والحيوانات، وأصبح العالم موحشاً، ثم إذا نزل المطر انتعشت الأرض مرة أخرى وعادت البهجة الموجودة في المكان، فمن أين يأتي ذاك التغيير وما الذي يتغير ثم يعود؟ وما هو الجزء الذي في الشجرة أو في الأرض أو في النبات والحيوان الذي يجعله يختفي ثم يعود مرة أخرى؟ هذه المشاهد البسيطه قادت لمحاولة معرفة مم يتركب هذا العالم الذي نعيش فيه.

10. نظرية العناصر الأربعة

سنبدأ بالإجابة الأكثر شهرة وإن لم تكن هي أقدم الإجابات عن أساس الكون، والتي ظهرت مع بدايات عصور الفلسفة أي ثلاثة أو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، وهي مايسمى بالعناصر الأربعة الأساسية التي يتألف منها الكون، حيث رأى أحد الفلاسفة بأن الكون أمامنا فيه الأمطار التي تأتي من السحاب، فيكون الماء عنصراً أساسياً في الكون، ومن سير السحابة في الجو يوجد البرق، الذي هو النار وهو العنصر الثاني من المكونات، ثم بين طبقات الجو والأرض مادة لا تُرى واعتبروها العنصر الثالث وهو الهواء، ثم العنصر الرابع المتمثل بالتربة التي تستقبل الماء.. وهنالك حضارات أخرى في العالم أضافت عنصراً أو عنصرين لتلك العناصر الأربعة، إلّا أن فكرة العناصر الأربعة كأساس للوجود لاتزال حاضرة إلى يومنا هذا، وتقوم عليها كثير من العلوم والأفكار كعلم الطاقة والطب البديل ونحوه..

11. نظرية الأجسام الصغيرة (الذرة)

سننتقل للاحتمال الثاني عن نشأة الكون والذي يرى البعض أنه قد تولَّد ربما قبل فكرة العناصر الأربعة، ويتمثل هذا الرأي بفكرة الجسم الذي لا ينقسم (الذرة)، فهنالك فلاسفة نفوا احتمالية أن يكون الكون تألف ابتداء من التراب والماء والهواء والنار، فقالوا بأن هذا الوجود المعقد عباره عن ليجو (Lego) كونيّ كبير جداً، له قوانين تُنَظّم تركيبه مع بعضه البعض، كالليجو الذي يلعب به الأطفال، يتركب من جزيئات، وهذه الجزيئات هي المكون الأساسي لهذا الوجود على اختلافه، فحينما تنحل هذه الجزئيات تعود بسيطة، وإذا ما تركبت ثانية كونت عناصر الوجود كالشجرة والغيمة.. وهذه الفكرة تبعتها فكرة كبيرة جداً بأن الكون الموجود مهما صغر لا بد أن يكون جسماً، فحكمت جسمانية الوجود (المادية) البشرية لآماد طويلة جداً وربما لبدايات القرن العشرين، حيث أتى منذ القرن السابع عشر من أحيى ودعّم هذا الكلام المتعلق بالذرة كـ "نيوتن"، ثم لتخرج عنه الكيمياء الموجودة اليوم، وفيزياء نيوتن المعروفة، ثم ليصل الإنسان للفضاء، وتُختَرع الطائرات.. وكل ذلك من فكرة طُرِحت في إطار فلسفي حيث إن أصلها الأساسي فلسفي، وهي "من ماذا يتكوّن العالم؟" فساق هذا التساؤل لفكرة أنه إذا كان الكون يتكون من أجسام فللجسم كتلة وحركة وطاقة، فتولد سؤال كيف نحسب هذه العناصر؟ وكيف نضبط القوانين الموجودة في الكون؟ وهذا كان عمل نيوتن، الذي نجح بشكل كبير جداً وأدار لنا العالم الذي نعيش فيه..

توضيح بمثال رأس الدبوس:

في عصرنا الحديث يعمل العلماء على ما يسمى بالـ (Nano robots) النانو روبتس، وهي روبوتات صغيرة جداً.. بحيث يُفتَرض أن تدخل إلى خلية ما وتقوم بمعالجات على مستوى صغير جداً عمّا نعرف؛ فقد يذهب المريض مثلاً للمستشفى فيدخِلون له أنبوباً يصل للقلب ثم يحقنوا القلب بالنانو، ليصل الأطباء لنتيجة ما..

وهنا السؤال: ماذا يعني إدخال جسم صغير وماذا نقصد بكلمة صغير؟ وإلى أي درجة هو صغير؟ يُجَاب عادة عن هذا السؤال بأنه لايُرى بالعين المجردة، إلا أننا بهذا الجواب لم نصل لجواب دقيق، فكم يعني لا يرى بالعين المجردة؟

إذا قمت بمحاولة بحث بمحرك البحث غوغل فكتبت السؤال التالي: كم عدد الذرات التي يمكن لها أن تقف على رأس الدبوس؟ أي لو افترضنا أننا املتكنا عيوناً قادرة على رؤية سطح الدبوس المدبب بشكل واضح وكبير.. فكم من الذرات يمكن أن نشاهد عليه؟

فكان الجواب 5 ملايين ذرة هايدروجين!!

أما عن عدد الخلايا.. فيمكن أن يقف على رأس الدبوس الواحد أحد عشر ألف خلية حية!

أما عن ذرة الحديد فيبلغ عدد ذرات الحديد على مكعب طوله وعرضه واحد ملم.. فسنجد ستين مليار ذرة حديد.. أرقام مذهلة وعجيبة!!

وهذه الكائنات المجهرية أيضاً يستطيع العلماء أن يروها من داخلها ويعملون عليها، فالعلم حقاً قد وصل لمساحات مهوولة! فنحن أمام عالم ضخم جداً وبغاية التعقيد!

إن الحديث بقضية النانو وعلاقته بفيزياء الكم (Quantum physics) مجرد محاولة إيضاحية للحجم الدقيق الذي يعمل عليه العلماء؛ فعلماء هذه العلوم يعملون على مستوى الذرة التي هي بقَدْرِ أن نقسم رأس الدبوس إلى مليون مليون قسم، ويحاولون معالجة القضايا بهذه المساحة، فبالتالي هم يشاهدون كيف تتحرك النواة، و كيف يتحرك الإلكترون بداخل هذه الذرة.. وهو شيء عجيب لايمكن للعقل أن يصل إليه! فإننا حينما نسمع عبارة "لا يُرى بالعين المجردة" قد نتخيل الموضوع أبسط مما هو عليه، إلّا أننا إذا أدركنا بأن الذرة هي جزء من مليون مليون جزء من رأس الدبوس، وبأن العلماء لايعملون على مستوى الذرة نفسها فقط، إنما على مستوى نواة الذرة والإلكترونات الداخلية الموجودة حولها!.. قد نستطيع حينها إدراك الموضوع بشكل أفضل، وأن نعرف أسباب الثقة التي اكتسبها العلم في نفسه وذلك نتيجة بحثه بتلك الجزئيات، ما أكسب العلم أيضاً غروراً في ذاته.

من الذرة إلى الكوانتم (من الكون المنظم إلى الكون العشوائي):

إن الفلسفة لم تقف عند حد اكتشاف الذرات، فرغم النجاح الذي حققته فيزياء نيوتن إلا أنه أتى من يقول: لماذا افترضنا أن الكون مركب من ذرات، وهل أن الذرات هي أجسام بالضرورة؟ فولدت هنا أول الأفكار عن الذرة التي فيها نواة وتحيط بها الكترونات، والتي تدور في مدارات طاقة محددة وفق قوانين منظّمة.

ثم أتى من يقول: لماذا افترضنا أن هذا الوجود مكوّن من هذه الأجسام التي نحن نتصورها أجساماً؟ ولماذا لا نعتبرها كائنات صغيرة تتصرف أحياناً كأجسام وأحياناً أخرى كموجات؟ وبالتالي هل تحديد زمانها ومكانها أمراً ممكناً؟ وهل تخضع لقوانين ثابتة؟

خرج من هذه التساؤلات فكرة فيزياء الكم (Quantum Physics)، وأن هذا الوجود مركب من أكياس من الموجات الصغيره جداً.. فبداخل الذرة توجد نواة، والنواة يحيط بها إلكترون، والإلكترون هذا الذي نتكلم عنه سوف يوصف بأنه ليس جسماً إنما هو طاقة تنتقل من مكان إلى آخر.. وبطرح كهذا الطرح سيتغير شكل العالم تغييراً ضخماً، بحيث لم يعد يخضع للأنظمة التي كان يخضع لها بحسب فيزياء نيوتن، حتى أن العالِم "ألْبِرْت أينْشتاين Albert Einstein" العالم المشهور العملاق صُدِم حينما طرحت هذه الفكرة؛ لأن الذي في ذهنه أن العالم منظَّم كنظام العالم الكبير الذي يحيط به (عالم مافوق الذرة)، فعالم ما فوق الذرة بالنسبة لأينشتاين منظم بطريقة الإله التي يمكن حساب قوانينها، لكن إذا ما تبين أن الكون بأساسه عبارة عن موجات، وهذه الموجات تتحرك من مكان إلى آخر، فإنه يتعذّر ضبط مكانها وحساب قوانينها، فبالتالي يكون العالم في حالة فوضى في عمقه.. ماجعل أينشتاين يرد على "ماكس بلانك Max Planck" في كلامه الشهير: "إن الله لا يلعب



النرد"؛ كناية عن أنه لا يتصرف بالكون بعشوائية، كحال لعبة النرد، فرد عليه بلانك في لقاء بينهما: من الذي جعلك ولياً على العالم حتى تقرر كيف ينظمه الإله! فكان هذا النقاش الفلسفي العميق هو بدايات التحولات الكبرى.

ومن هذه الثورات العلمية يصل العلماء لحقيقة أن ما يبدو بالنسبة لنا نظاماً هو في الحقيقة قناع يخفي تحته وجود لا نعرف كيف نضبط قوانينه!

هل حلّت الفيزياء بدل الفلسفة؟

بعد أن حكمت المنظومة القديمة المتضمّنة لأفكار الفلاسفة القدماء العالم لفترات طويلة، والتي قد رأت بأن الكون قد فاض عن الموجد الأول (نظرية الفيض)، انهارت انهياراً ضخماً عن بكرة أبيها حينما بدأ العلم بمراصده وحساباته وأرقامه.. وبدأت الفيزياء تحتل مكان الفلسفة بعد أن كانت الفلسفة هي أم العلوم، حتى إن بعضهم قد كتب عن موت الفلسفة أمام العلم.. فهل ماتت الفلسفة حقيقة وانتهى دورها؟؟

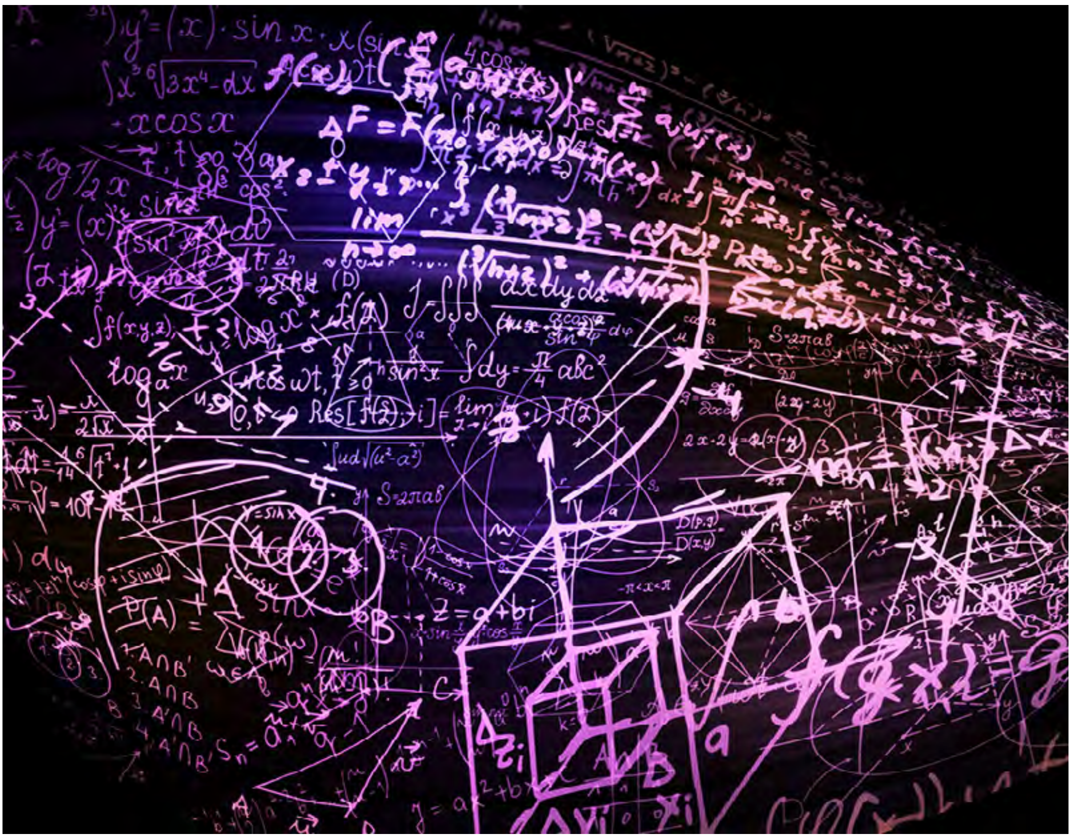
إن إطار الحياة الكلي تشغله الفلسفة حتماً بشكل من الأشكال، وإن الثورات الكبرى في أي علم ليست في ذات العلم ولكن في تغيير فلسفته، فالفلسفة عبارة عن فضاء للعمل العقلي والاجتماعي، بينما العلم جوهره الكلام عن المادة والقوانين التي تحكمها، وإن الفضاء العلمي لن يشتغل بدون الإنسان الذي يشغّل المادة والعالم الذي يتصوّره.

إننا وبوقفة صغيرة نجد أن الأهداف التي يريد أن يصل لها العلم في سبيل خدمة الإنسان، والطرق التي يريد أن يتحقق بها من المعلومات، وإعطاء لغة للموضوعات التي يتناولها.. كل ذلك يحتاج بشكل أساسي إلى فلسفة.

إن نظرية العلوم تقول: بأن القفزات الكبرى في العلم عبر التاريخ كانت في فلسفة العلم ولم تكن في ذات العلم، فإن العلم بعد لحظة معينة تُستَنفَذ آلياته؛ "ففيزياء نيوتن" مثلاً

استهلكت أغراضها، والبحوث اليوم كلها تجري في منطقه "فيزياء الكم" لكونها منطقة جديدة خصبة جداً للعلماء، وإن الذي نقلنا من فكرة نيوتن والمادة إلى فكرة الموجات هي الفلسفة؛ فلم يرَ أحد من الفلاسفة الموجات، ولم يرَ أحد منهم الذرات، إنما تصوروها تصوراً فلسفياً، فالعلوم الفلسفية تغذي العلوم الحديثه بالنقلات الكبرى التي تحدثها في الفكر، نتيجة طرحها لأسئلة جديدة عن هذا العالم.

إن الفلسفة ليست شيئاً بعيداً عنا خاصاً بعصور مضت، بل هي علم يمس حياتنا اليومية.. وبالتالي نحن بحاجة لتتبعها لندرك كيفية نشوء العصور الحديثة على وجه النقلات الفلسفية الكبرى التي حملت العالم والبشرية إلى العصور الحديثة، والتي غدا الصراع فيها على من يستطع أن ينتقل بكفاءة أكبر لهذا الفكر الجديد وتصوراته التي يحملها أو يحتاجها هذا العصر



الفلسفة وأثرها
في تشكُّل الحياة:
الوجود والخالق



تكلمنا في المبحث السابق عن أن الفلسفة قد سبقت العلوم وكانت حاضنتها الأولى، وأنه بعد أن تشكل العلم بشكله الحديث أصبح هنالك سباق بين العلم والفلسفة، فتقدّم العلم على الفلسفة في تفسيره لظواهر الكون؛ لكونه يتحقق من الظواهر عملياً، في حين تبقى تصورات الفلسفة تصورات نظرية، إلّا أن الفلسفة بالمقابل احتفظت بدور كبير يحيط بالعلم بعدها؛ فإن النقلات الكبرى في التطور الإنساني كانت نقلات فلسفية، فالعلم كي يشتغل يحتاج إلى مقدمات توفرها الفلسفة، فالفلسفة تحدد الأهداف التي يشتغل عليها العلم، ومنتجات العلم، والجانب الأخلاقي الذي يحكم إنتاجها في الخارج. فإن جوهر النقلات كائناً في العمق؛ فمن فكرة العناصر الأربعة، إلى فكرة الذرة، إلى فكرة الموجات.. كانت جميعها نقلات فكرية كبرى أساسها تحول في فلسفة العلم وليس في العلم ذاته..

واليوم أنتقل للحديث عن الفلسفة والدين. فهل الدين خالٍ من الفلسفة مستغنٍ عنها؟ أم أنها أحاطت به كما أحاطت ببقية العلوم؟

إن العقل الإنساني حينما التقى بالواقع الخارجي لاحظ ظاهرتين واضحتين، تحدّث بهما فلاسفة الطبيعة بإسهاب واسع:

1. القضية الأولى: قضية التغيير

حيث إن جميع الموجودات بتغيّر دائم؛ فالكائنات تموت، والأرض تتشقّق وتتصدع، والمياه تفيض وتجري وتتبخر..، فبنى الفلاسفة على هذا التَغَيُّر أن جميع الكائنات حادثة؛ لأنها لو كانت أزلية لبقيت على ما هي عليه، وقادت فكرة الحدوث إلى بداية السلسلة التي أحدثت كافة التغييرات في الكون، فالحادث لا بد له من موجد أوجده، والعقل الإنساني بطبيعته يتجه في محاولة معرفة نقطة البداية؛ فهو لا يتصور تسلسلاً لا ينتهي لأبد الآبدين، كما أنه لا بد لديه من سابق لهذه الحوادث نشأت عنه وتطورت إليه. فقادت هذه الفكرة إلى فكرة المحرك الأول، وسيبقى الخلاف بعد ذلك حول طبيعة هذا المحرك الذي أحدث هذه التغييرات.

2. القضية الثانية: عظمة الوجود

فالإنسان وَجَدَ أمامه دورة منظمة من الحياة والموت والنشأة والذهاب والإياب، فمن دورة الحيوانات التي تولد وتكبر ثم تموت وتفنى، إلى نظام الليل والنهار، إلى تعاقب الفصول

الأربعة.. كل شيء يمشي في أنظمة دقيقة مدروسة بعناية فائقة، وهذا كله يوصل إلى أن المحرك الأول كامل من جميع الجهات والصفات، فشغلت طبيعة هذا المحرِّك البشرية عبر التاريخ.. فغاصت الفلسفة في أعماق هذا السؤال محاولة الإجابة عنه، والفلسفة بطبعها **علم لا يعالج المشاكل إنما يعالج إشكالات**؛ بمعنى أن القضايا الفلسفية قد تنتهي إلى عدد من الإجابات تظل مفتوحة على الناس للنقاش إلى أبد الآبدين، إلا أنها توصلنا إلى محطات نعرف فيها الخيارات المتاحة أمامنا للتفكير.. ففي معنى هذا الوجود تولّدت تصورات كبرى شكلت عقل الإنسان:

التشكلات الفلسفية الناتجة في معنى الوجود

- وحدة الوجود
- إله خلق وتخلّى
- إله خلق واعتنى
- لا خالق للوجود

التصور الأول: وحدة الوجود

ربما يتساءل البعض عن سبب مناقشة هذه الفكرة في يومنا الحالي؟.. إن فكرة وحدة الوجود هي فكرة كبرى في تاريخ البشرية، ولا زالت قائمة وفاعلة إلى اليوم وفي المجتمع الصوفي على الخصوص، والمجتمع الصوفي اليوم ليس بالمجتمع اليسير، فإذا نظرنا لباكستان والهند وتركيا وأندونيسيا ومصر وبلاد الشام والمغرب العربي وإفريقيا وأوروبا.. وجدنا أن ظاهرة الصوفية حاضرة وبقوة، وبالتالي يحتاج الإنسان حينما يبني الجهاز المعرفي أن تكون فكرة كهذه واضحة بالنسبة له. .

هنالك عبر التاريخ من قال أن المحرك الأول ليس شيئاً مستقلاً عن الوجود، بل إن الوجود قد فاض عن هذا المحرك المكتمل كما تفيض الكأس المكتملة بالماء؛ فهو الطاقة الموجودة في الوجود، وهو النور المنبث فيه، فكل الموجودات هي الله، والله هو هذه الموجودات، وهذا عند الناس التي تؤمن بالله، أما عند الناس الذين لا يؤمنون بالله فإن الحياة تُسيَّر عبر وجود كوني

يديرها (الطبيعة) وهو الوجود ذاته، وإن مدرسة وحدة الوجود شكَّلَت ثقافة أمم كثيرة، فإذا نظرنا إلى الهند وإلى المناطق التي تحيط بها سنلحظ تواجد فكرة اتحاد الموجد مع الموجود بقوة سواء بموجد مختفٍ متعالٍ كما في "البراهما"، أو بموجود كوني حاضر في الطبيعة، وهم الناس الذين يرون أن أمهم هي الطبيعة..

الخلق	الخلق شي من العدم أوجده الخالق بحسب إرادته
الصدور (الفيض)	فعل لازم لحالة الكمال عند الموجود الأول وخارج عن إرادته

وإن تشكُّل العقليات على هذه الفكرة سيبني جهازاً معرفياً خاصاً بها، أي أن مخرجات الفئات التي تؤمن بفكرة وحدة الوجود ستكون كلها نابعة من تلك الفكرة؛ فتم ملء فراغ التفصيلات المتمثلة بـ كيف يعاقب الإنسان؟ وماذا سيحدث له؟ ولماذا يجب عليه أن يقوم بالفضيلة؟ وتفصيلات أخرى على عامود فقري عنوانه: "كيف سيعيش الإنسان موجوداً في فكرة وحدة الوجود".

وهنا لا بد لنا من وقفة سريعة - ستطول في وقت لاحق - عن معنى الجهاز المعرفي، وإسقاطه على الواقع، وكيف ستتأثر كل مخرجات محتَذِي جهاز معرفي معين به.



إن لكل جهاز معرفي خمسة عناصر أساسية،
هي على الشكل التالي:

المصدر
المقصود بالمصدر منبع الفكرة التي يحتذيها الجهاز المعرفي..

الفهم
إطار الفهم الذي سيفهم به جهاز ما

الديناموالمولد
يقصد بالأداة طريقة الحجاج التي سيستخدمها الإنسان

الأداة
يقصد بالأداة طريقة الحجاج التي سيستخدمها الإنسان

المنتجات
ومنتجات كل جهاز معرفي هي تبع له فالجهاز المعرفي الفلسفي منتجاته فلسفية، والعرفاني عرفانية

ولمزيد من التوضيح عن تأثّر مخرجات الإنسان بالجهاز المعرفي الذي يحمله نسوق مثالاً للرازي حينما فسّر القرآن الكريم؛ حيث بنى الرازي تفسيره متأثراً بعقدة الجهاز المعرفي لديه، فنجد أنه حينما مرَّ على تفسير ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ...﴾ يقول "الأول" هو ما يصدر عنه كل موجود ولم يقل "خالق" على الرغم من أن في القرآن الكريم آيات كثيرة تفيد فكرة الخلق، إلا أن الرازي متأثراً بفكرة أن البسيط لا يلد إلا بسيطاً (وحدة الوجود)، فهو لم يأتِ إلى الآيات خالي البال من الحمولة الفلسفية التي يحملها، وبالتالي حمولته ستنعكس بالضرورة على كل شرح له، وهنا ندخل لفكرة "القبليات" التي تحكم الإنسان عند تعاطيه مع أي نص من النصوص، فالإنسان حتى وإن ظن نفسه خالٍ من الفلسفة سيجد أنه يحملها معه دون أن يدري!

1. الجهاز الوجودي الفلسفي:

إن فكرة وحدة الوجود قد تشكلت في الفضاء الإنساني بأشكال وصور مختلفة باختلاف المصادر التي صدرت عنها، فكان أحد أشكالها (نظرية الفيض) التي كان المصدر الأساسي لها العقل الفلسفي، وهي عبارة عن دمج مجموعات من الأفكار المتعلقة بوجود المحرك الأول بوحدة الوجود، والمتعلقة بالأفلاك، والأفلاطونية (العالم الكامل وعالم الظلال).

وقد حكمت نظرية الفيض الحضارة اليونانية، وتبعتها لجزء من الحضارة الإسلامية، فتفنن الفلاسفة المسلمون في محاولة شرح "نظرية الفيض"، واعتبروا أن الوجود إن لم يكن هو الإله، فهو فيض منه، وامتداد له بشكل من الأشكال، وهذا مبثوث في التراث الصوفي العرفاني، وفي التراث الفلسفي بشكل كبير، وقد نجده على شكل قصائد وأبيات من الشعر، أو نسمعه في حلقات التصوف.. وقد شكّل هذا الفضاء علاقة بالعالم مختلفة عن تشكلات أخرى سنراها لاحقاً، فأثرت فكرة الفيض في حياة الناس وفي قراراتهم وتصوراتهم للوجود وفي علاقتهم بالموجودات.

الجهاز المعرفي للمدرسة الفلسفية	المصدر	أداة النحت	الدينمو المولد	الفهم	المنتجات
	العقل الفلسفي	البرهان المنطقي	وحدة الوجود	فلسفي	فلسفية

2. الجهاز الوجودي العرفاني:

سنتوقف مع قصة صغيرة تشرح لنا العرفان بشكل جيد..

"في فترة من الفترات تخرَّج أحد القضاة من المدارس الشرعية، وكان متفوقاً جداً، فعينه السلطان في إحدى الولايات البعيدة.. أخذ حصانه وسيفه وبعض الزاد والماء وقطع المسافات.. وفي طريقه الصحراوي أصيب وحصانه بالعطش بعد أن نفذ الماء الذي كان يحمله، ثم صادف شيخاً يسير في الطريق فسأله إن كان يعرف مكاناً فيه ماء فأجابه الشيخ بأن المطر سينزل بعد قليل، استغرب الرجل وسأل الشيخ: كيف سينزل المطر وهذا ليس موسم أمطار ونحن في الصحراء؟! بعد قليل بدأ المطر ينهمر ودخل الاثنان إلى الكهف، ثم دار بينهما حوار

سيعكس الفارق لمن أراد أن يتذكر ما هي مدرسة العرفان وعلاقتها بمدرسة وحدة الوجود.. فالقاضي الذي درس العلوم الشرعية - أي درس ظاهر العلم الشرعي كما يقال - سأل الشيخ: هل لديك كشف وإلهام ورؤى أم أنك رجل بصير بالطقس والجو وتعرف متى سينزل المطر؟ لم يلتفت الشيخ له وقال: ليس لدي إلهام إلا أنني دائماً قبل نزول المطر بقليل أشعر بخشونة وألم في ركبتي، فعلمي بنزول المطر ناتج عن هذا الإحساس في ركبتي، استغرب القاضي قائلاً: ماعلاقة ركبتك بالمطر؟ قال هل أصبت يوماً في رجلك فنتج عن إصابتك صداعاً في رأسك؟ فأجاب القاضي: نعم، فقال الشيخ: مايحدث معي هو مايحدث في الجسد، فأنا وهذا الوجود شيء واحد، فأحياناً يُسمِّع الوجود في جسدي لأنني جزء منه!

فهذا الشيخ يمثل ثقافة العرفان والتي نجدها منتشرة في البيئة الصوفية بشدة، فنجد مثلاً في الدراما التركية كيف أن الرجل الصالح قد يشعر بتلميذه ومايحل به من أذية حتى لو كان منقطعاً عنه، وكيف أنه يتنقل في الطبيعة بسرعة وسهولة..

وعلى الرغم من أن اشتراك الجذر بين مدرسة العرفان ومدرسة الفيض - فالجذر عندهم هو "وحدة الوجود" أو أن "البسيط لا يلد إلابسيطاً" أو "الاتصال مع الإله بشكل عضوي"-، إلا أن الجهاز المعرفي للعرفانية فيه اختلافات؛ فالمصدر هنا ليس الفكر الفلسفي إنما هو الإلهام؛ أي أن هذا ما أُلقي في روع أو وجدان الإنسان الصالح، والأداة هي الكشف القلبي، فالإنسان الصالح لديهم يتلقى المعرفة دون حاجة لعلم خارجي، والدينمو المولد هو وحدة الوجود، والفهم عرفاني وبالتالي نجد المنتجات عرفانية

الجهاز المعرفي للمدرسة العرفانية	المصدر	أداة النحت	الدينمو المولد	الفهم	المنتجات
	الإلهام	الكشف القلبي	وحدة الوجود	العرفاني	العرفانية

ويرى العرفانيون أن التوحيد ثلاثة أصناف:

1 توحيد العوام: أي المتشرعنة الذين يحملون ظاهر الأمور.

2
توحيد الخواص

أو يسمونهم المتخلّقة وهم الناس الذين يلتزمون بالجانب الأخلاقي الناشئ عن الصلة بالله، ويتّسمون بكونهم لا يعاينون الأقدار، إنما يسلمون أنفسه للمكانيكا الكونية.

3
توحيد خواص الخواص

هو للعرفاء فقط، وهو الفناء المحض في الله عز وجل، وهنا تأتي قضية ((ولايزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)).



والعرفانية تجد أن الفيض فيضين؛ الفيض الأول (الفيض الأقدس) والذي فاض فولدت الأشكال في العلم الإلهي قبل أن تأتي لعالمنا المدنّس، والفيض الثاني (الفيض المقدس) وهو الفيض الذي سيُخرج الموجودات من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

إن الجهاز المعرفي المتحكم هو أساس مخرجات الإنسان

وإن الجهاز العرفاني حينما يقف على آية ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ . .﴾ سيقول لنا: إن الكثرة والتعدد تعود إلى واحد، وهو الباطن في ذاته..

وبعد هذا الشرح حينما يأتينا شخص فيقول شعراً:

أَنا مَن أَهوى وَمَن أَهوى أَنا نَحنُ روحانِ حَلَلنا بَدَنا

فَإِذا أَبصَرتَنـــي أَبصَرتَــهُ وَإِذا أَبصَرتَهُ أَبصَرتَنـــا

فهنا ندرك أنه يتكلّم عن الوحدة والفناء التام بين الموجد والموجود

التصور الثاني: إله خلق وتخلّى

الرؤية الكونية التي تحكمنا نحن المسلمون ناتجة بكل تفاصيلها عن الرؤية الفلسفية الأولى «وجود إله خالق ومعتن»

إن النظرة الأخرى عن المحرك الأول وسبب الوجود هو اعتقاد أن هنالك إله خلق وتخلّى؛ أي إنه إله مستقل عن الكون، خلق الوجود وتخلى عنه، والذي يدير الوجود من بعده هم الأصنام، والآلهة الموجودة على الأرض، والكهنة المحيطون بها. وكان هذا اعتقاد عرب الجاهلية، حيث كانوا يؤمنون بخالق للكون ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.. وحينما جاءهم محمد ﷺ وقال لهم "بسم الله الرحمن الرحيم"، قالوا: مانعرف الرحمن الرحيم! إنما نعرف "باسمك اللهم". فأصحاب التصور الثاني يجدون أن الخالق خلق وتخلّى وهنالك من يقوم بدوره، وبإلحاق "الرحمن الرحيم" يبرز معنى أنه إله معتن لم يترك عمله للأصنام والكهنة..

فنجد أنه وبمجرد تغيير الفلسفة التي تقف خلف عبارة بسيطة جداً كان يمكن أن تتغير الحياة بالكامل.. وقد فعلت!

التصور الثالث- إله خلق واعتنى

فهي إذاً نظرة أخرى تخلّقت عن قضية المحرك الأول، تقتضي وجود إله خلق واعتنى بموجب الرحمة بهذا الوجود، على نحو الفهم الإسلامي للإله، وهو أيضاً فهم نتج عنه تصور لكيفية الحياة وكيفية العبادات، فنحن المسلمون نعيش عبر رؤية كونية كبرى

بأن هنالك إله خالق معتني، وبالتالي هنالك حساب وعقاب، وتفصيلات أخرى في القانون الإلهي المتمثل بالقرآن الكريم، وأن على الإنسان أن يتبع هذا النظام الكوني الذي وضعه الله عز وجل، إلا أن المسلمين في علاج الشأن الإسلامي عموماً على انقسامات عديدة، تختلف باختلاف الأجهزة المعرفية المحتذاة؛ فلدينا تفسير المتصوفة، وتفسير الفلاسفة، وتفسير المتكلمين، وتفسير البيانيين..

فالفلسفة تطال حتى البنية الكثيفة المشتغلة في كتبنا الإسلامية المتمثلة في "المدرسة البيانية"، التي تتعامل اليوم مع النص وفق اللغة العربية والظاهر العربي في عصر الرسالة، حيث إن وراء هذه الكتلة فلسفة قوية تنادي بأن اللغة العربية والظاهر العربي في عصر النبوة كافيان لفتح مغاليق النص وفهم المراد منه دون إضافات عقلية أخرى مثل العرفان والفلسفة وكلام المتكلمين.

الجهاز المعرفي للمدرسة البيانية	المصدر	أداة النحت	الدينمو المولد	الفهم	المنتجات
	النص	اللغة العربية	الدلالة العرفية في العصر النبوي	بياني	بيانية



التصوّر الرابع- لا خالق للوجود

كما نعرف جميعاً أن هنالك نظرة تنفي احتمالية وجود خالق للكون أساساً، ويرى محتذو هذه النظرة أن العلم بما وصل إليه قادر على فك شيفرة الكون وتقديم تفسيرات أكثر كفاءة من تلك التي تقدمها الأديان، فيتم النظر للوجود بنظرة مادية صرفة، عبر نظرية التطور، ونظرية الانفجار الكبير التي مفادها أن الوجود بدأ من انفجار كوني ضخم؛ نتج عن غازات صغيرة جداً، وذلك ما يسمى بنظرية الانفجار الكبير، وأن الأدلة على الانفجار مبثوثة في الكون بشكل واضح جداً، فلا تزال بقايا الغبار الكوني جرّاء الانفجار موجودة، ولا زالت الدنيا تتسع باتساع البالون الذي خلّفه هذا الانفجار، ولاتزال الكواكب تتباعد، وتتخلق الفجوات في الفضاء، وما زلنا إلى اليوم قادرين عبر الرادارات أن نرصد الغبار الكوني والإشعاع الخلفي نتيجة الانفجار.

وهذا التصور المادي للكون قاد إلى قناعات بأنه إذا كانت الحياة حاصلة نتيجة الصدف المتراكمة عبر مليارات السنين، التي بدورها أوجدت المخلوقات بعملية التطور والنشوء والارتقاء بشكل من الأشكال.. فعلى الإنسان إذاً أن يصنع عالمه بنفسه، وأن يقرر الصواب والخطأ من دون احتياج لفكرة الإله أو شيء ما ورائي للوجود.

ومرة أخرى نعود لذات القول بأن ما كان يبدو أنه خال من الفلسفة سنجده معبأ بالفلسفة ومليء بها، فكما ذكرنا سابقاً بأنه وبمجرد دخولنا بـ "ماذا" و"لماذا" سنكون قد دخلنا في الفلسفة، فجميع هذه القضايا هي قضايا في عمق الفلسفة، وقد استنفرت ثلة كبيرة من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم.. في سبيل البحث في تلك القضايا والدفاع عن المنظومات العقلية التي حملها الإنسان.

فلم تقتصر الفلسفة على تشكيل الجانب العلمي الذي تناولناه سابقاً، بل امتدت لتشكِّل لنا فضاء للدفاع عن أفكارنا في القضايا المتعلقة بالوجود الأول، وعلاقته بالكون الذي نعيش فيه، فإننا لو نظرنا في صفحات الانترنت بجدال المؤمنين والملحدين لوجدناه في النهاية جدالاً فلسفياً بعيد الأثر يطال أفعال الإنسان اليومية؛ حيث إنه يبدأ من الكلام الكبير عن وجود إله أو عدمه.. وينتهي بما يتوجب علينا فعله في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

فالانسان بطبيعته خُلِقَ متسائلاً.. وإن سبب تغيير ديننا من دين إلى دين، وسبب انتقال الجاهليين من الجاهلية إلى الإسلام وجود أسئلة غير مجاب عنها، فلما ظهرت ديانة أجابت عن أسئلتهم انتقلوا لها، ولما تعقدت الأفكار المطروحة ظهر المتكلمون والفلاسفة.. فكما أن الفلسفة ليست شيئاً معزولاً عن حياتنا فإنها أيضاً شيء لا يمكننا عزله فوجودنا كله مرتبط بهذه التصورات سواء أدركنا أو لم ندرك، وسواء أردنا أم لم نرد!

الفلسفة والحياة:
التحقق من ادعاءتنا
الكبرى بالمعرفة

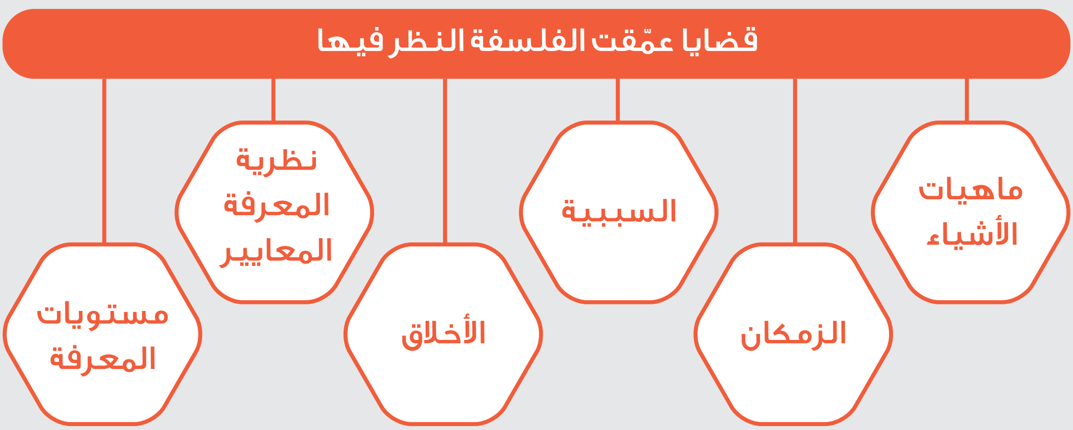


نأتي في هذا الطرح إلى بعض القضايا المحسوبة أيضاً على نظرية المعرفة والتي قد تعترضنا في أثناء القراءة والاطلاع.

الفلسفة كشف عن المجهول باستمرار لمحاولة معرفة ما يمكن أن ينتجه العقل من إجابات عن الأسئلة المحيرة

ولا زلنا ننتقل بالتدريج خطوة خطوة في درب استيضاح أثر الفلسفة بحياتنا اليومية.. حيث إن نطاق الفلسفة لم يقتصر على القضايا التي ذكرناها المتمثلة بقضية العلم وكيف نؤسس العلم والمعرفة؛ سواء عبر تصور الوجود بأنه ماء وهواء ونار وتراب، أو عبر تصور الوجود بأنه ذرات، أو تصور الوجود بأنه موجات، أو في مرحلة أخرى متمثلة بـ "هل يوجد لهذا الوجود خالق (محرك أول) أطلقه؟ أم أن هذا الوجود هو امتداد متسلسل إلى مالا نهاية؟ أم أن هذا الوجود ناتج عن انفجار..؟" وكل ما تبع هذه التصورات من إيمان أو كفر بحسب تشكُّل العالم بشكل أو بآخر في عقول الناس عبر التاريخ.. فالبشرية لم تقف عند هذه المواضيع فحسب..

وسنتعرف في هذا المبحث على بعض المفاهيم التي حاولت الفلسفة أن تعمّق النظر فيها من باب اكتشاف العبارات التي نستخدمها في الحياة ومدى دقتها..

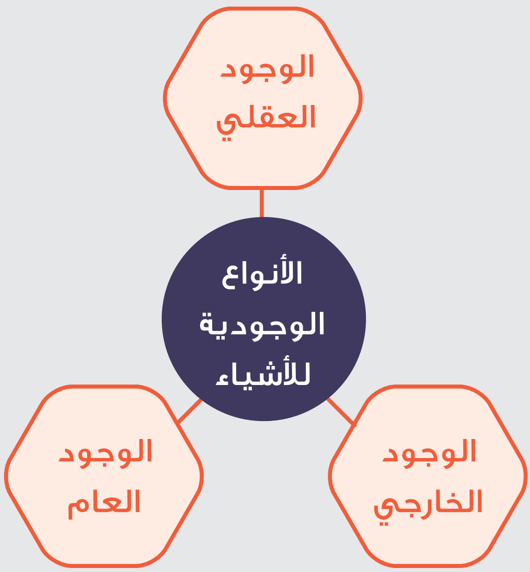


أولاً- ماهيات الأشياء

نقصد بماهية الأشياء روح الأشياء، أو ما يختفي وراءها، أو جذورها، أو ما يعرف بـ (روح الأشياء Essance)..

من الأمور التي دخلت إليها الفلسفة مسألة "الوجود الخارجي"، فأنا أخاطبكم وتقرؤون كلماتي على أساس أنا موجود.. فالسؤال المفصلي هنا ما هو هذا الوجود؟ وهل هنالك وجود حقيقي للأشياء في الخارج أم هي صور في أذهاننا فقط، وهل أول ما سنطفئ أذهاننا ستختفي هذه الصور التي نراها؟

تتمثل الأشياء في ثلاثة أنواع وجودية؛ وجود عقلي ومادي وعام:



1. **الوجود العقلي للماهيات:** صورة ذهنية نختزنها في أذهاننا عن الوجود وقد نتفاعل معه دون وجود خارجي له إلا في عقولنا. فحينما أقول أنا أعرف، أو نحن نفكر، فإن الشخص الذي يخاطب نفسه هنا هو في حقيقة الأمر يخاطب وجوداً عقلياً في ذهن الشخص نفسه.
2. **الوجود الخارجي:** هو الوجود المادي المحسوس، ونسميه بحسب تعبيرنا وجود حقيقي.
3. **الوجود العام:** وهو التقاء وعينا بشيء لا قِبَلَ لنا بصدده، فيمثل الشعور لدينا بأن هنالك شيئاً في الخارج.

فنحن إذاً أمام ثلاثة وجودات؛ الوجود الخارجي المتعين وهو هذه الموجودات التي نعيش بها، والوجود العقلي والذي هو الأسئلة التي نتداولها حول مفهوم اسمه الوجود، والوجود العام الذي نلتقيه في المعرفة المباشرة التي لا تحتاج منا علماً خارجياً والتي تلقيناها عندما كنا صغاراً، فحينها لم يعلمنا أو يناقشنا أحد عن الوجود الخارجي، فتعاملنا معه على أنه حقيقة واضحة..

فيسمون هذا الوجود بـ "أوضح الواضحات" أي أن الوجود في ذاته أوضح الواضحات؛ حيث يلتقي الوعي بشيء لا يستطيع أن يدفعه، ولا يحتاج الفرد أن يعلم وجوده من أحد فهذا مايسمى الوجود العام.

فالفلسفة حاولت أن تفكك لنا كلمة الوجود التي ندّعيها من جوانبها المختلفة، وأبحرت في هذا الفضاء إبحاراً كبيراً.

ثانياً-الزمكان Spacetime

وهي فكرة معاصرة متعلقة بنظريات أينشتاين. ومن الضروري جداً أن يعرفها الإنسان لأنها مما قد يواجهه بكثرة خلال مسيرته العلمية..

لقد احتل سؤال المكان - أي الاستفسار عن ماهية المكان - حيّزاً كبيراً في العقل الإنساني، فعنيت الفلسفة بالمكان وبماذا نعني بالمكان؟ وهل المكان شيء يصنعه عقلنا كي يضع فيه الأشياء؟ أم هنالك شيء خارج العقل اسمه المكان؟ أم هو وجود عقلي بحيث أن العقل مهيأ ليستقبل كل الموجودات في حيز اسمه المكان؟ وقد كان المخيال القديم يتصور ثلاثة أبعاد للوجود تحتوي بداخلها جميع الموجودات وهي "الطول والعرض والعمق"، وكأن العالم يعيش ضمن صندوق ضخم ذو أبعاد. ثم طرح "آينشتاين" سؤاله ووضع له معادلة رياضية، والسؤال هو ماذا لو أضفنا "بُعد الزمن" للأبعاد الثلاثة السابقة؟

ومن هذا السؤال تولّدت عدة أسئلة كبيرة منها:

- هل الزمان يتجة للإمام أم يمكن له أن يتجه للخلف أيضاً أي أن نرتحل في الزمان للخلف؟
- هل الزمكان عقلي لايثبت وجوده الخارجي أم هو وجود خارجي؟ أي هل عقولنا مبرمجة على استقبال الأشياء وفق الأبعاد أم أن الأبعاد هذه لها وجود فعلي خارج العقل؟

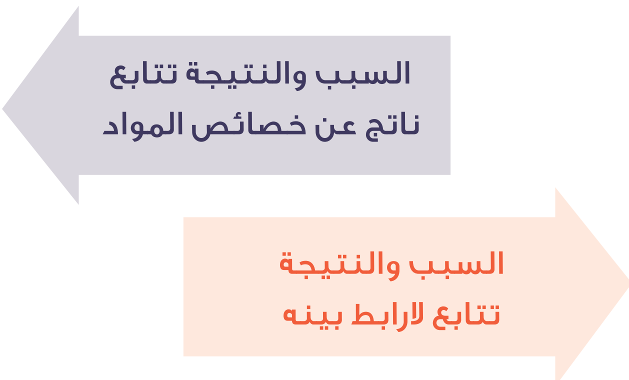
وقد طرح أينشتاين لمثل هذه الأسئلة نماذج تفسيرية ضخمة مثل أن التوقيت قد يختلف في الفضاء عن التوقيت في الأرض إلى غير ذلك من القضايا التي تبدو في الظاهر أموراً لا لزوم لها! إلا أنها قضايا قامت عليها تغييرات كبرى؛ حيث إن "آينشتاين" استطاع بإدخال

هذه المعادلة أن يحدد أماكن الأشياء في الفضاء الخارجي باستخدام الزمن بعد أن كان يستخدم المكان لذلك.

فالذي كان يبدو وكأنه فلسفة تحول إلى مصطلحات موجودة في الفيزياء وتطبق عليها الرحلات الضوئية للضوء والتصورات المتعلقة بالعلوم التطبيقية في الانتقال الكوني..

إذاً بشكل من الأشكال دمجت الفلسفة بين قضية الأسئلة التي لا يريد العقل "العقل البسيط" أن يتعامل معها، وبين العلوم التجريبية والتطبيقية، كما أنها أعطت لغة جديدة لهذه الأشياء الموجودة

ثالثاً- السببية



ومن الأشياء التي بحثتها الفلسفة أيضاً علاقة السبب بالنتيجة والتي زاحمت الفلسفة مسافة طويلة، فمثلاً لو أننا وضعنا ورق ووضعنا أمامه نار.. فهل سيحترق الورق لأن النار فيها خصائص الإحراق والورق فيه خصائص الاحتراق؟ أم أن هذه الاحتراق حادث بفعل الله ولا علاقة تربط بين كلا الشيئين؟

لدينا في التاريخ الإسلامي من قال أنه لا توجد علاقة بين الحارق والمحترق والعقل لا يوجب الاحتراق لوجود النار والورقة، فمن الممكن أن يوجدا ولا يحترقا! ؛ فالله سبحانه وتعالى يفعل هذا، وقد كان يقال "ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة" فكانوا يعتقدون القول في خصائص الأشياء ينفي فعل الله عنها. ثم قام "الجويني" بحل تلك المشكلة فقال: إن الله قد وضع الخصائص للأشياء وهي تتناهى إلى السبب الأول وهو الله، فالمواد لها طبيعتها الخاصة التي خلقها الله فيها؛ فالنار تحرق لأن الله وضع فيها خصائص الإحراق، والورقة تحترق لأنه

عز وجل وضع فيها خصائص الاحتراق، والمسافه كبيرة جداً بين الذين يقولون بالأولى والذين يقولون بالثانية؛ فالناس الذين يقولون بالثانية سيدرسون الماده وتطبيقاتها وخصائص النار، وما الذي يحترق في النار، ومن أين تنشأ الطاقة في النار، ومن أين تنشأ قابلية الاحتراق في الورق، وسيصلون لفكرة أن المادة المحترقة مكونة من جزيئات تربطها طاقة وأنه بتحرير الطاقة يحدث الاشتعال.. أما الرأي الآخر فينفي العلاقة بينهما. وإن هذا التصور لربما هو الذي أدى إلى سقوط الحضارة الإسلامية، فحينما أتت الحضارة التي نفت الخصائص في المواد لم يعد من داع لدراسة الأسباب التي أدت للإشعال والاشتعال، فالمجتمعات التي تعتقد أن بداخل الظواهر قوانين ثابتة تحكمها تحاول أن توظف هذه القوانين لخدمة الإنسان والحياة بشكل أكبر من الأمم التي تعتقد أنه لا علاقة بينهما سوى التتابع الذي يلحظه العقل فيها لا أكثر ولا أقل.

إن موضوع العلاقة بين السبب والنتيجة قد يبدو للوهلة الأولى أنه موضوع لاقيمة له قد مات وانتهي! إلا أنه في الحقيقة موضوع قد يقيم حضارة أو يسقط حضارة، فكم من معلومات هائلة تركبت عن هذا التغيير الفلسفي

رابعاً- الفلسفة والأخلاق

إن علم الأخلاق هو علم يتم من خلاله إصدار الحكم على الأشياء، وتوصف تلك الأحكام بأنها قيم معيارية تظهر في الخارج. وتعني القيمة التي نعطيها لشيء ما؛ فمعايرة الذهب يعني اكتشاف قيمته.

هي إصدار الحكم على الشيء من ناحية قيمته

المعيارية

إننا طوال الوقت نحن بشر لدينا أحكام عن الأشياء، فالإنسان إزاء أي تصرف يصدر تقييمات (هذا صواب وهذا خطأ، هذا عمل جميل، وهذا

عمل قبيح،..) وإننا بدخولنا في مساحة الأحكام (الصواب والخطأ، الحسن والقبيح..) نكون قد دخلنا في منطقة ما يسمى علم الأخلاق أو الـ(Axiolgy).

مسألة التحسين والتقبيح:

قد أخذت هذه المسألة نقاشاً في الفلسفة الإسلامية لاسيما بين المعتزلة والأشاعرة، وتمظهرت في قضية التحسين والتقبيح العقليين، وقد كان الاختلاف بينهما حول مصدر الأحكام الأخلاقية، هل هو عقلي؟ أم ليس من ممكنات العقل (مصدره إلهي)؟ رأت المعتزلة أن العقل قادر على التحسين والتقبيح ويحكم الشرع، بينما رأى الأشاعرة أن المصدر إلهي، والعقل موضع الضلال.. وقد قاد هذا إلى أسئلة كبيرة.. فهل جاءت الشريعة لتتمم مكارم أخلاق التي كانت موجودة أصلاً؟ وبالتالي هل استطاعوا من خلال المعيار العقلي الموجود لديهم أن يميزوا بين صدق الرسول وكذبه، وبين كرمه وبخله، وبين حسن مايقول أو سوء مايقول؟ بل إن هذا المعيار العقلي كان سبب دخولهم في الإيمان؛ فلولا أن العقل يستحسن وجود رابط بين الأشياء، ووجود علل وأسباب متتابعة فيها، وأن العقل يمكن له من خلال التأمل أن يصل للموجد الأول لما دخلوا في الإيمان، وهذا على عكس تماماً ماقالت به الأشاعرة، وإن هذا النزاع الكبير هو جزء من علم الأخلاق وبه تحدّدت أشياء كثيرة. ومسألة التحسين والتقبيح العقلي لم تثار عند المسلمين فقط، بل هو موضوع فلسفي عالمي جوهره هل الإنسان قادر على الوصول إلى القبيح والحسن؟

هل الأخلاق نسبية؟

إن القول بنسبية الأخلاق هو قول خطير جداً، وهو ينفي القول بوجود معيار واحد للأخلاق؛ بمعنى أن الحسن في بيئة قد يكون سيء في بيئة ثانية فعلى سبيل المثال: قد نقول لإنسان ما "هذا العمل ليس صواباً"، فيجيبنا: بأن "الأخلاق نسبية"!

وهنا يجدر أن نطرح عدة مواقف لنصل من خلالها للفيصل في هذه المسألة..

فلنأخذ على سبيل المثال قيمة الإيثار والتضحية من أجل المجتمع.. فهل توجد أمة من أمم الأرض لا تُقيّم الناس الذين ضحوا من أجل بقائها؟ إننا في كل أمم الأرض سنجد صور الناس الذين ضحّوا منتشرة، وذلك بغض النظر عن الحضارة أو شكل الحضارة، أو شكل المجتمع.



كما إننا بالنظر إلى قيم أخرى؛ لو ذهبنا نبحث في كتب الأمم المختلفة سنجد لدى كل منها قصصاً تتعلق بالأخلاق، وأخرى تتعلق بالصبر، وأخرى بالأمانة.. ولن نجد مجتمعات بشرية تخلو من قصص للأطفال تحث على القيم، فهذا مشترك إنساني عام سنجده في كل المجتمعات البشرية.

ثم إننا إن ذهبنا إلى القوانين الاجتماعية فلن نجد مجتمعاً إلا وفيه عقوبة للقتل وللسرقة، ولن نجد مجتمعاً إلا وينظر بازدراء للكذابين، كما أن المطالبة بالمساواة أمام القانون موجودة في كل المجتمعات.. و أكثر من ذلك أنه حتى الناس الذين يقولون بنسبية الأخلاق تجدهم يمارسون الفعل الخلقي في حياتهم العادية، فقد تجد إنساناً يقول بصلابة الأخلاق وموضوعيتها ولا يطبقها، وتجد إنساناً آخر يقول بنسبية الأخلاق وتجده في منتهى الأخلاق.. فما الذي يجعله يعتقد بنسبية الأخلاق ويتمسك بالأخلاق؟

إننا فطرياً إذا سافرنا إلى مجتمع من المجتمعات وتلقينا معاملة سيئة في المطار أو في التكسي أو في الفندق.. فبغض النظر عن جنسيتنا ما هي سنجد أنفسنا منزعجين، ونفوسنا متعبة، وإذا ما وجدنا معاملة حسنة وخلق طيب سنبتهج..

إننا في كل الأحوال نقول دون أن نشعر أن هنالك قدر مشترك من الأخلاق والقيم موجود في كل المجتمعات البشرية!. ولذلك نجد القرآن الكريم لما أمر المسلمين بالعدل وأمرهم بالإحسان لم يستفض في شرح هذه المعاني لكونها موجودة في فطرة الناس المسلمين وغيرهم.. ومن هنا فإن فكرة نسبية القيم محتاجة لإعادة تدوير ونظر من زاوية أخرى.

خامساً- نظرية المعرفة (الجوهر)

كنا قد تحدثنا عن نظرية المعرفة سابقاً.. وإن نظرية المعرفة هي التفكير في التفكير. وما أريد الحديث عنه في هذه القسم هو جوهر نظرية المعرفة، وهو البحث عن المعايير المشتركة في النظرية والابتعاد عن المعايير الخاصة، وأقصد بالمعايير المشتركة المعايير التي يتفق عليها الجميع، فعلى سبيل المثال أي شخص مهما اختلفت جنسيته أو طريقة تفكيره إذا ماحدّثته بكلام يضرب بعضه بعضاً فسيكتشف على الفور بأني أقول كلاماً متناقضاً، والسبب في ذلك أننا لدينا قواعد مشتركة في عقولنا مهما اختلفنا.. فمن القضايا المشتركة في المعرفة قانون "عدم التناقض" وأيضاً "البحث التجريبي" فإذا ما قامت تجربة حملت ذات الظروف سواء في الصين أو في الهند أو في اليابان.. فستحمل قطعاً ذات النتائج، وبالتالي نستطيع أن نحتكم إلى معيار واحد في مسألة ما وهذه هي المعايير المشتركة.

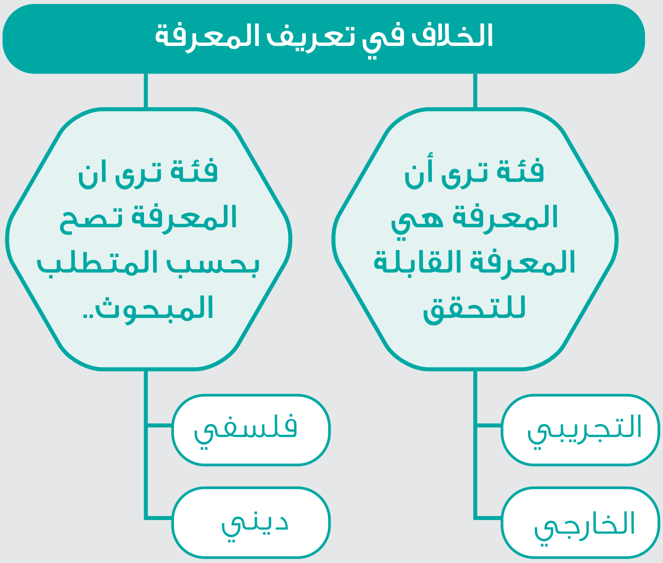
أما المعايير الخاصة فقد يكون أحد أشكالها الحكم على الأشياء بالرؤى وقول الشيخ أي "المعايير العرفانية".

الخلاف في تعريف المعرفة:

اتجه الناس أولاً في نظرية المعرفة إلى فكرة ناسبت العصور التي نتجت ونمت وتطورت فيها نظرية المعرفة، وهي عصور بشكل من الأشكال غلب عليها الطابع المعرفي المادي، الذي يعترف بالتجربة الخارجية كبرهان، وبالتالي تبلورت فكرة أن المعرفة يجب أن تكون معتقد نجزم به ونستطيع أن ندلل عليه، فيكون صحيح إذا ما قارنّاه بالواقع الخارجي.

إلا أن الناس الذين يحملون الفكر والتصور الفلسفي أضافوا على هذا الموضوع لفظة أخرى تناسب ما يريدون الذهاب إليه، حيث أنهم وجدوا أن التجربة الخارجية أو البرهان الخارجي

أمر يتعذر تحقيقه على كثير من العلوم الموجودة، فاعتبروا أن الصحيح صحيح بالنسبة للموضوع الذي يتم الحديث عنه؛ فما هو من طبيعته فلسفي يحاجَج به فلسفياً، وما هو من طبيعته ديني يحاجج به دينياً.. وبالتالي هو صحيح بالنسبة لنوعية المعرفة الموجودة..



وإن الخلاف بين كلا الفئتين نجده حاضراً بقوة في الحوارات بين الملاحدة والمتدينين، فإن الملحد يرفض أي موضوع خارج عن الاختبار والتجريب، فهذه الفئة ترى أن المعارف التي لايمكن للبرهنة العملية أن تتم عليها فستدخلها الميول والآراء الشخصية لا محالة، في حين أن المتدينين يخاطبونهم بنوع ثان من الفلسفة يفضي بأن لكل علم مايقابله من سبل الإثبات.

إن الشيء المتفق عليه بين الناس أنَّ ما يجزم به الإنسان، ويستطيع أن يبرهن عنه، وأن يطابقه بالواقع فهو صحيح.. وبذلك قد أضيفت في هذه القضية إضافة مهمة لعلاج قضايا أخرى سيأتي مكانها في سياق آخر.. وإنَّ أي شخص يشتغل في مشروع الفكر يحتاج أن يعرف هذا الخلاف ونوعيته وإلى أين يتجه..

ومن اللطيف في هذه القضية بأن كلتا المدرستين بدأت تقترب اليوم من الأخرى؛ فنجد لدينا أن الفلسفة التجريبية بدأت تدرّس اليوم فلسفة العلوم، وسنجد عندنا أن الناس المشتغلون بالعلوم الإنسانية بدؤوا يعتمدون على الأرقام بدلاً من الفلسفة المطلقة، فيحولون الغير محسوس إلى أرقام وإحصائيات بهدف الوصول إلى معرفة أكثر صلابة، فظهرت بين الفلسفتين منطقة مشتركة.

سادساً- مستويات المعرفة

إن من الأمور التي تُشْكِل على الناس الفارق بين المعتقد واليقين، ونتوقف عند هذه المسألة لكونها تحتاج للبيان فيها بدرجة من الدرجات..



المعتقد

إن المعتقد هو ما يُجزَم به وإن لم يصاحبه دليل، مثل اعتقاد أن صنم ما عند الهندوس له قوة خارقة، فهذا معتقد قد لا نجد له دليل ولكن قد يموت صاحبه من أجله.

اليقين

أما اليقين فهو شيء نستطيع أن نبرهن عليه بما هو مشترك مع الآخرين، فإذا قال قائل ذرتين هيدروجين وذره أوكسجين يؤدون إلى وجود الماء، فهذا القول إن جربناه في أي معمل من معامل البشرية سينتج لدينا ذات النتيجة التي تبرهن على صحة هذا القول بشيء محسوس ومتفق عليه بين الناس، وكذلك إذا ما تم الاحتكام إلى معيار معين، فإن هذا المعيار يكون ملزم حتى نصل لما يسمى اليقين في المسألة، فاليقين إذن هو عبارة عن معتقد لدينا قدرة البرهنة عليه.

الظن الراجح

إن معظم قضايانا في الحياة تقوم على هذا المستوى من المعرفة، أي أنها ليست من النوع اليقيني؛ بمعنى أنه يغلب عليها الظن الراجح، فالفقه الإسلامي مثلاً بنيته الأساسية على الظن، فلو كان الفقه يقيناً لما اختلفت الناس بمسائله، ولما تضخمت كتب الفقه، فكتب الفقه تضخمت ونمت نتيجة أن القضايا التي تعالج فيه هي قضايا ظنية يغلب على ظن الفقيه أن الراجح فيها هو ألف أو باء. إلا أن بعض الناس يعتقد أن ما يتوصل الفقه إليه يصل لدرجة اليقين! فيحدث الخلط بكثرة بين مسألة اليقين وبين مسأله الظن الراجح في المجتمعات التي نعيش فيها..

والظن الراجح ممكن أن يكون ظناً علمياً؛ أي مبنياً على الاستقراء، وممكن أن يكون ظناً فلسفياً؛ مبنياً على الحجاج النظري.. وبالتالي الكليات الشرعية التي تعتمد على الظن الراجح المبني على الحجاج النظري إذا دعمت أقوالها بعمليات استقراء واسعة

للكلام الذي تقوله سيكون حديثها أكثر موثوقية، فالحديث عن دولة إسلامية حينما يكون مدعّماً بتجارب قائمة ويقارن فيما بينها.. يكون أقوى بكثير من كلام مجرّد يحوي أدلة وأحاديث فقط

الشك

هنالك المنطقة التي يتخللها الشك حينما لا يترجح عند الإنسان النفي ولا الإثبات، ويتوقف في المسألة، وهذا مستوى من مستويات المعرفة وموقف معرفي أيضاً؛ حيث لا يحسم الإنسان اتجاه إيجابي أو سلبي.



الظن المرجوح

وهنالك أيضاً موقف معرفي يترك فيه الإنسان الرأي الراجح ويمسك بالمرجوح عن طريق تمسّكه بدليل أقل قوة لسبب من الأسباب، أو اعتبار من الاعتبارات.

الباطل

يأتي بعد الظن المرجوح الباطل؛ فقد يدرك الإنسان أن مايتمسك به غير صحيح، ومع ذلك قد يتمسك به في مستوى معين من الوعي والإدراك لسبب من الأسباب.

> إن المعرفة المعتمدة لدى العلماء في العالم كله؛ هي المعرفة المتمثلة بالمعتقد الصحيح المبرهن، فعلى مُثبِتٍ لمسألةٍ ما أن يستحضر دوماً الدليل الذي يبرهن المعتقد الذي ذهب إليه

فهذه إذاً مستويات من المعرفة، وإن أي شيء نتلقاه نحتاج أن نضعه في صندوق من هذه الصناديق؛ لندرك درجة الحجاج ودرجة الغضب الذي ينتابنا أحياناً.. فإذا كانت قضية من الظنيات وقمنا بمعاملتها على أساس أنها من اليقينيات سندخل في حروب سنكتشف بعد سنين من العمر أنه كان من الأولى لنا فيها أن ننتظر بها حتى ننضِّج بأنفسنا الظروف المعرفية التي تسمح لنا بالوعي، فالفارق دقيق جداً بين قضايا اليقين وبين القضايا الظنية، وإن أغلب حياة البشر تدور حول القضايا الظنية التي يغلب فيها الظن.

المسار العقلي والحضارات



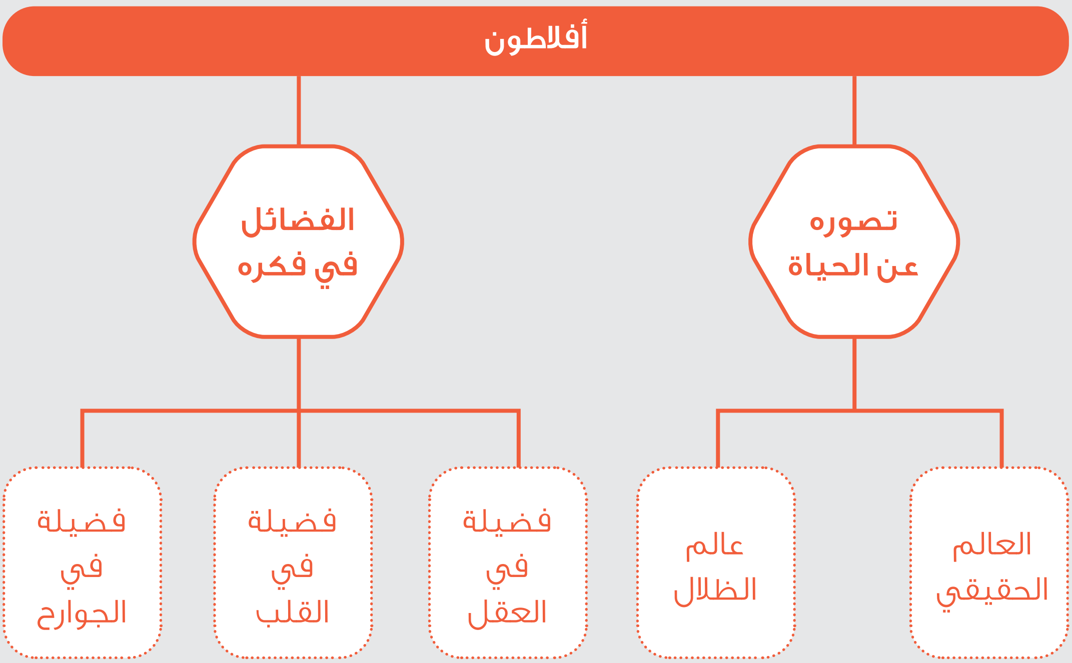
يتوجب على من يريد فهم الفلسفة وقضاياها بطريقة جيدة أن يقرأ أولاً الملفات الكبيرة للشخصيات المؤثرة، كي يعرف بعد ذلك كيف انتقلنا للعصور الوسطى، ومن ثم للعصور الحديثة..

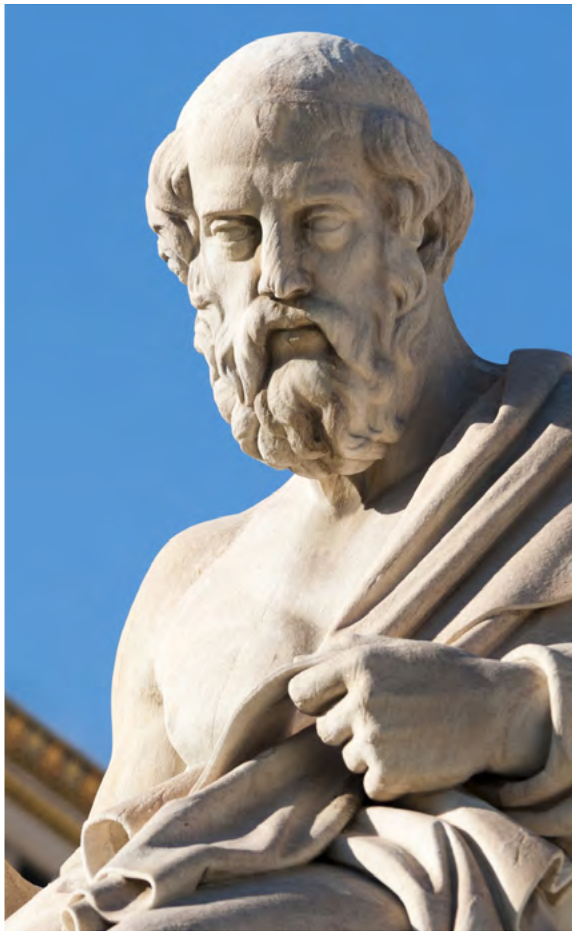
وسنتعرض في هذا المبحث ابتداء لشخصيتين كبيرتين في التاريخ الفلسفي القديم هما "أفلاطون" و"أرسطو"، وبعد ذلك سنُعرِّج على القرون الوسطى وكيف تَشَكَّل فيها الفكر والتصور، ثم إلى العصور الحديثة.

وإننا في سيرنا المتسلسل في الفلسفة تصاعدياً نراعي المتعلّم غير المعتاد على هذا الفضاء، حيث يحتاج إلى نقلات تدريجية ليتمكن من بناء معرفة أكثر تنظيماً لتكون معالم في طريقه..

أولاً– نقطة البدء ونواة الأفكار

أفلاطون





إنه مما يقال في نشأة الفلسفة أن أفلاطون هو من وضع الأجندة الرئيسية لها، وبالتالي إن كثيراً من الحوارات التي تدور تكون رداً على أفكاره بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.. سواء بمعارضته، أو بأخذ موقف من أفكاره، أو بتبنيها.. فالقضايا التي طرحها في مجالات متعددة قد شكلت العالم الذي نعيش فيه، فلا يكاد يمرّ مارٌّ من العلوم الانسانية إلا وقد مر بذكر أفلاطون أو الناس الذين في حقبته مثل أرسطو وغيره..

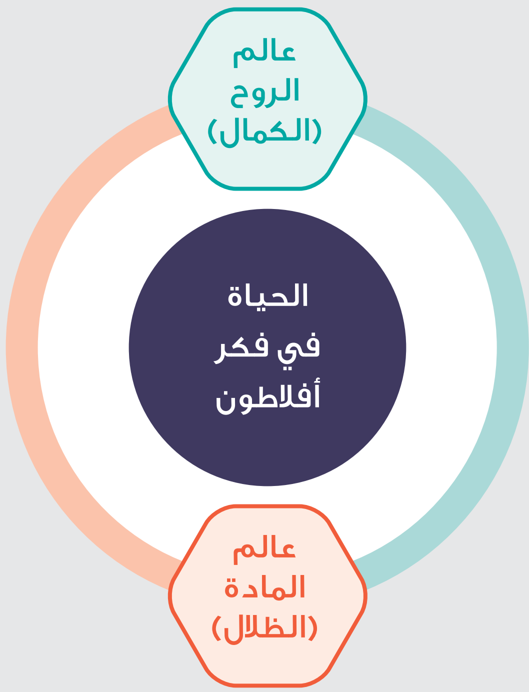
البيئة التي نشأ فيها:

عاش أفلاطون قبل الميلاد بحوالي 300 - 400 سنة، وقد بدأ حياته من البيئة اليونانية التي تتعدد فيها الآلهة بشكل كبير وتتصارع مثلها مثل البشر، ثم ذهب إلى البيئة المصرية للتعلّم، وهي بيئة أيضاً كانت تتكلم حينها عن الآلهة المتعددة بشكل من الأشكال، ومن ثم عاد إلى بلاده ليفكر في كيفية ترتيب هذا العالم، فتحصّلت لديه مادة خام عن الآلهة ووجودها، والبعد الأخروي، وذلك نتيجة أن الحضارة المصرية تحتوي في بنيتها الأساسية الاستعداد للآخرة، فالمعابد المصرية عبارة عن قبور، والقبور فيها جثث محنطة مع الكلاب والمشغولات التي تنتظر العودة الأخروية، والتي سيحتاج الإنسان بها إلى أمواله وكلابه وحرسه حتى يقوموا معه في قومته الأخرى.

تصور أفلاطون عن الحياة:

تكلم أفلاطون عن الوجود على أساس أنه عالمين؛ عالم كامل يسميه العالم الحقيقي، فيه الروح والأفكار الكاملة، وهو عالم الخير والجمال والحق بأرقى وجود لهم، وعالم المادة غير الحقيقي الذي يسميه "عالم الظلال"، وهو عالم ظلام وأوهام. ويرى أن العقل الإنساني

قد سكن العالم الكامل خارج الجسد ابتداءً، ثم أتى لعالم الظلال ليسكن الجسد الفاني في الدماغ.. وإن العقل حينما يدخل الجسد - وهو الكيان المظلم - يصبح أسيراً بداخله، وبالتالي فإن الإنسان في حياته سجين لجسمه، ويسعى للتحرر من أسره في العالم الفاني ليعود إلى ذلك الكمال الأزلي في العالم الباقي.. ونجد فكرة أفلاطون هذه بتفصيلاتها في الفلم الشهير "The Terminator" لـ(أرنولد شوازينجر).



وقد مثّل أفلاطون هذه الأزمة للإنسان فيما يسمى بـ"كهف أفلاطون"؛ حيث يتخيل البشر جالسين في كهف، مقيدي الأيدي والأرجل، ومقابلين لجدار الكهف لا يلتفت منهم أحد، ومن ورائهم عالم تتحرك فيه أشياء حقيقية بشكل غريب، وتنعكس صورهم على الجدار الكائن أمام البشر المقيدين، فالبشر طوال حياتهم منذ الولادة إلى الموت لا يرون إلا ظلال تتحرك، ومن خوفهم من هذه الأشياء يعتقدون أنها موجودات ستؤذيهم فلا يحركون ساكناً ولا يلتفتون لها، إلّا أنه من هؤلاء الناس هناك من بدأ ينظر إلى الخلف حتى يفهم ماذا يحدث، فبدأ يتحرر من الأسر، ومن ثم بدأ بمحاولة الخروج من الكهف، وفي رحلته للخروج سيبدأ برؤية العالم الحقيقي شيئاً فشيئاً، وستؤلمه عيناه، ويزداد خوفه.. إلّا أنَّه كلما ازداد اقتراباً من العالم الخارجي كلما بدأت تتفتح له الحياة، وأدرك أن فيها شيئاً مختلفاً، وأدرك روعة العالم الذي يقترب منه..

إن عقل الإنسان - في تصوّر أفلاطون - يستطيع العبور من أَسْر الدماغ إلى العالم الرائع عن طريق الحكمة والبحث عن الحقيقة (الفلسفة)، والفلاسفة وحدهم - بنظر أفلاطون - الذين يبحرون في هذا العالم، ويبحثون عن الحقيقه، ويصلون إلى المثال الكامل، ومن ثم يتّحدون مع المثال الموجود.

وإن هذه الفكرة للعالَمَيْن (العالم الثنائي الأقطاب) ستظل نقاشاً فلسفياً دائراً طوال البشرية إلى يومنا هذا.. فنراها متمثلة اليوم بالخلاف بين الملاحدة الذين يرون الوجود عبارة عن ماديّات فقط، وبين المتدينين الذين يرون الوجود عالَمَيْن: وجود مادي ووجود غيبي.

الفضائل في فكر أفلاطون:

من الحقائق الموضوعية أنه لا يمكننا فهم الأفكار بمعزل عن البيئة التي نشأت فيها، وتفاعلات الإنسان معها آنذاك

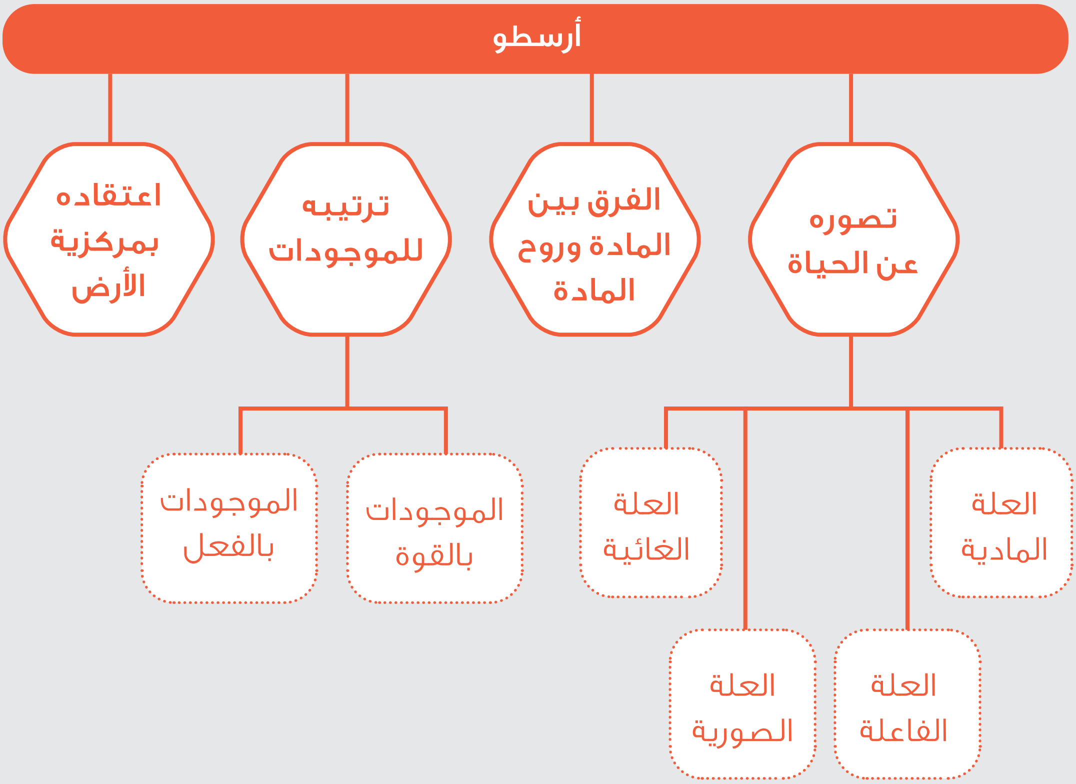
يرى أفلاطون أن الفضائل ثلاث: فضيلة في العقل، وفضيلة في القلب، وفضيلة في الجوارح، فالعقل هو القائد وفضيلته الحكمة، والقلب فضيلته الشجاعة، وأعلى الشجاعة ضبط الغضب، والجسد مطالبه الشهوات، وأقوى ما فيه العفّة وهي ضبط الشهوات.

وإن الإنسان لدى أفلاطون إذا كان لديه عقل راجح، وضابط للغضب والشهوات يصل إلى ما يسميه العدالة؛ وهي أم الفضائل التي تقود إلى التوازن، فالشجاعة على سبيل المثال إذا لم تُضبط بالاعتدال قد تقود للتهور، وكذلك الإغراق في الشهوات أو التفريط بها رغم احتياج الإنسان لها يؤدي إلى الألم والاضطراب، فالمنطقة التي في المنتصف تصل بصاحبها إلى ما يسميه أفلاطون "اللذة الأعلى".

خلّف أفلاطون منظومة كبرى سيظل الكلام عنها والنقاش حولها دائراً عند البشرية، ومن دون شك أن هناك كمية كبيرة من الإشكاليات التي تطرح نفسها في هذه المنظومة؛ فإذا ما نظرنا إلى كتاب "جمهورية أفلاطون" الكتاب الشهير سنجد الكثير من الكوارث التي لا تناسب ما نفكر فيه كمجتمعات، إلّا أنها مفهومة في سياقات المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها، فالإنسان الذي يتعاطى مع الفكر هو ابن بيئته، يأخذ ويعطي من بيئته، كما يأخذ ويعطي من البيئات الأخرى.

أرسطو

إن النموذج الذي تكلم عنه أفلاطون سيكمله نموذج آخر وهو نموذج تلميذه أرسطو، الذي أعطانا بعض الأدوات الأساسية لفهم العالم الذي نعيشه، وأعطانا لغة نستطيع أن نتكلم بها عن العالم الذي نحن موجودون فيه، وإنّ من الأشياء التي كانت تميز فكر أرسطو أنه كان ينظر لهذا العالم، ثم يقيس على ما يعلمه منه بقية العوالم التي نتحدث عنها..



تصور أرسطو عن الحياة ومصدر المعرفة:

إن أول قضية رئيسية في فكر أرسطو أنه رفض فكرة أفلاطون حول قضية "عالم المُثُل"، فرأى أن المعلومات التي لدينا هي من العالم الواقعي الذي نعيش فيه، فنحن نولد صفحة بيضاء، وبالتالي فإن العالم الذي نعيش فيه وتجاربنا الحياتية هي التي تشكل معلوماتنا ومعارفنا الموجودة.



وكان يرى أن العالم يُبنى من أربعة أشياء، سمّاها العلل الأربعة:

العلة الأولى: العلة المادية: أي المواد الأولية التي يتم العمل عليها، فالنحات مثلاً يحتاج إلى الطين أو إلى الخشب حتى ينحت.

العلة الثانية: العلة الفاعلة (الصانع): فإن المادة لا تتكيف بذاتها، بل تحتاج إلى صانع لها.

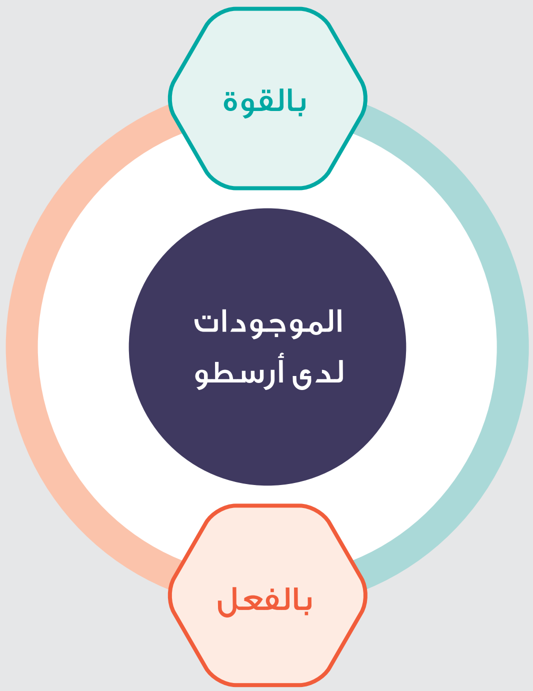
العلة الثالثة: العلة الصورية: فكما أن الصانع يحتاج المادة للصناعة، فإنه أيضاً يحتاج إلى أن تكون لديه في ذهنه صورة معينة للشيء الذي يريد أن ينحته.

العلة الرابعة: العلة الغائية (الوظيفية): فالصانع لا ينتج صنعته في فراغ، إنما ينتجها لتقوم بوظيفة معينة في الحياة..

ويضربون مثالاً على هذه القضية "السرير"، فالغاية من السرير هي النوم، وصورة السرير نفسها هي العلة الصورية، والخشب الذي صنع منه هو العلة المادية، وصانع السرير هو النجار.. وسنجد أن أرسطو سيقيس كل شيء بعد ذلك على هذه القضية كما سنرى لاحقاً، وإن فكرة احتياجنا الى أربع علل هي فكرة جيدة يمكن استصحابها في طريقة التفكير.

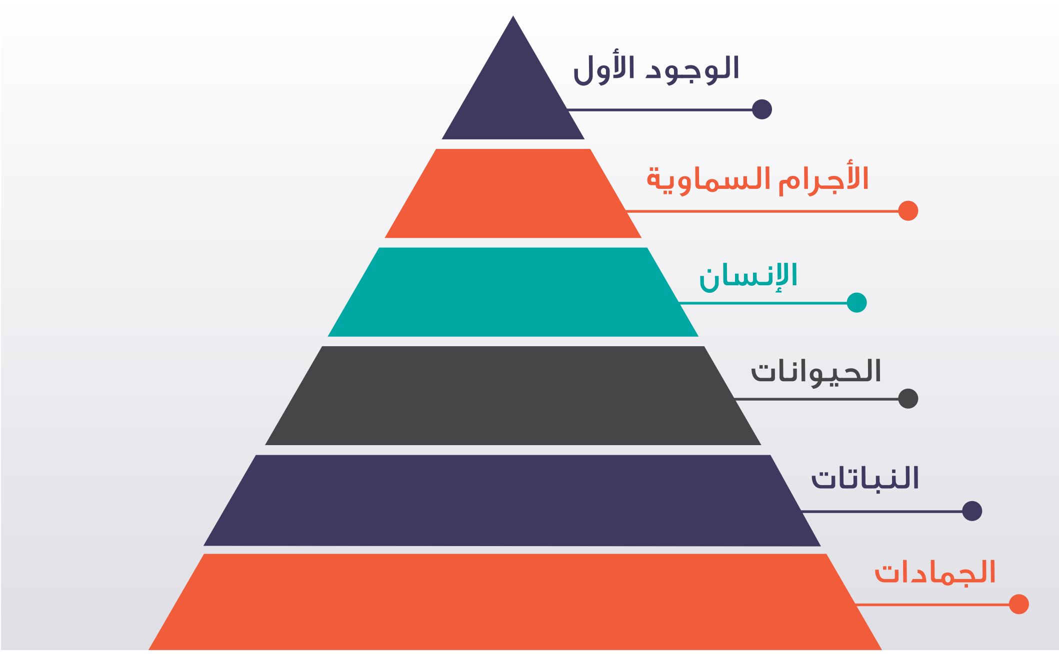
أرسطو وترتيب الموجودات:

مما يراه أرسطو أيضاً أن الأشياء الموجودة تنقسم من حيث وجودها إلى قسمين:



1. **الموجودات بالقوة:** وهي القوة الموجودة داخل شيء ما، والتي تُوجد لديه قابلية التَّحوّل من خلال القوة الموجودة فيه، فبذرة النخيل على سبيل المثال يفترِض أرسطو أنّ بداخلها قوة من خلالها قد تتحوّل إلى نخلة، فالنخلة موجودة بداخل البذرة بالقوة وقد تصبح أو لاتصبح.
2. **الموجودات بالفعل:** وتكون الموجودات بالفعل حينما تتحول القوة الموجودة داخل الشيء إلى فعل حقيقي، فحينما نضع بذرة النخيل في التراب، ونسقيها بالماء، وتظهر النخلة الحقيقية، فحينها تكون قد وجدت بالفعل.. وكذلك الإنسان عندما يكون عبارة عن بويضة وحيوان منوي، فيكون إنسان بالقوة، وقد يصبح إنساناً بالفعل وقد لا يصبح، إنما لديه القوّة والقدرة لأن يصبح إنساناً كاملاً، فإذا ما تبلور في الوجود أصبح إنساناً بالفعل.

لم يقصُر فكر أرسطو على أن ينظم علل العالم بأربعِ علل، وتقسيم الموجودات إلى موجودات بالفعل أو بالقوة، بل امتد فكره لينظّم العالم في هرم، حيث رأى أن الجمادات كالأحجار، وأنها أكثر الجمادات كثافة وهي آخر سلم الوجود، وفوقها تأتي النباتات التي هي موجودات ثابتة تنمو ولكن لا تتحرك، ومن فوقها تأتي الحيوانات التي تتحرك وتنمو، ثم يأتي فوقها الإنسان الذي ينمو ويتحرك ويتمتع أيضاً بالعقل، وبقابلية التعلُّم، وفوق الإنسان تأتي الأساطير اليونانية؛ التي ظهرت نتيجة أن البشر في الحضارة اليونانية كانوا يراقبون السماء ويرون حركة الأجرام السماوية، فرأى أرسطو أن الأجرام السماوية كالقمر والنجوم هي أرواح أو



هي كائنات تصحب الأرواح، فهي أيضاً إما أن تكون بذاتها عقولاً أو أنها تصحب العقول، وبالتالي هي موجودات عاقلة، وهذه الموجودات العاقلة تقوم بوظائف ومهمات للمحرك الأول، فرتب أرسطو الكون ترتيباً تصاعدياً من الوجود البسيط إلى الوجود المعقد الذي أراده، ويرى أرسطو أن الموجود الأول إذا كان نور وكمال فكلما نزلنا أسفل الهرم كلما زادت كثافة المادة وبالتالي زادت الظلمة وقلّت النورانية في الموجودات، والإنسان كلّما صعد يصعد نورانياً وحينما ينزل ينزل نورانياً، وكانوا يرون أن الوجود الأعلى الكامل موجود في السماء، حيث كانوا ينظرون للسماء بهذا الاعتبار..

الفرق بين الجوهر والأعراض:

من الأشياء التي لفت أرسطو الأنظار إليها أنّه فرّق بين المادة وروح المادة، فهو – كما ذكرنا سابقاً - يقول بأننا ندرك المادة في ظاهرها، لكننا لا ندركها في جوهرها.

إن الترتيب الذي رتّبه أرسطو للموجودات سيترك أثراً كبيراً فيما بعد.. وإنه بترتيبه للموجودات كان يجمع عينات، أي أنه بدأ يشتغل شغلاً علمياً، فبجمعه للعينات يتبيّن له كيف تصعد الموجودات من الأحجار، وكيف ترتقي الأحجار إلى الموجودات كالإنسان مثلاً،

أي أنّه بذلك صنع أساسات لما يسمى بنظرية التطور، وبالتالي فإن أول البحوث الموجودة لنظرية التطور قديمة جداً من أيام اليونان القدماء، وبالتالي لها أساس جذري قديم متضَمن بتصور أن الكائنات مرتبة في سلم تصاعدي منذ القِدَم؛ أي منذ أيام أرسطو ورؤيته..

اعتقاده بمركزية الأرض:

إن فكر أرسطو قد حكم العالم بأكثر من مجرد المواضيع التي أوردناها، فلأكثر من ألف عام كان العالم يتحرك ويدور من خلال تصورات أرسطو..

وكان مما اعتقده أرسطو أيضاً أن الأرض هي مركز الكون، وأن مركز الكون تحيط به دائرة يدور فيها القمر، وأن القمر هو أول الكائنات الروحانية التي تشارك في صنع العالم الموجودين فيه، فالفاصل بين العالم الفاني المتواجدين فيه والعالم الكامل الأزلي الممتد هو القمر، وفوق القمر توجد الأفلاك التي تعد كائنات روحية أيضاً، وخارج هذا البناء يوجد المحرك الأول (الإله)، الذي يعتبره أرسطو نقاء مطلق، فالمحرك الأول - حسب نظرية أرسطو - وجد المادة التي سيشتغل عليها، لأنه في نظريته التي كنا نتكلم عنها (العلل الأربع) لا بد أن يكون للصانع مادة يشتغل عليها، فدخلت الفلسفة في المادة التي يُصنع منها هذا الوجود، وسمى أرسطو هذه المادة "الهَيُولا" ((Hyle، وحاول أن يعرّفها، إلّا أنه أشكل عليه ذلك. فإذا ماعرّفناها بأنها مادة فستصبح حادثة وليست قديمة، وهو يريدها قديمة كي يستطيع الإله أن يصنع منها المادة الموجودة، وأخيراً توصَّل لأن يقول إنها مادة فيها قابلية التشكل لتُوْجِد الوجود الموجود.

إذاً يبقى عندنا الترتيب بحسب أرسطو متمثل بالإله والهيولا (المادة الموجودة)، ثم هذا الوجود الذي نحن فيه، الذي يحوي الأفلاك العالية التي تساعد الإله في صناعة الكون، ثم القمر الذي هو الفاصل بيننا نحن البشر، ثم الأرض التي هي مركز الكون، وتدور حولها الأشياء. وقد أُنْتِجَ حول هذه الفكرة فيلم "Fifth Element" .

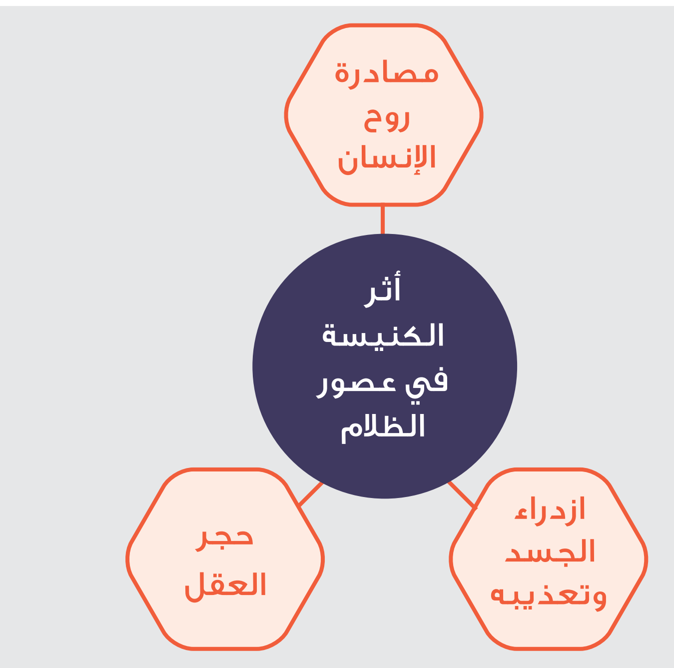
بدأ منطق أرسطو وفكره يشكل العالم من بعده لألف سنة، فتبنت الكنيسة في العصور الوسطى مقولاته، واعتبرتها تفسيراً للكتاب المقدس – وذلك كما يحدث في كثير من الأحيان عندما يرى أحدهم نصاً في الكتاب المقدس، وكلاماً لأحد العلماء فيقاربه به -، ولكن

لو اتضح بعد ذلك أن هذه المعلومات خاطئة سيصبح الكتاب المقدس أيضاً فيه خطأ، وهذا ما حدث فعلاً في الحضارة الأوروبية الحديثة، فالعصور الوسيطة كانت تحت سلطة أرسطو بشكل من الأشكال، ثم انفكت عن هذه السلطة!

ثانياً- العصور الوسطى (عصور الظلام)

بدأت هذه العصور من القرن الخامس ميلادي وامتدت إلى القرن السادس عشر ميلادي تقريباً، إلا أنه قد تخلل هذه العصور كثير من الأشياء الجيدة بالنسبة للأوروبيين.. ولكن الطابع الأساسي لها كان الظلام والجهل، فالكنيسة في تلك الحقبة هيمنت بقوة، فأضرَّت بالحياة الأوروبية بشكل كبير، ولمن يريد أن يتصوّر هذه العصور بشكل أفضل فقد تمثلت في فيلم "أشباح غويا Goya's Ghosts" بوضوح، وكان من أبرز ملامحها:

1. مصادرة روح الإنسان:



إنّ أول قضية رئيسية قد أثّرت بها الكنيسة أن صادرت روح الإنسان الأوروبي، أي أنّ الإنسان لم يعد حراً في الاتصال بخالقه، فبثّت اعتقاد أن ابن آدم مرتكب للخطيئة كأبيه، والمحمّل بالخطيئة غير قادر على الاتصال بخالقه، فيحتاج إلى نقاء لا يحمله إلا القساوسة والرهبان والعباد الذين قاموا على حياة خشنة وتطهروا من خلالها.. فأصبحت الكنيسة هي صلة الوصل بين العبد وربه، فيذهب الإنسان ويعترف بخطيئته في الكنيسة، ومن ثم يُعطَى رضا الرب. ومصادرة الروح هذه، تطوّرت لـ "صكوك الغفران"، فبدل أن يذهب المخطئ ويأخذ من وقت القساوسة أصبح بإمكانه أن يشتري صك الغفران من أقرب مكتب

إليه، فتمحى خطيئته ويرضى الإله عنه بما قدمه من مال لأجل الكنيسة، فيكفي أن يكون للإنسان مال من أجل الخلاص من الذنوب، وبهذه الظواهر المعقّدة قُطِعت الصلة تماماً بين الإنسان وبين الإله.

2. ازدراء الجسد وتعذيبه:

أخذت الكنيسة تعذيب الجسد كخطوة رئيسية ليتطهّر من خلالها الإنسان من الخطيئة، فانتشرت في الأديرة والصوامع عملية تعذيب الأجساد لدرجة أن الناس المتدينين كانوا يأكلون الرماد بدلاً من الخبز، وكانوا يعيشون دون اغتسال أو تمشيط لشعورهم أو تقليم لأظافرهم.. اعتقاداً منهم بأنهم بهذه الحالة المزرية يكونون إلى الله أقرب، فأصبح اعتقاد إدانة الجسد طابعاً ضخماً جداً في الحياة الأوروبية.

3. حجر العقل:

أصبح الإنسان مداناً في عقله وعليه أن لا يفكر في أي شيء، والكنيسة بدورها هي التي تجيبه عن جميع تساؤلاته، ويروى في ذلك قصة على سبيل تصوير الحَجْر الذي تمارسه الكنيسة على العقول.. "بأن شخصاً بعث للكنيسة يسألها عن عدد أسنان الحصان.. فبحث القساوسة في الكتاب المقدّس واختلفوا في الإجابة، فأحدهم اقترح أخذ رأس الحصان وعد أسنانه فاستجاب بعضهم للفكرة، إلّا أن أحد القساوسة من الطرف الآخر نهره لعدم إيمانه بأن الإجابة موجودة في الكتاب المقدس! وهنا عرف الرجل حدّه خوفاً من أن يطير رأسه!

وبتلك الطرق تمت مصادرة العقل والروح والجسد، وانسد الفضاء أمام الناس في المعرفة، حتى إنّ قراءة الكتاب المقدس كانت من الممنوعات في تلك العصور، فكان يُكتب باللغة اللاتينية التي لا تعرفها الشعوب الأوروبية، كما مُنِعَت أيضاً الكتب اليونانية وأصبحت تُخَبّأ بالسراديب ولم يعد أحدٌ يقدر أن يطلع عليها، حتى إن الحكام أصبحوا ممن لايقرؤون ولا يكتبون، والكنيسة تحتكر المعرفة احتكاراً مطلقاً، وتستغل الناس بأبشع أشكال الاستغلال من خلال ما تأخذه منهم من ضرائب.

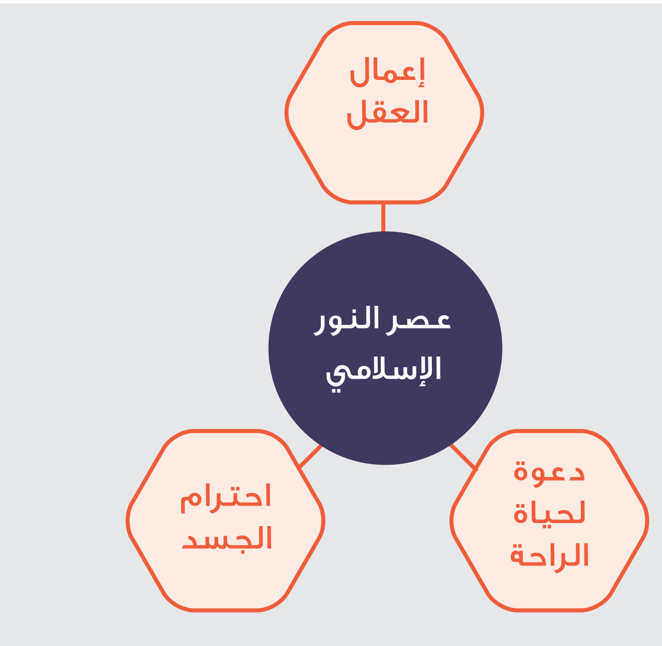
وبعد حصار الأشياء الثلاثة الأساسية التي تبنى بها الحضارات (العقل، والروح، والجسد) انهارت الحضارة الأوربية من داخلها بهذا المفعول الكبير.

ثالثاً- عصر النور الإسلامي

إن تفوق الحضارة الإسلامية في عصر النور الإسلامي يظهر في فلم "المقاتل الثالث عشر"، حيث إنها تميزت تميزاً واضحاً عن بقية الحضارات، ففي حين صادرت حضارة الغرب الروح والعقل والجسد، تميزت الحضارة التي قامت على القرآن الكريم بـ:

1. إعمال العقل:

الدعوة لإعمال العقل، والدعوة للتفكر والتدبر والبحث عن الدليل والبرهان، فـ(اقرأ) و(نون والقلم ومايسطرون) كانتا دعوة لفك القيود عن العقل تفكيراً وعلماً وبحثاً.



2. دعوة لحياة الروح:

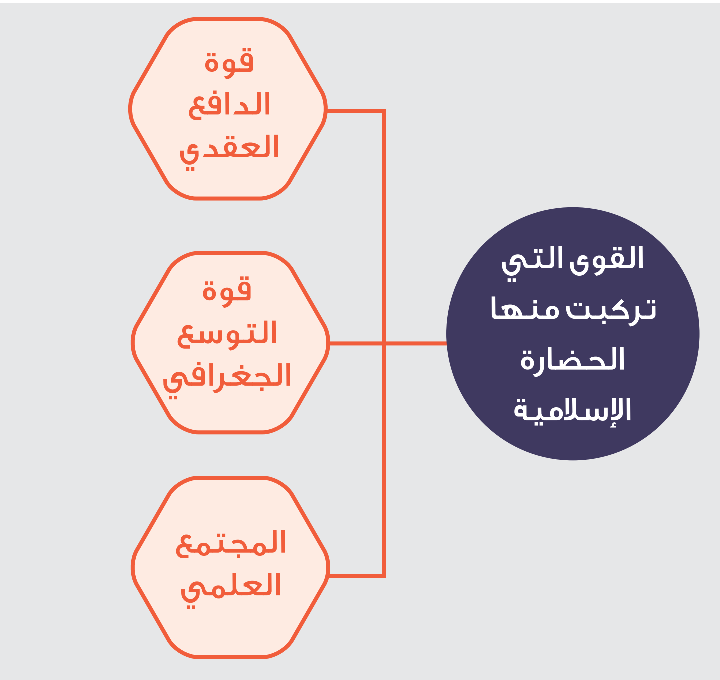
الاتصال بالله بدون واسطة، فنزلت (ادعوني استجب لكم) تقريباً للمسافة بين الإنسان وبين الإله.

3. احترام الجسد:

الاستمتاع بطيبات الحياة امتثالاً لـ ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فأصبح التنعم بالحياة جزءاً من نعم الله على الإنسان.

وبعد أن تحررت هذه الأساسات (الروح، والعقل، والجسد) التي تقوم عليها الحضارات، أذن الله للحضارة الإسلامية بالقيام. ولا نريد من هذا الطرح التزكية الذاتية، إنما الهدف الوعي بمركب التقدم والتخلف، فالتحولات الإيجابية في علاقات العقل والروح والجسد

فتحت نافذة التقدم أمام الإنسان، وقد كان ميلاد حضارة الأمة الإسلامية ميلاداً مركباً من قوى متعددة:



1. قوة الدافع العقدي.

حيث إنه كان وراء الأعمال ثواب كبيرٌ، وجنة ونار، فظهرت غاية عليا للإنسان للتسامي وطلب العلا والكمالات.

2. قوة التوسع الجغرافي:

قادت احتياجات كثيرة إلى قوّة الاندفاع والتوسع الجغرافي، وهذه القوّة كانت تفوق قوّة الدفع العقدي، فالمسلمين انساحوا في عصر كان أساس التحرك فيه للامبراطوريات؛ فمن كان لا يغزو سيُغزى، فتحرك المسلمون بفعل الدافع العقدي والاحتياجات الأخرى الاقتصادية والاجتماعية إلى خارج نطاق الجزيرة العربية، وفتحوا مساحات واسعة من العالم.

3. المجتمع العلمي:

نشأت احتياجات علمية مطّردة في البيئة الإسلامية. فقد احتك المسلمون بفضاءات جديدة كالفئات الباطنية التي كانت تعتمد على الفلسفة في النقاشات، وبالتالي جدّت الحاجة للتفكير والتجديد مرة أخرى، وكان لا بد أن تنمو العضلات الفلسفية والمنطقية في البيئة درءاً من حدوث الخلل، فنشأ طلب على العلوم اليونانية والفلسفة. وأيضاً زاد الاحتياج للرياضيات مع اتساع المساحات المتعلقة بالزكاة والخراج، وظهر الاحتياج لعلم الفلك لضبط المواقيت والأزمنة. فشبكة الاحتياجات الداخلية وقوة الحضارة الإسلامية آنذاك ولّدت طلباً قوياً على العلم، فنشأت دار الحكمة، ونشطت التراجم، وانتشر العلماء، وبرز علماء الفرس القادمين من بيئات علمية الذين وجدوا في الحضارة الإسلامية منفذاً لتصريف الطاقات

الضخمة التي يحملونها، فدرسوا بالعربية، وألّفوا بها، وبالتالي أثريت الحياة في داخل القلب الإسلامي، وانتقلت الحضارة الإسلامية بالبشرية نقلات كبرى كانت تؤهلها للدخول بقوة إلى العصر الجديد (عصر الآلة).

ولكن يبقى السؤال هنا.. مالذي أعاق الحضارة الإسلامية وأوقفها؟! وهو أحد الأسئلة الهامة جداً في التاريخ.

رابعاً- المعضلات التي واجهت الحضارة الإسلامية وأعاقت تقدمها وتطورها

سنركز على العوائق الداخلية التي ومنذ اللحظة الأولى لميلاد الحضارة الإسلامية كانت تنمو بالتدريج حتى امتدت إلى يومنا هذا، وتتمثل بما يلي:



1. معضلة الحكم:

وهي معضلة لا تزال باقية إلى اليوم، فمع أن النص الشرعي قد أمر بالعدل والشورى، إلّا أن آليات تحقيقهما ووعي إنسان عصر الرسالة بأهمية تلك القضيتين من أجل تحقيق الاستقرار الاجتماعي من حيث الإجراءات وأهميتها والانضباط حولها لم يكن حاضراً، فالبيئة كانت بيئة بدوية قبلية متصارعة في بنيتها الأساسية، ووعي البشرية لم يكن قد وصل لمرحلة أجرأة القيم، فتجلَّت مظاهر هذه المعضلة بموت ثلاثة خلفاء مقتولين باشتعال الفتن الداخلية الموجودة، وحدوث الانقلاب الأموي، واستلاب الحكم، واستبدال المنظور الشوري بالنظام الملكي، مما أدى إلى استفزاز البيئة، فقامت الثورات من قبل الطالبيين والعباسيين والخوارج، وانتهت بسقوط الحكم الأموي واستلام العباسيين للسلطة، امتاز حكم العباسيين بالقوة في عصره الأول، إلّا أنه بدأ بالضعف في العصر الثاني والثالث، فانقسمت الدولة لدويلات صغيرة متصارعة تدخّل بينها الصليبين والمغول.. وكذلك احتدم الصراع بين الأيوبيين والسلاجقة.. وإلى يومنا هذا معضلة الحكم ممتدة وقائمة، ونشهدها في السودان وفي مصر وفي كثير من الدول الأخرى.

2. معضلة الترف:

إن تفشي الترف والانغماس المفرط في الملذات والشهوات أدى لظهور ردات فعل عنيفة تجلّت بعضها بالانسحاب من الحياة، إلى أن وصلنا إلى مرحلة اسمها "صوفية الأرزاق"؛ تتمثّل بأناس يجلسون في منازلهم وينتظرون مدد الناس بالطعام والشراب باعتبار أنهم عبّاد لله.

3. معضلة الصراع العرقي والقبلي:

وهي معضلة ذات الأثر الكبير، حيث تجلّت مظاهرها في: انقسام قريش وعودتها إلى ما قبل الإسلام، فظلت بيوتات الهاشميين والأمويين تتصارع، وانقسم الهاشميون إلى علويين وعباسيين، واستمر الصراع بينهم، وأيضاً حدث انقسام بين قبائل الجزيرة العربية القيسية واليمانية، ثم انتقل الصراع إلى الأندلس ليصل بهم إلى أن يدمّروا أنفسهم بأنفسهم.

ولم نستطع أن نجد حلاً موضوعياً عملياً لقضية الانقسامات القبلية التاريخية إلى يومنا هذا.. وبالتالي ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ لم تجد الآليات الإجرائية التي تنفُذ للبيئة من خلالها، فبقيت هذه القيم في جانب ونحن في جانب آخر.

> إن وصلة النجاح الحقيقية تكون حينما تتحول القيم الإسلامية إلى إجراءات فعلية حقيقية في حياتنا.. وإن تحويلها ليحتاج إلى عمل ثقافي ضخم ووعي كبير

4. معضلة الصراع الفقهي:

وهو صراع أشبه بالصراع الذي حدث في داخل الكنيسة، حيث إن الكنائس قد اختلفت باختلاف طبيعة المسيح لديها (اللاهوت والناسوت- العلاقة بينهما- الأب والابن)، وتشعبت الصراعات وتضخّمت إلى حدود عالية جداً حتى وصلت للتكفير. وأيضاً عندنا البيئة الإسلامية لم تكتف بعموميات الآيات في وحدانية الله سبحانه وتنزيهه، فدخلنا في كيفيات إلحاق الصفات بالإله، ونتيجة هذا الصراع حول طبيعة الإله، وعلاقة الصفات به، نشأ صراع مرير حول الأسماء والصفات، وانتشر التكفير والتبديع والتفسيق.. في قضية لم يدخل فيها الصحابة، واكتفوا فيها بأنه إله واحد منزّه عما سواه.

وأيضاً ظهر الصراع الفقهي على أشده، إلى أن اتفق الناس على المذاهب الأربعة، وأصبحت تقام في المساجد أربعة صلوات يقتدي الناس بها بحسب مذاهبهم، فلم ينظروا للأمور المشتركة ولكن ركزوا على الاختلافات!

5. تغير كيمياء الإسلام:

إن ما نسيمه الإسلام اليوم هو ليس الإسلام النقي (إسلام أبي بكر وعمر..)، فهو نهر بدأ من ذاك العصر، ولكن حمّل بأفهام المسلمين وبممارساتهم، فتحول إلى إسلام مركب انقسم لفرق كثيرة، وكل فرقة أصبحت تقوّي التفسيرات وتصحح الأحاديث التي تخدم وتدعّم موقفها، فتركت التفاسير الأَولى إلى تفاسير أقل منها، والأحاديث الأقوى إلى الأضعف!

> إن الهزيمة تأتي من الداخل أولاً، أما الخارج فهو عنصر ثابت؛ حيث أن الآخر على ترصّد دائم لنقطة ضعفنا حتى يباغتنا منها!

وما نريده من هذا الطرح هنا أن نفهم جذور الإشكاليات لا أن نصبح جزء منها، فعلينا أن نفهم الأسباب الحقيقية لهذه الاختلالات العظمى في الحياة الإسلامية، فالهزيمة لم تكن قد أتتنا من الخارج أولاً، فالخارج هو عنصر ثابت على انتظار دائم لنقطة الضعف التي سيأتي منها، ونقطة الضعف هي الضعف الداخلي الذي علينا أن نتتبّعه باستمرار ونقف عند أسبابه لنصححها، ولكن ما فعلناه نحن أننا ننظر دائماً للخارج، ونلقي عليه اللوم، ونحاول أن ندافع عن الداخل باستمرار!

خامساً- سنن الإمبراطوريات

الامبراطورية «عبارة عن تمدد قوة ما تعتقد أن لديها فرصة تاريخية للهيمنة على العالم»

البعض يحلم اليوم باستعادة الإمبراطورية الإسلامية من جديد، وهي في مخيالهم دائماً، إلا أن الإمبراطوريات لها سنن غلّابة لابد لنا من الوقوف عندها..

1. كما تنشأ تزول:

إن الأوضاع والظروف التي سمحت بنشوء الإمبراطورية تتغير مع مرور الأيام، وبالتالي تزول بزوال أسبابها، فكثيراً ما نشأت في التاريخ إمبرطوريات كالإسلامية والرومانية واليونانية والمغولية وغيرها... إلّا أنها كما نشأت زالت.

2. معضلة القلب والأطراف:

إن ضعف الإمبراطوريات يؤدي بالضرورة إلى ضعف قوة التحكم بالأطراف التي امتدت إليها، وحينما تكون الأطراف التي وصلت الإمبراطورية إليها أقوى من قلب الإمبراطورية، فقد يصل بها الأمر لانتقال الإدارة والحكم للأطراف. وإن هذا قانون تاريخي مطّرد نشاهده عند قراءة تاريخ الإمبراطوريات العظمى في صعودها وهبوطها.

3. فقدان الميزة الحضارية:

إن تبدل الأزمان والبيئة والأجيال قد يؤدي إلى فقدان الميّزة التي تحملها الإمبراطورية، فالامبراطورية غالباً لها رسالة وتصور تعتز به وتقدمه للآخرين كمنفعة لهم(علم أو صناعة أو قائد موهوب نهض بالجموع..) وإن هذه الميزة إذا ما اختفت تبدأ الامبراطورية بالضعف والانحلال.

4. الانكماش والتآكل:

حينما تنشأ الامبراطورية تبدأ قوية وفتية وتنطلق باتجاه البلاد الأخرى للسيطرة عليها انطلاقاً من مصالح اقتصادية على الغالب، فميزانية الامبراطوريات تغتني بما تسلبه من الآخرين من مقدّرات، ومما تسيطر عليه من أسواق.. وبحكم أن التمدد لهذه القوى يتطلب نفقات على القوات المسلحة والقدرات اللوجستية، فإنه مع استمرار تقدُم القوات وابتعادها عن القلب تصبح تكلفة صيانة القوات والإمداد لها عملية أكثر كلفة وتعقيداً، وكذلك إدارة



الصراعات الناشئة في المناطق التي تم احتلالها فأيضاً تزداد تكلفتها إلى أن تصبح الإمبراطورية ضعيفة من القلب لعجزها عن إمداد القوات المنتشرة في المناطق البعيدة بما يلبي متطلباتها، وهكذا إلى أن تصبح تكلفة التمدد أعلى من العائد منه، فعندها تبدأ الإمبراطورية بالانكماش شيئاً فشيئاً إلى أن تنهار!

سادساً- القيام الحضاري الأوروبي

بعد تآكل الحضارة الإسلامية نشأت الحضارة الأوروبية على أعقابها. وقد قامت على ضلعين فاعلين قويين؛ إعمال العقل، والعناية بالجسد، وغاب ضلع العناية بالروح، فأتت حضارة مادية تسعى للمنفعة بدرجة عالية جداً، إلا أنها تعتمد العقل والتخطيط العلمي والاكتشاف والاختراع.. وهذا حقق لها تفوقاً على حضارات أخرى توقف لديها العقل والروح، حتى أن الجسد لم يعد له متعته الحقيقية كبقية الأمم..

وإن الأزمة الحادثة في عمق الحضارة الأوروبية نتيجة إهمالها للروح لربما ستسمح بنشوء حضارة جديدة على أعقابها إذا ماتخلصت من آفة الضلع المهمل بحيث تعود ثلاثية الروح والعقل والجسم مرة أخرى..

رحلة أوروبا ومقدمات النهوض



كنا قد تكلمنا في المبحث السابق عن الحضارة الأوروبية وكيف أنها قامت على ضلعين فاعلين (العقل، والجسم)، وأهملت (الروح)، وسنتابع في هذا المبحث مزيداً من التفاصيل الكيفية التي استطاعت بها أوروبا النهوض بعد غيبة طويلة، ولماذا تجنح الأخلاق لديها للقسوة والعنف مع الخارج؟ ولماذا أعملت العقل واهتمت بالجسم لأعلى الدرجات وأهملت الروح؟

1 أوروبا ماقبل النهوض

- الاصطدام بالجسم المعرفي الإسلامي
- المطالبة بالنهج التجريبي
- حملات الكشوف الجغرافية
- نشوء الطبقة الوسطى

2 إنسان النهضة ومقدمات التنوير

- اختراع المطبعة
- انهيار ادعاءات الكنيسة والفلاسفة القدماء بالأدلة القطعية
- دحض الوثوقية
- الإيمان بالعقل والتجربة

3 عصر التنوير

- المدرسة العقلانية
- المدرسة التجريبية

4 تجلّيات عدم الوثوقية بالعقل

- من العقلانية إلى الرومنسية
- من المثالية إلى الماركسية (المادية)
- من الشعور فقط إلى الشعور واللاشعور

5 أثر الفلسفة والحرب في السياسة والمجتمع

- الحرب العالمية
- المدرسة الوجودية
- المدرسة البنيوية

أولاً– أوروبا والتغييرات التي سبقت النهوض

في نهايات القرن الحادي عشر حوالي 1096م بدأت الحملات الصليبية على المسلمين، ودخلوا البلاد الإسلامية ولم يخرجوا منها حتى نهايات القرن الثالث عشر 1291م، في هذه الفترة اصطدموا بالجسم المعرفي الإسلامي الذي لم يتوقعوا وجوده في العالم الإسلامي آنذاك، ونقلوا هذه الكتب بما فيها من معارف إلى الجامعات الأوروبية التي كانت قد بدأت نشأتها من القرن الثاني عشر، وستخرج شخصية مهمة في القرن الثالث عشر وهو "روجر بيكون Roger Bacon"، وسيطالب بناء على الاحتكاك بهذه المعارف الجديدة باعتماد المنهج التجريبي بديلاً عن المنهج الاستنباطي الأرسطي، وصاحب هذه الشخصية سيواجه هجوماً شرساً في تلك اللحظة التاريخية، وسيسجن في دير لمدة 27 عاماً، وسيكمل القيام بتجاربه باعتباره عالماً مجنوناً يقوم بتجارب جنونية وشيء من السحر.

في القرن الرابع عشر بدأت أوروبا تشهد تحولات ضخمة جداً، حيث بدأت ما تسمى حملات الكشوف الجغرافية، وبدأ الاوروبيون يحتكون بالحضارات الإنسانية الأخرى، فوصلوا إلى شواطئ أمريكا الجنوبية، ونهبوا الثروة التي كانت موجودة فيها، ووصلوا إلى أمريكا الشمالية، وإلى الهند والصين عبر طريق رأس الرجاء الصالح، ما أدّى إلى انتعاش الموانئ الأوروبية، ونتج عنه أيضاً حركة نزوح كبيرة من القرى إلى هذه الموانئ النشطة، فنشأت الطبقة الوسطى في أوروبا التي ستصبح الطبقة الرأسمالية فيما بعد، وستطرح نتيجة التغيرات "الكشوف الجغرافية" أفكاراً جديدة في أوروبا (الليبرالية والديمقراطية والأفكار الحداثية..)، وأعقب هذه التغييرات نشوء النظام الرأسمالي شيئاً فشيئاً، وبدأ النظام الإقطاعي المبني على الفلاحين يتآكل نتيجة هجرتهم من الأرياف إلى المدن، وهي لحظة تاريخية جديدة حيث بدأنا نشهد ثلاثة مؤشرات هامة:



ومع تلك التغييرات ظهر النظام الرأسمالي في إيطاليا "فلورنسا"، حيث أسرة (مديشي Medici)، وهي أسرة تجارية كان لها دور كبير في الاقتصاد والسياسة طوال الفترة الممتدة مابين القرن الخامس عشر والثامن عشر ميلادي.

ثانياً- النهضة وإنسان النهضة

إنسان النهضة ينظر لنفسه بأنه كيان قائم بذاته، حر بعقله، يستطيع التفكير بنفسه

قادت تحولات أوروبا الضخمة لأن بدأت الناس تنبهر بالتراث اليوناني القديم، وبدأت تحولات ما يسمى بعصر النهضة أو ما يسمى بإنسان النهضة. وإنسان النهضة لم يكن مخترع الآلة ومخترع الأشياء الضخمة فقط، إنسان النهضة مختلف بكيانه الرئيسي، حيث ظهرت آنذاك حركة الأنسنة التي تميل إلى قضية التماهي مع النموذج اليوناني في النحت والرسم، فتوقفت الرسومات التي تحمل رموز التقديس للشخصيات الدينية، وبدؤوا ينحتون أجسام حية مفصلة على الطريقة اليونانية، وإن كتابات "دانتي أليغييري Dante Alighieri" الكوميديا الإلهية على غرار كتاب رسالة الغفران لـ "أبي العلاء المعرّي" من أبرز النتاجات الفكرية التي عبرت عن تلك التحولات على الصعيد الديني، وبدأت فكرة الإصلاح الديني تشق طريقها إلى أوروبا، وظهر في تلك الآونة قسيس ألماني اسمه "مارتن لوثر Martin Luther"، زار الفاتيكان وصُدِمَ بالأبهة والملكية الموجودة هناك البعيدة عن بساطة الديانة الأولى، وحينها قرر أن يقود ثورة ضخمة جداً ضد الأفكار التأسيسية التي تقوم عليها الكاثوليكية، فنشر رسالته الشهيرة المؤلفة من 95 مطلباً، وكان أهم ما فيها ضرورة ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية بحيث تذوب الفجوة بينه وبين الناس، وأن يستغني الناس بالكامل عن فكرة الاعتراف الكنسي فتُلغى صكوك الغفران، وتصبح صلتهم مع الخالق صلة مباشرة دون الحاجة للكنيسة، كما ضمّن رسالته بأنه لا بد للقساوسة ورجال الدين أن يُمنحوا فرصة للزواج كبقية البشر، ونحوها من الإصلاحات.. سميت هذه الاصلاحات بأفكار المحمديين بدعوى أنهم تأثّروا بالديانة الإسلامية، وقادوا حملة قمع دعائية ضخمة عليهم.

وبدأ اتجاه عام للقراءة والاطلاع في كل المجالات الموجودة، فأصبح عنوان العصر آنذاك "إنسان لديه ريشة، ويقرأ، ووراءه مكتبة"، حتى إن سيدات العصر معظمهن لم يكنّ يقرَأْن ولا يكْتُبن ، فلم يكن قد انتشر التعليم في أوروبا بعد حيث كانت نسبته 55% فقط، ومع ذلك فإن معظم سيدات القصور اللاتي لا يقرأن كُنَّ يأتينَ برسامين يرسمونهن وهنَّ يُمسكْنَ بالريشة وأمامهن ورقة ووراءهنّ مكتبة على أساس أن هذه سمة العصر، فبدأ الافتخار بالإنجاز الذاتي، وبدأت رغبة الإنسان في أن يُظهر ذاته بعد أن كانت الكنيسة تفرض على الناس نظاماً يقوم على فكرة تخلِّي الإنسان عن ذاته وعن ملذاته.. فتمرد الناس على تلك الأفكار، وتجددت نظرتهم للحياة، وبدأ الاحتفاء بالإنسان وبالتعليم العالي المتعدد المواهب الذي يدرس في أكثر من فن وأكثر من أدب، كما بدأ الناس يفضلون الرحلة التي فيها مغامرة وبحث في الحضارات الأخرى، وبدأت الرياضيات تتغير، وبثّت الأفكار الجديدة في محاولات البحث العلمي.. فظهرت عوامل العافية، وولد مايسمى بإنسان النهضة الذي يختلف عن إنسان العصور الوسطى بأحلامه مختلف، وبعلاقته بالعلم وبالكتاب.

ونجد في عام 1440م نقلة مهمة أيضاً، وهي اختراع "جوهان غونتبرغ "Johannes Gutenberg للمطبعة المتحركة، التي بعد اختراعها بخمسين عام أصبح عدد الكتب المتداول في أوروبا 90 مليون كتاب، بعد أن كان عدد الكتب قبل اختراعها 30 ألف كتاب مكتوب باليد! فتطور حجم المعرفة بشكل هائل مع فكرة وجود المطبعة، وبدأ الناس يطّلعون على المعارف الجديدة ويتواصلون معها، كما بدؤوا يطّلعون على التراث اليوناني الذي كان مغيّباً عنهم لقرون طويلة.

كان عصر النهضه في أوروبا بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر حافلاً بالأحداث التي غيرت كيمياء أوروبا؛ من الكيمياء الساكنة التي تنظر من خلال الكتاب المقدس ومقولات أرسطو، إلى تطلعات أخرى حول تجريب الأشياء ذاتياً، والاحتفاء بالموهبة الإنسانية الفردية على اعتبار أنها هي التي ستشكل الاختراقات في العصور القادمة

انتشرت الحروب الدينية في أرجاء أوروبا للتحرر من سلطة الكنيسة، وكانت حروباً طويلة وعنيفة جداً؛ حيث يقال إن ثلث ألمانيا تمّت إبادتها في هذه الحروب الدينية التي استمرت إلى منتصف القرن السابع عشر 1648م تقريباً حيث عقد صلح "ويستفاليا" والذي وصلوا فيه للاتفاق على أن لكل إنسان دينه ومذهبه ومنهجه.

ثالثاً- عصر التنوير ومقدماته

بدأ يتشكل العصر في ثوب جديد، وبدأت تظهر فكرة جديدة عن العالم وعن كيفية مقاربته، وهذه الفكرة ستتبلور فيما يسمى القرن السابع عشر أو "عصر التنوير".

في عصر التنوير سيصاب كل الموروث اليوناني بضربة قاتلة، وستصاب مع إصابته الحضارة الدينية المسيحية أيضاً، فقد ذكرنا سابقاً أن "أرسطو" و"بطليموس" كانا قد قالا بمركزية الأرض للكون، وتبنت الكنيسة هذه التفسيرات على اعتبار أنها تمثّل الحقيقة المعرفية، فتطابق العلم اليوناني مع الكتاب المقدس وأصبح هو التفسير لما في الكتاب المقدس، ولكن ماذا لو أثبت العلم الطبيعي أن كلام أرسطو وكلام الكنيسة خاطئ بالدليل والبرهان القاطع الذي لا يمكن نقضه بأي شكل من الأشكال؟! وماذا لو ثبت أن الاستقراء الذي هو بحث الظواهر كما هي في الواقع يعطينا نتائج أفضل من الاستنباط الأرسطي ومقولات الكنيسة؟! وقد حصل ذلك فعلاً حيث ستظهر في العلم شخصيتان الأول اسمه "يوهانس كيبلر Johannes Kepler" ومن بعده "نيكولاس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus" وسيقولون بالحسابات أن الشمس هي المركز، وأن الأرض تدور حول الشمس، وسيأتي "غاليليو غاليلي Galileo Galilei" بالمنظار ويقول لهم إن فينوس (كوكب الزهرة) لا يدور حول الأرض إنما يدور حول الشمس، فالأجسام الأصغر تدور حول الجسم الكبير الذي هو الشمس..

عندما وصلت أوروبا لهذا المنحنى قامت ولم تقعد، طلبوا من "غاليليو" أن يتوقف عن هذا الكلام، وأُمِر بأن يسجن في بيته، فالعصور القديمة لم تكن لتستسلم بسهولة على الرغم من سهولة أن يذهب شخص ما وينظر في المنظار الذي نظر فيه جاليليو، ويتأكد أن كلامه صحيح، فعلى الرغم من سلطة النظر المباشر ووجود العلوم الأخرى (الرياضيات والحسابات

الفلكية..) التي تؤكد ذلك، إلا أنه لم يكن للسلطة القديمة أن تقبل بحقائق العلم والمعرفة، وهذا الجزء من إشكاليات العصور الوسطى حيث العلم والمعرفة المباشرة لا تشكل شيئاً في مقابل المستقرات الموجودة في الأذهان، فالأمة التي لديها براديم معين لا تستسلم بسهولة حتى ولو جاءتها الدلالات القطعية! إلّا أنه في حركة التاريخ لا يمكن وقف التقدم العلمي والحقائق من أن تفعل فعلها في الواقع طال الزمن أم قصر، فانهارت أكبر السلطات موثوقية في أوروبا المتمثلة بالكنيسة وانهارت معها مقولات أرسطو وبطليموس.

تشكّل بعد هذا الانهيار فراغ معرفي كبير يُبحَث عمّا يملؤه، وهنا تقوم سلطة الكتابات التأسيسية الكبرى التي تبحث عن افتتاحية عصر جديد، والعصر الجديد يبحث عن منهج ورؤية وتصور حتى يبدأ بداية جديدة، فالتغيّر الذي يحدث في العصور الجديدة هو تغيّر جذري من براديم إلى براديم آخر؛ أي من كتلة تصورات إلى كتلة تصورات أخرى؛ فمن نظرة القداسة تلك التي كان الإنسان الأوروبي يحملها لبطليموس ولأرسطو وللمعارف التي قدمتها الكنيسة.. إلى تطلع جديد تماماً يفتتح به عالمه..

سيخرج في تلك اللحظة التاريخية شخصية كبيرة جداً وهو العالم "رينيه ديكارت René Descartes"، وهو مؤلف الإحداثيات الديكارتية في الرياضيات التي درسناها في المرحلة الثانوية (س- ص، أو x- y). وسيضع كتاباً صغيراً تعقيباً على الأحداث اسمه "التأملات" سنة 1641م، وكان مما أورده في هذا الكتاب بأننا كنا مغشوشين بالعقل الإنساني وبالمعارف السابقة لمدة ألف سنة! فما الذي سيضمن لنا الألف سنة القادمة بأن لا نكون أيضاً مغشوشين بطريقة أخرى؟! فتساءل في كتابه: من أين سنبدأ التأسيس المعرفي على أرضية أكثر صلابة وأكثر قدرة على تأميننا من مثل هذه النكسات الكبرى والوثوقية التي كنا نتمتع بها؟.. فالوثوقية التي كانت في تلك المنظومة القديمة أدت إلى خسارة ألف سنة من عمر البشرية، ولم تعد البشرية - على الأقل في المنظور الأوروبي - مستعدة لخسارة ألف سنة ثانية مع منظومة أخرى بفعل الانغلاق المعرفي والانحباس.

أنشأ ديكارت ما يسمى بالشك الجذري، والشك الجذري لدى ديكارت ليش شكّاً عدميّاً لاينبني عليه شيء، أو نكوصياً يرتد على المعرفة بالنقض أو الهروب..، والجدير بالذكر هنا أن الشك الجذري حدث بالتاريخ الإسلامي مرّتين، إحداهما مشهورة جداً عن الإمام الغزالي

عندما حاكم كل أفكاره مرة أخرى، إلّا أنّ شك الإمام الغزالي لم يكن شكاً بنائياً، بمعنى أنه لم يصل لمنطقة يقول فيها أننا سننتقل إلى نظام معرفي جديد؛ بل رأى بأنه يتوجب علينا العودة إلى منظومة قديمة، فعاد إلى منظومة التصوف بنظام قديم معروف وهو النظام العرفاني الذي كان موجوداً في عصره آنذاك. والمرة الثانية للشك الجذري حدثت مع الفخر الرازي حيث إنّه مر بذات التجربة، ولكنه لم يتقدم فيها.. فانتهى إلى أن يقول لو أنّ عندي إيمان عجائز نيسابور لكان خيراً لي! فكانت عمليات الشك في التاريخ الإسلامي عمليات انهيار نفسية ولم تؤدِ إلى انفتاحات كبرى على عصور جديدة. أما "ديكارت" فقد تمكّن من خلال الشك الجذري من الوصول إلى منطقة يمكن أن يبدأ منها لتأسيس عالم جديد، فديكارت ظل في تساؤلاته يردد "العقل يخدعني، والحواس تخدعني".. فكان الشيء الوحيد المتأكد منه ابتداء أنه في حالة شك، واشتهر بمقولة "أنا أشك.. فإذا كنت أشك يعني أنا أفكر، وما دمت أفكر إذاً أنا موجود"، وباقي المنظومة التي سيبنيها ليست ذات أهمية لكونه لم يثبِت بعد أن العالم الذي يتكلم عنه موجود، فلو أثبت أنه موجود، أو أن هنالك ذاتاً ما موجودة؛ وهي التي فكرت لبدء البناء من منطقة ثبات يبدأ بها العصر الجديد..

وصل ديكارت لفكرة بأنه يوجد داخل العقل منطقة ارتكاز يمكن البناء عليها، وهي العقل، وسيصبح مذهبه العقلاني أحد معالم العصر الجديد، وسيصبح السؤال: "كيف يمكن للعقل البشري أن يقوم بوظائفه بأفضل صورة من الصور؟"، وهو ما سُمِّيَ الـ(rationalist) أي المدرسة العقلانية، والتي تدعي أن أساس المعرفة العقل المنطقي الرياضي، وأن العالَمَ يمكن له أن يتحاكم إلى الرياضيات لكونه بناء صلب يبدأ من نقطة ما ويبني عليها إلى بناء آخر، وأصبحت فكرة المُساءلة العقلية تمس جذور أي فكرة، وذلك لتأمين عدم ضياع ألف سنة أخرى من الوثوقية.

> أصبحت الوثوقية مكاناً للخوف داخل العصور الحديثية بعد أن كانت مطلباً تاريخياً، فبات النظام المعرفي لا ينغلق عن الأسئلة الجديدة، بل يظل مفتوحاً عليها حتى لا يتم الغرق في متاهات الجهل والظلام ألف سنة أخرى، وهذا التصور سيحكم العصور الحديثة بشكل كبير

ومن ثم ستأتي الأفكار بنقائضها، فبعد أن اعتبر "ديكارت" أن المعرفة

الحقيقية - أو بعضها على الأقل - هي المعرفة الناشئة عن التركيب العقلي، أي البناء العقلي الصرف، لأن التجارب والحواس يمكن لها أن تخدع.. سيأتي شخص اسمه "فرانسيس بيكون "Francis Bacon"، ويكتب في سنة 1620م كتاباً اسمه "Novum Organum" ويعني المنهج الحديث، وسيبني فيه نظاماً لكيفية ممارسة العلم التجريبي، وسيعتبر أن هذا النظام هو الطريق للمستقبل وسيسميه، "Scientific method" وستسمى مدرسته (Empiricism) المدرسة التجريبية، وفيها أن الحواس هي أساس المعرفة، وعنوانها الكبير هو التجربة المعملية!

نحتاج أن نضبط قضيتين كبيرتين تشكل منهما العصر الجديد

المسألة الأولى:
الانتباه لضلالات العقل

المسألة الثانية:
التدقيق في التجربة العملية وكيفية تقويمها؛ بحيث نصل لأفضل النتائج من استقراء الواقع

ستصبح بهذه الفترة سلطة التجربة سلطة كبيرة جداً، وستصبح إحدى وظائف الإنسان التدقيق بالتجربة، والتدقيق بالعمل العقلي الذي يقوم به، واستشفاف مدى الانحياز به من خلال البحث باستمرار عمّا يضمن عدم وجود خلل في البناء الفكري التتابعي، أو بالمنهج التجريبي الذي يقوم به، فكل تجربة ستقوم سيحاول أن يتأكد منها بتجارب أخرى، وإذا تواجدت عيّنات صغيرة سيحاول أن يبحث عن عينات أكبر، كما سيعيد النظر في المصادر المشكوك فيها..

وهنالك أيضاً مسألة دقيقة جداً وهي أن التجربة نفسها تحتاج إلى إعاده تأكيد ونظام تثبُّت من أنها تمت بطريقة صحيحة.. وهذا سيشكل العقلية العلمية الموجودة في العصر الجديد.

إن هذا الكلام عندما ينتشر انتشار أفقياً في المدارس والمعارف وفي الحياة العامة سيصبح عند العقل الجمعي البشري الموجود:

حصانة بدرجة كبيرة من الأوهام

محاسبة مستمرة للأفكار

هذه القضية المتمثلة بالتجربة، والعقل، ومحدودية الإنسان، ستصبح هي عنوان العصور الحديثة، والمقصود هنا بمحدودية المعرفة { وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً }؛ أي ستصبح المعرفة شيئاً ليس بمنتهٍ، ولا بشيء نغلق عليه الباب ونقول قد علمنا، بل هي شيء مفتوح يزداد مع كل تجربة من التجارب، ومع كل سؤال من الأسئلة.

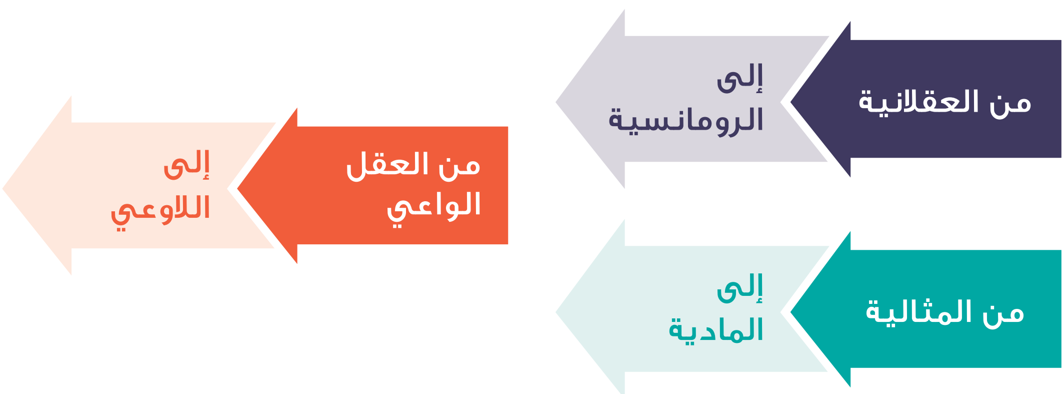
وقد مهدت تلك الاكتشافات والتحوّلات إلى قيام الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية، وزيادة القوة العسكرية - والتقدّم العلمي- ووفرة الإنتاج.

وسنشاهد في مرحلة متقدمة كيف أن منهج المعرفة بذاته سيصبح موضوعاً للبحث، فنكون قد انتقلنا من قضية محاسبة الوقائع إلى محاسبة المنهج ذاته، فكل مسلمات المنهج يعاد النظر فيها مرة بعد أخرى للتدقيق حتى لا تدخل البشرية في طور من الوثوقية قد يؤدي إلى انغلاقها وانحباسها في عصر من العصور.

إن حضارة ما حينما تصل لمرحلة معيّنة من النضج سيصبح المنهج عندها موضوعاً للبحث، فيكون هو في ذاته غير محصن من الأسئلة والمراجعات

رابعاً- تجلّيات عدم الوثوقية بالعقل

إن فكرة "عدم الوثوقية" والشك قد فتحت آفاقاً جديدة للنظر في الأمور من زوايا أخرى، فكان لا بد أن تخلق حقيقة الوثوقية في العقل نقائضها في الحياه الأوروبية، بأن يبحث الناس في فضاءات جديدة؛



فالنزعة العقلانية الشديدة جداً سيقابلها النزعة الرومانسية، والنزعة المثالية التي يتمتع بها عالم الأفكار ستقابلها النزعة المادية، وفكرة العقل الواعي سيقابلها العقل اللاواعي (اللاشعوري)، ونحتاج في مقام الطرح لدينا أن نرصد هذه الظواهر في الحياة الأوروبية لكونها ستشكل مساحة جديدة في العالم بعد ذلك..

- من العقلانية إلى الرومانسية:

وقفت الرومانسية في وجه العقلانية والتنميط.. وقد ولد اتجاه الرومانسية والاعتراف بالمشاعر حوالي 1800-1850م، وهي حركة أدبية فنية واسعة كانت أهم خصائصها: الاحتفاء بالطبيعة - الاعتراف بالانفعالات - الاحتفاء بالخيال والفن - الاحتفاء بالفنون البدائية - الاحتفاء بالروحانيات والماورائيات. فنظرة واحدة لأعمال الفنان "فرانسيس جويا" ولوحاته المليئة بالكوابيس تعرفنا بطبيعة المرحلة التي تعتمد على محاكاة مخاوف الإنسان واضطرابات الطبيعة وعالم الجن والعفاريت، وكيف صور الرسم والقصة والمسرح تلك الهواجس في لحظة تاريخية معينة.

- من المثالية إلى الماركسية (المادية):

سنجد في الفلسفة المثالية القديمة وفي الفلسفة الألمانية فكرة عالم المُثُل وعالم الأشباح لدى "أفلاطون" التي تكلمنا عنها سابقاً، وأيضاً سنجد أن "هيجل" قد تكلم عن العقل بأنه هو الواقع المحض، وبأنه روح العالم، فالعالم كله تسكنه روح هي في ذاتها عقل، وتقوم بتحريك العالم في اتجاه الكمال وتحرير الإنسان، وأيضاً "كَانْت" كان يرى بأن هنالك عالم محسوس بظواهره ويختفي أسفل منه العالم الآخر الذي لا نراه، فالشيء في ذاته هو غير الشيء في ذواتنا، فالشيء في ذاته لا يمكننا أن نطلع عليه.. فكان لا بد لجميع الأفكار المطروحة آنفاً في الفلسفة المثالية أن تجد ما يقابلها.. فسيخرج "كارل ماركس Karl Marx" - بنقيض المدرسة المثالية - ليقول إن الإنسان في صراع على الأرض، وعلى الموارد، وعلى وسائل الإنتاج.. ولولا هذا الصراع على العالم المادي ما تقدمت البشرية خطوة.. فقديماً كان الإنسان حراً سارحاً في البرية يعيش في مشاع، فكل مايحتاجه مشاع؛ يشرب الماء، ويأكل الفواكه، ويصطاد الحيوانات ويلبس.. فيعيش الإنسان على قدر احتياجاته ولا يسيطر على البريّة أحد ، إلى أن

جاء من فكر أن يسيطر على قطعة الأرض ويحتكرها له ولأبنائه، وبالتالي اختار من الموارد أفضلها، وسيطر على هذه الموارد، ومن ثم احتاج إلي أيدي عاملة لتشغيل هذه الموارد.. فبدأ عصر العبودية باستعباد الناس وتسخيرهم للعمل، وأيضاً كانت المرأة في السابق حرة، فأراد أن يسيطر عليها، فعقد معها عقد زواج من أجل تسخير أبنائها للعمل والخدمة..

فالعالم لدى "ماركس" بدأ يتشكل حول ملكية وسائل الإنتاج وإدارتها.. فالمالك لوسيلة الإنتاج سيشكل العالم الذي حوله من العبيد والعمال الذين يعملون من أجله، ومن ثم فإن كل الثروة ستعود إليه، وهؤلاء لا ينالهم إلّا اللظى من الحياة، ومن هنا يأتي العصر التالي وهو العصر الذي تحررت فيه الناس من العبودية المباشرة، إلّا أنهم أصبحوا عبيداً للأرض في النظام الإقطاعي، فالفلاحون كلهم يشتغلون على الأرض لصالح النبيل، والنبيل يعطي جزءاً من الأرباح للملك بحيث أنهم يسيطرون مع الكنيسة على الناس، ويأخذون منهم زهرة حياتهم في مقابل لا شيء. ومن ثم اتّبع النظام الاقطاعي النظام الرأسمالي؛ فأصبح صاحب المصنع هو الذي يُسخّر العمال والشباب القادمين من فلاحة الأراضي للعمل لديه بأجور زهيدة، ويتحكم بحياتهم، رغم أنَّ الفئة العاملة أو المستَغلَّة تشكّل ملايين الناس، والفئة الحاكمة لا تشكل إلا خمسة أو عشرة أشخاص في المجتمع! وقد قبلت جموع ملايين الناس أن ترضخ لسلطة ثلة قليلة جداً لكونهم يمتلكون وسائل الإنتاج، ويمتلكون تشكيل التعليم، وتشكيل القانون، والجيش والشرطة.. فهم مالكون لجميع القوى المحرّكة التي من خلالها وبمساعدة رجال الدين يستطيعون تزييف وعي العمال؛ حيث يقدّم رجال الدين أفيوناً للناس مفاده ترك الدنيا والمتاع في سبيل الآخرة.. فتتظافر هاتان السلطتان المعرفيتان في المجتمع على تطويع الملايين من الناس.. وهكذا فسر ماركس العالم تفسيراً مادياً، فجعل الأساس في المجتمع الصراع بين هذه الطبقات للعودة إلى نقطة البداية (المشاع) التي لا يمتلك أحد من الناس فيها شيئاً، وكل الناس سواسية كبعضهم البعض، فظهرت الفلسفة الماركسية على هذا المبدأ، وشكلت العصور الحديثة بشكل كبير جداً، فاليوم لا يستطع داخلٌ أن يدخلَ إلى العلوم الإنسانية إلا وهو على معرفة بالفلسفة الماركسية وجذورها وأبعادها وحواراتها التي أدارتها..

- من الشعور فقط إلى الشعور واللاشعور:

إن المسائل والقضايا لم تتوقف هنا، فالنقاش أو التفكير عند الفلاسفة والعلماء لم يتوقف عند العالم المثالي، أو عالَمَي الفكرة والمادة، فسيظهر عالم اسمه "سيجموند فرويد Sigmund Freud " سيفرّق بين عالَمَيْ الشعور واللاشعور، وسيستنكر الافتراض السائد بأن الذي يحرك الإنسان هو العالم الواعي (الشعور)، فرأى "فرويد" أن الأشياء الدفينة في عقلية الإنسان هي التي تحكمه، فَتَصَوَّر طبيعة الإنسان النفسيّة على شكل مستويات كالبصلة تماماً؛ نواتها الأساسية باقية في قلبها وتنمو حولها طبقات جديدة، وكذلك الإنسان تبقى جميع مراحله موجودة بداخله، وتتحكم به على الرغم من تنوّع المراحل العمرية والشخصيات التي تنمو فوقها، فالإنسان باقٍ في داخله مرحلة الجنين الذي لازال يريد السباحة في الماء، ولازال يبحث عن الثدي وعن الحضن والحنان، وأيضاً المرحلة الثانية التي فيها فُطِم عن الرضاعة ويتحرك للتعرف على بيئته، وفوق هذه المرحلة مرحلة المراهقة التي يبحث فيها عن شخصيته، وفوقها الإنسان العاقل الذي يحاول التحكم في بيئته، وفوقها الانسان الكبير في السن الذي أصبح متحكماً أكثر في بيئته.. فكل هذه الشخصيات موجودة في ذات الإنسان، وفي أي لحظة ضعف قد تنكشف المستويات الأدنى من تصرفاته؛ فقد يكون عمره 60 عاماً وفي لحظة ضعف معينة يتصرف كالمراهقين، وما ذلك إلا لكون شخصية المراهق ما زالت حاضرة في حياته، فيفقد التحكم ويصرخ ويضرب ويدخل في مشاكل؛ نتيجة أن القشرة التي تحيط به وتضبطه قد لانَت..

إذاً الإنسان لدى "فرويد" مستويات عدة:

المستوى الأول

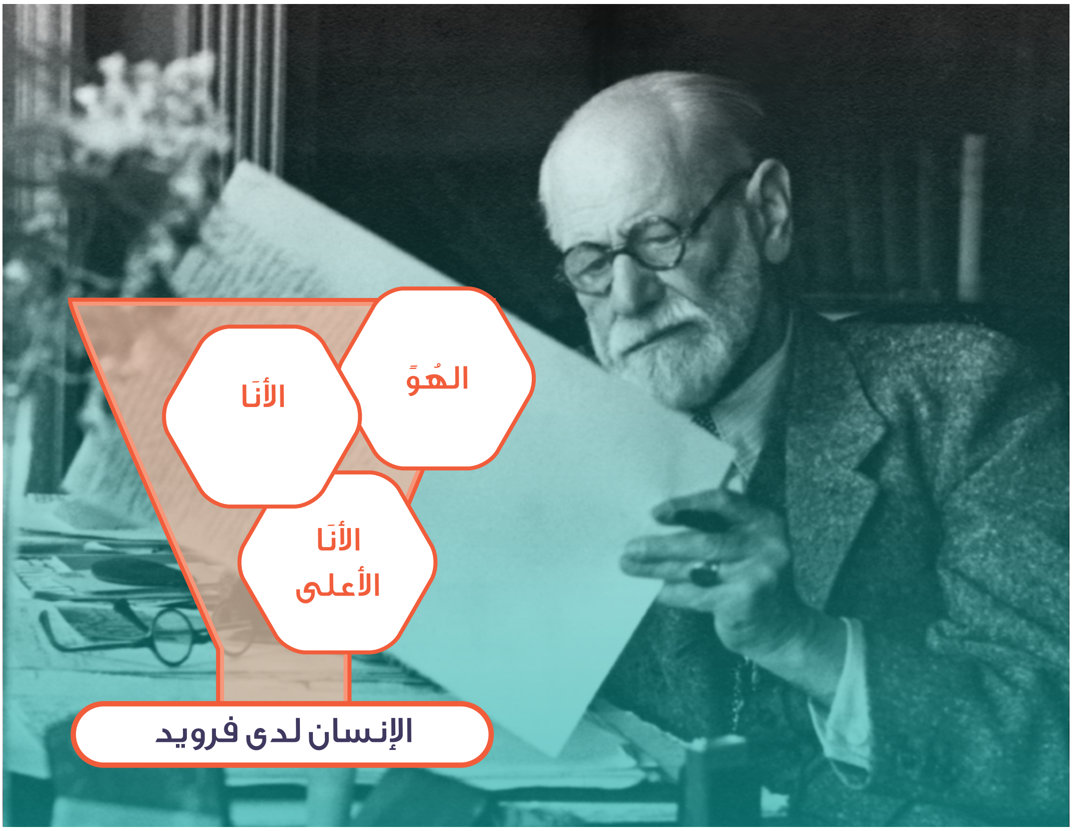
هو المستوى البدائي من الإنسان، والذي يسميه فرويد «الهُوَ id»، وتحكمه الغرائز فقط، وهو على علاقة وثيقة باللاوعي (اللاشعور).

المستوى الثاني

وهو مستوى العقل المنضبط بالإنسان «الأنا Ego»، يحتك بالواقع الخارجي، ويضبط الصراع بين بدائية الإنسان «المستوى الأول»، والمثالية بـ«المستوى الثالث»، وهو أكثر المستويات اعتدالاً ووعياً.

المستوى الثالث

وهو المستوى الذي ينزع إلى المثالية « الأنا الأعلى The Super Ego»، وهو بمثابة معايير خُلُقِيَّة بداخل الإنسان (الضمير).



أصبح الإنسان يُفَسَّر بهذه الظاهرة التي أوجدها فرويد، وأصبح عالم اللاشعور عالماً كبيراً جداً، وأنشأ كتاب تفسير الأحلام الذي يقوم على مبدأ اللاوعي، كما تكوّنت فكرة ما يسمى بـ "فتح اللاوعي" أو "التنويم المغناطيسي"، كما نشأ أيضاً "التحليل الكلاسيكي" بأن يبحث في ذكريات المريض من خلال تنويمه عن العقدة الموجودة لديه؛ والتي إن حُلّت قد تُحَلُّ معها مشاكل الإنسان النفسية.. وكذلك ظهرت أمور أخرى جميعها تبحث عن إجابات للجوانب التي أُهمِلَت نتيجة العقلانية وقوّة العقلانية آنذاك. وهكذا وصولاً إلى القرن العشرين.

خامساً- أثر الفلسفة والحرب في السياسة والمجتمع

إن الفلسفة تقوم على الدوام بمطاردة مستمرة لإشكاليات الانسان مع زمانه ومنتجات عصره، من خلال رحلات عنوانها الأساسي هو الشك وإزالة الوثوقية عن الأشياء

في القرن العشرين وبعد الوثوقية الضخمة بالمنهج العلمي وبالعقل وبالتدبير السياسي.. قامت الحربان العالميتان الأولى والثانية، وكانت تكلفتهما أكثر من 70 مليون ضحيّة! وفي فترة زمنية قصيرة جداً؛ فالحرب العالمية الأولى استمرت من 1914-1918م وكانت حصيلتها 10 ملايين ماتوا في الخنادق، ثم لم يمضِ كثير من الزمن حتى جاءت الحرب العالمية الثانية سنة 1939م،وكانت تكلفتها 60 مليون قتيل، فأين ذهب العقل والعلم والمعرفة والمنطق!؟

إن هذا الدمار المهوول ولّد ردود أفعال ضخمة جداً داخل الحضارة الأوروبية لمساءلة جذور الفكر مرة أخرى، وكان من نتاج ردود الأفعال ما يسمى بالتيار الوجودي (Existentialism)، وإن هذا التيار قد وجد صداه قديماً، أي منذ سنة 1855م مع فيلسوف مؤمن بوجود الإله اسمه سرن كيركيجارد Seren Kierkegaard، وقلب الفلسفة الوجودية هو الإحساس بالقلق من الحياة، ومن معنى وجود الإنسان فيها، وجدوى وجوده. فالحديث يدور حول (سخف الإنسان- قلق الإنسان- غربة الإنسان- غياب المعنى- صراع الرغبات والاحتياجات والمشاعر)، إلّا أنّ هذا التيار وجد صداه الأكبر والأوسع من بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، فلنا أن نتخيل حالة الإنسان الأوروبي الذي في خلال 6 سنوات شهد موت 60 مليون شاب وفتاة في القارة، فلا توجد منطقة في أوروبا ليست مبتلاة، فـ 60 مليون ليس بالرقم البسيط، وهذا عدد القتلى فقط غير الجرحى والدمار الذي حلّ بالمدن، وغير الأزمات الاقتصادية والمجاعات، فالصدمة النفسية العنيفة جعلت ردة الفعل ضخمة جداً، وأحيَت ما يسمى بالتيار الوجودي، الذي سعى لتثبيت العقل على اعتبار أن الإله لم يستطع حل المشكلات، وأن على الإنسان أن يجد حلولاً بغياب الإله، وأصبح الوجود بحسب أواخر المدرسة ليس له إله، وبالتالي على الإنسان أن يصنع مفهوماً للوجود يعيش به، وهذا المفهوم هو مفهوم أخلاقي، يختاره بحرية

ويعيش به حياته، فالإنسان سيعيش طول حياته في القلق، والخوف من المرض، والفقر، وفقد الأحبة، والكبر في السن، وستحيط به المصائب.. فما المبرر من انتظار ذلك كله؟! فلا بد للإنسان أن يصنع معنى للحياة لكون المعنى لها مفقودا! وتوصل "سارتر" إلى المبدأ الأساس للمدرسة الوجودية بأن "الإنسان يصنع وجوده بنفسه"؛ ففكرة الإله كانت تخلق معنى للحياة، أما الآن فبات المعنى مفقوداً، وبرزت هنا عدة قضايا ليصنع الإنسان بها معنى لوجوده، فنرى البعض يتبنّى معنى وجوده بخدمة الفقراء، والبعض يتبنى تعليم الناس، والبعض اتجه لمناطق الناس المحرومين في المجتمعات، والبعض يداوي المرضى.. فالمبدأ بالمدرسة الوجودية أن يصنع الإنسان لنفسه معنى يعيش من أجله، ويتحمل آلام الحياة في سبيله ومن خلاله..

ونشطت المدرسة الوجودية واتسع صداها، حيث إن آثارها لم تقتصر على الكتابة الفلسفية، بل امتدت للأعمال الفنية والأدبية وغيرها، وهنالك مسرحية كتبها "Jean paul sarter جان بول سارتر" بعنوان (No Exit) أي ليس هنالك مخرج، وهي تدل على النزعة اليائسة الموجودة في المدرسة الوجودية، وداخل هذه المسرحية أناس مؤمنون يعتقدون وجود الجنة والنار، يموتون ويدخلون إلى غرفة، وفي هذه الغرفة يوجد باب، وهذا الباب يفترض أنه سيدخلهم إلى جهنم لكونهم جميعاً مرتكبي آثام في الحياة، وفي أثناء الجلوس سيبدأ بينهم حوار تلاومي فسيحاول كل شخص أن يؤنّب الثاني بما فعله ولماذا فعله وكيف فعله.. وعلى الآخر أن يبرر لماذا فعل وكيف فعل.. وهم ينتظرون أن يفتح الباب حتى يذهبوا إلى مصائرهم، ويحتد الصراع بينهم في هذه الغرفة بشكل كبير جداً، ومن ثم يفتح الباب فلا يجدون جهنم ولا أي شيء آخر! وستأتي عبارة هنا ستصبح عنواناً للعصر وهي "أن الجحيم هو وجود الإنسان مع الآخرين"، فالإنسان طوال حياته يلبس أقنعة متنوعة ليرضي الآخرين، فالألم الحقيقي ليس هو النار، بل يكمن في محاولة الإنسان أن يرضي كل من حوله..

وكان لسارتر موقفاً من النص المكتوب، فالنص لديه يجب أن يكون لغرض محدد وهدف محدد، وعلى الكاتب أن يكون ملتزماً ودقيقاً في الوصول لهدفه.

أما المدرسة البنيوية فقد كان لها رأي، فبعد أن كان النقد الأدبي الأوروبي القديم يرى أن النص حامل للمعنى، وأن الكاتب عنده رسالة، ووظيفة القارئ معرفة الرسالة من خلال الاطلاع على بيئة الكاتب وظرفه.. رأت البنيوية أن النص مكتف بذاته فيكفي فيه الكشف عن القاعدة والهيكل وهو الذي سيكشف لنا عن حياة الكاتب وبيئته وليس العكس.

الفلسفة وأثرها
تجلّيات الخوف
من الوثوقية

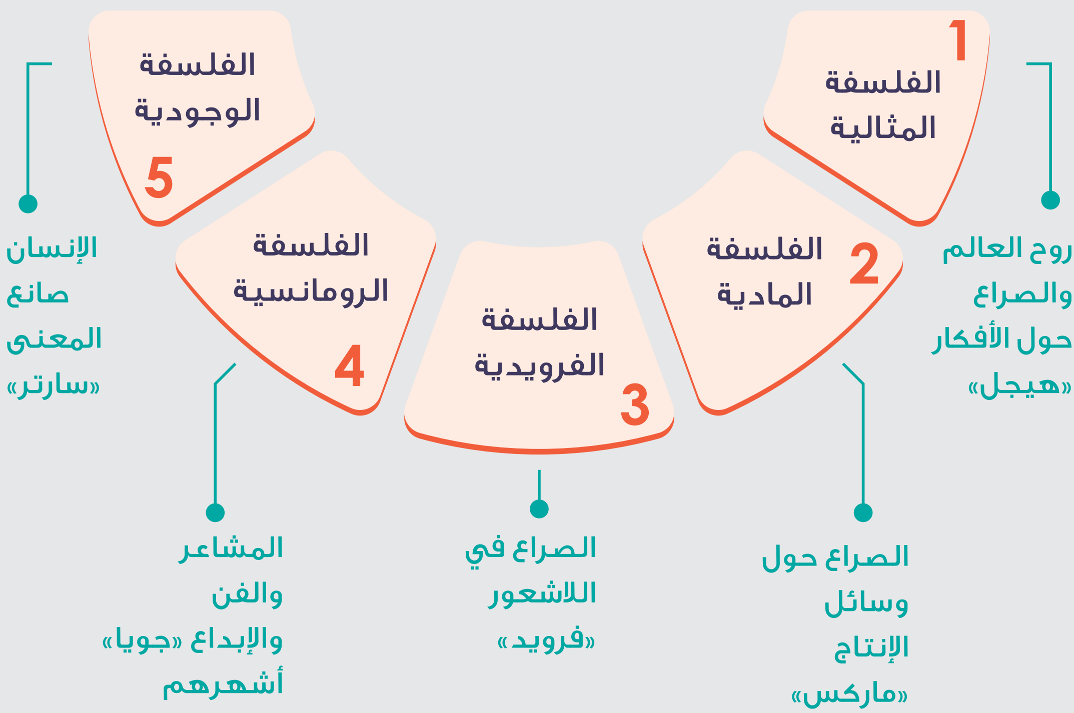


كما كنا قد أسلفنا سابقاً.. قادت الاكتشافات الكبرى التي حملت نسفاً جذرياً للتصورات السائدة (تصورات أرسطو والكنيسة..) إلى ردة فعل عنيفة وخوف من الوثوقية، فأصاب أوروبا قلق معرفي جعلها لاتثق بأية معلومة تأتيها..

تولدت فكرة الاستمرار في عملية نقاش الأفكار لضمان عدم تجدد الغيبوبة لمدة طويلة بحيث لاتبقى فكرة إلى أبد الآبدين مقدسة كالأصنام، بل تُحوَّل لموضوع بحثي مستمر.

ظل الأوربيون كمن يقلّب العملة على أحد وجهيها إلى يومنا هذا. يذهبون بأفكار ويجيئون بأفكار أخرى، وأن هذا التقليب لم يحدث خللاً في عملية استمرار التقدم بل اعتبرت فكرة عدم تحصين الأفكار والترحيب بالجديد المبدع هو الضمان الحقيقي للتقدّم

وسنقوم بعرض مقتضب لتلك الوجوه المتعاكسة يتخلله بعض ماكنا قد مهّدنا له أو تحدثنا فيه في المحاضرة السابقة



الفلسفة المثالية

كنا تحدثنا عن مرحلة مابعد الثورة الفرنسية حيث أن "هيجل" مع مجموعة من الفلاسفة الألمان طرحوا أفكاراً لُقّبوا على أثرها بالمثاليين، ولانعني بالمثاليين هنا المعنى المتداول من كونهم أصحاب قيم عليا ومبادئ سامية. المقصود بالمثالية اتجاه يصوّر العالم بأن له فضائين؛ فضاء فكري وفضاء مادي والفضاء الفكري مستقل عن الفضاء المادي وله قدسية خاصة.. فاعتبر هيجل أن العالم الفكري هو روح العالم الذي يتجه لتحقيق كمالات العالم، والعالم المادي يتبع له.. وهذا كحركة التاريخ، فرغم أنها حركة مادية إلا أنها تتقدم باستمرار نحو اتجاه واحد وهو تحرير الإنسان. وإن فكر أفلاطون في عالمي المثل والظلال يجسد الفلسفة المثالية القديمة.

اعتبر "هيجل" أن العقل هو الواقع المحض وروح العالم، فالروح التي تسكن العالم هي في ذاتها عقل، وتقوم بتحريك العالم في اتجاه الكمال وتحرير الإنسان. وأن صراع العالم وتقدمه ناتج عن صراع الأفكار فيرى أن العالم قام على وجود الفكرة ونقيضها، بمعنى أنه إذا ولدت فكرة فإن عقل الانسان مباشرة سينتج فكره نقيضة عنها، ومن ثم سيتشكل صراعاً بين الفكرتين تاريخياً، ثم سينتج حلاً وسطاً، والحل الوسط سيتخلله أيضاً النقص وبالتالي ستنتج فكرة نقيضة له وتنتج فكره ثالثة وهكذا.. ليتطور العالم كله عبر جدل الأفكار.

الفلسفة المادية

كان لابد للأفكار المطروحة في الفلسفة المثالية أن تجد ما يقابلها.. فمقابل الطرح المثالي سيأتي "كارل ماركس Karl Marx" ويرمي العملة مرة أخرى ليخرج بنقيض المدرسة المثالية، فيقول بأن "هيجل يقف على رأسه، وأنا أريد أن أوقفه على رجليه" وذلك لأن هيجل كان يعتقد أن العالم يتحرك من خلال العقل، في حين كان ماركس يرى أن الإنسان واقف على الأرض ويتحرك على رجليه فالذي يشكل حركة الإنسان ويؤثر في توازنه هو وقوفه على الأرض، أما عمل العقل فهو ضبط موازنة الإنسان حينما يتحرك.. فيرى "ماركس" أن العالم لم يتقدم نتيجة جدل الأفكار، بل الإنسان في صراع على الأرض (في الواقع الحي) حول الموارد،

ووسائل الإنتاج.. فمن يمتلك الارض يسيطر على الفلاحين ومن يمتلك المصنع يسيطر على العمال. وإن حركة العمال وحركة الفلاحين هي نقيض حركة الرأسمالية (حركة التجار) ويأتي يوم تنتصر فيه حركة العبيد في المدينة الفاضلة الاشتراكية التي توصل بعدها إلى الشيوعية.. ولولا هذا الصراع على العالم المادي ما تقدمت البشرية خطوة..

الفلسفة الفرويدية

يظهر عالم اسمه "سيجموند فردويد" ليقول بأن هنالك مشكلة في عصر الأنوار الذي يعتبر أن العقل الواعي هو الذي يسيطر على العالم، فيسأل سؤال أيضاً هو كمقلوب العملة لماذا لايكون عالم اللاشعور أي الأمور التي نراها في الأحلام هي التي تشكل تصرفاتنا وليست الأشياء الظاهرة، ليصل بأن العالم الخفي للإنسان هو الذي يحكمه وبالتالي البحث عن العُقَد عبر التحليل النفسي أصبح سائداً بعد أن كان التحليل العقلاني هو السائد.

الفلسفة الرومانسية

ظهرت الرومانسية بعد أن كان عصر التنوير قد فرض سلطة العقل على حياة الناس بحيث أن كل شيء يجب أن يكون مهندس ومقيَّد بنمط عقلي معين، فيفرض على الإنسان مايحب ومايكره، اختيارات الأشياء والألوان والملابس.. فأتى الاتجاه الرومانسي مستنكراً العقلانية والتنميط، محتفياً بالطبيعة والخيال والروحانيات والفن الحر البدائي الغير منمّط.

الفلسفة الوجودية

بعد الحرب العالمية الأولى والثانية التي فتكت بـ 70 مليون من الشباب وأحدثت دماراً شاملاً حدثت صدمات كبيرة في النفوس وهذا انعكس أثره على الحالة الإيمانية للشعوب، كالانعكاس الذي أعقب الربيع العربي.. فعادة الحروب المدمرة أنها تُحدث صدمات نفسية كبرى يتبعها آثاراً كهذه فيبدأ التساؤل أين الإله مقابل الكوارث الكبرى

نشأت مدرسة كبيرة تساؤل موضوع الإله بشكل جذري، ومع الوصول لفكرة عدم وجود الإله أصبح الإنسان عارياً ﷲ الوجود، فبعد أن كانت الأديان تخبره سيره وماعليه أن يفعل وتحيي معنى لوجوده.. أصبح عليه هو أن ينظم حياته ويصنع لوجوده المعنى، فالوجودية هي صناعة معنى ﷲ غياب الإله، وهنا لا أتحدث عن الوجودية التي تقر بوجود الإله بل أتكلم عن الوجودية التي مثّلها "سارتر" والتي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية وشاعت ﷲ الستينات

الاشتباك مع النص

كان الأدب القديم يرى أننا لكي نفهم كتاب من الكتب أو قصيدة من القصائد يجب أن ندرس حياة الكاتب وعصره، ومنه سنفهم غايته من النص والمؤثرات التي أثرت فيه، فكانت المقولة السائدة "ادرس حياة الكاتب تفهم أدبه" ولكن مع دخول الستينات والسبعينات أصبحت الفترة حُبلى بالأفكار والمعتقدات التي تبحث ﷲ جذور الجذور المتعلقة بالأدب ومنهجه..



المدرسة البنيوية:

ظهرت المدرسة البنيوية واشتهرت بشكل كبير، وهي مدرسة قد يستعصي فهم تصورها بسهولة، إلا أننا سنحاول عرض أفكارها الرئيسية الواضحة حتى يسهل تشكيل تصور عنها ﷲ ذهن المتلقي

ترى البنيوية أن كل نص يتكون من بناء، وإن كل بناء يتكون من هيكل وأساس، وإن تتمة البناء سيوضع بشكل يوائم الأساس والهيكل، فإننا حينما نقرأ نصاً ما كنص "الأميرة النائمة" فإن القصص من هذا النوع مبنية على هيكل معين أساسه:

- الأميرات طيبات
- زوجات الأب شريرات

- الأمراء منقذين
- الأمراء يتزوجون الأميرات

وإن تحديد النص بمحددات كهذه ستجعل أي كاتب سيحشو القصة سيلتزم بهذا الإطار من الحشو فمن معرفة البنية الأساسية لأي نص نستطيع أن نعرف ماذا يريد الشاعر أن يقول. وهذه أساسات البنيوية.

الحفر المعرفي:

سيظهر "ميشيل فوكو" ويقول بأن النص الأدبي مغتصب دائماً لصالح السلطة المسيطرة بزمن معين سواء سلطة أدبية أم ثقافية أم سياسية.. فهو يصادر باستمرار صوت المحرومين.

وضع "فوكو" كتاباً اسماه "تاريخ الجنون" يقول فيه بأن الجنون كان موجوداً في كل عصر، إلا أنه في عصر من العصور كان محل للسخرية تكتب به الطرائف، وفي عصر آخر كانوا يعتبرون الجنون له علاقة بالجن والتباسهم بإنسان معين، فيحبس المجنون ويضرب حتى يخرج منه، وفي عصر ثالث كان يوضع في ممستشفيات ويجرون له دراسات نفسية ويناقشونه ويسألونه، وفي عصر رابع أصبح يُبحَث في حقوقه ككائن إنساني..

فيسأل "فوكو" في كتابه هل الجنون تغيّر طوال هذه العصور؟ أم أن الموقف الثقافي من الجنون هو الذي تغير؟ ويصل لفكرة أن سلطة العصر فرضت نفسها في زمن ما وبيئة ما، لتعطينا صورة عن الجنون، فإن جميع الناس نظروا للجنون بحسب النظرة التي أعطتها السلطة، فالثقافة تفرض نفسها على الفهم، فنحن لسنا أحراراً بل مغتصبين باستمرار لصالح السلطة الموجودة.

ويرى "فوكو" أيضاً أن الكتابة التاريخية هي ما يكتبه الأقوياء، فالحروب قامت وكتبوا بشجاعة القائد والجيوش القوية، وبحجم الانتصارات ونحوه من الكلام الضخم.. ولو أننا بحثنا في الجانب الآخر من الصورة سنجد الحقيقة الواضحة برسالة جندي مجهول لزوجته يصف فيها الأوضاع ويشرحها بشكل أصدق وأفضل من النصوص التي كتبت بإشراف السلطة الزمانية.

فـ"فوكو" يؤكد أن السلطة الموجودة تفرض علينا النصوص التي يجب أن نقرأها في السياقات التي تريدها، وإذا أردنا أن نعرف الحقيقة علينا أن نجري حفراً معرفياً بالاتجاه المعاكس لنجد ماذا كان صوت المحرومين من معتقلين وجياع..

فينقلنا فوكو من اعتقادنا بأن النصوص المكتوبة في عصر ما تُمثّل صوت الواقع بشكل كبير إلى حقيقة أن النص يمثل صوت السلطة، والحفر المعرفي لميشيل فوكو هو الحفر عن النصوص المغيبة والمهملة باعتبارها الكاشف الحقيقي عن صوت المظلومين في ذلك العصر

النص لايقول شيئاً

يظهر الفيلسوف "جاك دريدا" ليحمل مطرقة ويهشّم كل ما يمكن أن ينسب للنص من وضوح وحجيةّ وبيان بأفكار خلاصتها "أن النص لايقول شيء!"وتتمثل تلك الأفكار بما يلي:



1. يرى دريدا أن الكلمة لها عدد مستويات، فكلمة شجرة على سبيل المثال المستوى الأول لها صوتها، فبعد أن أقول شجرة سيظهر صوت ويختفي فوراً. أما المستوى الثاني فهو الكود السمعي الذي تختزنه أذهاننا لتلك الكلمة، فحينما نكررها تأتي وكأننا نسمعها من جديد. أما المستوى الثالث فهو مفهوم الكلمة أي المعنى الذي تثيره الكلمة في الذهن حينما يستذكرها الذهن، ويتمثل باستحضار صورة الشجرة. والمستوى الأخير للكلمة هو الكلمة المكتوبة التي تمثل رمزاً عن المستويات الثلاث السابقة.

فاعتبر المسافة بين الكلمة المكتوبة وبين حقيقة الكلمة مستوى أخير فهي ظل الظل الأساسي، وبذلك تكون الكتابة نسخة من نسخ مكتوبة وهي المستوى الأخير الذي يعبّر من خلاله عن الكلمة.

2. اعتبر أن النص تملؤه ثقوب وفراغات كثيرة جداً، فحينما يكتب إنسان "التقينا في المقهى تحدثنا ثم خرجنا" فهنا فراغات كثيرة بدء من شكل المقهى وألوانه ورائحته والحديث ونوعه... وكل إنسان سيملأ الفراغات بحسبه.

3. التعريف مستحيل لكلمات النص، فكلمة "طفل" مثلاً إذا أردنا معرفة مقصدها فيمكن أن يتم التوضيح بكونه طفل أبيض، والأطفال البيض كثر فسنجد أن هذا التعريف غير كاف، ومهما استمرينا في محاولة التعريف فإننا سنصل لمحاولات مفتوحة دون أن يفهم الذي أمامنا المعنى، وذلك كمحاولة تعريفنا للكائن الفضائي عن النبات.

حتى أن التعريف عن طريق المغايرة غير ممكن، كأن نقول "النبات ليس كالصخر" لكوننا سننتهي لمعضلة ماهو الصخر! فمع عدم وجود المرتكزات المشتركة للحديث يعتبر التعريف مستحيلاً بنظر "دريدا"

4. المعنى المؤجل: والمقصود من هذه الفكرة أن مصطلحات النص مفتوحة وتحتاج لانتظار وتروي قبل أن تُفهم، فإذا قلنا "وردة" فإن شخص ما سيفهم الوردة فتاة، وشخص آخر سيفهمها رسمة، وآخر سيفهمها وردة صناعية، وآخر طبيعية.. وذات الأمر إذا ما طلبنا من مجموعة أن يرسموا "شجرة جميلة" فسنجد أن كل شخص رسم الشجرة الجميلة لديه بشكل مختلف عن الشكل الآخر، فما بدا لنا واضحاً

ومشتركاً اتضح أنه يختلف من شخص لآخر، ولن يتضح معناه مالم يكتمل النص، فيتوقف ويؤجل الفهم إلى أن يكتمل النص.

5. التحيز المبطّن: يرى دريدا أن الإنسان متحيّز في اللغة أساساً، فبرواية "البطة السوداء" اختار الكاتب أن السوداء هي السيئة وهذا تحيّز تاريخي مبطّن ضد السود، واللغة مسكونة بتحيّزات الإنسان دون أن نشعر، فلماذا البياض مفضل على السواد، ولماذا الظلام مفضل على النور والرجل على المرأة..

6. التأجيل يؤدي لمحو المعنى المجرّد، وهذه مشكلة حقيقية في موضوع الكلمة التي تحمل مفهوماً عاماً، فنجد لدينا سراباً لمدلول الوردة وهذا السراب يودي لمحو المعنى أي إلى تأجيل المعنى إلى أن يتم اكتشافه.

7. الثنائيات المضللة: قد يبدو لنا واضح جداً معنى السواد والبياض، والحسن والقبيح إلا أن دريدا يعتبر أن هنالك منطقة في المنتصف بين المعنيين منطقة محيرة ومضللة وهي منطقة مهملة في الحديث.

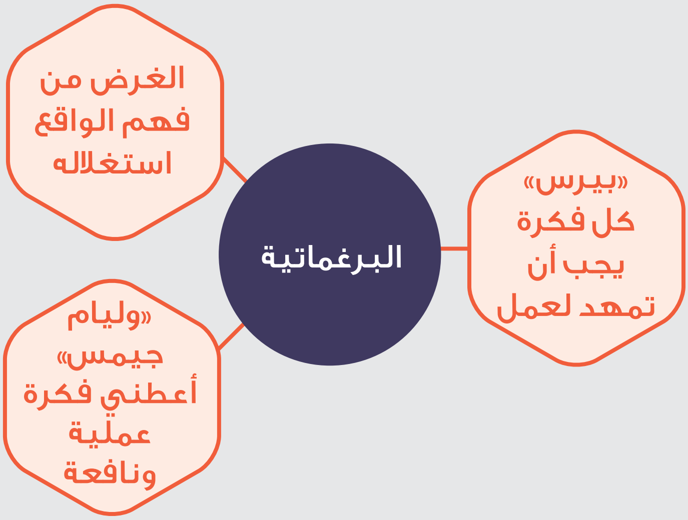
وهكذا هشّم "دريدا" بتلك الطروحات يمنة ويسرة، فأدخلنا بثقب أسود وهو جزء من دورة الحضارة الغربية في مسائلة مالا يمكن مسائلته. وقد كان في الكتابة من أصعب الكتّاب لأن منهجه اللامنهج..

البرغماتية (المذهب العملي)

أمام دورات الشك الفلسفي كيف يمكن أن يكون المخرج كيف يمكن أن ينبني اليقين، ظهرت المدرسة البرغماتية أو مايسمى بالمذهب العملاني، وكان صاحب الأفكار فيها هم "بيرس" و"وليام جيمس" فقالوا بأن الفلسفة لتفعل فعلها وليطرح العلماء النظريات كما شاؤوا لكن ستبقى لكل فكرة قيمتها الحقيقية التي تمهد للعمل..

يقول "جيمس" أعطني فكرة عملية ونافعة في الواقع وأنا سأطبقها بغض النظر عن حقيقتها ومشكلاتها ومصداقيتها النظرية..فالغرض من فهم الواقع تطبيقه.

فنجح المذهب البرغماتي في أمريكا وأوروبا نجاحاً باهراً لكونه يأخذ الخلاصات المفيدة ويوظفها في الحياة.

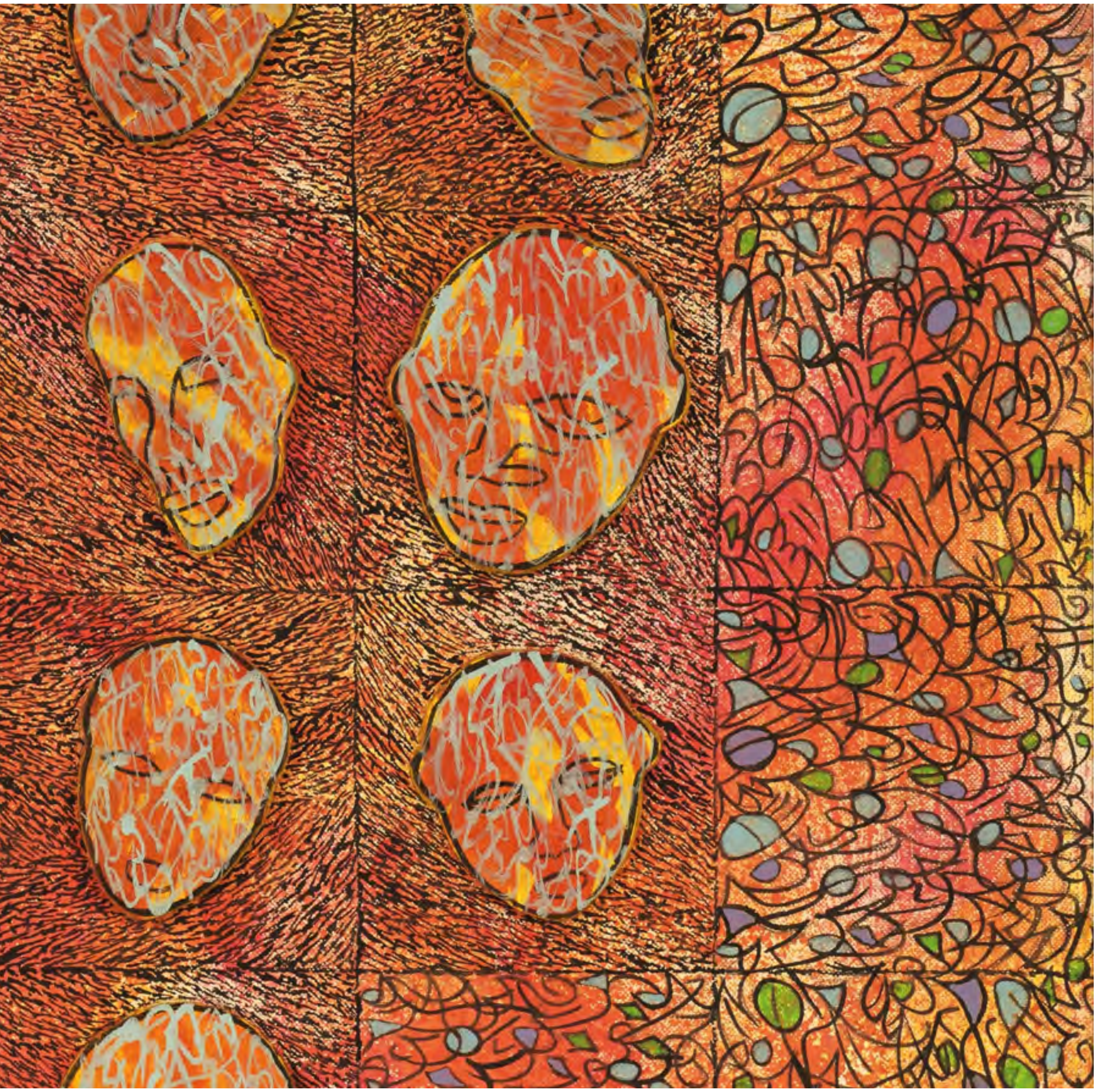


الروحية

يظهر "هنري بيرجسون" ويتكلم عن قضية الروح ويدافع عنها ويعتبر أن كل مانراه في الوجود من مادة هو بعض من تجلّيات الروح. فالروحاني يؤمن أن هنالك بُعد روحي في الإنسان متعالي على بعد المادة..

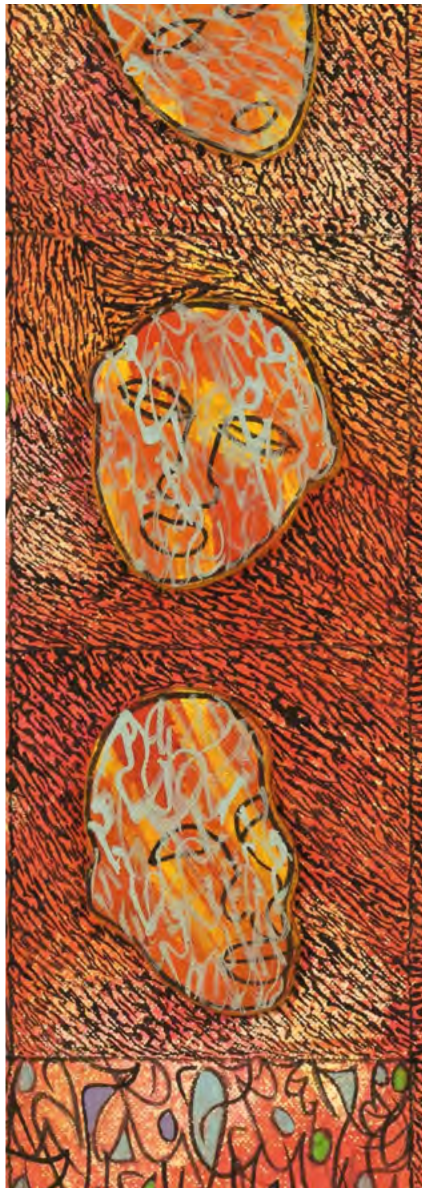
الفينومولوجيا

ستظهر فئة من الفلاسفة مقابل المدرسة التجريبية لتقول بأن العلم المادي تابع لعلم أعلى منه هو "الفينومينولوجيا" وتعتقد هذه المدرسة أن علاقتنا بالعالم الخارجي ليست علاقة دراسة، فنحن جزء من هذا العالم والمعرفة الحقيقية لا تتولد عن الدراسة النظرية له، إنما تتولد فعلياً عن التجربة الحسية المباشرة في استخدام العالم والعيش فيه، فالفينومولوجيا لا تصف التفاحة حينما أمسك بها حجماً ووزناً.. إنما تصف نتيجة إحساسي بها في لحظة



الالتقاء! وسأضرب على ذلك مثالاً عملياً لمعنى الاختلاف بين المدرسة التجريبية التلقائية التي نقدّم لها استبايانات وإحصائيات، وبين المدرسة التي تعتمد على الحس المباشر التلقائي للإنسان من أجل أن تعطي أوصافاً للظاهرة المدروسة.. إذا أخذنا على سبيل المثال مدينة لندن وقمنا بدراسة إحصائية لنسبة الجرائم في شرق لندن، فوجدنا أن خلال العشر سنوات هنالك تصاعد مستمر كثيف للجرائم في هذه المنطقة من السرقات إلى القتل.. إذن الإحصائيات

توحي أن هذه المنطقة ذاهبة للتدهور لأن الأمن فيها معدوم، فبالدراسة الإحصائية هذه المنطقه لا تُسكن وبالتالي لايوجد عليها إقبال، فيفترض نظرياً أن تبيع الناس منازلها لتنتقل لمناطق أكثر أمناً، ولكن سنكتشف أن في هذه المنطقة لا أحد يبيع بيته، والناس يقبلون على الشراء أكثر وأكثر! فبالدراسة الفينومولوجية وبالسؤال المباشر سنجد نتائج مغايرة لنتائج الإحصائيات، فإذا سألت سكان المنطقة عن شعورهم عند ذكر شارع المنطقة التي يعيشون فيها، قد يقولون لك الأمان، وإذا سألناهم عن خواطرهم إزاء الجيران قد يقولون المساعدة! أي أننا إذا جئنا نحلل الكلام الذي قاله الناس لنا نتيجة التجربة المباشرة سنجد أن النتائج مختلفة تماماً عن النتائج الأولى، فالنتائج الأولى تقول أن المنطقة إلى الهاوية، أما هذه النتائج فتقول أن الناس يحسون بالأمان!



إذاً تبحث الفينومولجيا في انطباعات الروح بغض النظر عن الأرقام الموجودة، فعلاقة الإنسان ببيئته ليست علاقة بالأرقام فقط، فمشاعر الناس بالأمان والراحة تجاه منطقتهم قد تجعلهم متمسكين بالمنطقة، ولا يستشعرون ثقل الأرقام فيها! فالدراسات الفينومولوجية قد تعطي نتائج مغايرة تماماً عن الدراسات في المدرسة التجريبية التقليدية التي تقدم إحصائيات وأرقام.

ختاماً.. إن هدفي من الطرح السابق تجنيب المتعلّم من الوقوع في منطقة الثقب الأسود، أو التعصب لمكان والاختناق فيه.. فإن فمشاهدة الصورة الكلية للموضوع تحمي من الوقوع. وإن الغرب قلّب العلوم والأفكار باستمرار خشية الوقوع في مسألة الوثوقية، فالفضاء مليء بالأفكار المتناقضة وتستمر الحياة على ما تتم به المصالح العامة.

الحروب الداخلية الثقافية في الغـرب -1-



سنتحدث في هذا القسم عن الحروب الداخلية الثقافية في الغرب، وكيف أن هذه الحروب لها انعكاسات في منطقتنا العربية، فإننا بصراعاتنا نستبطن بشكل أو بآخر هذه الصراعات الكبرى الموجودة في الغرب.

أولاً: الليبرالية والماركسية (من حيث الفكرة)

تشتغل في الغرب مدرستان كبيرتان جداً هما "الليبرالية" و"الماركسية":

- الليبرالية فلسفة سياسية وأخلاقية، تؤمن بالحرية والتراضي في الحكم، والمساواة أمام القانون وحرية التجارة؛ أي تساوي الفرص أمام أبناء المجتمع.

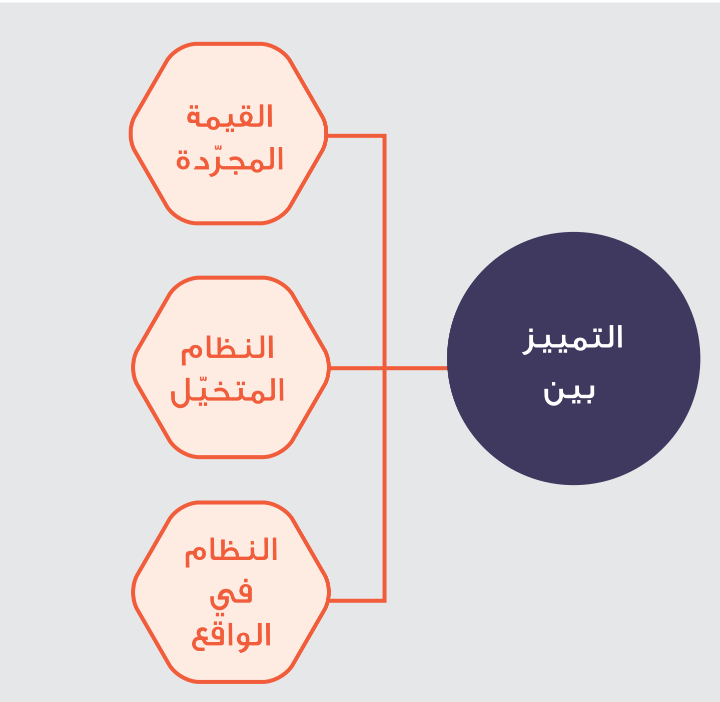
- أما الماركسية فهي طيف واسع من الأفكار، تتمحور حول فكرة العدالة الاجتماعية، والمساواة بين الناس، فتنادي بضرورة إنهاء نظام الطبقات (الطبقة الوسطى والطبقة العليا..)، بحيث يمسك العمال المجتمع، ويصبحون هم الطبقة السائدة فيه، فيختفي المجتمع الطبقي بالكامل ويظهر النظام الشيوعي.

تصارعت هذه الأقطاب فيما بينها، وأنتجت مادة معرفية تعبّر عن هذا الصراع؛ فأنتجت الليبرالية مادة معرفية تعزز الوضعية الاجتماعية المتمثلة بالرأسمالية وتعزز الانقسام الطبقي؛ بتركز الثروة بيد هذه القلّة بمقابل الكثرة التي لاتحظى بذلك، وتنتقد الماركسية بطيف من أطيافها المختلفة.

وبالمقابل تنتج الماركسية مادة معرفية كثيفة، تنقد الليبرالية وتعرّيها، وتهاجم النظام الاقتصادي الرأسمالي وتصمه بالكثير من الوصمات.

ونحن في بلادنا على الضفة الأخرى نأخذ هذه المنتجات، ونستخدمها، وكأنها منتجاتنا الخاصة، فحينما ينتقد الماركسيون الرأسمالية نعتبر مادتهم مادة تصلح لنا لمهاجمة النظام الرأسمالي بشكل من الأشكال.

ثانياً: بين القيمة وإسقاطها في الواقع



وهنا يجدر بنا الوقوف عند قضية بغاية الأهمية، وتحمل معها الإفادة للتفكير وللتصوّر عند الإنسان، وهو الفارق بين القيمة المجردة، والنظام المتخيل في الذهن إسقاطاً لتلك القيمة، والنظام في الواقع. فعلى سبيل المثال إذا قلنا إن العدالة هي جوهر الإسلام، {وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} فمقابل هذه القيمة سيتخيل العقل المسلم نظاماً مثالياً معيّناً اسمه الشورى؛ فيه مسؤول، وفيه مجلس شورى، وتصورات أخرى تخطر في البال مقابل قيمة العدل.. ولنا أمثلة في كل من تصوّر "الترابي" أو "النبهاني" رحمهما الله وغيرهم ممكن كتب في النظام الإسلامي من تصورات، بعضها بقيت كلمات على ورق أو أفكار في الذهن، وبعضها أخذت خطاً في الواقع فكُتب لها التجريب، وتم التحقق من نجاحها أو فشلها كنظام في الواقع..

تجربة الترابي:

من التصوّرات التي نفذت لتطبَّق في الواقع أفكار الدكتور "الترابي" رحمه الله، وقد كان عالماً شرعياً، وأستاذاً في القانون الدستوري، درس في "السربون" واتقن أكثر من لغة، وقاد الحركة الإسلامية في السودان، واستطاع أن يمكر بأعدائه، وأن يخترق الجيش السوداني ويقوم بانقلاب، وأن يموّه على الدول الأخرى فيساندون الانقلاب.. أي أنه نفّذ كافة الطرق التكتيكية بطريقة جيدة، ومن ثمّ وقع على أتباعه أن يترجموا النظام السياسي الذي في ذهنه. فظهر نظام المؤتمر الوطني في السودان، الذي قاد الناس 33 عاماً، ثم انتهى بأن ثارت عليه

الناس، فخرجت في الشوارع وطالبت بمطاردة أتباعه، ولايزال الصراع قائماً بين من هم في السلطة وفي الشوارع وبين هذا النظام..

فمع أن القيمة الأساسية في عقل الترابي كانت ممتازة، وكذلك النظام المتخيّل في ذهنه الذي كان سيحل كافة الإشكاليات التي من ضمنها (التغلّب على لعبة الجيش، فساد الأفراد، النظام الإقليمي، والنظام العالمي..)، إلا أن النظام في الواقع لم يصل لا إلى الدولة الحضارية، ولا إلى الدولة المدنية، ولا حتى إلى مجتمع راضٍ، ولا مجتمع كفاية، ولامجتمع مستقر إقليمياً ولامستقل دولياً!!

فالأنظمة كقيمة مجرّدة قد تبدو أنظمة رائعة، ولكن حينما ننزلها على أرض الواقع فنكون قد دخلنا في مكان آخر. فقد نكتب في الكتب عن نظام إسلامي ممتاز، ولكن عند وضعه على محكّ الواقع قد لا يتمكن من الوقوف والتوازن على الأرجل الأربعة الأساسية التي أتكلم عنها باستمرار المتمثلة بـ: قوة المشروع في ذاته، وبمدى تقبله في بيئته، وبقبوله إقليمياً، وبقبوله عالمياً، فبوقوفه على هذه الأقدام الأربعة سيتوازن، وباختلال أحدها سيتحول إلى نظام قلق.

ثالثاً: تمثيلات الليبرالية والماركسية

نجد أن الطيف الليبرالي قام على عدة أطياف وتمثيلين بارزين:

1. حمل التمثيل الأول فيلسوف كبير اسمه "جون رولز"، المتأثر بالمنهج الاشتراكي، حيث يرى "رولز" بأنه بمقابل الفئة التي تستأثر بالسلطة والمال - تاركة الفقراء والمحرومين دون سكن وخدمات ونحوه.. - يجب أن يقام الإنصاف بأن نأخذ من الأغنياء ونعطي الفقراء، ولكن ليس على طريقة الشيوعية (إزالة الطبقات)، بل من خلال نظام ضريبي عادل يسمح بإنصاف الفقراء ويحقق لهم عيشاً كريماً.

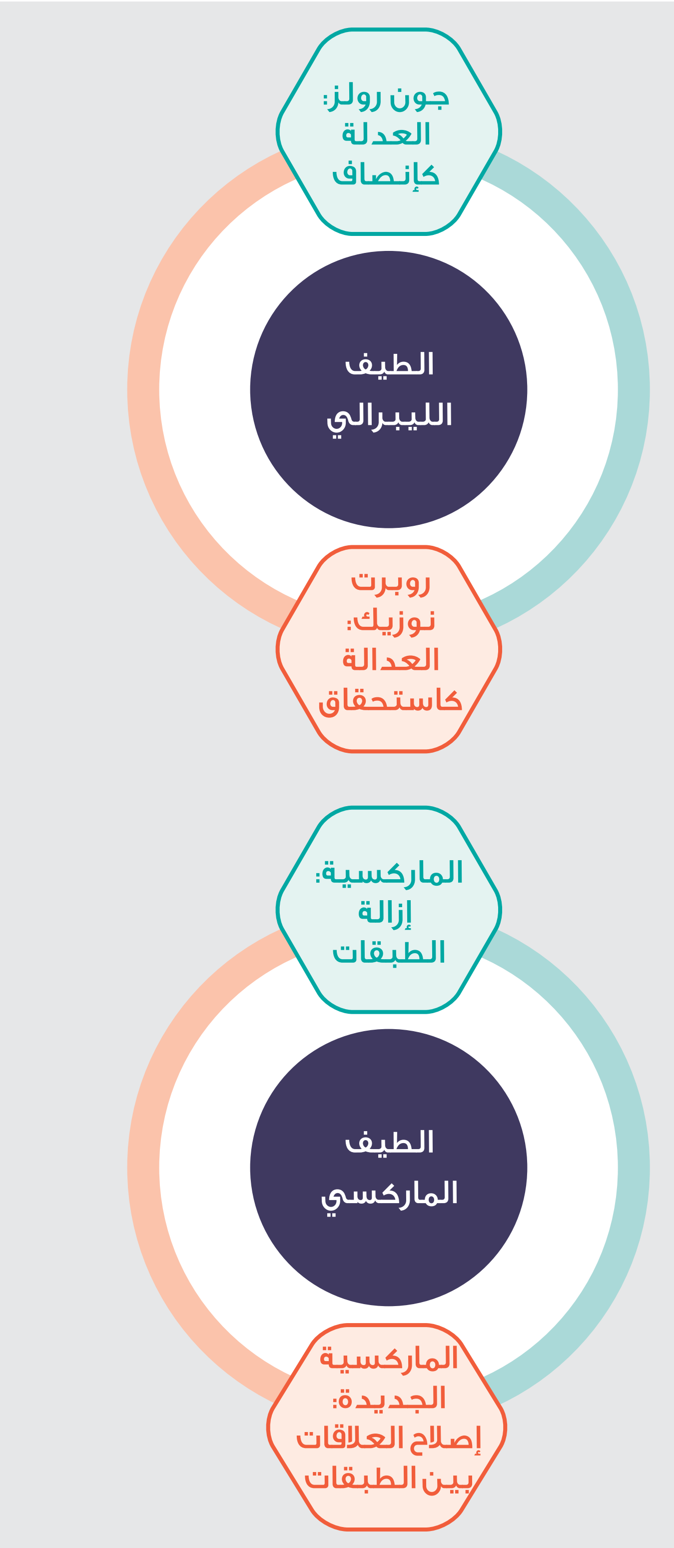
2. وفي الطرف الآخر البعيد سنجد الفيلسوف "روبرت نوزيك" ينادي بأن العدالة استحقاق وليست إنصاف، فالسلطة لا يحق لها أن تتدخل بثروة أحد أو إعطاء مال أحد لأحد، فمن استحق بجهده وعرقه أخذ، ومن لم يستحق فلا علاقة للسلطة بذلك.

أما الطيف الماركسي فقد تمثل في مرحلتين رئيسيتين:

1. المرحلـــــة الأولـــــى: الماركسية: إزالة الطبقات

تمثّلها في الذهن:

مرحلة "ماركس" والتي بدأت من ملاحظة ماركس لفقر العمال، واضطهاد الأغنياء الرأسماليين لهم، فاستنكر خضوع جموع العمال لفئة قليلة من الرأسماليين دون مقابل، وقاده استنكاره لوضع نظرية كاملة فسّر بها التاريخ والصراع على رأس المال (الأراضي الزراعية في النظام الإقطاعي، والمصانع في العصر الصناعي)، وكيف أن صاحب المال سيبني المدارس ويقود الإعلام، ومن خلالهما سيشوّه وعي الناس ويضمن استمرار رضوخهم، فصاحب المال لايمتلك المال فقط، بل يمتلك وعي الناس أيضاً! وهذا يحتاج لثورة عمالية يقودها الحزب الشيوعي الذي سينشِئ النظام الاشتراكي، والذي سينحل بعد أن يدرّب الناس على الحياة الجماعية، حيث لا يبقى من ضرورة للدولة لعودة المجتمع لعصر المشاع (الجنّة الموعودة للشيوعيين) التي تقوم على فكرة إزالة الطبقات.



إسقاطها في الواقع:

قامت الثورة الماركسية وقدم صاحبها الكثير من الآلام والجراح، وأنشأ لينين الدولة الشيوعية، وحكم الحزب الواحد في البلد، وأمّمَ الثروات فصادر أموال الناس، واعتبر نفسه ممثلاً للعمال والفلاحين فحكم باسم الطبقة العاملة.. وأصبح لكل إنسان بيت وعمل وطعام. فمن المفترض هنا بحسب قيم الماركسية أن ينتَج المجتمع الذي كان مأمولاً -مجتمع العدالة والحرية والإنسان- وأن يصبح الإنسان عزيزاً مرتاحاً.. ولكن المجتمع المأمول لم يتحقق، والسعادة الموهومة لم تحدث، بل نشأت غربة أخرى إضافة إلى غربة المصنَع، فنشأت غربة الوطن بداخل الوطن.. ثم إن الإنسان تعطل لديه حس الإبداع والبذل والتميّز، فالإنسان الذي سينتهي به المطاف بأن يحصل على كسرة خبز سواء قل جهده أم كثر، وهو سواء مع الجميع، فلماذا سيبذل جهداً مضاعفاً أو يتقن أو يفكّر؟! فتوقفت حركة الإبداع والإنتاج، وبدأ الاقتصاد ينهار شيئاً فشيئاً.. وبدأ الناس يفرّون كلاجئين من هذه الجنّة الموهومة، حتى نشأت في أوروبا الشرقية مايسمى بظاهرة الستار الحديدي؛ الذي لايسمح للناس من الخروج منه، فأصبح كل من يخرج من بلاد الشيوعية يخضع لرقابة معينة حتى لا يطلب اللجوء السياسي. ولم يوضع إصلاحات للنظرية توازي الواقع، فانهار المجتمع الشيوعي وعاد مجدداً إلى الرأسمالية مرة أخرى!

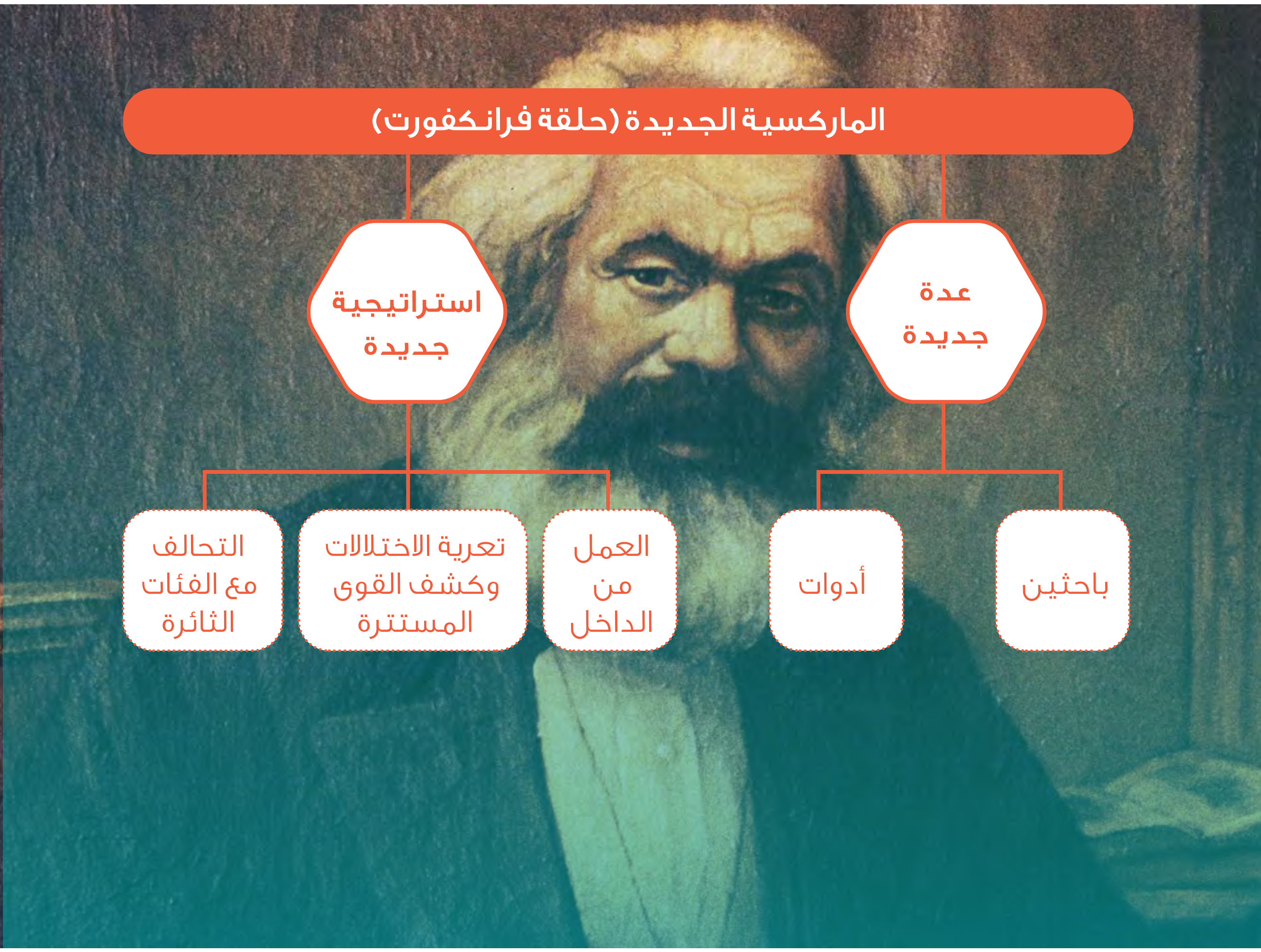
إن مشروعية
نزعة أو اتجاه ما
لايفضي بالضرورة لصحّة
النظام الذي ستنتجه
هذه النزعة!

فالتجربة حينما نُقِلَت من الإطار النظري المثالي إلى الواقع العملي التجريبي شهدت إخفاقاً ضخماً، وهنا يجب أن نُقر بمشروعية التوجّه الذي وُجِدَ عند القطاعات الضخمة من المجتمعات الأوروبية؛ ففكرة الاشتراكية، وفكرة وقوف مجموع الناس في وجه الحراك الرأسمالي كانت مشروعة وأخلاقية جداً، ولكن بين فكرة مشروعية النزعة وبين إمكانية إنتاج نظام سياسي واقتصادي يمثل العدالة ويحققها في المجتمع فجوة كبيرة جداً، وهذا ما لا يدركه الناس في كثير من الأحيان، فنحن نعتقد بأنه ما دامت المُثُل التي نريدها كبيرة جداً، فبالتالي إن النظام الذي سنقترحه سيكون عظيماً.. وفي الحقيقة ليس الأمر كذلك؛ فقد تُتَبَنَّى أفضل الأفكار، ولكن يُنشَأُ نظامٌ من أسوء النظم!

2. المرحلة الثانية: الماركسية الجديدة: إصلاح العلاقة بين الطبقات:

بعد مجموعة التجارب المريرة في أوروبا، نشأ فضاء واسعٌ ليبحث عن تصريف للفكرة الاشتراكية مغايراً للتصريف الشيوعي الذي تم تطبيقه في الماركسية "اللينينية" في روسيا.. وهذا النموذج هو ماسمّيناه تيار "الماركسية الجديد"، وهذا التيار سيطلق عليه اسم مدرسة فرانكفورت.

رابعاً: الماركسية الجديدة



في سنه 1923م سيأتي بفكرة الماركسية الجديدة مجموعة من اليساريين _المؤمنين بأفكار "ماركس"_ الدراسين في "فرانكفورت" في علم الاجتماع وعلم النفس، من أمثال "ماكس هوركهايمرMax Horkheimer" و"تيودور أدورنو Theodor W. Adorno" و"يورغن هابرماس Jürgen Habermas"..وهم جميعاً فلاسفة من الوزن الثقيل جداً، ولديهم أجندة عمل كبيرة داخل أوروبا، والفكرة الرئيسية عندهم أن العالم مبني على التناقض بين المضطهَدين والمضطهِدين، وأن هنالك صراع طبقات وأعراق، وصراع رجل وإمرأة، وبالتالي سيتولون إدارة المجتمعات الجديدة فكرياً عبر نقد النظام الرأسمالي والديمقراطيات الغربية نقداً جذرياً.

عملت مجموعات مدرسة "فرانكفورت" على هدف التحوّل الكامل للمجتمع في قضايا السلام والثروة والحرية، ولم يكن التغيير مرهوناً لديهم بتوحيد الطبقات، بل أقروا وجود الطبقات، ولكن رفضوا الجزء المتعلق باحتكار رأس المال لدى فئة معينة، وفَرْضِ الفقر على الناس واستغلالهم والهيمنة عليهم. فقبلت جماعات "فرانكفورت" النظام الليبرالي، ولكن مع إحداث الإصلاحات التي تضمن حقوق الفئات المضطهدة والمحرومة..

وعملوا على صناعة التغيير باستخدام عدة جديدة، واستراتيجيات جديدة، بعيداً عن الثورات التي حدثت في المجتمع اللينيني الماركسي فقاموا بـ:

تعرية الاختلالات وكشف القوى المستترة، معتمدين في ذلك على العامل الثقافي، مستفيدين من مكانتهم كعلماء كبار في علم النفس والاجتماع.. ففعّلوا النظرية النقدية؛ التي فككت البنى الأساسية للنظام الليبرالي وكشفت عيوبه، وأظهرت القوّة المختفية وراء الفعل السياسي والاقتصادي والاجتماعي. ودمجوا علم الاجتماع مع التحليل النفسي الاجتماعي، وأنتجوا عدة معرفية ضخمة لها لغتها الخاصة، فوضعوا قاموساً كبيراً من المصطلحات، إضافة إلى مصطلحات ماركس الأساسية؛ فسنسمع عن "السيولة"، وعن "الكونكريتية"، وعن "تشييء الإنسان"، وعن "تسليعه"، وعن "اغترابه".. فأعطوا لغة لآلام الناس المحرومين والمهمشين. واعتبروا طلاب الجامعات هم الخميرة الأساسية التي سيحمِّلون عليها البنية الفكرية الجديدة الرافضة للنظام الرأسمالي وأدواته، وبالتالي هم الفئة التي ستقوم بعمليات التمرد على النظام.

كما استخدموا استراتيجية عملية اعتمدت على استقطاب الفئات الساخطة على النظام الرأسمالي، فغذّوا شعور الطلاب، وعزّزوا الالتحام بقضايا المجموعات المهمشة كالسود في أوروبا، وقضايا الأقليات المضطهدة، والمجموعات التي تحمل مطالب اجتماعية كالمثليين والحركات النسوية.. فتم دعم المشروع من أناس لديهم قابلية للثورة وللتمرد.

فكانت استراتيجيتهم الرئيسية: العمل من داخل المجتمع، وإقامة تحالفات وتوفير العدة الثقافية لزعزعة النظام الرأسمالي من داخله.

خامساً: أثر الماركسية الجديدة في البيئة العربية الإسلامية

نجد أن كثيراً من الأعمال الموجودة في بيئتنا - لاسيما أفكار الدكتور "عبد الوهاب المسيري" و"وائل حلاق" وغيرهم.. - تعود لأفكار الماركسية الجديدة، التي يقولون لنا من خلالها أن النظام القائم في الغرب هو نظام سيء وغير صالح، وعلينا أن ننتج نظاماً آخر بديلاً عنه. وقد ضمّنوا كتبهم بتلك الأفكار حتى بدت وكأنها لبوساً إسلامياً، أي مادة إسلامية قابلة للتداول في البيئة لدينا، بينما هي عبارة عن عمل داخلي في الحضارة الأوروبية حدثت نتيجة الصراعات الموجودة بين نظم الأفكار، وهذا ناسب الأجواء الإسلامية الموجودة عندنا، فسنشهد بعد ذلك كثيراً من الناس يحملون فكراً إسلامياً، ويتداولون المصطلحات الشائعة داخل هذه المدرسة معتقدين أنها صدرت من الأستاذ "المسيري" رحمه الله، وهي في الحقيقة جزء من هذا التراث، تراث الماركسية الجديدة.. فاستعرنا اللغة، واقتتنا على نواتج الصراع الغربي دون أن ندري خلفية الصراع الأساسي، علماً أن لغة "اليسار الماركسي" فككت دون أن تجد نظاماً بديلاً عن "الرأسمالية"، ولا تزال في عمليات التفكيك التي تقوم بها، فكان أقصى ما وصلت إليه ما فعله "هابرماس"، وفكرته الرئيسية إصلاح العملية الديمقراطية عبر مايسميه "التداولية"؛ بأن يتم إنشاء تجمعات، وأخرى أصغر منها، ثم أصغر وأصغر.. تناقش القضايا الكبرى، وتزوّد بالمعلومات بحيث تصير الانتخابات أكثر كفاءة وأكثر تعبيراً عن احتياجات الناس.

ختاماً.. إن ما نريد أن نصل إليه من هذا الطرح قضيتين أساسيتين..

1
القضية الأولى

أن هنالك فارقاً كبيراً بين سمو الفكرة وبين نظامها في العقل وبين تجسيدها على الأرض؛ فالمساحة واسعة بين فكرة عظيمة وبين نظام تتجلى فيه على أرض الواقع.

2
القضية الثانية

عند احتكاكنا بالعالم علينا على الأقل أن نعرف الاتجاهات الكبرى الموجودة فيه لكوننا في بعض الأحيان نستعير دون أن نعرف لِمَ نستعير؟ وماذا نستعير؟ وبما استخدموا ما نستعيره؟ وما مصدره؟، فتحدث الأشياء من حولنا دون أن ندري الخلفيات التي جاءت منها، وتمر فترات طويلة ولا ندري نحن نسير مع من! فنحن نقول إننا مجتمعات مضطهدة ومظلومة بشكل من الأشكال.. سواء من النظام الرأسمالي، أو النظام غير الجائز، أو النظام اللاأخلاقي.. فتُرى مثل هذه الأطروحات؛ «التشييء». و«الكونكريتية»، و«عملية تغريب الإنسان»، و«تشكيل عقله بطريقة معينة»... هل هي نوع من الثورة التي نريدها؟ أم أننا لدينا مقولات أخرى؟! فيجدر بنا أن ندرك أين نلتقي مع بقية العالم، وأين نختلف؟ وهذا الإدراك يحدث نتيجة الوعي بما يقوله العالم وما خلف هذا العالم من قوة موجودة..

فأول شرط للعبور أن نعرف ما هو هذا العالم، وبعد أن نعرف سنكون قادرين على أن نختار موقعنا منه بوعي – لا برفض مطلق، ولا بقبول مطلق–! إنّما بعملية عاقلة نوازن فيها تصوراتنا ورؤانا للحياة.

الحروب الداخلية في الغـرب -2-

ثلاثية الحداثة والعلمانية والتنوير



مما لا بد منه في رحلتنا المعرفية أن نسلّط الضوء على المدلولات الكبيرة التي تحمل أجزاء هامة من رحلة حروب الغرب (الحداثة، العلمانية، التنوير). وإن القضايا المتعلّقة بهذه المدلولات كثيراً ما تثار في منطقتنا العربية ويحتدم الجدال حولها بطابعين: طابع علمي؛ بأن يحمل الإنسان معلومات عنها، وطابع عاطفي؛ بحمله مشاعر الرفض لها كونها بضاعة غربية.

إن ما نحتاجه هو أن نفرز الأمور، ونعي المضامين -بتسليط ولو ضوء صغير- على أمثال هذه المسميات والمصطلحات لاستخلاص المفيد لنا من تجارب الآخرين.

أولاً: مرحلة التنوير

كنا قد تحدثنا عن صدمة الغرب الكبيرة بعد ثبوت أخطاء علمية في مقررات "أرسطو" والكنيسة للجانبين الفيزيائي والفلكي على الأقل، وبالتالي فقدت هذه السلطة الروحية مكانتها كمصدر للمعرفة. فانتقل العقل من فكرة وجود المعرفة في الكتاب المقدّس، إلى فكرة أن السلطة الحقيقية في المعرفة هي ما نستطيع أن نكتشفه ونختبره، وبالتالي ما لا نستطيع أن نختبره هو خارج عن نطاق الحديث والنقاش بشكل من الأشكال.

هنالك فارق كبير جداً بين تدقيق المنهج الذي يعمل به العقل، وبين إلغاء المنهج من أساسه. فالفرق بين إسقاط العقل وبين فحص حدوده كالفرق بين الشك العلمي وبين الشك المَرَضي

فبدأ عصر جديد يرى أن العقل بما اكتشفه من آلة وأدوات قادر على حل مشكلات الحياة، وظهرت بتلك الحقبة كتلة حرجة في أوروبا من الفنانين والأدباء والسياسيين والاقتصاديين، ونشأت العلوم المتنوعة.. ونشأت فكرة أساسية هي الـ(Rationality) أو العقلانية (وضع كل شيء تحت مسطرة العقل). ولكن بما أن الثقة بالمقولات أصبحت مهزوزة إلى حد كبير، فحتى فكرة التسليم للعقل لم تسلم؛ فبدأت النقاشات الحادة حول قدرات العقل وأين تقف، لتظهر ثانيةً دورة من الشُكّاك تشكك في قدرات العقل على الوصول إلى الحقيقة والفهم..

إلا أن خط التشكيك لم يكن الخط الرئيسي الذي صنع الحضارة الغربية، فخط الشك استخدم كخط (فحص وتأكّد) فقط، فالحياة الأوروبية على الصعيد العملي اتجهت للاستفادة من العقل استفادة قصوى مع حضور دائم لأفكار الثلّة المشككة فيه، ممّا أدى إلى استواء الميزان لديهم، فعلى إيمانهم بمحدودية العقل استفادوا منه أقصى استفادة، فتطور استخدام الرياضيات والعلوم الحديثة، وشهدت المرحلة أعمال الفلاسفة الكبار التي كونت الموسوعة الفلسفية الفرنسية والتي أعطت الثورتين الكبيرتين (الأمريكية والفرنسية) لغتهما ووهجهما، وأصبح شغل العالم الأساسي تدقيق المنهج الذي يصل بين العقل والواقع.

> كلما استطعنا أن نجعل المنهج تحت الفحص والنظر –تطويراً لا إلغاءً– كلما أصبحنا أمة أقوى وفي وضعية حضارية أفضل

فالتنوير هو سلطة العقل المدقق باستمرار، الذي يسعى لفحص الواقع عبر منهج، وطالما أن كل منهج هو نحت بشري، فهو بحاجة إلى مساءلة مستمرة لنصل منه إلى أفضل النتائج.

وإن فهم التنوير بهذا الاعتبار يسع الجميع، ويذيب محل النزاع. فجميعنا نتفق بأنه على الإنسان أن لايقنَع بأي قول يسمعه مالم يثبت عنده أنه قابل لقبول العقل والمنطق.

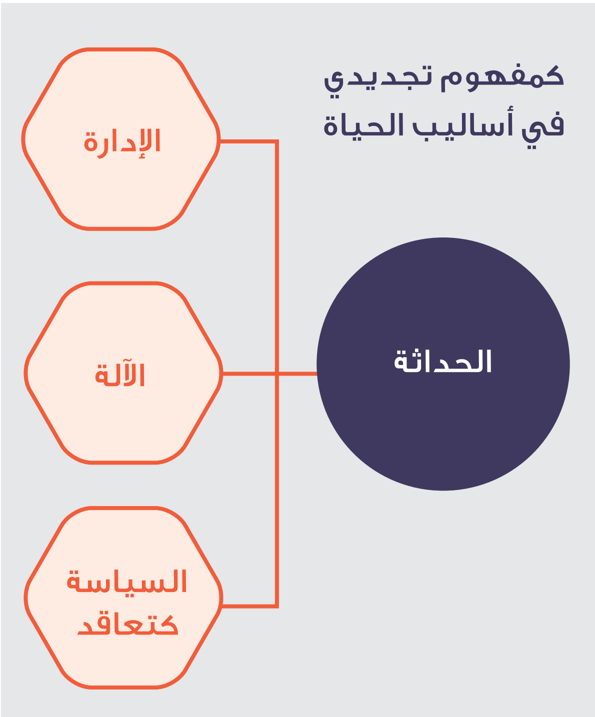
انتقل التنوير من ← إطلاق الإيمان بالعقل ← إلى ← مناقشة حدوده

ثانياً: الحداثة (Modernity)

تختلف الحداثة في حقيقتها عن قضية التنوير، وإن كانت إحدى مخرجاتها، فموجة التطور التي حدثت في أوروبا ولّدت احتياج التغيير في أساليب الحياة، فالحداثة تتمثّل بمغادرة الأساليب القديمة التي سادت في القرون الوسطى إلى أساليب حديثة سيفرزها العلم ومقتضيات الواقع.

الحداثة كمفهوم تجديدي في أساليب الحياة:

من الأساليب القديمة التي تبدلت مع الحداثة:



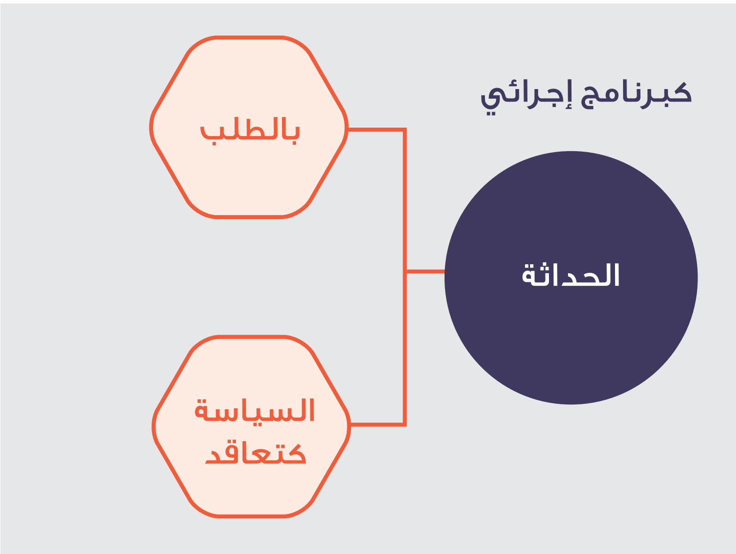
1. "الإدارة" فالإدارة على سبيل المثال كانت في القرون القديمة مبنية على ما يسمى النظام التضامني (Solidarity system)، والنظام التضامني يعني أن الناس يقومون متكاتفين بجميع الأدوار بعيداً عن فكرة التخصصات التي يعطى بها كلٌّ من مكانه في المجتمع، ثم أتت الحداثة لتبني المجتمع على التخصصات، فالطبيب يُقصد عند المرض، والبنّاء يُقصَد عند احتياج العمار.. وكل في اختصاصه ومكانه بعيداً عن التضامنات العشوائية.. وبذلك قد أصبح المجتمع مجتمعاً عضوياً كجسم الإنسان (Organic System)، حيث لكلٍ دورَتُه ومهمته؛ فالرئة تختص بالتنفّس، والقلب بضخ الدم، والكليتان بتنظيف الجسد.. ولا يوجد عضو يقوم بدور الآخر، فمسألة التخصصات هي جزء مما يسمى عملية التحديث.

2. ومما طالته عملية التحديث أيضاً "الآلة"؛ ففي النظام القديم كانت العضلات تقوم بكل شيء، أما في العصر الحديث فأصبحت الآلة هي التي تقوم بكل شيء، من الطعام إلى الغسيل إلى السفر.. فبين المجتمع القديم والمجتمع الحديث مسافة أيضاً في استخدام العضل أو استخدام الآلة.

3. وفي "السياسة" انتقلت الأمم من المجتمعات غير التعاقدية إلى مجتمعات تعاقدية، فبالعصور القديمة والوسطى لم يكن سائداً أن يُؤخذ رأي أحد في الحكم، فيتولى

الحكم شخص ما والسيف للمعترض، أما في العصور الحديثة فأصبحت الشعوب تطالب بدستور، أي بعقد اجتماعي. فنجحت أمم في سياسة التعاقد وبقيت أمم أخرى في الدكتاتوريات التاريخية.

الحداثة كبرنامج إجرائي:



1. الحداثة بالطلب: حينما اكتشفت المجتمعات الأقل تقدّماً التقدم الحاصل في أوروبا، بدأت محاولات استقدام الجوهرة الموجودة بالغرب إلى بلادهم بحسب تصورهم، فتوافدت البعثات إليها من جميع أنحاء العالم، وكان سلاطين الدولة العثمانية من مُبتَعِثي البعثات إلى فرنسا لتعلّم الإدارة الحديثة، وإحضار الآلة، وإنشاء المدارس على طريقتهم، وكذلك اليابان والصين وكثير من الدول الأخرى.

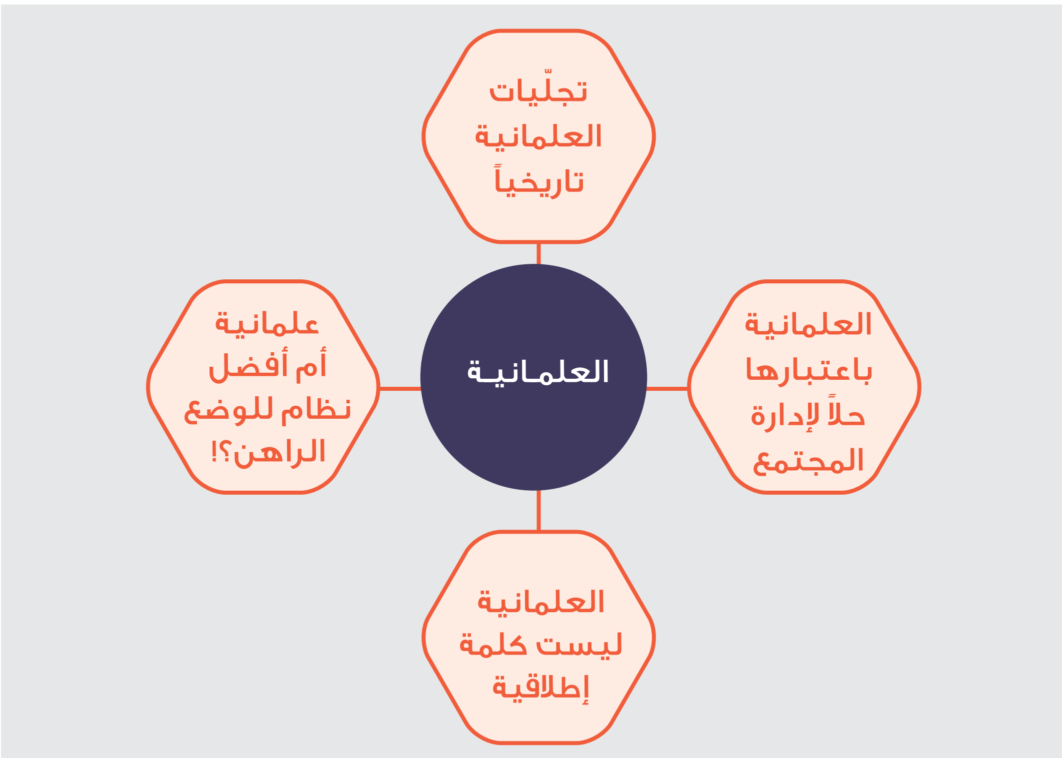
2. الحداثة القسرية: وتتمثل بتقديم البلدان المتقدمة وصفات جاهزة للدول الأقل تقدماً لمشاركتها في ركب التقدم، والدول التي لا تستجيب لتلك الوصفات الجاهزة اقتصادياً أو اجتماعياً، تمتنع الدول المتقدمة عن تقديم التسهيلات لها، ويمكن أن يتمثل ذلك بامتناع البنك الدولي على سبيل المثال تسليف القروض لتلك الدول الممتنعة.

وما نريده من هذا الطرح التمييز بين الحداثة كشيء نعيشه، وبين الحداثة كشيء نطلبه أو مجبرَين عليه، فيُنظَر لها من منظورَيْن؛ **1-** باعتبارها التحولات الكبرى في أساليب الحياة الرئيسية (الإدارة، الآلة، السياسة)، **2-** كما يمكن النظر إليها باعتبارها برنامجاً إجرائياً

ذهبنا لطلبه، أو فرض علينا بشكل من الأشكال، مع دخول أجندات ليست من ذات الموضوع المتعلّق بالحداثة، إنما القوى الغربية أرادت فرضه على العالم كالمثلية ونحوها، فالحداثة أمر نحياه ولسنا مخيّرين فيه، فلم يعد بوسع دولة اليوم أن تعود بنظامها إلى نظام قروي بدائي.

ثالثاً: العلمانية

ظهرت فكرة العلمانية ابتداء كردة فعل على فرض الكنيسة الإرادة الدينية على الناس، فخاضت أوروبا حروباً دينية استمرت لحوالي 30 عاماً بين أنصار الكنيسة الكاثوليكية وبين البروتستانت المحتجين، ومات في تلك الحروب بألمانيا وحدها حوالي ثلث الشعب الألماني! وكذلك كان الأمر في بريطانيا التي استمرت الحروب الدينية بها حوالي 80 عاماً، ثم استقر الأوروبيون على فكرة التصالح، فتصالحوا في معاهدة ويستفاليا (Westphalia) التي أنهت حرب الثلاثين عاماً في معظم الأراضي الألمانية، وحرب الثمانين عاماً بين إسبانيا ومملكة الأراضي المنخفضة، فتم الاتفاق على سيادة الدول لنفسها، وإنهاء الحروب الدينية،



وعلى أن الدول هي الأساس، وأن الأديان لكل الناس، يختارونها بحرّيتهم بما يتناسب مع ظروفهم وبيئاتهم.

ومع أن ذيول هذا الموضوع لم تنته بالصلح، إلّا أن الصلح قد شكَّل نقطة مفصلية بأن وافقت الدول على أن شأن الدولة شيء، وشأن المجتمع والتدين شيء آخر، ويدار الشأن العام للدولة بمعزَل عن هذه التنازعات، فتشتغل الدولة كوسيط بين المختلفين، لا كطرف بين الأطراف. ولأن العلمانية ظهرت بمقابل الحل الديني، فإنها حينما تذكر بمجتمعاتنا تذكر مصحوبة بتوتر شديد.

وإننا إذا نظرنا للعلمانية بأقل تفكيكية، باعتبار ما تريده المجتمعات عادة على صعيد سياسي -، سنجد أن كافة المجتمعات تسعى لتحقيق ثلاثية (ضمان وجود المجتمع، وتحقيق استقراره، ونموه)، وإن النظام الذي سيعمل على تحقيق هذه الثلاثية سيُحقق على إحدى الشكلين؛ إما أن يقرره طرف واحد يكون هو الأقوى، أو أن ترى أطياف المجتمع أنها تريد نظاماً مستقراً ليس فيه ظلم لأحد، وبالتالي يقررون أن ينظموا حكومة لاعلاقة لها بالدين، فيعامل الناس بالتساوي، وكل فئة تمارس معتقداتها براحة دون تصادم الإرادات..

> في عالم التنظيم السياسي المعاصر لم يعد يُسمَح لأحد أن يُخضِع أحداً أو يبيده، فالجميع مضطر للتسويات، ولايهمنا الاسم الذي يمكن أن نضعه لهذه التسويات

وهنا نأتي على قضية هامة جداً وهي أن العملية السياسية تاريخياً كانت هي التي تفرض الأشياء بالقوة، أما اليوم فالدول الحديثة تقوم على عملية توافقية، فقمع القوة للأقليات وتوحيد توجّه الجميع على توجّه الأقلية لم يعد ممكناً بسهولة، فإن أقل مجموعة سكانية يمكن لها أن تثير للمجتمع في يومنا زوابع لا تنتهي، وتسقطه في حروب مدمرة، تؤدي في نهاية المطاف لأن ينكسر تحت ضغط الواقع، ومن ثم ليبحث الناس عن حلول عملية لأقرب مسافة من الكمالات التي يحتاجونها، كانفصال البلاد عن بعضها البعض. وما أمر انفصال جنوب السودان عن هذا ببعيد.

فلا بد لنا اليوم من نظام التسويات وإننا حينما نصل "لنظام التسويات" بين أطياف الشعب.. ستظهر العلمانية كأحد هذه التسويات، لتتجلى بصور وأشكال مختلفة، بما

يتناسب مع البيئة التي ظهرت فيها، فنجد أنها ظهرت كـ"علمانية شاملة" في بعض المجتمعات تمتد بقطيعة مع الدين على كافة المستويات. وظهرت في مجتمعات أخرى كـ"علمانية جزئية" تشتمل على الجانب السياسي والاقتصادي وتترك الخيارات الفردية في مساحات أخرى. وهذا ما يمكن أن نسميه بـ (Best Fit System) أي "أفضل نظام للحالة أو الوضع"، فيتولّد من خلال هذا النظام حل سياسي مناسب، فكلمة العلمانية ليست كلمة إطلاقية، ولا توضَع في تعريف ويحاكم الناس إليه، فهنالك أشكال مختلفة لتطبيقها، حيث إنه لا يوجد خلطة واحدة تناسب جميع الأنظمة السياسية؛ فلبنان له خلطته، وتركيا لها خلطتها، وماليزيا لها خلطتها..

> لكل بيئة خلطة مناسبة في السياسة تختلف عن المعتقدات الفردية لأفراد المجتمع

فمما يجب أولاً إزاء مصطلح العلمانية أن تزال القداسة التي يحملها ذلك المصطلح، وأن يدحض تصور الجريمة الذي يرتكبه، فالعلمانية هي إحدى الحلول المطروحة لحل إشكاليات مجتمعات ابتليت بنزاعات مصدرها الدّين، فتشكل لديها موقف من قضية تحييد الدين من الفضاء العام بدرجات ونسب مختلفة..

وإننا إذا ما فهمنا موضوع "العلمانية" على شاكلته تلك باعتباره "أفضل نظام للوضع القائم" ستنتهي لدينا كثير من الإشكاليات معه، أما إذا ما احتفظت ثلة معينة بفكرة فرض إرادتها؛ كما يفعل الهندوس اليوم مع المسلمين، فإن هذا سيقود إلى إبادة الأقليات من مسلمين وأقباط وغيرهم.. لأن هذه الأقليات لن تتخلّى عن ممارسة حياتها وفق ما تعتقد وتتصوّر. ليبقى الحل كائناً في التسويات العاقلة حول مكونات أبناء الوطن الواحد، وإن غير ذلك سيعني تفتت وانهيارات في بنية المجتمع.

> إن جل الخلافات الناشئة عن مصطلح «العلمانية» تظهر نتيجة اعتقاد الناس أن الموضوع متعلّق بإدارة الدين، بينما في حقيقته متعلق بإدارة المجتمع

> إن النظام السياسي هو نظام توفيقي بين مختلفين.. وليس نظاماً يفرض به أحد ما منظومته على الآخرين مهما كانت مبرراته..

فمن المهم أن ندرك أنه لا يمكننا إنشاء مجتمعات عبر إبادة الآخرين أو قسرهم، فحتماً سيأتي اليوم الذي يتمردون به وتتقسم الأوطان وتتفتت.. وإن كل ما حصل سواء في العراق أو في سوريا أو السودان أو الهند هو نتيجة هذه النقطة الأساسية. ومما يؤخذ هنا بالحسبان أن الأقليات في زماننا لم تعد تأخذ قوّتها من اتساع حجمها أو صغره، فإن علاقاتها الدولية لها إسهام كبير، وكذلك نسبة التعليم الموجودة لدى أبنائها، والأموال التي تمتلكها.. فبات بإمكان أقليات صغيرة جداً أن تربك كيانات اجتماعية ضخمة وتسبب لها من القلق ما لا يمكن تصوّره! وإن الجانب الغريب أن كثيراً من الأقليات لو كانت هي التي تمثّل الأكثريات لربما فرضت على الآخرين أن ينضموا لمنظومتها، دون أي نوع من أنواع التغييرات!

رابعاً: موقع المجتمعات العربية من الحداثة والعقلانية (المجتمعات العالقة)

نحتاج ختاماً أن نأتي على قضية أخيرة، يمكن تسميتها بـ "المجتمعات العالقة"، وتتجلى بأفضل مثال لها في مجتمعاتنا العربية.

تمكنت مجتمعاتنا العربية من ناحية العقل أو "التنوير" من صنع مدارس كالمدارس الغربية، تعلِّم بداخلها المواد التي يعلّمونها لديهم، إلا أن الطالب - سواء عبر النظام التعليمي أو المدرسين أو الثقافة الشائعة في المجتمع - لديه عداء مستتر لقضية العقل واستقدامه، فمثلاً تم طرد طالب سوداني في المرحلة الابتدائية من المدرسة لأنه يطرح أسئلة اعتقادية، أي لأنه يفكّر! فمجتمعاتنا عالقة في قضايا العقل ولم تنجز منها شيئاً، ولم تدخل بعد في سلطة العقل بطابعها العام، فلا تزال كثير من قراراتنا لا تخضع لاعتباراته..

أما على صعيد "الحداثة" بمعناها المعاصر، فقد دخلت إلينا وصنعت تغييراً معيّناً في المجتمع، إلا أن بلادنا بقيت عالقة في المنتصف؛ فعلى صعيد الإدارة، تُدرَّس أحدث النظريات

المتقدمة القادمة من الغرب، ولكن الممارسات الفعلية لا تزال مليئة بالواسطات والمعارف، ولم تخلص إلى الشكل الحديث الذي يعتمد على الكفاءات. والآلة أيضاً أحضرناها ولم نتّجه لمعرفة أسرارها. والسياسة تحدثنا بمبادئها كمبدأ الديمقراطية إلا أننا حجبناها بكثير من الذرائع والحجج؛ سواء بحجة أنها لا تناسب المجتمع، أو بحجة مخالفتها للدين.. ولم ننجز في نهاية المطاف شيئاً متفِقاً مع الدين، أو مع البيئة، فلم ندخل للديمقراطية بمعناها الشائع في العالم، ولم ننجز نظاماً يحقق العدل ويتناسب مع بيئاتنا، بل بقينا عالقين في منطقة من المناطق.

وكذلك بالنسبة للروح التنافسية في العالم على المادة (روح الحداثة) التي تدفع نحو الهمة والعمل والكفاءة، وتسعى لأقصى درجات الأداء، سواء على الصعيد الاقتصادي أو الاجتماعي.. فأيضاً لم ندخلها.

وكذلك بالنسبة لعالم الآخرة فقد بقينا خارجه أيضاً، فلم ننجز مجتمعات أخلاقية (تعلو فيها العدالة والرحمة)، فحتّى ما كان جديراً بنا أن نتفوق به تفوقت بها علينا هذه المجتمعات، فأقامت أنظمة تضمن فيها العدالة والحريات وفق ما تعتقد.

إن بلادنا العربية من المجتمعات العالقة في منطقة ضبابية في المنتصف، فلم ندخل روح الحداثة بمعناها المادي، ولم ندخل روح الدين بمعناه الأخلاقي، وإن هذه المجتمعات العالقة تحتاج بنية من الدراسات الاجتماعية التي تبين هذه المفارقات، وتوضحها في الحياة السياسية الاجتماعية العالقين فيها.

إن العقل مهم، وأداته تدقيق المنهج باستمرار. والحداثة داخلة إلينا شئنا أم أبينا، ولكننا بحاجة أن ننتبه للأجندات التي تدس في الإجرائيات الآتية معها مما لاعلاقة له بالحداثة. ونحتاج بقضية العلمانية أن نخلص من هذا المصطلح إلى مصطلح "أفضل نظام يصلح للمجتمع".

فلسفة الأديان وأهمية الدين في حياة المجتمعات



سنخصص هذا المبحث للحديث عن مسألة الدين، وأهميته في حياة البشر، وعندما نقول الدين فلا نقصد أننا سنخص ديناً محدداً دون غيره، بل سنتكلم في فلسفة الأديان على العموم. فالأديان سواء الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو البوذية، كانت ملازمة دائماً للإنسان، ولعبت دوراً كبيراً جداً في حياة الأمم قديماً وحديثاً..

في هذا السياق يذكر د. جاسم قصة حدثت معه فيقول: بينما كنت أجلس في إحدى مقاهي بريطانيا وكان معي أخ عزيز، جاءت إلينا سيدة كريمة سلَّمت علينا، وسألتنا إن كنا عرباً، ثم سألتنا عن ديانتنا، ومن ثم جلست إلينا وبدأت تعرض دينها علينا، فتحدثت بكل ما تستطيع، ونحن بين صمت وسؤال، فأمضت أكثر من ساعة ونصف وهي تتحدث دون توقف بكل حماس وأريحية من دون أن تنتبه لأعمارنا أو أشكالنا.

فالدين أصيل في حياة الناس، وأصحاب الأديان باستمرار يدعون إلى معتقداتهم التي يؤمنون بها وبكافة المجتمعات، وإن كل أصحاب دين يعتقدون أن الذي هم عليه هو الدين الحق، وبالتالي فإن كثيراً من الناس مستعدون لأن يضحوا ويتعبوا ويجتهدوا أو حتى يموتوا في سبيل أديانهم.. فالدين يلعب دوراً كبيراً جداً في حياه الناس، وفهم ظاهرة الدين جزء هام من الثقافة الضرورية لفهم الحياة.



أولاً- روح الأديان وأهميتها

يعرِّف "علي عزت بيجوفيتش" الدين على أنه مطلق التسامي. فالأديان سواء السماوية أو الوضعية تظهر في كافة أطوار حياة المجتمعات، وتعكس شوق الإنسان إلى الارتقاء والسمو، فمنذ العصور القديمة بدأت تظهر محاولات اتصال بقوّة غيبية (ما ورائية) سعياً لتحقيق رِيٍّ لحالة الظمأ لقوة تفوق المادة، فالإنسان من خلال الدين - بشكل أو بآخر - يقوم بمحاولة دائمة للتسامي على فكرة (مجهولية المستقبل)؛ الموت والفناء، وعلى فكرة (القلق الوجودي)؛ وعدم معرفته معنى للحياة التي يعيشها. فيهتم الإنسان لأن يكون هنالك حياة أخرى مختلفة عن هذه الحياة. وهذا تجلّى في سلوك الأناس التي فكرت أن تبني المعابد والأهرامات، وأيضاً لدى معتنقي الديانة الهندوسية الذين يحملون اعتقاد "التقمص"؛ وهو دلالة على خروج الروح من الجسد ودخول روح ثانية، وأيضاً هو دلالة على الصعود والهبوط من مستوى إنساني إلى مستوى حيواني، أو مستوى حيواني إلى إنساني، وهنالك أديان أخرى تقول عن اتحاد في العالم العلوي؛ فالإنسان في بعض الديانات يتحرر من نفس عليا إلى نفس أعلى، أو من نفس عليا إلى نفس دنيا. فسنجد أنفسنا عند الحديث عن الأديان أمام المعادلات المتعلقة بمحاولة الإنسان التسامي بشكل من الأشكال للخروج من مأزق الحياة التي تشبِّهَنا بزاوية من زواياها ببقية الموجودات التي تعيش وتموت ولا معنى لوجودها ولا معنى لموتها.

ثانياً- بين الدين والفلسفة

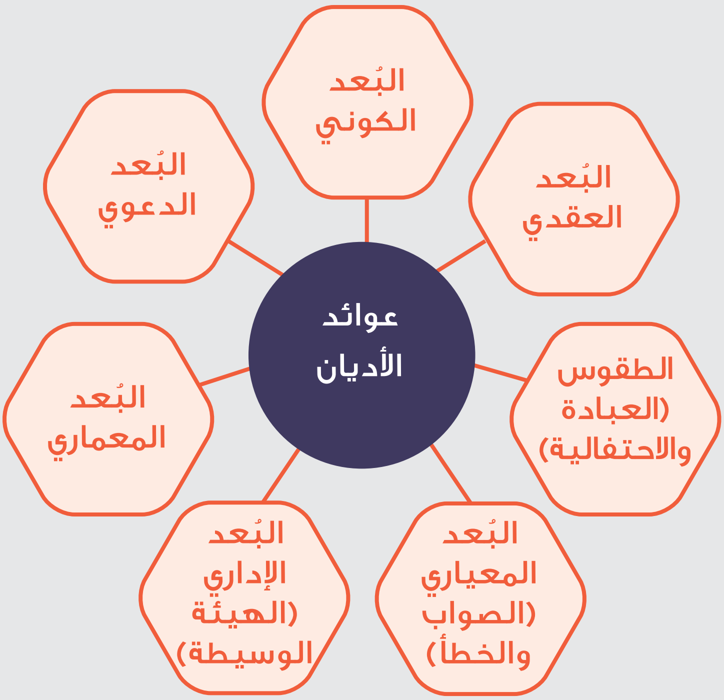
هنالك فارق موضوعي بين فكرة الدين وفكرة الفلسفة، فالدين يبدأ من نقطة الإيمان بينما تبدأ الفلسفة من نقطة الشك

إن الفلسفة كنظام معرفي تفترض أن جميع القضايا موضوعة للسؤال وللمناقشة بموضوعية تامة، فتقبل النقاش في كافة الجوانب. أما الدين فيفترِض أن المتعالي (الأمر الخارج عن المادة) ليس محلاً للسؤال، بل هو محل للإيمان؛ فيُخرِج دوائرَ معينة من النقاش على أنها من المسلّمات، على عكس الفلسفة التي تحاول إدخالها، فالفلسفة طبيعتها

البحث عن الحقيقة عبر المنطق العقلي، أما الدين فيفترض أن هنالك منطقة من الحقائق تغيب عن العقل، وإن كان يُسْتَدَل عليها بالموجودات.

ثالثاً- عوائد الأديان على أتباعها

إذا نظرنا إلى الدين وما الذي يقدمه أو يعود به على حياة البشر، سنجد أنّه في الغالب ما تتردد سبعة عناصر أساسية يقدمها الدين لأتباعه:



1. الرؤية الكونية (قصة الخلق):

الأديان جميعها تشترك في هذه البُعد، فتقدم رواية كونية بطريقة أو بأخرى لبداية الكون، تتمثّل إمّا بإله خلق، أو بقصة من القصص المتداولة في الهندوسية والبوذية، فتعطي للإنسان تفسيراً "متعالياً"؛ أي شيئاً لم يره عندما حدث، وأيضاً تعطي تصوّراً عن الثواب والعقاب، والمآل الأسمى؛ أي المكانة الكبيرة التي تُعطى لصاحب الصيغة الأفضل من صيغ الأداء لهذا الدين.

2. البُعد العقدي:

الدين يقدم للإنسان البُعد العقدي، أي الحقيقة المطلقة التي يجب على الإنسان أن يخضع لها، فقد تكون إله ببعض الأديان، وقد تكون روحاً تسكن العالم، وقد تكون هي ذات الوجود.. فيقدم الدين موجوداً أعلى، وعلى الإنسان أن يخضع له بشكل من الأشكال.

وأيضاً يوضّح الدين الثواب والعقاب، فيثاب الإنسان ببعض الديانات من خلال ارتقائه لمستويات عليا، ومن ثم يتّحد بالوجود الأعلى، وبالمقابل يعاقب الإنسان بالهبوط إلى مستوى الحيوان أو إلى موجودات أكثر تسفّلاً كالحشرات..

وأيضاً يقدم الدين للإنسان غاية في الحياة، فيجنّبه أن يتّجه فقط للأغراض الدنيوية، فيحثّه للتقدّم والتطلّع لأبعد من مستوى الدنيا، فيفتّحه على فضاء آخر غير الذي يعيش فيه، وتلك المستويات التي تتمثّل بالجنة عند المسلمين، وبالنيرفانا عند البوذية..

3. الطقوس الدينية (العبادة والاحتفالات):

إن الدين لا يكتفي بالتوجيه الداخلي الفلسفي، بل يضع أيضاً تعبّديات يومية أو شهرية أو سنوية.. فكافة الأديان تعطي قائمة بالمطالب العملية التي يجب القيام بها؛ من عبادات منظمة للحياة، إلى أعياد يتم الاحتفال بها ونحوه.

4. البُعد المعياري (الصواب والخطأ):

الأديان تعطينا أيضاً البُعد المعياري، أي أن أصحاب الأديان لديهم دائماً مسطرة يحكمون على الأعمال من خلالها، سواء الأخلاقيات أو المعاملات في العلاقات ونحوه.. فنحن المسلمون كثيرو الترديد لعبارات: "كل بيدك اليمنى، اخرج برجلك اليسرى.. هذا الفعل صواب.. وهذا خطأ..". فلدينا دائماً مسطرة معينة للصواب وللخطأ، وعندما نذهب لبلد مخالف لديننا نحرص على معرفة المسطرة التي تُحَكَّم إليها الأعمال لديهم حتى لا نخطئ معهم التصرّف.

5. البُعد الإداري:

مما يتخلّق من خلال الأديان أيضاً البُعد الإداري، فبشكل من الأشكال المقصودة أو غير المقصودة تبرز طبقة مسؤولة عن المناسبات والأعياد ورعاية المعابد، تتشكّل لها مؤسسات، تُسنَد بتمويل وأفراد يشتغلون بها.. وإن هذا التنظيم نجده بكافة الديانات، سواء قصده المؤسسون أم لم يقصدوه، فالدين يحتاج إلى مؤسسات تقوم بمهمة تنظيم الحياة الدينية، وهي مؤسسات يعيش بعض الناس منها، ويصرفون من أعمارهم في سبيل إحيائها.

6. البُعد المعماري:

تأخذ الأديان أيضاً بُعداً معمارياً؛ فالناس تميّز بين الكنيسة وبين المسجد، وبين المعبد الهندوسي والمعبد البوذي، وبين المسموح به فنياً وغير المسموح به، فإن كل دين له جانب معماري يعطيه صبغة معينة وصورة معينة، وهذه الصبغة تكتسب قداسة بشكل من الأشكال فتصبح إهانتها إهانة للدين ذاته..

7. البُعد الدعوي:

إن البُعد الدعوي حاضر في معظم الأديان، ولربما أديان قليلة تلك التي لايوجد فيها بُعد دعوي كاليهودية مثلاً، فاليهودي في الديانة اليهودية لا يمكن له أن يكون يهودياً إلا إذا كانت أمه كذلك، أما بقية الأديان فهي باستمرار تقوم بعملية الدعوة إلى حماها، فيمكن للإنسان أن ينتقل من دين إلى دين.

8. البُعد الروحي (بعد ذاتي):

هنالك بُعد في غاية الأهمية وهو جزء من تكوين الدين؛ ويتمثّل بالرغبة في الانعتاق من حالة الإنسان وملكاته إلى العالم المطلق، وهو بُعد حاضر في جميع الأديان؛ فجميع الديانات تسعى لأن تصل الإنسان المحدود بالمطلق الكليِّ، أي إلى مرحلة "النيرفانا" عند البوذيين، و"للبراهما" عند الهندوس، أو لـ"مستوى الملائكة" عند المسلمين، وبذاك السمو تتشكل القوى الخارقة، على مبدأ المسلمين كما ورد في الحديث القدسي: (... ولا يزال عبدي يتقرب إلي

بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه...) فتصبح لدى الإنسان بحسب فلسفة الأديان قوة تحوي هذا الشوق للتسامي، وعند البعض فكرة التوحد بالمطلق، وللبحث عن الحقيقة المطلقة. ونجد باستمرار أناساً يقومون بالمحاولات الروحية، وقد يكتسبون قوة خارقة، ويتصلون بالموجودات العليا، وهنا أيضاً تلعب كل من الأحلام والرؤى والكشف والإلهام دوراً كبيراً جداً، وإن الناس الذين يصلون إلى هذه الحالات يأتون بأخبار متضاربة، فلم يُجمِعوا على خبر واحد، إنما كل يأتي بروايته التي يوضّح بها ما رآه بشكل من الأشكال، ويحل البعض هذا التضارب من خلال اعتباره تضارباً ظاهرياً فقط؛ فيعتبرون أن لكل إنسان شفافيته الروحية التي تصل لمستوى معين، فالذي قد ينفتح لإنسان لا ينفتح لآخر، وبالتالي ينشب نوع من الخلاف أو المفاخرة من قبل أتباع الشيخ الذي وصل لمستوى أعلى من الانفتاح الذي وصل إليه شيخ آخر! وهذا موجود في فضاء التصوف والعرفان بشكل كبير، ويبقى السعي للانعتاق من الوجود المحدود من قِبَل الموجودين فيه إلى مستوى أعلى من رؤية الأشياء والأحلام والتنبؤ بالحوادث محل شك للإنسان الذي يعيش بحواسنا الطبيعية الموجودة، الذي لم يمر بخبرة العبور من عالم لعالم، فهؤلاء البشر الذين ذهبوا وعادوا ليسوا مسؤولين عما يقال، وأيضاً هم لايمتلكون جميعاً اليقين بكونها رحلة حقيقية. فهنا لنا الحق بأن نقول إنها تجربة ذاتية فردية وليست تجربة عامة لكل الناس، وهذا ما جعلني أفرد البعد الروحي عن بقية الأبعاد السابقة للدين.

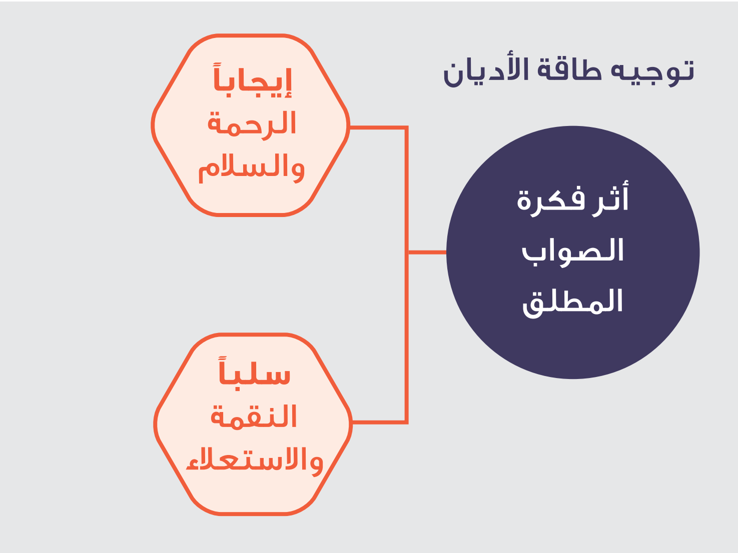
رابعاً- اعتقاد الصوابية وأثره في توجيه طاقة الأديان إزاء المخالف

ما يعتقده أغلب معتنقي الأديان؛ أن البشرية جميعها على خطأ وهم وحدهم على صواب! وهي فكرة لها آثارها الحميدة وآثارها غير الحميدة..

- فمن آثارها الحميدة أن الإنسان يتمسك باعتقاده ويعيش به، حتى إنه يمكن أن يموت من أجله..

- أما الآثار السلبية فتكمن بكونه لا يحاكم اعتقاده محاكمة عقلية خاضعة لمعايير

الصواب والخطأ؛ فقد يكون ضالاً ولكنه يعتقد بأنه على الهداية، ولديه الاستعداد للتضحية من أجل فهمه وتصوّره الخاطئ، ومن جانب آخر تعتبر الصوابية حُقنة عالية في اتجاه أنَّه يمثل الحقيقة المطلقة، وأن الآخرين جميعهم على خطأ، وهذا الاعتقاد بمطلق الصواب يوجّه المحتذي لدين معين إزاء المخالف إلى اتجاهين متعاكسين يحملهما باستمرار..



الاتجاه الأول
بأنه رحمة للوجود، طالباً للسلام في كل العالم، يتّجه لإحيائه أياً كان ذلك الإنسان ومهما اختلف عنه

الاعتقاد الثاني
أن لديه اصطفاء واستعلاء، فيجب على الآخرين أن يخضعوا لما يعتقده، والهلاك لمن يخالفه، فلديه قابلية للعدوان، وإحياء الصراعات مع البشر

فيمكن أن يرتقي الإنسان بدينه ليكون نبع رحمة للوجود من الشجر، والحجر، وللبشرية سواء اتفقت معه أم اختلفت، كما يمكن أن يتحوّل ليكون قنبلة موقوتة لتفجير نفسه في معبد أو مسجد أو نحوه..

فيحتاج الدين إلى أن توجّه طاقة الثقة الموجودة فيه نحو اتجاهات صالحة لعمران الكون والحياة، وإن أي خطأ في هذا الموضوع سيقود إلى الاتجاه العكسي تماماً، كما نشاهد الآن في بعض البلاد نتيجة لهذه العصبوية الناشئة عن نوع من فهم الدين، فإن الطاقة المختزنة في الدين إما أن توجه نحو الخير، وإما أن توجّه نحو الشر، ولذلك حدد الله سبحانه وتعالى

مهمة الرسول عليه الصلاة والسلام بالرحمة ﴿وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين﴾، وإن هذه المسافة بين الاتجاه الأول والثاني هي التي صنعت هذا الشحن الكبير في العالم، بحيث لا تكاد تتكلم مع أحد من الناس في قضية من القضايا إلا وتبرز قضايا دينية وتصبح محل صراع! فعلينا أن نبحث في كيفية تجنُّب العثرات التي يمكن أن تُخلَق نتيجة توجيه الدين ضد الآخرين في منحى مناقض للمنحى الارتقائي للبشرية، كي لا تظهر المشكلات، ويحتد قتال الأديان، كتلك الحروب التي اشتعلت بأوروبا لعشرات السنين بين البروتستانت والكاثوليك والتي أبادت مجتمعات وأقوام، فكان ضحيّتها الملايين، وأيضاً ما يحدث اليوم بـ"مينمار" وبالـ"هند" ضد المسلمين، هو أيضاً نتاج فهم الأديان في منحى عدائي إزاء الآخرين.. فالمجتمع الإنساني اليوم في مرحلة حرجة جداً؛ نظراً لكمية التسلح المرعبة الموجودة فيه، والقادرة على الفتك والتدمير، فلم يعد الموضوع اليوم قاصراً على هلاك قرية أو بلدة، إنما هو واسع ليفتك بالملايين ويشرّدهم، فالشحن الديني المغلوط الذي يؤدي لانفجارات اجتماعية قد ينتهي بكوارث كبيرة جداً!

> إن الشحن الديني المغلوط للأوساط الاجتماعية قد ينتهي بيومنا هذا إلى كوارث ضخمة، فعلى المجتمعات أن تنتبه لفاعلية الدين في خلق السلام أكثر من دوره كلاعب في إشعال الحروب والاقتتال بين الناس!

خامساً- توجيه طاقة الدين الداخلية بين أبنائه (الصراع الداخلي حول أسس تأويلية)

إن الإنسان بأشدّ الحاجة للأديان، فالناس في علاقاتهم البعيدة عن عين السلطة (الأسرة والأصدقاء..) في حاجة ملحّة لضبط العلاقات فيما بينهم، وهنا يأتي دور الدين في الضبط الموسع، وتقليل مساحة الاضطراب الاجتماعي الذي قد ينشأ في الحياة.

وإنها على الرغم من من المنفعة التي تحققها.. إلا أنها تشكّل مثاراً للخلاف بين أبناء الدين الواحد، فبداخل كل دين سنجد اختلافاً حول تفصيلات أو تأويلات.. فمثلاً اختلفت

المسيحية حول طبيعة الإله في قضية اللاهوت والناسوت اختلافاً بيّناً أدى إلى حرب شنيعة بين روما الغربية وروما الشرقية، وأدى إلى صدامات ضخمة جداً بين الكنائس المسيحية المختلفة، وأيضاً في الإسلام انقسم الناس حول مسألة التوحيد والأسماء والصفات انقسامات متعددة أدت إلى صدامات وإلى تفسيق وتبديع وتكفير بين المسلمين.. وبالتالي كلما اتجه الموضوع إلى العموم أصبح أكثر أماناً وأكثر قدرة على جمع الناس، وكلما اتجه الناس للتدقيق في التفصيلات والجزئيات كلما كثرت الخلافات والخصومات وقادت لصدامات بين الناس المتفقين على الكليات العامة.

الخلاصة

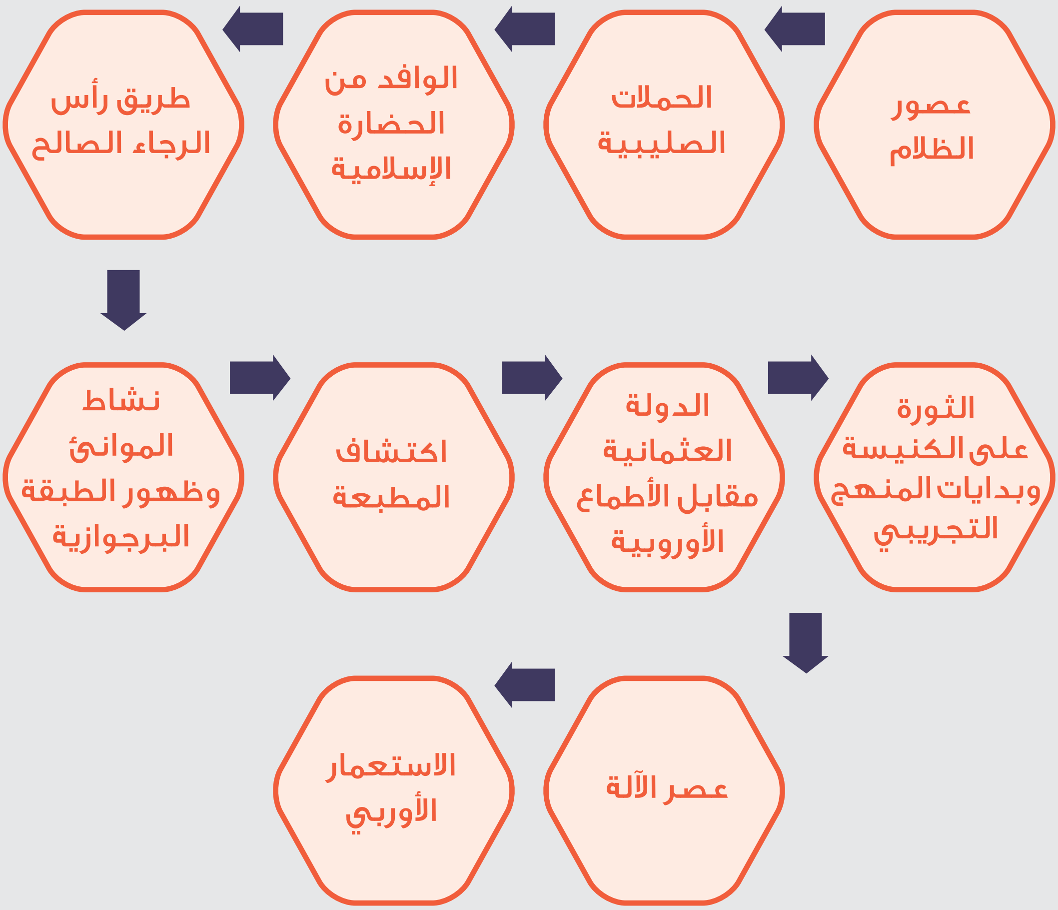
الجزء المهم في حياة البشرية ألّا توجّه طاقات الناس سلباً؛ فلو كنتُ مسلماً في الهند أو في الصين فلا يهمني ما يعبدون ويعتقدون.. بل ما أحتاجه هو ألّا توجّه طاقة الدين لديهم للانتقام مني، وهو ذات الشيء الذي يعنيهم بالنسبة لي؛ ألّا توجّه طاقة الدين لدي سلباً للانتقام منهم، وألّا توجّه داخلياً طاقة الدين لتفكيك المجتمع الواحد الذي يؤمن بالكليات المشتركة!

فإننا إذا أدركنا هذين الخطرين يصبح لدينا وعيٌ بالاتجاهات السلبية التي تنشأ رغم التدين الذي قد يقود إلى أحد طريقين: الرحمة أو النقمة..

وننوه هنا بكتاب اسمه "حياتنا الروحية"؛ حيث يخصص بحثاً عن المشترك الأسمى بين جميع الديانات السماوية والأرضية.. ليجد أن المقولة المشتركة "أَحبب لغيرك ما تحب لنفسك" أو" لا ترضى لغيرك ما لا ترضاه لنفسك"، ولكن هنالك شيء ما يوجّه طاقة الفعل أحياناً للانتقام! فيرضى الإنسان لغيره ما لا يرضاه لنفسه!.

مسار الحضارات عبر التاريخ ومآلات الحضارة الغربية





قد يكون هناك تكرار بما سنطرحه الآن، ولكن ما نريده من هذه المعلومات أن تكون بمثابة تمهيد لرؤية تطور الحضارة الإسلامية؛ لنأتي منها على الأسباب التي أوصلتنا لهذه الوضعية الحضارية.

وسنبدأ بالطرف المقابل لحالتنا وهو الحالة الأوروبية، التي لها أثر مفصلي في ذلك..

عصور الظلام

عصر الظلام هو لحظة السكون المعرفي وغياب العلم في أوروبا، وكانت الحركة الأولى لنهايته بدايات تشكل القوميات في أوروبا وتعريف الذات

تكلمنا في المبحث السابق عن التاريخ العالمي ورحلة البشرية في تطورها.. ووقفنا على حدود التاريخ الأوروبي، وقلنا إن أوروبا منذ حوالي سنة 476م إلى 1066م (حوالي خمسة قرون) تركزت فيها عصور الظلام، أنه قد تخلل هذه العصور كثير من الأشياء الجيدة بالنسبة للأوروبيين، إلّا أن الطابع الأساسي لتلك العصور هو الظلام والجهل، وكان السبب الرئيسي لذلك حكم البرابرة، فبعد أن انهارت الحضارة الرومانية - التي تعتبر امتداداً للحضارة اليونانية - أمام هجمات البرابرة – وهم عشائر بدوية غير متعلمة -، فقدت أوروبا أهم مميز لها وهي قضية العلم والمعرفة، فتكوّنت الإمبراطورية من أناس لايعرفون القراءة ولا الكتابة، فانتشر الجهل في أوروبا انتشاراً ضخماً، ومنعت الكتب اليونانية من التداول، ووجدت الكنيسة أن ماحدث في مصلحتها، لكونه يحميها من مساءلات الفلسفة لها في القضايا التي تطرحها، فدعمت السلطة وآزرتها، وأخذت دعماً قوياً منها تمكنت من خلاله على الهيمنة بقوة؛ فصادرت روح الإنسان وجسده وعقله - كما ذكرنا سابقاً ، فأضرَّت بالحياة الأوروبية بشكل كبير، ما أحدث نوعاً من الركود الضخم في مجال الثقافة والعلم. فاتصفت المرحلة بالركود العلمي والمعرفي، وانتشار الجهل والأمية، وعدم القراءة، واختفت الكتب ووُضِعت في الأقبية أو أُحرقت.

هذا بالإضافة إلى هيمنة النظام الإقطاعي الذي يمتص دماء الناس، حيث شكّلت طبقة الفلاحين ممن ليسوا بِمُلّاك تكتلاً بشرياً كبيراً جداً من الأوروبيين، ويشتغل الواحد منهم ليل نهار بالزراعة من دون أن يحصل على شيء مقابل جهده سوى أن يسمح له بأن يعيش على الأرض ويحصل على طعامه منها!

كما أنه في تلك الآونة لم تكن قد نشأت الدولة الوطنية أو القومية بعد؛ أي إنه من الممكن أن يموت الملك البريطاني فيرثه ملك فرنسي أو إسباني، وذلك بسبب العوائل الملكية

المتزاوجة من بعضها البعض، فقد يصل لحكم بريطانيا ملكٌ لايعرف اللغة الإنجليزية التي هي لغة الشعب!

الحملات الصليبية

مع بداية القرن العاشر الميلادي بدأت تدب حياة جديدة في أوروبا، حيث بدأت تظهر النَوَيَّات الأولى للنزعة القومية الأوروبية، فأصبح الفرنسي يعرّف نفسه كفرنسي، والإنكليزي يعرِّف نفسه بأنه إنكليزي، والإسبان والبرتغال كذلك.. وبدأت الأحوال بالتحسّن شيئاً فشيئاً.. ولكثافة البشر الموجودين حينها - حيث كان في أوروبا حوالي 80 مليون من البشر-، ومع زيادة الأوبئة، وشح الزراعة بدأ يتعذّر توزيع مزيد من الأراضي على النبلاء، فظهرت فكرة الخروج من أوروبا إلى مناطق تبدو غنية بالنسبة لهم، وفي هذه الآونة كان العالم الإسلامي قد بدأ يضعف، وفي المخيال الأوروبي كانت المناطق الغنية هي مناطق المسلمين، أي بلاد الشام ومصر، فبدأت تراودهم فكرة الغزو لهذه المناطق، بالإضافة لكون الموضوع له بعد ديني؛ باعتبار وجود بيت المقدس الذي هو مهد المسيح، وبالتالي وجدوا حجة يحق لهم من خلالها بحسب تصوّرهم احتلال هذه المناطق، فبدأت الحملات الصليبية تتوالى على بلاد المسلمين لغزوها!

الوافد العلمي من الحضارة الإسلامية

على الرغم من الآثار السلبية على البلاد الأوروبية نتيجة للحملات الصليبية، إلا أنه كان لتلك الحملات عوائد إيجابية، ومنها أن اكتشف الأوروبيين مع هذا النشاط العسكري ثروة علمية ضخمة في العالم الإسلامي، فبدؤوا بالتعرّف على التراث الإسلامي الذي كان يجهلونه، كما بدؤوا يحضرون الحلق العلمية التي كانت تقام في قصور الملوك الموجودين، وقد كان "صلاح الدين" مشهوراً بعلاقاته الوطيدة بهم، فكانوا بأوقات السلم يزورونه ويزورهم، كما كان يرسل طبيبه لتطبيب ملوكهم، حتى إنهم كانوا يتبادلون المسائل العلمية ويعقّبون عليها، ونشأت ممالك أوروبية في تلك الآونة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فكانت كل من سوريا ولبنان إلى أسفل الساحل تحت حكم الصليبيين، فحينما التقى الأوربيون بالعلوم الإسلامية وشاهدوا كيف تدار الحلق العلمية.. عادوا

من نشوء النَوَيّات العلمية فوق نَوَيّات الدول القومية تراكمت النويّات التي ستتأسس منها الحياة الجديدة في أوروبا



إلى ديارهم وبدؤوا بتشكيل حلق علمية - وخاصة في إيطاليا -، وذلك على غرار الحِلَق التي شاهدوها في بلاد الشام، كما قاموا بترجمة الكتب التي أخذوها، وبدأت تؤسس الجامعات في إيطاليا، ومن ثم امتد انتشار هذه الجامعات إلى فرنسا، وبدؤوا يدرسون غير المواد التي كانوا يدرسونها في السابق (كتب اللاهوت المسيحي)، فبدأت تُدَرَّس في جامعاتهم كتب "ابن سينا" و"الفارابي" و"ابن رشد" و"ابن الهيثم" التي حملت العلوم الإسلامية التطبيقية من طب وبصريات وهندسة وميكانيكا.. فأصبح هناك فضاء علمي متداول قادم من الحضارة الإسلامية إلى الدول الأوروبية، ولقَّح هذا الوافد البيئة الأوروبية وظهر أثره في القرن الثاني عشر، وأصبحت العلوم المتداوَلة في البلاد الإسلامية متداولة لديهم ويقوم حولها نشاط علمي واسع. فهذه المغامرة الكبيرة التي قاموا بها خصّبت لهم الأرض بعلوم جديدة غير العلوم المألوفة لديهم المرتبطة بالكتب المقدسة، علماً أن تبن أفكار جديدة في الحياة هناك لم تكن بالأمر اليسير، فـ "روجر بيكون" الذي دعا لتبني المنهج العلمي تم سجنه 27 عاماً لاعتباره مهرطقاً وأنه ضد الكنيسة وضد

العلوم الأوروبية القديمة! فهل ستنجح القوى القديمة في اقتلاع هذه النواة، أم أن النواة ستجد لها تربة وأرض بعد حين؟!

إن هذا المشهد التحولي في أوروبا هو طابع عام في الحياة؛ فالحضارات تُلَقّح دائماً من حضارات أخرى، فمما أسهم بتلقيح حضارتنا الإسلامية انتقال علوم اليونان إلينا، وحينما انقلبت الدورة الحضارية كانت للحضارة الإسلامية إسهاماً كبيراً بتلقيح الحضارة الأوروبية وتخصيبها

اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح

عند الوصول للقرن الرابع عشر حدثت تحولات ضخمة في أوروبا نتيجة الصراع مع المسلمين، حيث كان الأوروبيون آنذاك يذهبون إلى موانئ الشام والموانئ المصرية لأخذ البضائع القادمة من طريق الحرير من الصين والهند، وكانت تجارة الترانزيت تشكّل جانباً رئيسياً للحياة الاقتصادية في كل من مصر وبلاد الشام، وفي أواخر العصر المملوكي حكم مصر والشام ما يسمى بـ"مماليك البرجية" بعد أن كانت محكومة من قبل "المماليك البحرية"، وهؤلاء عاثوا فساداً كبيراً جداً؛ فدخلوا الأسواق وبدّلوا سعر العملة، وبدأوا يفرضون المكوس على الناس القادمين، ويرفعون أسعار البضائع حتى بدأ الأوربيون بالتململ، وقرروا أن يقاطعوا موانئ الشام ومصر، وحثّتهم توصيات البابا للسعي لإيجاد طريق آخر غير طريق الموانئ الإسلامية، مما أحدث هزّة ضخمة بالدولة المملوكية التي تعيش على تجارة الترانزيت ولها منها عوائد كبيرة.

اتجه الأوروبيون للبحث عن طرق جديدة للوصول إلى الهند والصين، ومع عديد من المحاولات استطاعوا عبور طريق "رأس الرجاء الصالح"، ومنذ ذلك الحين أصبح مسار رأس الرجاء الصالح صالحاً للملاحة ومرور السفن، ووصلوا للهند والصين بيسر وسهولة من دون أن يحتاجوا لموانئ البحر المتوسط، فبدأت تموت التجارة في مصر والشام في فترة ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبدأ يموت معها العلم والمعرفة وجميع أوجه الحياة..

نشاط الموانئ وظهور الطبقة البرجوازية

> إن المدن التي ولدت حول الموانئ ستولد معها طبقة جديدة لديها مطالب فاعلة ستُشكّل أوروبا من الناحية الثقافية في المستقبل

بالطرف الأوروبي المقابل بدأت الكشوف الجغرافية تكثر وتتسع، وسينشأ هنا حدثٌ مفصليٌّ؛ فالأوربيون بعد اكتشافهم لرأس الرجاء الصالح والوصول للصين، وصلوا بالخطأ إلى شواطئ أمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية، ومع وصول الكشوف لتلك المناطق اكتشفوا حضارتي "الأنكا" و"المايا" في أمريكا الجنوبية، وهذه الحضارات عريقة وكانت تبني قباب معابدها من الذهب، وتزن حكامها به. وحينما وصل الإسبان إلى تلك المناطق التي كان لا زال سلاحها السهام والرماح.. غزوهم بالبنادق والمسدسات، واستطاعوا نقل الذهب من أمريكا الجنوبية إلى الموانئ الأوروبية، فأتت السفن الأوروبية محملة بالذهب، وانتشرت فكرة أن هنالك مدن غنية بالذهب قابلة للنهب! فبدأ التجار يبنون السفن ويستثمرون في هذه الرحلات، وصارت الحاجة للعمالة كبيرة جداً، فالميناء الذي كان يضم 2000 أو 3000 عامل شهد تضخّماً، وصار يصل عدد العاملين لمئات الألوف من الفلاحين القادمين من الأرياف، وبدأ الذهب يتدفق على أوروبا وامتلأت خزائنها منه..

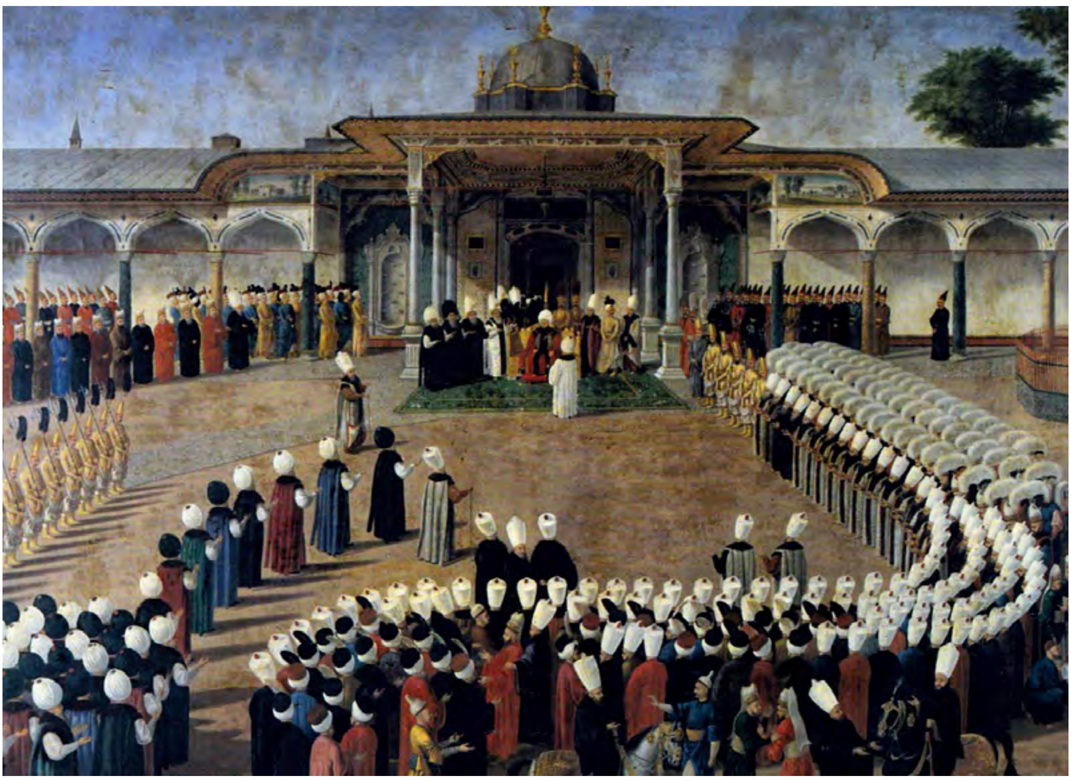
مع زحف العمال إلى الموانئ بدأت تتشكّل طبقة جديدة جلّها من الفلاحين المضطهدين، الذين سيسكنون حول الموانئ. ولم يكن لهذه الطبقة تعريفٌ في النظام الاجتماعي الموجود في أوروبا، إلا أنها ستكبر مع مرور الزمن وستمتلك المال والعلم والمعرفة، وستسمى بـ"الطبقة الوسطى" أو "الطبقة البرجوازية"، ولن يقتصر أثرها على مصير الحياة الأوربية فقط، إنما سيمتد ليطال العالم، فستبدأ - بعد أن أصبحت تكتلاً كبيراً وقوياً - بمطالب جديدة؛ وستبث أفكار "الليبرالية" التي تنادي بتحرير التجارة، وإعادة توازن النظام السياسي، وتعديل الحياة بما يتناسب معها، ومن هذه الطبقة سيخرج لاحقاً المتعلمون والأغنياء وكبار الناس الذين سيقومون بتأسيس البنوك.. وسيصنعون انقلاباً كبيراً في التاريخ.

اكتشاف المطبعة

سيحدث حدث مفصليٌ أيضاً في الحياة الأوروبية، فبعد أن نشط الاقتصاد، وفُتِحت الجامعات واتسعت بعلومها، ستُطَوَّر المطبعة من الطباعة اليدوية إلى الطباعة الآلية، وسيصبح بالإمكان طباعة آلاف الكتب بشكل سريع، فيقال إنه بعد اكتشاف المطبعة بـ50 عاماً وصل عدد الكتب المطبوعة لـ90 مليون كتاب بعد أن كانت عدد الكتب المنسوخة باليد 30 ألف كتاب، ومن هنا يتضّح حجم تطور الحياة العلمية والمعرفية في تلك الحقبة.

الدولة العثمانية مقابل الأطماع الأوروبية

انتقلت أوروبا نقلات ضخمة جداً فتطوّرت جُلُّ مناحي الحياة، وتشكلت الثروات وارتفع الاقتصاد، وفُتِحَت الجامعات المنظمة المدعومة بالطباعة، فانتشرت المعرفة بشكل كبير جداً، فكانت كل هذه العوامل هي إرهاصات أو خمائر قوة كبيرة.



في تلك اللحظة التاريخية تقابل حدثان ضخمان؛ فتح القسطنطينية من قبل "محمد الفاتح" حيث كانت القوة الإسلامية العثمانية الناشئة لاتزال فتية، وطرد المسلمين من الأندلس. فارتفعت معنويات الأوروبيين، إنما بمقابل ازدياد الرعب الأوروبي من التقدم الإسلامي الذي لا يزال قوياً، حيث إن الدولة العثمانية كانت دولة عسكرية، وكانت قادرة إلى القرن السادس عشر أن تغزو أوروبا وأن تصل إلى "فيينا".

الثورة على الكنيسة وبدايات المنهج التجريبي

استمرت أوروبا بعملية التطوير، وثارت على الكنيسة، وبدأت تتحرر من أفكارها، واستنفرت البحث في التراث اليوناني الذي وجدته مُعَداً لها من قبل المسلمين، وبدأوا يستعيدون نظرة جديدة للعلم والمعرفة، فهم سيطورون الرياضيات التي أتتهم من الحضارة الإسلامية، وسيبدأون بالنظر للفلك وللبحوث الفلكية، وسيكتشفون أن العالم الذي رسمته الكنيسة بمركزية الأرض للكون ليس صحيحاً، فستنهار السلطة العلمية التي كانت لـ"بطليموس" ولـ"أرسطو"، وسيظهر أبطال جدد مثل "نيكولاس كوبرنيكوس" و"غاليليو غاليلي" و"يوهانس



كيبلر" وغيرهم.. ممن سيفتتحون الأفق نحو سؤال المنهج، فسيؤسسون تأسيساً حقيقياً للمعرفة عبر المنهج التجريبي وتقنينه، والمنهج الرياضي وتقنينه، وستغدو أوروبا مهيئة لقفزة كبيرة ستبدأ من القرن السادس عشر الذي وعلى الرغم من أنه لم يحظ باكتشافات علمية ضخمة، إلا أن مركزية الإنسان تغيرت من الهامشية ومركزية الصراع حول حق الله إلى تركيز الصراع نحو حق الإنسان، حيث كتبت أولى الكتابات عن الكرامة الإنسانية..

وإن هذا التغيّر المحوري سيؤهل أوروبا في قضية النزاع على الحكم، وفي تعديل السياسة والاجتماع بما يرفع منزلة الإنسان الأوروبي ويجعله مهماً في الحياة..



عصر الآلة

استمر التطور في أوروبا على صعيد المنهج العلمي والاكتشافات المعرفية الجديدة، وعلى صعيد الإدارة، وبدأت عمليات الطباعة الواسعة للعلوم والمعارف الموجودة، ومن ثم دخلت أوروبا بما يسمى عصر "الحداثة" الأوروبية أو "عصر الآلة"، ليبدأ في بريطانيا عصر جديد تدرَّج من المغزل اليدوي إلى المغزل الذي يدار بالمياه، ثم إلى إلى المغزل البخاري.. وظهر عصر الكهرباء

وبدأت أوروبا تتغير تغيراً جذرياً، وهذا قَلَبَ موازين العالم انقلاباً جذرياً؛ ففي حين كانت السيدة تحيك في سوريا جبة أو سجادة باليد، كان المصنع الموجود في بريطانيا يخرج آلاف القطع في وقت قياسي وبيد عاملة قليلة، وفي الوقت الذي أصبحت فيه البضائع تنقل بزمن قياسي عبر السفن الأوروبية البخارية، كانت مناطق المسلمين لاتزال تعتمد على الأشرعة وعلى قوة العضلات! فأصبح الأوروبي أسرع في الماء وأسرع على الأرض، حتى إن السلاح الحربي لديه تطور من سلاح وحيد يطلق رصاصة واحدة إلى المدفع الآلي الذي يستطيع أن يبيد آلاف الناس.. وفي حين ظهرت الاتصالات اللاسلكية، وأصبح التواصل في أوروبا لا يحتاج التنقّل، كانت هذه الأفكار تبدو لدينا كأنها جن وعفاريت!

الاستعمار الأوروبي

خرجنا في هذه اللحظات التاريخية كدول مسلمة من الدورة الحضارية، وبدأ عصر الاستعمار الأوروبي، حيث سيجعل الأوروبيون العالَم بما فيه "هم"، فالاستعمار الأوروبي لم يأتِ لاستعمارنا نحن فقط بحسب ما نتصوّر، فالأوروبيون كانوا يريدون مناطقنا كممرات وسيطة، بينما كان الهدف الرئيسي المناطق الكبيرة وطرق التجارة الرئيسية.. فحينما أسس البريطانيون شركة الهند الشرقية باتوا على احتياج لتأمين سفنهم من مناطق الشرق الأوسط (منطقة الخليج العربي أو الشام).. فبدأت محاولات الأوروبي للسيطرة على العالم، ولم تكن سيطرته بسبب امتلاكه للقوة فحسب، إنما اعتمدت بشكل أساسي على المعرفة التي تجعل تكلفة السيطرة على الآخرين أقل بكثير مما يجب أن يكون.. فالسلاح لديه متفوق، والمعرفة بهذه المناطق أصبحت عالية جداً بحيث إنهم كانوا يدرسون المناطق دراسة أنثروبولوجية[1] من قبل أن يغزوها، كما أنهم على معرفة بطرق التجارة العالمية، ويمتلكون السفن البخارية... فبذلك كله باتت الفجوة بيننا وبين الغرب فجوة كبيرة جداً، وأصبح الغرب سيداً على العالم، بقيادة بريطانيا أولاً، ثم تتبعها فرنسا، ثم بقية العالم الأوروبي وأميركا في الظل..

1) Aygoloporhtn: البحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته.

واستمرت التصفيات لتطال أوروبا نفسها؛ فتبدأ الحرب العالمية الأولى 1917م-1919م اقتتالاً على مراكز الدول فيها ومن له الأولوية.. وراح ضحيتها 10 ملايين إنسان، وسيستمر الصراع دون حاسم له.. ثم لتبدأ الحرب العالمية الثانية 1939م على المراكز الجديدة والتطورات الموجودة، لتتوج بظهور العملاقين الأمريكي والروسي.

بدأ تنظيم العالم على يد الغربيين الفائزين بالحرب العالمية الثانية الذين شكلوا "عصبة الأمم" في الحرب العالمية الأولى، ثم "هيئة الأمم المتحدة" في الحرب العالمية الثانية، وفق احتياجاتهم تاركين الفتات لبقية العالم!

إن أي مشتغل في النهضة عليه أن يعرف المسار معرفة حقيقية جيدة حتى يرى هذا العالم كيف تشكل، فأوروبا لم تتشكل صدفة في لحظة معينة، بل هي نتاج أحداث متطاولة خلال قرون جعلتها تنال هذه المكانة الموجودة.

وإن أي شخص أراد أن يدخل في هذا الصراع الكوني ويجد له مكاناً فعليه أن يخدم جهداً علمياً ومعرفياً لافتتاح عصره الجديد كما فعلت الصين واليابان. فليس هنالك طريق مختصر لدخوله إلا بالجد والاجتهاد، وغير ذلك سيكون عبثاً..

فموضوع كهذا ليس محصّلة صدفة تاريخية أو حدث مضى، بل هي تغيرات كونية ضخمة، وعلى من هو داخل اللعبة أن يعرف قوانينها جيداً!

الحضارات عبر التاريخ
الحضارة الإسلامية -1-

الخط العثماني والفجوة الكبرى



سنتكلم في هذا القسم عن فجوة تاريخية حاصلة في التاريخ الإسلامي، ونحن كالعادة نضع الهيكل العظمي والأفكار الرئيسية، وللقارئ أن يملأ الهيكل بالتفاصيل التي يجمعها عن الموضوع، فبعد وضع الهيكل الرئيسي يبقى من السهل جداً ملء الفراغات وتعبئة الأفكار وتكوين الخطاب..

حينما نقول فجوة تاريخية قد يُخيَّل للقارئ أنها فراغ صغير حدث ومضى، إلّا أن الفجوة التاريخية في التاريخ الإسلامي هي فجوة كبيرة ممتدة من القرن الثامن الميلادي إلى نهاية عصر الدولة العثمانية تقريباً في القرن العشرين..

وإن الإخفاقات ابتداء من تلك اللحظة التاريخية (انهيار الدولة العثمانية) وما تبعها.. كثيراً ما تُعزى لتلك اللحظة، وكأنها لحظة مستقلة عمّا قبلها، فلا يسلّط الضوء على الفجوة الحقيقية التي سنتناولها في طرحنا الحالي، والتي كانت عاملاً رئيسياً للتراجع الإسلامي في المنطقة.

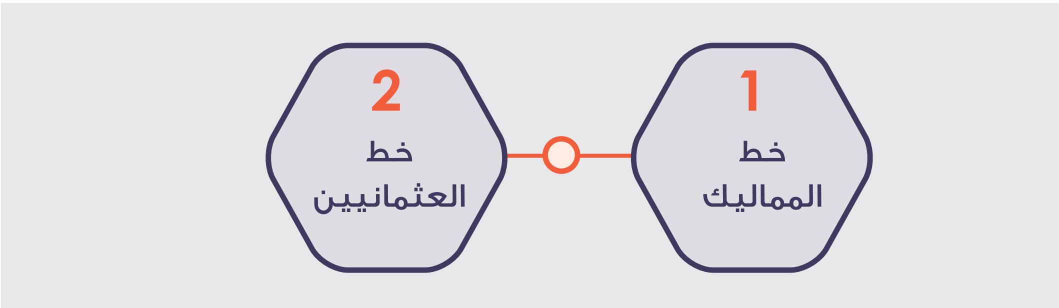
منطقة ماوراء النهر

سنبدأ حديثنا من مناطق بلاد ماوراء النهرين - ونقصد بها أواسط آسيا حيث (أوزباكستان- تركمانستان- طاجكستان- إيران- أفغانستان.. وجميع المناطق التي تنتهي بالـ ..ان) - وهي المناطق التي ستبدأ منها الأحداث وتظهر أهم القضايا..

فقد كان العبيد يساقون من تلك المناطق من قبل العباسيين إلى بغداد التي كانت عامرة في تلك الآونة تحت سيادة الدولة العباسية، بعد أن دخلتها الحضارات بثقافاتها المتنوعة في أواخر العصر الأموي.. وقد كان العبيد يفرزون إلى مقاتلين وغير مقاتلين، فيتم تأهيل المقاتلين عسكريّاً ودينياً.. وتذهب الفئة الأخرى كخدم في قصور العباسيين، وكانت فعلياً الخلافة العباسية تستقطب الناس الذين سيشكلون تاريخ المنطقة فيما بعد دون أن تدري؛ فمع ازدياد قوة تلك الفئة، سيتولد الطموح لديها، وستتجه بنظرها نحو المناصب

والسلطة بحكم امتلاكها للعقل والقوة، وسيبدأ قلب الخلافة بالضعف شيئاً فشيئاً، إلى أن يصبح منصب الخليفة شكلاً رمزياً فقط أمام تلك الفئة التي تقود الجيوش وتشغل المناصب العليا في الدولة، والتي ستكون أفضل درع متين للمنطقة عند دخول الصليبيين والمغول فيما بعد.. فهي من جانب ثلة مقاتلة تدافع عن الإسلام، ولكنها من جانب آخر ستسعى جاهدة للاستقلال عن الخليفة.

وستنقسم تلك الفئة القادمة من بلاد ما وراء النهرين لتشكل خطين بارزين:



وسنركز هنا على الخط العثماني الذي يعتبر خطاً مفصلياً في تشخيص معالم الفجوة بشكل أساسي..



الخط العثماني (التركي)

ستقوم دولة "السلاجقة العظام" في بلاد ما وراء النهرين (بلاد فارس)، تلك البلاد التي سيق منها العبيد كمقاتلين وخدم إلى الدولة العباسية، وستقوى دولتهم وتمتد امتداداً ضخماً جداً بحيث ستسيطر على المشرق العربي، وصولاً إلى تخوم الدولة البيزنطية، إلَّا أن هذه القوة العظيمة - "دولة السلاجقة العظام" - ستضعف بعد موت "سنجر" آخر عظام السلاجقة، وسيظهر كامتداد لها دولة سلجوقية أخرى تسمى "سلاجقة الروم"، وسيمتد حكمها حوالي 200 سنة، وسيتخذون من "قونيا" في الأناضول مملكة لهم.

وهؤلاء السلاجقة هم من سيشكلون رحم الدولة التركية، حيث كان "أرطغرل" قائداً حدودياً لهذه الدولة السلجوقية على تخوم بلاد الروم "بيزنطة"، أي في المناطق الموجودة فيها تركيا المعاصرة الآن، فإسطنبول كانت عاصمة الدولة البيزنطية؛ حيث إن الدولة البيزنطية هي القسم الثاني من الحضارة الرومانية.

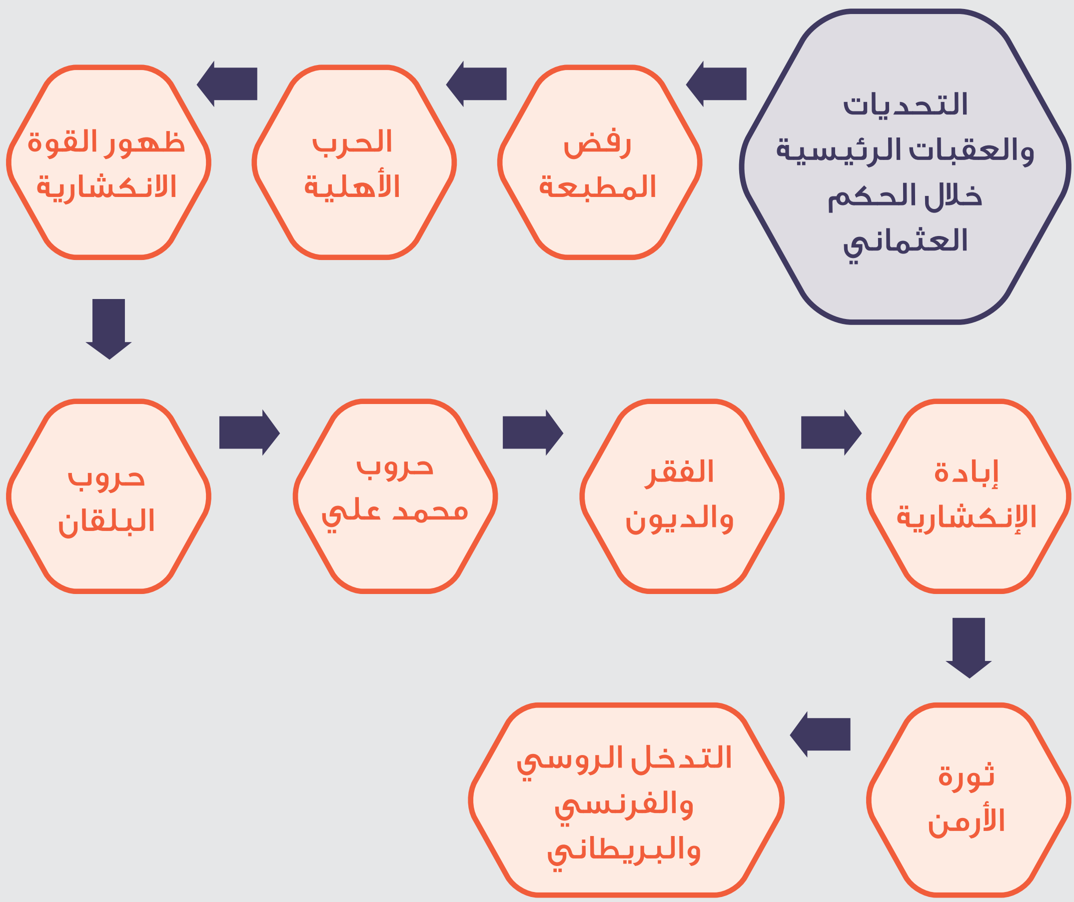
برز الأتراك كسدٍّ مانع لتقدم المسيحية الأوروبية إلى بلاد الإسلام، وكانوا في قتال مستمر معها، وإن متانة قتالهم للأوربيين هو الذي ولّد ثقة السلاجقة بهم لإعطائهم الإذن بحكم هذه المناطق الموجودين فيها..

فنشأت الدولة العثمانية كدولة حدود على تُخوم بيزنطة.

كان لدى "أرطغرل" حلم إنشاء كيان موحّد للأتراك، وسعى من أجله، فنجح في التمهيد له، ليأتي بعده ابنه "عثمان" الذي سيؤسس الدولة، ويفتح المناطق والقلاع والعالم المحيط، مشكّلاً قلب الدولة التركية قبل تبلورها بالشكل النهائي، ومن ثم سيأتي ابن عثمان "أورخان" وسيكون هو المؤسس الحقيقي للدولة، فهو من سيعطيها شكلها وسمتها، واللوائح، والقوانين، ويعطيها وضعيتها كدولة، وسيمتد الزمن وصولاً لعام 1451م ليظهر "محمد الفاتح" كقائد قوي ويقوم بفتح "القسطنطينية" 1453م. وهي حقبة زمانية هامة جداً؛ حيث ستبدأ أولى حركات الضعف ظهوراً في الدولة العثمانية.

رفض المطبعة

إلى مرحلة "فتح القسطنطينية" لم يكن الغرب قد تفوّق على الدولة العثمانية، ولم يكن قد بان الفارق في المنحى الثقافي بعد، ولكن قريباً من هذه اللحظة التاريخية في عام 1448م ستُكتَشَف المطبعة في أوروبا، ليزداد حجم الكتب - كما كنا قد ذكرنا سابقاً - ليصل عددها إلى 90 مليون كتاب متداول، فستتضاعف حركة العلم بشكل مهوول، في حين سيتم رفض المطبعة في داخل الدولة العثمانية، تعارضاً مع الإطار الديني التقليدي بداخلها، الذي كان له أثرٌ كبيرٌ على الوضعية الموجودة؛ ففي حين أنه كان عنصر قوة في القتال لإسهامه في ترسيخ التربية الجهادية المحفّزة، إلا أنه مع التطورات الحاصلة سيصبح سبباً رئيسياً من أسباب ضعف الدولة!



الحرب الأهلية وتَدَخُّل الانكشارية

بعد وفاة محمد الفاتح ستغرق البلاد في حرب أهلية، لحدوث نزاع شديد بين أخوين على السلطة بعد وفاته، وستتدخَّل للمرة الأولى في قضية الحكم القوة الانكشارية، وهي فئة عسكرية محترفة تعتبر من أهم الفئات في الجيش العثماني، ولكن بتدخّلها في السلطة ستفسد السلطة وسيفسد المجتمع، وسيتم تعيين برغبة الانكشارية أول خليفة عثماني وهو "بيازيد الثاني"، ومن بعده "السلطان سليم"، وإن ظهورهم في المشهد سيكون مؤشراً للنهايات؛ فسيطول الصراع معهم إلى سنة 1826م، وسيكون لرفضهم التام للتحديث أثراً وخيماً على الدولة، ونتيجة لفرض أفكارهم وازدياد تدخّلهم.. سيحتدم الصراع بينهم وبين السلاطين، وستتحول الانكشارية إلى ثورات مستمرة، ليزداد طغيانهم وصولاً لإعدامهم عثمان الثاني سنة 1622م، وقتلهم إبراهيم الأول سنة 1642م، وعزل "محمد الرابع" سنة 1687م.

وستأتي محاولات قوية لاستعادة عافية الدولة ومكانتها على يد "السلطان "سليم" والسلطان "سليمان القانوني"، فسيتجه الأول لقتال المماليك ويهزمهم سنة 1517م لتصبح مصر تحت سلطة العثمانيين، كما سيهزم الصفويين، وسيأتي بعده سليمان القانوني الذي كان أيضاً فلتة من فلتات الزمن، وهو الذي قام بفتح الشمال الإفريقي، مع انتباهه لأهمية التحديث.

حروب محمد علي، وحروب البلقان

في الوقت الذي كان فيه الانكشاريون مُحكمي القبضة على الدولة من آثار التحديث، كان محمد علي باشا في الطرف المقابل يكوِّن دولته ضد العثمانيين، مخترقاً قيودهم إزاء التحديث، فثارت بينهما الحروب.

وكان العثمانيون قد احتلوا البلقان في فترات مبكرة، فقامت على إثر ذلك ثورات البلقان مدعومة من قبل الروس..

الفقر والديون

بدأت الدولة العثمانية مع موجة الحروب والثورات تُنهك شيئاً فشيئاً، وتضعف من الداخل، والضعف فيها أحدث فاقة ولّدت ديوناً كبيرة زادتها إنهاكاً وتصدّعاً..

إبادة الانكشارية

مع ازدياد وتيرة تدخل القوى الإنكشارية، وازدياد تحكّمها بالسلطة.. تصاعدت ردة الفعل تجاههم إلى استياء عال من قبل السلاطين، وصل أخيراً إلى محاصرتهم في "وقعة الخيرية" وقصفهم من كل جانب لتتم إبادتهم سنة 1826م.

ثورة الأرمن وتدخلات الأجنبي (الروسي، والفرنسي، والبريطاني):

كان من أكبر تحديات الدولة العثمانية مشكلاتها مع الأرمن المدعومين من قبل الروس وقيام ثوراتهم المطالبة بحقوقهم من الدولة العثمانية.

ويأتي مشهد تحدّيات الخط العثماني مختوماً بالتدخلات المتعاقبة من قبل الكيان الفرنسي والروسي والبريطاني، التي كانت وتيرتها بازدياد كلما زاد ضعف الدولة العثمانية.

وتتناوب الأحداث وصولاً إلى عهد السلطان عبد الحميد سنة 1876م الذي ورث كومة إشكاليات ضخمة جداً، قوامها دولة بعيدة عن التحديث، مع صراع داخلي مرير، وتدخل خارجي مسيطر.

فحينما أمسك السلطان عبد الحميد السلطة كانت دولة ميؤوساً منها، وكان الضعف قد وصل مداه، وهذا نلحظه من تجرّؤ اليهود على مفاوضته بالمال في مقابل الأراضي الفلسطينية!

نهاية الدولة العثمانية واستلام أتاتورك

غدت عملية تحريك الجمود في البلاد شبه مستحيلة؛ فالتقليديون من جهة، والأقليات من جهة، والقوميات من جهة، علاوة على الحرب الفرنسية، والإنجليزية، والروس والأرمن، ولم يعد بالإمكان إصلاح البنية الداخلية، ولا المشاكل الخارجية، فكان قد آن أوان نهاية الدولة، ليظهر في تلك اللحظة التاريخية أتاتورك ويحمل البلاد من حيث وقفت..

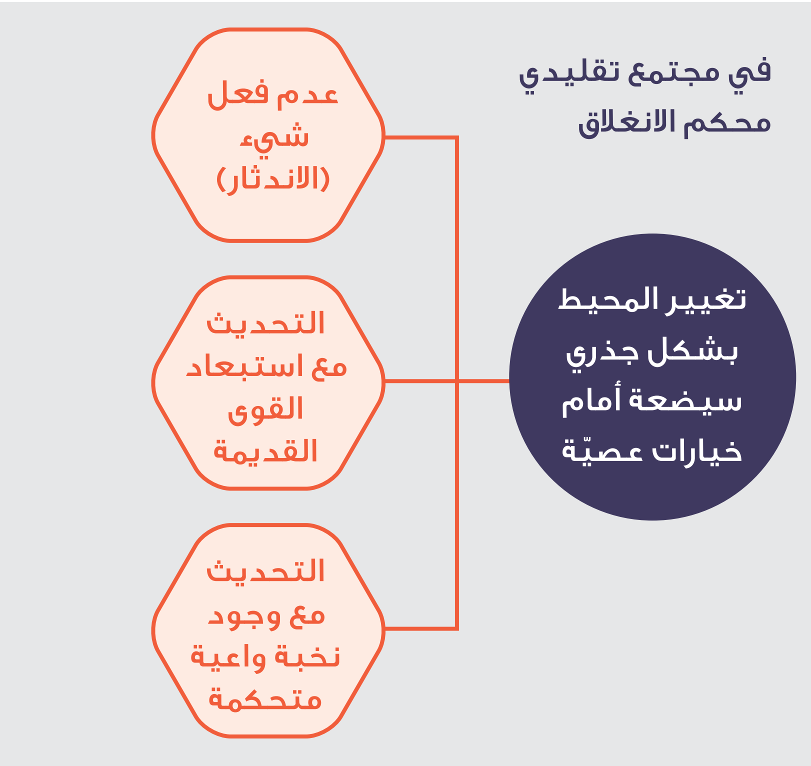


خارج ثنائية أتاتورك وعبد الحميد

إن الدول لا تسقط بسهولة، إنما تسقط نتيجة عوامل داخلية ضخمة تُحدِث أثرها في السباق مع الأمم الأخرى، فالموقف ليس ببساطة إزالة عبد الحميد واستلام أتاتورك! فإن دولة كالدولة العثمانية لم يكن ليأتيَ ضعفها بشكل مفاجئ، فقد كانت تسمى "الرجل المريض"، وقد كانت في سباق مع الأوروبيين وفاقتهم في لحظات تاريخية كثيرة، ولكن وبعد سلسلة من التحديات بدأت الدولة العثمانية بالخفوت، وبدأ الصعود الأوروبي بالتحكم في مقاليد اللعبة الجغرافية.

وإذا ما أردنا تجريد الموضوع ورؤيته من منظور أكثر عالمية وعمق، فإن أي مجتمع تقليدي مغلق يحمل ديانة وطقوس معينة، وينحدر لدرجة إيقاف عجلة التطور وإحكام الإنغلاق، ويطول فيه أمد التخلف بشكل يحد من مكانة الدولة في قوتها واختياراتها.. فإنه سيصل لا محالة إلى إحدى النتائج التالية:

- فإما إلى اندثار الدولة وزوالها.
- أو أن تتحدّث مع استبعاد القوى القديمة، وبالتالي يحدث قسر كما نشاهد الآن في البلاد العربية في بعض المناطق التي أُبعد فيها التيار الديني تماماً والتيارات الموجودة، لكي يمر قطار التحديث بدرجة من الدرجات.



- أو أن يكون في الدولة نخبة توازن العملية وتقود الدولة بيسر وسهولة، من دولة خارج العصر إلى دولة داخل العصر.

وماحدث في تركيا هو الخيار القاسي، فأتت القطيعة مع الماضي قطيعة تامة بكافة أشكالها، معتمدة تجفيف منابع الوعي بالماضي، وبناء الجيش والقوى المسلحة على أسس معادية للأشكال القديمة معاداة تامة، وإن ما نشاهده اليوم في تركيا؛ مما يطرحه فريق من الأتراك المتمثل بـ "استعادة الروح القومية التركية التاريخية" هو آثار ذلك الماضي.

وإن نموذج تركيا هو نموذج شبيه بنموذج اليابان التي كان فيها مجتمع تقليدي متماسك ودولة مركزية ضعيفة، إلى أن أتى من أوقفها على قدميها.. ومع رفض المجتمع للتجديد رفضاً قاطعاً –كذلك الرفض العثماني - حدثت إبادات لأولئك الرافضين؛ فبالنموذج العثماني أبيدت الانكشارية، وفي النموذج الياباني سيباد الساموراي. ولعل فيلم (The Last Samurai الساموراي الأخير) يجسد النموذج الياباني بشكل واضح.

من المهم جداً اكتشاف الفجوة التاريخية الموجودة أمامنا وأبعادها، وأن ندرك أن تاريخ تركيا بدأ مع تطورات حدثت في مناطق ماوراء النهرين (كازاخستان وأوزباكستان....) مروراً بالدولة السلجوقية، التي امتدت وصولاً إلى دخول القسطنطينية، لتستمر إشكاليات الدولة بعد محمد الفاتح التي تصدى لها خلفاء عظام وشكلوا نوعاً من الإنقاذ لها، إلا أنه لم يكن حلاً جذرياً فسقطت الدولة بالاحتراب الداخلي، وآلت إلى ما آلت إليه من انتهاء مشروع

الإمبراطورية العثمانية، وبدأ مشروع الدولة التركية على يد أتاتورك. وهنالك فرقٌ كبيرٌ بين الدولة العثمانية (الإمبراطورية) وبين الدولة التركية الحديثة وأحلامها وإمكانية تمددها كقوة إقليمية موجودة.

من المهم جداً قراءة الكتاب الرائع "الوجيز في التاريخ الاسلامي" لـ "محمد سهيل طقوش" والتركيز فيه على هذه المنطقة التاريخية، والجولة المملوكية.

دعوا الأرقام، وشاهدوا الصور والأحداث الكبيرة التي شكلت تاريخ المنطقة، فمن المؤسف أن يقودنا البعض إلى استنتاجات سطحية من أن الأمور قد حدثت بثنائية السلطان الطيب والقائد المجرم، فإن الأحداث التاريخية حينما تجري فإنها تجري وفق سنن كونية محكمة واضحة في نماذج التاريخ الكبرى.

الحضارات عبر التاريخ
الحضارة الإسلامية -2-
من القرن الثاني عشر
إلى القرن السادس عشر



سنعود معكم بالطرح لمرحلة مزدحمة بعض الشيء، إلّا أنها ذات أهمية كبيرة في سيرنا التأسيسي، وهي الفترة الزمنية الممتدة من منتصف القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر_حوالي أربعة قرون-، بدءاً من السلاجقة وصولاً إلى المماليك..

وإن قارئ التاريخ الإسلامي سيجد كثيراً من الزحام من أسماء وتواريخ وأحداث.. قد تُزهِّد الإنسان بمتابعة القراءة، وسنحاول هنا تخفيف ذاك الزحام، وتوضيح خطوط الاتصال والهيكل العام لنشاهد الأحداث بوضوح خلال تلك اللحظات التاريخية الهامة.

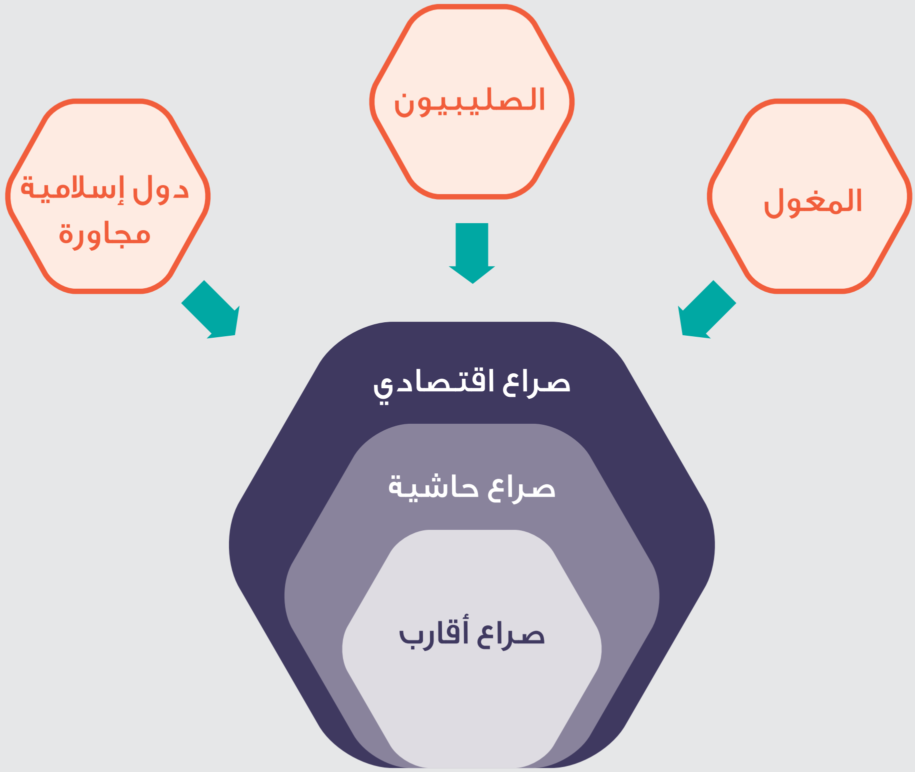
وتعود أهمية تلك اللحظات التاريخية نظراً لكونها حقبة تجلّى بها بوضوح خط الصعود الغربي، وخط الهبوط للمجتمعات الإسلامية؛ حيث تشكلت بها القوى الخارجية بدءاً من الصليبيين وصولاً إلى الدول الغربية الحديثة، وتراجعت مجتمعاتنا من المرحلة التي نسميها العصر الذهبي (العصر العباسي الأول) إلى الوضعية الحالية.

سمات المرحلة

عند الدخول في تلك الحقبة سنلحظ فيها أحداثاً مكررة وملامح متشابهة.. تُمكِّنُنَا من استخلاص سمات سائدة لها، والتي كان من أهمها:

صراع الأقارب:

ساد في تلك المرحلة حالة صراع كبيرة استغرقت كافة دوائر المجتمع تقريباً، فسيحضر مشهد صراع الأقارب على الحكم بشكل مكرر جداً، من الزوج والزوجة والأبناء، إلى الإخوة إلى أولاد العموم، وسيكثر لدرجة أنه سيستغرق تقريباً كل دولة من الدويلات. ولن يتوقف صراع الحكم عند الدائرة الأصغر دائرة الأقارب، بل سيمتد إلى الحاشية؛ أي الدائرة المحيطة بالأسرة الحاكمة. وخارج هذه الدوائر نجد الصراع الاقتصادي في أوجه بين طبقات الشعب من حاشية وتجار ومن هم دونهم، لا سيما مع بدء حالة التدهور الاقتصادي، وفرض الضرائب، حيث بات الكل يحاول اقتطاع حصة لصالحه من السوق.



ومن خارج تلك الدوائر وفي ذات اللحظات التاريخية تلك سنجد حضوراً بارزاً لكل من المغول والصليبين والدول المحيطة التي وإن كانت ترفع الرايات الإسلامية إلا أنها وبشكل فعلي جزء من الصراع البيني. وهذا كله يحمل في طياته الصراع مع الخليفة، المتمثل حينها بالخليفة العباسي، فقد كان يُفعَل به الأفاعيل، ويأخذه الجميع كتكيّة له.

فهذا كان شكل العصر لمدة أربعمئة سنة، وتكاد تكون هذه الأحداث متشابهة بين دولة وأخرى، فكثيراً ما سيمرّ معنا عبارات (قَتلَ، ذَبَح، طَرَدَ، وزع المال والبلاد على أولاده..) وغيرها من العبارات..

تصوّر الملكية الخاصة للدولة:

خلال تلك الحقبة التاريخية كان الأمر السائد بصمت أن الدول ملكية خاصة للحاكم، وتؤول وراثة الدولة لأبنائه أو أقاربه من بعده، فلم يأتِ حاكم فكَّر بإنشاء مجلس منظّم

للشورى، تقوم فيه اقتراعات حرة، ليصل من خلالها الشخص الأفضل بإنصاف واستحقاق؛ بحيث يقي الناس من أن يُحَكَّم عليهم من ليس بأهل للسلطة.

إنَّ ما كان يُشاع في الكتابات التاريخية السائدة؛ من أن في أذهان الناس والحكام آنذاك نظاماً إسلامياً فعّالاً مختزلاً.. هذا ما لا نلحظه حقيقة على أرض الواقع حينما نقرأ التاريخ قراءة بعيدة عن التلوين المؤدلج، بل إننا نلحظ عكسه تماماً؛ فقد غابت القيم الإسلامية التي كان شأنها أن تقي المجتمعات المسلمة من حالة التفتت والتدهور الداخلي التي حلّت بها.

وهذا ما نراه واضحاً بشدة في كتاب "الوجيز في التاريخ الإسلامي" لـ "محمد سهيل طقوش" ، فهو مما لم يوجد له مثيل في أشباهه من الكتب التي نقلت التاريخ، فامتاز من ناحية النقل الواقعي البعيد عن الأدلجة لأحداث التاريخ الإسلامي. وهذا يساعد القارئ في النظر إلى الموضوع بعيون مستقلة، وتحليله والوقوف على الخلل بشكل واقعي.

التكرار من غير اعتبار:

السمة الثالثة لذاك العصر تكرّر الأحداث وبذات الكيفيات إنما دون اعتبار، فبعد مشاهد الصراع والاقتتال والغدر والبطش بين أفراد البيت والواحد أو الأسرة الواحدة.. لم يكن أحد ليفكر بتنظيم العملية وفق منظومة عادلة تحقن الصراعات وتحد من حالة الدوران في الدوامات السابقة ذاتها!

غياب النظر الفلسفي:

ومما سبق سنلحظ غياب النظر الفلسفي؛ الذي يبحث ويفكك الأحداث ويعتَبِر وينظِّر.. فهذا كله لم يحدث في تلك العصور، وسنرى خطورة غيابه بالحلول المجتزأة التي لم تكن لتفي بالغرض!

إن أبطال هذه الرحلة كانوا عبارة عن فرسان أُحضِروا كعبيد، ودُرِّبوا على القتال بمهارة عالية، فحققوا بدورهم العسكري نجاحاً كبيراً، وسجّلوا انتصارات عظيمة في مقاتلة العدو الخارجي، أما في الدور الفكري التصوري لإدارة الحكم فكانت مهاراتهم ضعيفة، وتجلّى ذلك

في إدارتهم للحكم، وإن لم يخلُ الأمر من حكام ذوي ذكاء وحنكة، ولكن المجمل العام سلك الاتجاهات ذاتها فلقي ذات المصير، فكانت مرحلة حضرت فيها بطولات عسكرية كبرى، ولكن الإطار العام لم يكن إطاراً حضارياً فيه نظر وبحث وعلم واعتبار..

هذه مجمل الملاحظات، كمحاولة تفكيكية لذاك الزحام الحادث بتلك اللحظة التاريخية، وتم تأطير المرحلة بالسلاجقة والمماليك لأن الغالبية العظمى للوحدة الفاعلة بداخل تلك العملية كان جلهم أتراكاً، وإذا ما استثنينا صلاح الدين وأسرته، فإن البقية كلهم عناصر تركية قادمة من أواسط آسيا، بحسب رواية العبيد الذين كانوا يساقون للقتال والخدمة، فكل الامتدادات هي ابنة هذا المسلسل.

الدولة السلجوقية

أسس "طغرل بيك" الدولة السلجوقية في "خراسان" في منتصف القرن الثاني عشر على حساب أتراك آخرين وهم "الغزنويون"، فتغلّب عليهم وكوّن دولته ، واعترف الخليفة في بغداد بالدولة السلجوقية، لتتمدد هذه الدولة الوليدة وتصبح في سنة 1055م الدولة المسيطرة على العراق والشام، وتصبح لها اليد الطولى لتصل قواتها لحدود بيزنطة، ومن ثم يصبح الخليفة في مهانة حضارية كبرى ولا وجود له في الدولة الناشئة، واستمرت تلك الإهانة لعدة حقبات.



بعد "طغرل بيك" حكم "ألب أرسلان"، ثم "ملك شاه"، ومن بعده ابن أخيه "أحمد سنجر" الذي ستنتهي دولة

السلاجقة العظام بموته، وبعد "ملك شاه" سيبدأ الصراع بين أبنائه، وتتفتت الدولة كعادة الحقبة آنذاك.

وعلى أعقاب الدولة السلجوقية نشأت الدولة "الخوارزمية" وهي أيضاً دولة تركية، وما يهمنا هنا أن ننوّه على مشهد هام، حيث استعان الخليفة بالمغول لضرب الدولة الخوارزمية حينما اشتبكت معه، وبعد أن قضى المغول على الدولة "الخوارزمية" توجّهوا إلى الخليفة وأسقطوه فيما يسمى بـ "سقوط بغداد"!

فنشاهد غرابة شديدة في التحالفات القائمة في تلك الحقبة؛ حيث إن الأطراف المتنازعة رغم تقارب مشاربها إلّا أنها كانت مستعدة للتعاون حتى مع الشيطان في سبيل الانتصار على الطرف الآخر!

الدولة الزنكية

نشأت الدولة الزنكيّة كامتداد لِدولة السلاجقة؛ حيث كان لـ"ألب أرسلان" و"فاروق شاه" مؤدبٌ يقوم على تربيتهما العسكرية والأخلاقية، وهو "عماد الدين زنكي"، الذي سيتحول في فترة من الفترات لقائد كبير جداً، حيث سيفتح الرها وحلب والطرق التجارية، وسيقوم بأعمال كبيرة أخرى بفترة مستعصية جداً هي فترة الحروب مع الصليبيين، فالمنطقة كانت منهوشة من القوى القادمة من الخارج؛ حيث امتدت الغزوات الصليبية لاحتلال المناطق الإسلامية (فلسطين، مصر، القسطنطينية، الشمال الإفريقي..).



بجزء من صراع الحاشية على الحكم سيُقتَل "عماد الدين زنكي" من قبل أحد غلمانه وهو في طريقه إلى الجهاد، وسيبرز اسم "نور الدين محمود" والي حلب الذي سيضم لها دمشق ويوحد المسلمين في بلاد الشام، وسيتجه إلى مصر ليمسك بزمام الأمور حيث الدولة الفاطمية في فترة ضعف، وسيرسل لها "أسد الدين شيركوه"، و"صلاح الدين الأيوبي".

الدولة الأيوبية

أصبحت مصر محكومة اسمياً من قبل "نور الدين محمود"، ولكنها بشكل فعلي بيد "صلاح الدين" الذي استقل بها بعد وفاة "أسد الدين شيركوه"، وسيخرج حينها للمسرح ما يسمى بالأيوبيين أو الدولة الأيوبية. فالأيوبيون بالأساس كانوا تحت خدمة "نور الدين زنكي" وبعض قواده وأمراءه.

بعد وفاة "نور الدين" سحب "صلاح الدين الأيوبي" قواته إلى الشام، ووضع جميع مناطقها تحت إمرته، واستعد للقاء القوة الكبرى "الصليبيين"، وفي سنة 1187م ستبدأ معركة حطين، ليأخذ حينها "صلاح الدين" بيت المقدس بانتصار عظيم.

المفاجأة أن صلاح الدين بعد معركة حطين بحوالي خمس سنوات سيعقد صلحاً مع الصليبيين، وهو "صلح الرملة"، وسيعطي فيه صلاحيات للصليبيين في الموانئ الإسلامية الممتدة بين لبنان وسوريا! وباقتراب موعد وفاته سيقسِّم "صلاح الدين" الأراضي التي هيمن عليها بين أبنائه وإخوانه، وستغيب كالعادة فكرة تحقيق نظام عادل أو شخص منتخب بالشورى. وبحسب نظرية (هكذا ظهر جيل صلاح الدين) فقد كان يجدر أن يتخلل المشهد فكرة تجمُّع إسلامي، وحضور قوة إسلامية، ونظام شورى، وتقدير لمصالح البلاد والعباد.. وغيرها من القيم الجميلة التي نتداولها حينما نتحدث عن ذلك الجيل.. ولكننا نُفاجَأ وبعد عظمة اللحظة التاريخية لدخول بيت المقدس بـ"صلح الرملة"، وبتقسيم الأراضي التي هيمن عليها "صلاح الدين" بين أبنائه وإخوانه! ليبدأ كعادة السمة الزمانية السائدة الصراع بين أبناء صلاح الدين وبين أخيه، واستطاع أخوه أن يقضي على أبنائه واحداً تلو الآخر، ولتبدأ من ذرية "صلاح الدين" سلسلة الصلح مع "الصليبيين" التي وصلت ذروتها في حكم "الملك

الكامل"، حيث أقام صلحاً معهم سنة 1228م، وأرجع إليهم فيه بيت المقدس، وبيت لحم، والناصرة، وممرات يافا وصيدا وحيفا..

نحن هنا أمام تناقضات هائلة كبرى على الرواية الموجودة السائدة، فصلاح الدين شخصية عظيمة جداً، ولكنه في نهاية المطاف وزّع البلاد على أولاده وإخوانه الذين تقاتلوا فيما بينهم!

دولة المماليك

في فترة حكم الأيوبيين، وفي ظل احتدام الصراع وضعف الدولة، بدأ الملوك باستقدام العبيد من المناطق ذاتها التي كان يُستَقدَم منها الترك.. فأُتِيَ بهم كمقاتلين، وتم وضعهم في قلعة بجزيرة في نهر النيل، وتلَقَّوا تدريباً عسكرياً ودينياً بمعزل عن الناس إلى أن أصبحوا قوة كبيرة، متكبرة على الشعب، تنظر إليه باحتقار ودونية شديدة حتى للعلماء منهم! فلم يكن يُسمح لأحدٍ غيرهم من ركوب الخيل أو حمل السلاح.

ونسمع في تلك الفترة عن سيدة اسمها "شجرة الدر" زوجة الملك الصالح، وسعت بعد وفاته لاستلام الحكم، وحينما حاول "توران شاه" ابن "الملك الصالح" إبعادها والمماليك عن الحكم تآمروا عليه وقتلوه، وبقتله سينتهي الحكم الأيوبي ويستلم المماليك.

ولم يكن بينهم آنذاك أحداً يعدُّونه قائداً محصناً، فنصّبوا حينها "شجرة الدر" وتزوّجت عز الدين أيبك لتقوّي حكمها به، وحينما أراد أن يُحضِر ابنه على حسابها قتلته، ثم نصبت لها زوجته السابقة كميناً وقتلتها. ليبدأ بمقتلها العصر المملوكي الصرف. الذي سينشأ على صراع بين الأقارب والحاشية.

مماليك البحرية:

بعد مقتل "شجرة الدرّ" استلم المماليك الحكم في مصر، وسُمّوا بمماليك البحرية نظراً لكونهم سكنوا جزيرة في النيل كمقرٍّ أول لهم.

امتد نفوذ مماليك البحرية إلى مصر والشام والحجاز واليمن، واستمر حكمهم لقرنين



ونصف تقريباً، وبالإضافة لسوء علاقتهم بالشعب، كان لديهم باستمرار نزاع داخلي كبير؛ لكونهم جميعاً بالأصل عبيداً، ولم يكن لأحد الأحقيّة على الآخر باستلام الحكم، فكانوا حينما يموت الملك منهم يقتتلون فيما بينهم ليؤول الحكم للأقوى.

برز من المماليك شخصية قوية هامة هو القائد "قطز" الذي خاض معركة "عين جالوت" وهزم بها المغول، بعد أن كانوا خطراً قريباً يهدد مصر بقوة. فحينما بلغ الجيشَ المغولي خبر وفاة الخان العظيم، ترك قسم كبير منهم الجيش وذهبوا لمعرفة مآل الحال لديهم، فاشتبكت القوات الباقية منهم مع "قطز" سنة 1260م وهزمهم شر هزيمة، وكعادة العصر لديهم لا ينتهي المشهد عند هذا الحدث، فسيطلب "بيبرس" - وهو أحد القادة العظام - من "قطز" أن يعطيه منطقة من المناطق كمكافأة له على اشتراكه في الحرب، وحينما يرفض سيقوم "بيبرس" بقتل "قطز" ليصبح هو الملك، ويعيد تنظيم الأمور بفترة كانت قد قويت فيها التحالفات الغريبة، كحلف المغول والصليبين، وتحالف السلاجقة مع المغول.

مماليك البرجية:

سيحضر مماليك البرجية "أشرف خليل"، وسيسود حكمهم منذ حوالي 1382م تقريباً إلى انتصار الأتراك العثمانيين في الريدانية سنة 1517م.

ومماليك البرجية هي فئة مهمة في دراستنا؛ حيث إن الدولة المملوكية كانت تعيش على تجارة الترانزيت، فأقصر طريق تجاري يمر لأوروبا كان من طريق موانئ مصر والشام، وفي حين أن مماليك البحرية كانوا لا يتدخلون في السوق أو في التجارة، ولا يفرضون شيئاً على الناس، كان الصراع بين مماليك البرجية كبيراً، وكانوا بحاجة لتمويل مكائدهم ضد بعضهم البعض، فدخلوا السوق التجارية وبدأوا يغشّون في العملة، ويفرضون مكوس تجارية على الناس، ويقومون بتجارة غير عادلة مع القادمين للموانئ.. لتنهار في عصرهم الدولة انهياراً كبيراً جداً، وتقرر أوروبا في تلك اللحظة أن تقاطع الموانئ الإسلامية وتبحث لها عن طريق آخر ليتم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ويحدث التحوّل التاريخي الكبير..

إن الأتراك سواء كانوا سلاجقة، أو كانوا زنكيين، أو أيوبيين، أو مماليك.. فقد كانوا درعاً صلبة متينة لصد القوى الخارجية من مغول وصليبيين ونحوهم، وقاموا بحماية المنطقة بدرجة كبيرة جداً. ولكن كان النظام الداخلي لديهم نظاماً مفككاً لدويلات صغيرة، فأضعفوا القلب دون بديل سياسي أو ثقافي. وحينما بدأت التحولات الكبرى في أوروبا، كانوا غارقين في الصراعات الداخلية دون أن يستطيعوا الخروج منها حتى آن أوان رحيل الجميع من المشهد!

إن رحلتنا هذه مهمة جداً لتوضيح المشهد وتبسيطه، ولتسلّط لنا الضوء على ظاهرة التلوين الآيديولوجي للتاريخ؛ بمعنى أن ناقل التاريخ غالباً ما يريد أن يوصل رسالة محددة للقارئ، فيستخدم عمليات الحجب والتمرير لمواقف التاريخ، مما يؤدي إلى حجب الصورة الحقيقية عن القارئ.

فلسفة
التاريخ



في هذه المبحث سنتكلم عن فلسفة التاريخ، وسنقوم بالتركيز على الخطوط الرئيسية التي نريدها أن تبقى في ذهن القارئ، وتشكّل له خارطة معرفية في هذا الحقل المعرفي الهام.

إن أحداث التاريخ تأتي عادة مجزّأة ولا تعطي ثمرة حقيقية للإنسان، فالقارئ يظل أمام أحداث معينة لموت الشخصيات، أو ولادتهم، أو قيام الحروب ونحوه، دون التعرّض لسؤال ماذا يعني لنا التاريخ؟ وهل هو مجرد أحداث؟ أم أن هناك فضاء أوسع من ذلك؛ يجعل من التاريخ علماً ذا معنى ودلالة في حياتنا؟

غاصت فلسفة التاريخ بحثاً عن المعنى من أحداث التاريخ، وعن القوانين العامة التي تحكم حركته. وقد كتب في ذلك ثلة من العلماء، سننتقي منها ما يفيدنا في قراءة التاريخ والاعتبار منه.

أولاً- هيجل Hegel

من عادة الناس أن تبدأ طرح كهذا من "ابن خلدون" ولكننا سنبدأ من "هيجل"؛ لسبب موضوعي هو أنه يدرس اتجاه حركة التاريخ بشكل عمومي، وهذا ممتاز كبداية لكونه يعطينا الخط العام الكلي -على الأقل في فكر هيجل- لحركة التاريخ..

"هيجل" هو فيلسوف ألماني من أتباع المدرسة المثالية الألمانية، وسميت بالمثالية لأنها تعتقد أن عالم الأفكار هو الذي يحرك العالم ويصنعه، على عكس المدرسة المادية (الماركسية).

هيجل

- الإنسان الشيء، والإنسان الحقيقي.
- التحوّلات التاريخية الكبرى نتيجة صراع الأفكار.

الإنسان الشيء والإنسان الحقيقي:



سنتناول ابتداء من فكر هيجل نقطة أساسية متمثلة بما سماه "الإنسان الشيء" و"الإنسان الحقيقي". حيث يرى هيجل أننا وبالنظر لحركة التاريخ نجد أن الناس على صنفين:

- **الإنسان الشيء:** هو إنسان يغيب عن ذهنه مفهوم الحرية، مستأنس بأسره، ولا يعي أن كينونة الإنسان تكمن بحريته؛ فلا يستشعر أهمية اختياراته أو قراراته الفردية كإنسان، فهو باستمرار مُسيَّر بقوة أخرى كالكرسي، أو الآلة، أو السيارة..
- **الإنسان المتحقّق:** هو إنسان أدرك أنه يمتلك عقلاً وإرادة، ويعي حريته كإنسان، وأن من حقه أن يريد ويختار، لا أن يسيَّر من قبل الآخرين.

يرى هيجل أن أحداث التاريخ من فجر الإنسانية إلى اليوم تتجه في خط صاعد باستمرار نحو تحرير إرادة الإنسان، وتحويله من أن يكون شيئاً إلى أن يكون إنساناً، فقمّة إنسانية الإنسان استشعاره بإرادته مقابل إرادات الآخرين..

فالغاية التي تحرك مسار التاريخ التصاعدي بحسب "هيجل" تتجه للوصول لإنسان يستشعر حرية إرادته وقدراته، ويمتلك رغبة دائمة في تحقيق ذاته.. وإن حرية الإرادة تتحقق بجوانب عدة؛ فهي شعور من جانب، وقدرة من جانب، وممارسة من جانب، وإن الممارسة تعني حضور الإرادة في وجه إرادات أخرى؛ فلا ينسحق الإنسان لإرادات ثانية أياً كانت، وإنَّ هذا لتحدٍ كبير على الإنسان فهناك إرادات تتشكل منها إرادته من قبل أن يعي، وتتمثّل هذه الجهات بـ: (الأسرة،

والمدرسة، والمعبد والسلطة)، ومن هذه الإرادات يتعرض البشر باستمرار لاستلاب إرادتهم، وإن الإنسان خلال رحلته لاستعادة إرادته سيواجه إشكاليات كبرى لكونه سيقف منفرداً أمام هذه القوى؛ لأنه يطمح لإرادة حرة مقابل هذه الإرادات، في حين أن هناك جزءاً كبيراً جداً من المجتمعات تُغَيَّب فيها تماماً حرية إرداة الإنسان، والأخطر هو عدم شعوره بغيابها..

إن رحلة البشرية الطويلة لدى هيجل ما هي إلا عبارة عن ازدياد مستمر في وعي الإنسان بحريّته

حضور إرادة الإنسان في المجتمعات:

تتنوع المجتمعات من ناحية حضور إرادة الإنسان فيها؛ فهي شبه معدومة في بعض المجتمعات، وتحضر بشكل جزئي في مجتمعات أخرى، ونمت بعض المجتمعات حتى أصبحت تحضر حضوراً كبيراً، وأصبح إنسان تلك المجتمعات واعياً للتدخل الذي يحدث له من الخارج في صناعة إرادته، وإن هذا يرتبط بكلام هيجل الذي طرحه.. حيث يرى أن المجتمعات البشرية الأولى في الشرق بشكل عام كالحضارة الهندوسيهة والحضارة الصينية والإسلامية والبابلية والآشورية والكلدانية والمصرية.. لا نرى فيها وجوداً للشعوب، فهم خارج الإرادة العامة، وطابعها العام أن حرية الإرادة فيها لمجموعة واحدة أو لفرد واحد في المجتمع بمسميات مختلفة؛ فقد يكون فرعوناً، وقد يكون الأمير، وقد يكون الملك، وقد يكون الإمبراطور، وقد يكون الإمام الأعظم، وقد يكون الخليفة.. فهو أياً كانت تسميته إلا أنه الشخص الوحيد مع ثلة قليلة ممن حوله الذين يمتلكون الإرادة المطلقة، وبقية المجتمع لا حضور لهم في المشهد، بل هم في الدرك الأسفل بالنسبة لهيجل، لكونهم لا يستشعرون إرادتهم في مقابل إرادته.. فمشكلتهم ليست بأن أحداً قد استلب منهم شيئاً وهم يريدون استرداده كحق لهم.. بل مشكلتهم أنهم يعيشون ويموتون وهم يعتقدون وقانعون أن ليس لهم إرادة في مقابل إرادة هذا الفرعون..! وحينما يثورون قد يثورون اقتتالاً على الكرسي لا طلباً لحريتهم.. فتسقط دول وتقوم دول ولكن إنسانها غائب ذائب بإرادة السلطة، وهذا الإنسان بنظر "هيجل" هو في أدنى مستوى من مستويات الإنسانية.

يميّز هيجل تلك الحضارات عن حضارة اليونان، حيث إن اليونان قديماً كانت عبارة عن مدن صغيرة ولا يوجد شخص بينهم له إرادة مطلقة بالتصرف، فأتيحت الفرصة للناس لأن يفكروا بما يسمى "الديمقراطية المباشرة"، وظهرت إرادتهم في صناعة القرار داخل مجتمعاتهم، وهذا المستوى من الوعي حملهم على انتخاب من يمثلهم والتصويت على كل قرار في مدينتهم الصغرى.. وهنا بدأ الإنسان الذي خرج من الشيئية إلى عالم التحقق، إلّا أن هيجل لا يعتبر هذا الشكل هو الشكل الأمثل أو الكامل لتحقق الإنسان، لأنه وبداخل هذه المجتمعات قد كانت المرأة مستثناة، وطبقة العبيد والناس الأغراب كذلك، وبالتالي حرية الإرادة تحققت لدى طبقات دون أخرى، فلم يتحقق النموذج الكلي الذي يتجه له التاريخ.

وحينما ورثت روما اليونان بدأ صراع مرير بين الأباطرة وبين فكرة الحرية والإرادة لدى الناس، فالأباطرة كان لديهم باستمرار ميل لتجريد الناس من الصلاحيات، مقابل فرض إرادة واحدة هي إرادة الإمبراطور، فكان الصراع في تلك الآونة بين مجتمع يرى أن له الحق، وإمبراطور يرى أن الشعب ليس له الحق، وبين كنيسة ترى أن لها الحق، وبين أناس يرون عكس ذلك، فلم تترجح الكفة آنذاك لصالح تحرير إرادة الإنسان ووعيه، وتستمر حركة التاريخ بالنسبة لهيجل إلى أن تأتي الثورة الفرنسية فيتحرر الإنسان، وتقوم الديمقراطية ويكتسب الإنسان حقوقه القانونية ويصبح له صوتاً في داخل المجتمعات، فأصبح الإنسان الأوروبي ينتخب ويختار ويحتج ويعزل السلطة، ويختار دينه ومعتقداته ومن يحكمه، ويصوت على كافة القضايا الموجودة في داخل المجتمع، فكبرت إرادة الإنسان وتحررت. ويرى هيجل أن نهاية التاريخ قد حلّت بوصول الإنسان الأوروبي لأعلى درجات التحرر.

هل انتهى التاريخ حقاً؟

إذا صحت فكرة هيجل فعلاً، وأردنا أن نستفيد من كلامه في بُعد أكبر مما هو قد وصل إليه، فبإمكاننا أن نقول إن نهاية التاريخ لم تحل بعد، وإن الحرية يجب أن تستمر خطاً صاعداً يعم البشرية جمعاء، فإن هدف التاريخ إذا ما كان موجوداً فعلاً فإنه لا يتوقف عند تحرير الإنسان الأوروبي فحسب! إنما هو تحرير الإنسان في كافة بقاع الأرض، وإن هذا الأمر لمّا يحدث بعد، وإن كانت تطورات التاريخ تتجه باتجاهه..

إن هذا الطرح ينفعنا عند النظر في التطورات الحاصلة في مجتمعاتنا اليوم، فسواء هي صواب أم خطأ، إلا أنه بات لدينا نحن الشعوب تساؤلات عن مدى حريتنا وإرادتنا بمقابل إرادة السلطة، فلدينا وعي إنساني متزايد بحرية الإنسان، والمجتمعات العربية في ثورات "الربيع العربي" عبرت عن هذه الإرادة ، وإذا أردنا أن نراه في صور أصغر فإننا سنراه في نقاشات أبنائنا لنا، فنحن كجيل كنا نسلم سابقاً لمن يكبرنا في السن، أما اليوم فالطفل الصغير يقول لك (أقنعني)، (هذا ليس رأيي).. وإن حرية الإرادة تتحقق بجوانب عدة، فالكلام عن أن التاريخ يتجه لتحرير إرادة الإنسان له مصاديقه في الواقع العملي، والبشرية تتجه في هذا الاتجاه العام إنما لم يتحقق بعد..

آلية التحوّل عن طريق الأفكار:

يرى هيجل أن عملية التحول في التاريخ تتم بصراع الأفكار؛ فتبرز فكرة كالدكتاتورية تصارعها فكرة أخرى كالحرية، ويستمر الصراع بين الفكرتين إلى أن يتفق الناس على منطقة وسطى بين الفكرتين فيها شيء من التنازل عن الحريات وشيء تثبت فيه الحريات.. فينشأ من منطقة الوسط هذه نظام أو تصور أو فكرة.. وبعد حين من الزمن يكتشف الناس أن النظام القائم فيه مشكلة ما، فتخرج فكرة اجتماعية ثانية تصارع الفكرة الأولى الموجودة ليحدث التدافع مجدداً بين الفكرتين، ثم ليتبعه ائتلاف بين الفكرتين ليتم العمل على شيء مركب منهما.. ومن هذا المركب ستنتج لدينا أيضاً فكرة ناقصة ما دامت بشرية، وسيأتي من يطرح فكرة بديلة ليحاول أن يعدّل الفكرة التي كانت معدلة من الفكرة التي قبلها، التي بدورها كانت معدلة من فكرة أخرى وهكذا.. إذاً باستمرار هناك صراع نقائض؛ فالفكرة ونقيض الفكرة يأتي بالمولّد، والمولّد يأتي بنقيضه.. فهيجل يرى أن حركة التحول التاريخي بشكل عام تحدث نتيجة هذا الصراع في عالم الأفكار، فإذا جرّدنا هذا التدافع من حركة البشر واقتتالهم وإطلاقهم الرصاص، سنجد بوضوح الإرادات الفكرية الكبرى التي تتصارع لإنتاج مجتمع جديد، وإننا في كل مجتمع نحتاج إلى أن نلحظ الأفكار المتصارعة في لحظة تاريخية معينة، وكيف ستنتج الحل الجديد الذي سيُعَبّر عن اندماج الفكرتين بدرجة معينة، وكيف ستولد فكرة نقيضة للفكرة الأولى نتيجة النواقص فيها، ليستمر الجدل التاريخي..

وإن تلك الفلسفات هي من الأمور التي نحتاج إلى أن نضعها في سلتنا المعرفية حينما ننظر للعالم باعتبارها وجه من أوجه تفسير الحقيقة، وإن التطرّق لفكر هيجل سيغذي سيرنا بفوائد كبيرة، ليبقى السؤال: كيف يمكننا أن نستوعب هذه القضية داخل أفكارنا وتصوراتنا؟ وكيف يمكن أن نستبق الأحداث ونستقطب الإنسان إلى نهاية وعيه كإنسان متحقق مختار متفكر في أفكاره وفي المناهج التي تلقّاها لحريته، دون أن يكلّفنا ذلك عناء الدماء والأرواح والآلام؟ فهذه قضية كل المجتمعات، والفارق الذي يتميّز به مجتمع عن آخر.

وننوه بأنه مقابل اتجاه هيجل الذي هو اتجاه تصاعدي نحو الأعلى، حيث إن نظرية هيجل من النظريات الصاعدة، هناك أيضاً اتجاهات أخرى تنازلية، تتجه نحو الأسفل؛ فترى أن الإنسان في انحطاط مستمر إلى انتهاء الزمان.

ثانياً- عبد الرحمن بن خلدون



حينما ننظر اليوم لما قدمه "ابن خلدون"، نجد قامة سامقة سابقة لعصرها، فنحن نتكلم عن نتاج في القرن الخامس عشر، أي عن فترة سابقة لظهور العلوم البشرية، ففي فترة مبكرة من الوعي في التاريخ سيكتشف "ابن خلدون" قضايا هامة؛ قسم منها متعلق بـ(المنهج)، وقسم متعلق بـ(المُنتَج).

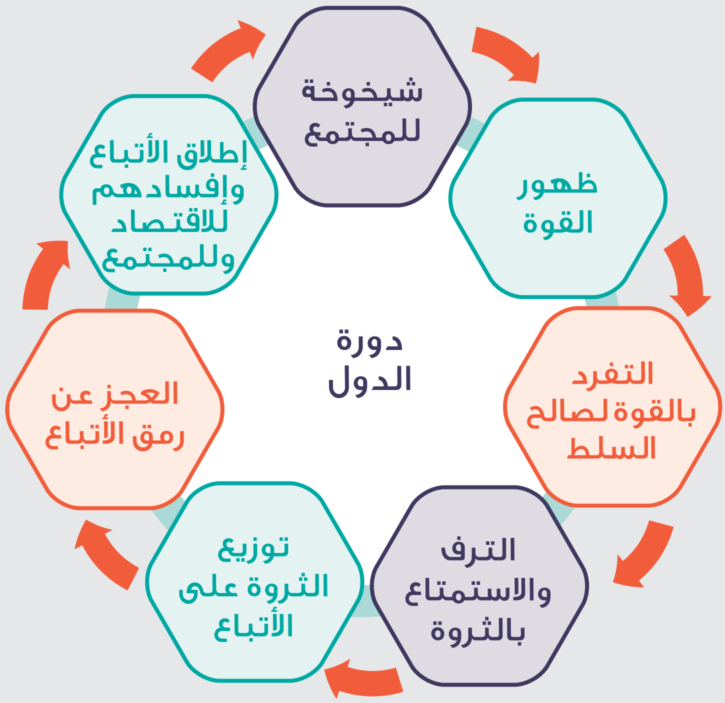
نظرية ابن خلدون

رصد ابن خلدون في المجتمعات التي يتم غزوها تفشّي ظاهرة العصبة والعصبية، فالفئة التي تغزو المدن وتصل إلى السلطة في الغالب إما أن يكون أهلها من القرى أو

من البداوة أو من الأرياف أو الجبال.. وأهل تلك المناطق يكون بينهم عناصر التحام من النسب أو من الدين فيشكّلون بلحمتهم قوة تغزو المدينة، فدور البادية والعصبية سيصبح جزءاً من أطروحة ابن خلدون.

شخّص ابن خلدون ظاهرة ثانية لها علاقة بالفترة التي تُغزى بها هذه المجتمعات، فلاحظ أن الفترة التي تُغزى فيها تكون بقمة الضعف والتفكك من الداخل، فلم يحدث أن غُزِيت تلك المجتمعات في لحظة قوتها، وانطلاقاً من تلك الظواهر التي لحظها قرر دراسة الغازين الجدد واعتبرهم نموذجاً يدرس من خلاله الدورة الحضارية للدول..

وجد ابن خلدون أن دورة هذه المجتمعات تبدأ من كونهم قبائل كبيرة تغزو مجتمعاً ما بتكاتف وقوة، تجمعهم لحمة الدم وقرابة النسب أو المصاهرة، فبالتالي هم متساوون بالقوة والرتبة.. فيتقدمون لسيادة المنطقة التي قاموا بغزوها، ويُنتَخب منهم شخص واحد كزعيم لهم، وحينما يصبح هناك حاكم ومحكومون ستظهر معادلة السلطة الحقيقية، فالذي بيده الحكم والأمر لن يطيق رؤية أناس حوله مساوين له في المنزلة والمكانة، فسيبدأ بعزلهم والاستغناء عنهم شيئاً فشيئاً مقابل أناس محترفين يأتي بهم بمرتّبات ووظائف، وستصبح الفئة المعزولة في المجتمع هي فئة الأثرياء والتجار.. مقابل بطانة جديدة تتشكل حول الحاكم، وقوة عسكرية جديدة من المحترفين اللذين تُدفع لهم المرتبات، فتعيش هذه الفئة على تمويل الدولة.. ويبدأ الاستبداد بالملك من قبل الملك، وهذا الاستبداد الأولي يخلق في البداية دولة قوية لأن فيها رأياً واحداً، وجيشاً واحداً، وسلطة واحدة.. ثم تتوسع الدولة وتتغذّى على ثروات مناطق أخرى، فحينها ستكثر الأموال ، وتبدأ حالة الارتخاء، ومن ثم تظهر عوامل الضعف، ويزداد لدى الحاشية وقادة الجند الطمع والشره وعمليات النهب. والصراع على الأموال، ويصلون لمرحلة تعجز فيها الدولة عن سداد المال لهم بمقابل خدماتهم، فعندها إما أن تفتح لهم موارد جديدة، أو تسمح بأن يمدوا أيديهم للسوق التجارية في البلاد سواء في شكل مقاولات أو في شكل أعطيات أو هدايا، أو بشكل تدخّل في العملة.. فيقتحمون السوق التجارية العامرة ويفسدون شأنها، ويعتدون على حرمات الناس وحقوقهم فيفسد نظام العدالة في المجتمع، فتصبح هنا النخبة الأولى هي النخبة المرتخية والمتنعمة، والنخبة الثانية هي نخبة لا تشبع من النهب والسرقة.. وعندها يكون المجتمع قد أصبح ناضجاً لتأتي



قوة جديدة بذات مواصفات القوة السابقة لتسقِطها ولتصبح هي القوة الجديدة.. فتبدأ دورة الدول ابتداء من مرحلة القوة الغازية، إلى مرحلة القوة المطلقة المتفرّدة وحدها بالسلطة، إلى مرحلة الرخاء والاستمتاع بالثروة، إلى مرحلة توزيع الثروة على الأتباع، إلى مرحلة العجز عن تمويل الأتباع، إلى مرحلة إطلاق يد الأتباع وإفسادهم في السوق وفي المجتمع، إلى مرحلة صيرورة المجتمع إلى مرحلته الأخيرة مرحلة الشيخوخة، ثم لتأتي قوة ثانية وتنقض عليه..

إذاً رسم ابن خلدون مساراً دورياً حتمياً للدول، فرأى أنه في كل ثلاثين عام ستحدث الدورة نفسها، التي تمتد على مدار جيل كامل، ومن ثم تؤول للأفول وتبدأ دورة دولة ثانية وهكذا.. وإنه بانتباه أهل البلد لمثل هذا المسار سيستطيعون تقليل الجرف الحادث مع هذا المسار وضبطه..

آفة التعامل مع فكر ابن خلدون في مجتمعاتنا:

وبالنظر لما يكتب عن ابن خلدون عندنا، نجد أن الكلام غالباً يتناول المنتج فقط، ونقصد بالمنتج؛ ما يتعلق بقيام الدولة صعوداً وهبوطاً، وإن الاستعانة بهذا الجانب من قبلنا فيه

مشكلة كبيرة، تكمن باعتبارنا أن الدولة المعاصرة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية هي ذاتها الدولة القديمة الملكية، وتنطبق عليها القوانين والأفكار والتصورات التي تكلم عنها ابن خلدون في القرن الخامس عشر! فوجود هذا الاعتبار لدينا هو أمر يحتاج للتوقف، ويفضي إلى أننا لم نغادر القرن الخامس عشر بعد! ففي إطار القرن الخامس عشر كانت الدولة صغيرة أو متوسطة الحجم، وكانت دورتها تتم بطريقة محددة لا ديمومة لها، فقد تسقط في ثلاثين سنة وتمضي، والفئة التي تأتي إلى السلطة وتنتزعها بالقوة كانت تستمد قوتها غالباً من رابط الدم أو الدين، فيتغلبون على الآخرين نتيجة التماسك بينهم، فلم يدرك ابن خلدون عصر "الهويات المصنّعة"، أي حينما تجتمع المجموعة المتماسكة دون رابطة الدين أو الدم، ولم يدرك العصر الذي لم يعد لأهل البوادي قدرة لغزو المدن مهما ضعفت، فالدولة المعاصرة اليوم هي دولة مختلفة تماماً عن فترة ابن خلدون، فيسود في عصرنا الحاضر نظام دولي يتضمن كثير من المؤسسات، كما أنه حينما تحدَّث عن علم الاقتصاد تحدث عن نمط اقتصادي تبادلي، في حين أن النمط في عصرنا هو نمط عالمي متصل، إذا سقط قد تسقط وراءه مجتمعات كبرى، فالنظرية التي طرحها ابن خلدون مناسبة لعصره لا لعصرنا! فزيارتنا لابن خلدون لا يجدر أن تعتبر شيئاً سنعتمد عليه في صناعة الحاضر، إنما هي شيء سنستفيد منه في هذا الوعي الجامع للأفكار الكبرى المنيرة في التاريخ..

منهج ابن خلدون:

ويبقى السؤال بعد المعطيات السابقة: (أين الإبداع الذي شاهده "توينبي" في صنيع ابن خلدون إذاً؟!)

الإبداع لدى ابن خلدون كائن في المنهج الذي اتبعه، فابن خلدون لفت أنظارنا إلى قوة الدراسات الاستقرائية على القراءات الاستنباطية؛ حيث إن المستنبِط يأتي بقواعد أساسية ثم يحاول إنزالها على أرض الواقع.. أما المستقرِئ فهو يقرأ الموجود في الواقع ويستنتج منه القوانين، فبدأ ابن خلدون وسنّ سنَّة الاستقراء لتكتشف البشرية هذا المنهج بعده بحوالي ثلاثمئة سنة تقريباً، إلّا أننا نحن المسلمون لم نلتفت إلى المنهج الذي صنعه لولا أن أثنى

"أرنولد توينبي" عليه واعتبره أعظم شخصية أنتجتها البشرية! وذلك لكونه صنع تصوراً سابقاً لعصره في البحوث الاستقرائية، فلولا أن نبهنا "توينبي" لربما كان كتاب ابن اخلدون كواحد من الكتب الموجودة، أو لبقي من المجهولين بالنسبة لنا.

اتبع ابن خلدون منهجاً علمياً فريداً لم يكن لأحد سبق فيه، فبالنظر للكتب التي سبقت ابن خلدون في التاريخ (ابن كثير والطبري وغيرهم..) سنجد أنه لدينا سرد للأحداث فقط أي (حدث كذا في عام كذا..) أو تُساق الآيات والأحاديث ويستشف منها ما يجب أن يحدث.. فكانت الدراسات تكتفي بتدوين الأحداث فقط، دون أن تُبرِز معنى التاريخ أو تلقي الضوء على العبر المستشفّة من الإحداث.. أما ابن خلدون فقد سار بمنهج مختلف، فلم يقم بدوره كمصور للأحداث التي جرت في حقبة ما، بل اختط منهجاً يقوم به بدراسة ظاهرة من الظواهر الواقعية الكبرى، فأخذ عينات من الدول التي قامت وسقطت، واعتمد سؤالاً بحثياً كبيراً، ومن ثم قام بالبحث والسرد والتحليل للأطوار التي مرت بها الدول من مرحلة الضعف ثم القوة، ثم الاضمحلال، فالزوال، ثم توجّه للعوامل التي أدّت إلى هذه الأحداث الدائرية بشكل مستمر، بهدف الوصول للأجابة، مع إدراكه بأنه يشق طريقاً جديداً في البحوث التاريخية والإنسانية، فحدد السؤال البحثي في درجة ممتازة من الدقة كتلك الدقة التي نراها في البحوث العلمية اليوم

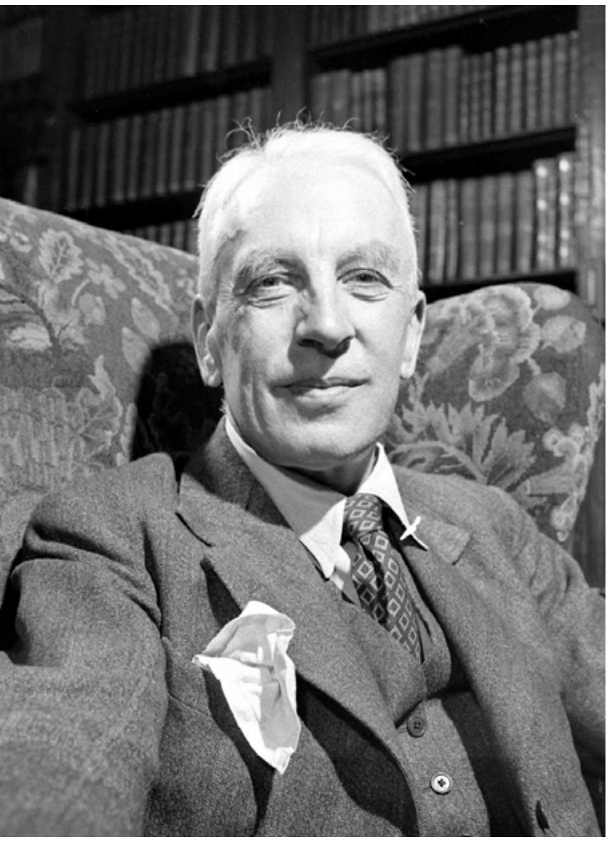
وهذا الانتقال المعرفي هو الذي شكل العصور الحديثة وشكل الفارق عن العصور القديمة، ونحن على الرغم من أننا أقمنا نظاماً مدرسياً، واستقطبنا أشكال النظم الغربية فيه، إلا أننا لم ندرك ولم نخلّق العقلية التي تدرس الواقع وتخرج بالقوانين في كل الجوانب، فما زالت الدراسات تقوم على المنهج الاستنباطي على حساب المنهج الاستقرائي؛ فتفتقر للدراسات الميدانية، بل تأتي بتصوّرات مسبقة وتحاول أن تفرضها على الأحداث الجارية.

ابن خلدون

- المنهج الاستقرائي
- الدورة التاريخية للدول

إننا حينما ننظر لفلسفة التاريخ يجب أن لا نكون أسرى تصور معين، فإن ما أنتجه ابن خلدون وغيره هي تصورات تنفعنا للنظر في التاريخ من زوايا متنوعة، ولكن لا يصحّ أدلجة التاريخ واعتبار مخرجات ابن خلدون مخرجات إسلامية لكونه شخصية مسلمة! فليس منهج ابن خلدون هو المنهج الرئيسي للمسلمين، وليست الخلاصات التي وصل لها هي خلاصات الإسلام، فعلينا أن ننظر لابن خلدون كعالم من العلماء اكتشف منهجاً قابلاً للأخذ به، إلّا أن مستخلصاته يمكن أن تستخلص نتائج أخرى في عالم آخر وفي بيئة أخرى وفي مجتمعات أخرى..

ثالثاً- أرنولد توينبي



هناك مؤرخ كبير جداً اسمه "أرنولد توينبي Arnold Toynbee" وهو من المعجبين والمتأثرين بالعمل المبهر الذي قام به ابن خلدون، إلّا أن توينبي رأى أن ابن خلدون قصر فعله على دراسة قيام وسقوط الدول، فأراد توينبي أن ينتقل خطوة أخرى صرف عليها حوالي أربعين سنة من البحث، وهي دراسة الحضارات الكبرى التي قامت في العالم: كيف قامت، وكيف سقطت..

والفارق بين الدول والحضارات هو أن الحضارات يندرج تحتها عشرات الدول؛ فالحضارة الإسلامية مثلاً يندرج تحتها دول السلاجقة العثمانيين الأيوبيين والزنكيين وغيرهم.. وكذلك الحضارة المسيحية يندرج تحت اسمها العديد من الدول المختلفة التي شكلت مصيرها.

توينبي

- التحدي والاستجابة
- الوسيلة الذهبية
- الثلّة المبدعة
- ضمان الاستمرارية

وفي محاولة "توينبي" الإجابة عن تساؤل كيف تقوم الحضارات وتنشأ؟ وكيف تسقط وتنتهي؟.. قدم لنا مجموعة من القوانين يُنتفع منها في مواقف معينة من التاريخ..

التحدي والاستجابة:

رأى توينبي - كابن خلدون - أن للحضارات فترات طفولة وشباب ونضج وشيخوخة وانحدار وانتهاء.. إلا أن فلسفة توينبي بقيام الحضارات انطلقت من قانون التحدي والاستجابة.

ويُقصَد بهذا القانون أننا حينما ننظر للمجتمعات البشرية الأولى وتشكلها، نجد أن الإنسان مر بصعوبات عدة، فإنسان الكهف الأول وجد نفسه في تحدٍّ مع الحيوانات التي تحيط به، فقادته تجربته إلى صناعة الأسلحة من سهم ورمح ونحوهما، لمواجهة هذه الحيوانات الضارية، فكلما واجهته مشكلة صنع لها حلاً، واستطاع بذلك أن يتقدم خطوة في سلم الحضارة، فارتبط نهوض الأمم بنوعية التحديات التي تواجهها وبمدى قدرتها على تجاوزها.

وإن التحديات التي تصيب الأمم لها مستويات؛ فإما أن يكون التحدي أعلى من درجة تحمّل الأمم ويفوق قدرتها الإبداعية على الحل فتندثر، كحضارات الأنكا والمايا والأولمكس في أميركا الجنوبية. فتلك الأمم سقطت لأنها فشلت في الاستجابة الصحيحة للتحدي الذي اعترضها..

وقد تَحُول التحديات الكبرى دون السماح بإنشاء الحضارات من الأساس، فمثلاً قبائل الأسكيمو في ألاسكا لم يستطيعوا أن ينتجوا حضارة، والسبب في ذلك أن إمكانية انتاجها محدودة، فما إن يُبنى طريق حتى تملؤه الثلوج، فكانت إمكانية التغلب على الطبيعة مستحيلة.

وهناك حضارات لم تنشأ لانعدام التحدي أساساً، كنيوزيلندا مثلاً، فحينما جاءها الأوروبيون وجدو الناس عراة، ليس لديهم أي نوع من الحضارة، لأنه لم يحدث لديهم أي نوع من التحدي؛ فموارد المياه متاحة للجميع، والفواكه والخضروات ممتلئة، وعدد السكان قليل جداً، والحيوانات من كل حدب وصوب.. فالحاجة للإبداع غير موجودة، وما لم توجد تلك الحاجة لن تقوم الحضارة.

الحضارة بحسب "أرنولد توينبي" تنشأ عن مواجهة تحدٍ مناسب، سواء كان تحدٍّ طبيعي أو بشري.. فإذا استفز التحدي طاقات المجتمع ونجح المجتمع بمواجهته؛ تقدّم في سلّم الحضارة. وذلك كمواجهة الزلازل بأبنية مضادة للزلازل، أو مواجهة احتلال بقوة رادعة.

الوسيلة الذهبية:

وهناك أمر آخر لاحظه أرنولد توينبي، فحينما درس الحضارات، وجد أن غالب التحديات ليس لها حلول سريعة، وبالتالي قد تجرب حضارة ما عدة طرق لحل المشكلة، فمن خلال المحاولات المتكررة التي تقوم بها ستصل إلى "الوسيلة الذهبية"، أي إلى الحل النافع، فتتغلب من خلاله على ذلك التحدي. فعلى سبيل المثال لو أن مجموعة من الناس عالقون على جزيرة ما وهم في أمس الحاجة للعبور إلى الطرف المقابل (فهذا التحدّي بالنسبة لهم)، فكانت (استجابتهم) إزاء ذلك التحدّي أن فكّروا بصناعة جسر للعبور، وعند التنفيذ الأولي سقط الجسر وتحطّم وذلك لأن التقنية الموجودة فيه هي تقنية ضعيفة، وفي المحاولة الثانية سيكون الجسر أكثر صموداً ونجاحاً بعد تنضيج المحاولة الأولى، أما في المحاولة الثالثة فقد يكون الجسر في غاية المتانة والامتياز نظراً لتراكم الخبرات واستبعاد الحلول غير المجدية، وهذا مايسمية توينبي (الوسيلة الذهبية)، فأصبحوا يستطيعون العبور إلى الجهة المقابلة في زمن قصير وبأعداد كبيرة جداً.

ولنا في الرسول محمد عليه الصلاه والسلام خير مثال، فحينما أراد بث الإسلام بدأ في مكة داعياً عِلْيَةَ القوم، وظل يدعوهم عشر سنوات ولم يستجيبوا له، فوجّه طاقته إلى القبائل العربية. ويقال إنّه قد مرّ على أكثر من أربع عشرة قبيلة عربية يطلب منهم النصرة، وجلّهم

قد رفضوا أو اشترطوا عليه شروطاً لم يقبلها، وحينما أراد العودة إلى مكة، وجد فيها خمسة قادمين من المدينة المنورة فكلمهم وبايعوه، وحينها حاول بطريقة أخرى وهي أن يبعث إليهم مصعب بن عمير، فوافقوا وانحلّت العقدة. فوُجِدَت الأرض التي بنى عليها الكيان السياسي وحقق بها التمكين.. فحتى الرسل والأنبياء يدخلون - بإرادة الله - في استعصاءات الفعل البشري العادي حتى يكونوا قدوة لغيرهم.

ونحن المسلمون اليوم في مأزق تاريخي كبير، وأمامنا معضلات قوية من استعمار، واستبداد، وتخلف داخلي، وافتقار للتقنية وللتكنولوجيا، ومن احترابات داخلية بين المجموعات السكانية.. وبالتالي أمامنا مشروع كبير جداً في حل هذه الإشكاليات، ولا يعني إذا فشلنا مرة أو مرتين أو ثلاثة.. أن نعتبر أن الموضوع انتهى، وأن صعودنا في سلم الحضارة قد توقّف، فإن الباب لن يغلق طالما نحن مستمرّون في محاولة إيجاد الحلول، فإذا كنا نسعى ولم نيأس فنحن في الطريق الصحيح، وسنجد يوماً المفتاح الذهبي الذي سيفتح هذه العقدة الموجودة أمامنا، وسيطلقنا في فضاء التقدم مرة أخرى كما نتمنى..

من قانوني توينبي نستشف أمرين

الأمر الأول:
أن التحديات التي لدينا قد قابلتها أمم أخرى ونجحت بها، فهي ممكنة الحل.

والأمر الثاني:
أنه علينا أن نجرب طرقاً متعددة للوصول إلى الحل، وأن لانقدّس طريقة واحدة ونستمر بها، فقد يكون الحل في طريقة أخرى.

قانون القلة المبدعة:

يلاحظ أرنولد توينبي قضية ثالثة هو أنه باستمرار داخل الحضارة، سواء في فترة بداياتها أو نموها أو تطورها أو حتى في انهيارها، توجد بداخلها قلة مبدعة هي التي صنعت الأفكار التي أوصلت تلك الحضارة، حيث إن جموع الناس في الغالب ليسوا مبدعين أو حاملي أفكار ورؤى.. بل إن معظمهم يعيش حياة خالية من الأحلام ومن المشاريع الكبرى، وثلة قليلة من

الناس يهتمون بالشأن العام وبالتقدم الكلي للمجتمع.. وهي الثلة التي ستصل إلى السلطة وستتحكم بالبيئة مستمدّة قوتها من دعم الجماهير لها، إلا أن هذه الفئة وبعد مرور فترة من الزمن، ومع سباق الحضارات الأخرى، ستكون بحاجة إلى التجديد لتستمر في حالة السبق أمام الأمم الأخرى، وإلا فإنها بعد حين من الزمن ستفقد روح الإبداع، وستعتمد على تطور النظام الذاتي والأدوات التي خلَقتها في البداية، وهنا تأتي قضية ثانية، بأن المجتمع سيظهر في داخله ثلة مبدعة أخرى لديها حلول ولكنها ليست في السلطة، وحينما ستبدأ بطرح أفكارها سيكون أمامها طريقان؛ إما أن تُقمع من قبل الثلة الأولى، وإما أن تُفتَح لها الأبواب فيتم استيعابها وتستثمر طاقاتها ويُفتح أفق جديد بها، وهذه القلة هي كالعملة النادرة، فإذا قمعت فعلى الغالب سيتراجع المجتمع، ككثير من الدول التي نجحت بفترة ثم بدأت بالتراجع في فترات أخرى، أما إذا انحاز لها المجتمع ودعمها أو استوعبت السلطة عملية التقدم كما هو الحال في كثير من المجتمعات، فحينها سيواصل المجتمع تقدمه. وهذه الفئة الجديدة على الغالب ستُواجَه أفكارها بالقمع والاستبداد والرفض، وطبقات المجتمع ستفضل أن تستمر على ما كانت عليه، حتى لو كان المجتمع يسير في خط انهيار! وأيضاً قد تنحسر مبادرة القلة أمام اعتقادهم أن الطرقات ستفتح لهم يوماً ما لوحدها وهذا غير صحيح! فإن السوق ليست فارغة بل، هي مليئة بمن يعتقدون أنهم مبدعون، بل إنهم هم الذين أسسوا الإبداع الأساسي، فمن أين لهم أن يسمحوا بمرور الروح الجديدة؟!

> إن مصير المجتمع مرهون لدى توينبي بمدى تقبله للإبداع الذي ستطلقة القلة الجديدة، فنهاية الحضارات لديه حينما تعجز الفئة الجديدة المبدعة من اكتساب الجماهير التي تسمح لها أن تمارس دورها..

إن مشهد الاحتراب بين الثلة المبدعة القديمة والثلة الجديدة نشهده من حولنا في كافة المجتمعات، فحتى الدول الأوروبية نشهد فيها الصراع بين الفئات الشبابية والفئات التي شكلت المجتمع الأول، والفارق أنه في المجتمعات الحية يتعاملون مع هذه النزاعات بطرق تسمح بتقدم المجتمع، في حين أن مجتمعات أخرى تقودها الصراعات إلى انهيارات كبرى، وصراعات دموية تبدأ ولا يُعلم متى وأين تنتهي!.. فتدور الدورة وتتحول الفئة الأولى التي أنشأت المجتمع إلى فئة قاهرة وقامعة، ويستمر المجتمع في الانهيار إلى أن تنتهي الحضارة ويأفُل نجمها.

تنضير الحضارات وضمان استمراريتها:

يعرض توينبي هذه المعلومات ليقول للإنسان المشترِك في الفعل الحضاري إن المطلوب منه ليس محصوراً بمراقبة الخصوم المعادين لتلك الحضارة، بل إنه - كفاعل حضاري - جزء من معادلة صيرورة أسقطت الحضارات الأخرى، وإن حضارته الحالية إذا لم تجد طريقاً لفتح باب الأفق أمام الفئات المبدعة لتعبّر وتقدم إبداعها فإنها لن تستمر.. وإن الحضارة الأوروبية حينما فقِهَت قانون الدورة الحضارية بشكل جيد.. ولَّدَت فكرة "احضتان الإبداع"، واعتمدت في بنيتها على ما تعتقد أنه سيمنع عنها الانهيارات الكبرى؛ ففعَّلت في مجتمعها محركات النقد، وقبلت فكرة البُنى المختلفة عن المجتمع، ووفرت لهم ضمانات الحماية القانونية لتتمكن الفئة المبدعة من أن تعبّر عن نفسها وأن تحمي أفكارها وإبداعاتها وتصوراتها، وفسح المجال أمامها لطرح أشياء مختلفة عمّا يقوله المجتمع، فالمجتمع بحاجة للمرايا الجانبية لمشاهدة النقاط العمياء، وحماية الإبداع هنا قضية في غاية الأهمية.. فحتى وإن افتقر المجتمع للحجاج المناسب فإن لهذه الفئة المبدعة وفق الآليات السابقة أن تأخذ المكان والدور المناسب وتدفع بحضارة المجتمع مرة أخرى للأمام.. وهذا ماسمح لأشخاص مثل "تشومسكي" و"هابرماس" ومفكرين أُخر بنقد الحضارة الغربية.

رابعاً- مالك بن نبي ومشروع النهضة:

قدم لنا "مالك بن نبي" منظومات في غاية الأهمية، وسنذكر هنا أهم المنظومات التي يمكن أن تنفعنا في السياق الذي نتكلم فيه..



الحاجة للفكرة الناظمة:



يرى مالك بن نبي أن مكونات الحضارة الأساسية هي الإنسان والتراب والوقت، فلا يوجد مجتمع إلا وفيه إنسان وموارد، والمقصود بالتراب مجموع الموارد المتوفرة للمجتمع في لحظة انطلاقه، أما الوقت فالساعات الأربع وعشرون تمر يومياً على جميع الأمم، فالإنسان والتراب والوقت هي قضايا متوفرة في جميع البيئات، إنما قيام الحضارة لا يمكن حدوثه دون وجود "الفكرة الناظمة" التي تعطي للإنسان أمرين هامين جداً؛ هما الروح والمعنى للحركة، ومنهما تخلق الدافعية لدى الانسان للفعل، ويخلق معنى الفعل الذي سيبذل الإنسان من أجله الغالي والرخيص.. فإن ما نحتاجه اليوم هو الفكرة الناظمة التي تقود تحركاتنا لصنع الحضارة.

إذا أُضيفت الفكرة الناظمة التي تبعث الروح وتجعل للعمل معنى.. للتراب والوقت والإنسان عندها تكون الحضارة على مشارف البزوغ.

فالجزائر ومصر والعراق وغيرها من البلدان.. جميعها فيها إنسان وتراب ووقت، ولكن الفكرة الناظمة التي تحوّل هذه الأشياء إلى مركب حضاري هي الأساس، فلولا أفكار "مهاتير محمد" في ماليزيا لكانت ماليزيا الآن تتطاحن عرقياً ومذهبياً وطائفياً كحال الدول العربية وكثير من المناطق الأخرى.

عوالم الإنسان (الأفكار- العلاقات- المشاريع):

يقر "ابن نبي" بأن الإنسان يعيش وفق ثلاثة عوالم: عالم الأفكار، وعالم العلاقات، وعالم الأشياء (المشاريع)، ومن أجل إطلاق الإنسان والمجتمع للفعل الحضاري علينا أن نتفحّص

تغييرات هذه العوالم، فإن الإنسان إذا ماحدثت تحوّلات في عوالمه الثلاثة فإنه سيستخدم الإنسان والتراب والوقت بطريقة أكثر كفاءة..

وقد نشأ نزاع كبير جداً عبر التاريخ حول هذه العوالم، وأيها الأقوى والأجدر بالاهتمام، فهل الأجدر هو عالم الأفكار، أم أن الأنفع أن نتجه للجوانب العملية؟! وهذا مفاد النِزاع الذي جرى بين هيجل وبين ماركس وهو نزاع فلسفي كبير جداً، فماركس كان يرى أن السيطرة على الموارد المادية والتغيرات الاقتصادية هي التي تُحدِث التحولات الاجتماعية، بينما يرى هيجل تطور الإنسان بفكره وضميره ووعيه هو الذي سيخلق العالم الجديد، وبالتالي فإن مساحة العمل مختلفة بينهما؛ فماركس يصارع في الواقع بين العمال، وهيجل يصارع في عالم الأفكار لإنتاج الإنسان الأمثل..

حاول مالك بن نبي أن يمسك العصا من الوسط محاولاً أن يوجد الإجابة، ولرؤية أفضل:

- قلّص المعادلة على طرفين، فاعتبر أن عالم العلاقات هو عالم وسيط بين كِلا العالمين؛ فإذا غيَّر شخصٌ ما أفكاره وأراد الانتقال من مجال التعليم مثلاً إلى عالم التصوير السينمائي، فإن عالم العلاقات سيتغير تبعاً له بشكل تلقائي، وسيبحث عن مخرجين وسينمائيين، وأيضاً الإنتاج سيتغير، فالعوالم جميعها مرتبطة ببعضها، فقام بتنحية عالم العلاقات وأبقى عالم الأفكار وعالم المادة.

- أعاد طرح السؤال بطريقة أكثر إنتاجية، فجعله "أيهما أقوى عالم الأفكار أم عالم الأشياء؟"، لأن الحضارات بحاجة لكلا العالمين، ولكن هناك عالم أقوى من عالم.

ومن أجل الإجابة ضرب مثالاً الشعب الألماني الذي يتمتع بتطور في كِلا العالمين: الأفكار والمشاريع، واختار بمقابله شعباً من أواسط إفريقيا يعاني من ضمور في كِلا العالمين، وافترض أنه بعد أن يتم إفراغ ألمانيا من سكانها تماماً سيقوم سكان إفريقيا بالعيش فيها فينتشرون في مصانعها وشوارعها ومكتباتها، وبالمقابل سيفترض أن الألمان سيحلّون في ذات المكان الذي خرج منه الأفريقيون.. فابن نبي بافتراضه هذا قد نقل أناساً لا يمتلكون أفكاراً حية إلى بيئة متقدمة جداً من ناحية المادة، ونقل أناساً يمتلكون أفكاراً حية كبرى من بيئتهم إلى بيئة بدائية جداً في الموارد والمعطيات، وافترض أنهم مكثوا خمسة عشر سنة. فإذا كان عالم الأفكار هو الأقوى

فالألمان سيحوّلون إفريقيا إلى عالم جديد، أما إذا كان عالم المادة هو الأقوى فسيرتفع مستوى الثلة القادمة من إفريقيا إلى مستوى أعلى مما كانت عليه، والحقيقة أننا سنجد أن الألمان قد قاموا بما يحملون من أفكار بتغيير الواقع، بينما الأفارقة لن يستطيعوا أن يرتقوا إلى مستوى المادة الموجودة.. ومن هذه النتيجة وصل "ابن نبي" لاعتقاد أن عالم الأفكار هو العالم الأقوى الذي يمكنه أن يصنع عالم العلاقات وعالم المشاريع، وهي الإجابة التي حل بها ابن نبي المعضلة الموجودة في الفلسفه بين هيجل وماركس، وهذا لا يلغي أثر العوالم الثانية على عالم الأفكار.

وإن البلاد العربية على الصعيد المادي قد استُجلِب إليها بزمن من الأزمنة أحدث ما في العالم؛ فأُنشئت الجامعات في مصر على غرار الجامعات الغربية، وتم إنشاء المصانع، وتطوّر التعليم، وأصبحت الشوارع آنذاك أجمل من شوارع باريس، والحال ذاته اليوم بالنسبة لدول الخليج؛ فقد تم استجلاب الشكل الخارجي للحضارة.. إلا أننا لم ندخل في السباق العالمي الحضاري؛ لأن عالم الأفكار التأسيسي للعلاقات وللمشاريع لاينضج ويتطور بهذه الكيفية.. فبهذه الكيفية أصبحنا شعوباً أكثر استهلاكية ولم نصعد في سلم الحضارة شيئاً، فإنسان البلدان المعتنية بالمظهر الحضاري فقط لن يعيش مكتفياً بموارد بيئته راكباً الجمال، مستعملاً الآلات اليدوية البسيطة، فسيشتري الأجهزة ويركب السيارات مستهلكاً بشكل أساسي ما صنّعته الحضارات المتقدمة، دون أن يفكّر بتطوير ما أخذه أو تصنيع مايسد احتياجه، وبالتالي تبقى مجتمعاتنا استهلاكية لما تنتجه الحضارات، دون أن تدخل في التنافسية مع المجتمعات المتقدمة مالم تُحدِث تغيراً بعالم أفكار الأفراد فيها..

فمن هنا تأتي أيضاً قضية التخلف حتى في دائرة الصراع؛ فتعداد سكان إسرائيل خمسة ملايين نسمة، أما نحن العرب فتعدادنا حوالي ثلاثمئة أو أربعمئة مليون عربي، وحوالي مليار ومئتي مسلم، ولكن عالم الأفكار التي نحملها لا يوازي الموجود في هذه الدويلة، وهذه أيضاً من القضايا الهامة التي يجب أن نحملها معنا، فإننا إذا لم نصلح عالم الأفكار لدينا فإن عالمي العلاقات والمشاريع لن يصلحا.

الأفكار الحية والأفكار الميتة:

يقودنا مالك بن نبي خطوة ثانية للأمام في التفكير، فيشخص عالم الأفكار، ويرى أنه ينقسم إلى: أفكار حية، وأفكار ميتة، وأفكار مميتة.

- **فالأفكار الحية:** كفكرة النهضة والتقدم، وكاستحضار فكر الإنسان واستحداث عقله بدل تلقينه.
- **أما الأفكار الميتة:** فهي قضايا مضت كصراعات المعتزلة مع الأشاعرة (قضايا الأسماء والصفات)، فهي قضايا ماتت في زمنها ولم يعد لها تأثير في عصرنا.
- **وأما الأفكار المميتة:** فمثالها القبلية والطائفية، فهي أفكار مميتة إذا دخلت للمجتمعات قتلتها.

وإن المجتمعات المتخلّفة تكثر فيها الأفكار الميتة والمميتة، فيعاد مرة ثانية تدويرها، أما الأفكار الحية فتستبعد من الساحة، وهذه القضية يجدر بنا استحضارها لنميّز أفكارنا ونعرف إلى أي صنف تنتمي.

ميلاد إنسان الانتظار:

رأى مالك بن نبي أن الأفكار الميتة والمميتة تنقلنا لميلاد إنسان الانتظار:

• إنسان الانتظار الأول

وهذه المسألة أخطر من سابقتيها، وهي ناتجة عنهما.. يقول ابن نبي إن حضارة المسلمين حينما قامت كانت كبقية الحضارات، حيث إن المسلمين اندفعوا لإنجاز عالمهم بذاتهم، ولم يترقبوا الكشوف والمعجزات.. بل نشطوا وتحركوا وجاهدوا، ففتحوا العالم، وضحوا بدمائهم وأرواحهم من أجل هذا الامتداد العسكري، وكذلك حينما طلبوا العلم سافروا وساحوا في الأرض، وترجموا مدونات العلوم التي أنتجتها الأمم الأخرى، وقرؤوها ونخلوها وأعادوا فتحها والبحث فيها، وحينما واجهتهم الإشكاليات حاولوا حلّها بجهودهم الذاتية، ولكن مع مرور السنوات وتبدّل الظروف تحوّل هذا الإنسان.. ومع أن دراسة ابن نبي كانت على مساحة الموحدين في المغرب، إلّا أن دراسته يمكن أن تنطبق على مساحات واسعة اليوم، فظاهرة الانتظار التي يصفها موجودة في كل المجتمعات الفقيرة للأفكار الحية، فإنسان ما بعد الحضارة بنظر ابن نبي يعتقد أنه لا يتوجب عليه الإنجاز في حياته، وأن هناك معجزات ستقوم بهذا الأمر، وأنّ هذه المعجزات لا يحتاج من أجل ظهورها أن يتعلم ويبذل الجهد، بل

هناك علم لدني، وأن اجتهاده التعبدي سيكفيه عن كل السعي، فلماذا يتعب نفسه في مكابدة الكتب والبحث والنظر {واتقوا الله ويعلمكم الله}؟ فنشأت بيئة لنوع من التصوف الانسحابي من الحياة، وانتشر لمساحات واسعة، فبعض الناس ليسوا من المتصوفة، ولكنهم يرددون ذات الكلمات والمعاني التي تجعل الإنسان عاجزاً عن الفعل في هذا الوجود، وسنسمع عبارات تُجَرّد من سياقاتها لتخدم القعود، وتعزز الانتظار، مثل مقولة: (اجري جري الوحوش غير رزقك لن تحوش)، التي تضرب مقصداً سامياً، وتنسف آيات وأحاديث كثيرة تدعوه لبذل قصارى الجهد في العمل، وتم توظيفها بالاتجاه المعاكس، فتولدت فكرة السبحة، وفكرة الكرامات، والعابد الذي يطير في الهواء أو يمشي على الماء ويغوص تحت التراب، ويرى الأشياء عن بعد ويتكلم معها بمجرد أنه يمارس طقوساً معينة! فإن منظومة هذا التفكير بنظر ابن نبي قد ورثناها مع طول الأمد من دون أن نستشعر، فاستشرى في العقل العام فكرة الانتظار التي نلحظها في كل منحنى تاريخي، فمع كل أزمة يتردد اقتراب ظهور المهدي، أو يُتَكَلّم بالمعجزات الغيبية التي قاربت على الظهور! فإذا ما فتحنا النت سنجد عشرات المهديين موزعين على العالم! في حين أن هناك أمم ثانية لديها أفكار مشابهة عن "الإنسان المخلِّص" إلا أنهم لايعولون عليه، بل صنعوا الكومبيوترات والطائرات.. فإنسانهم الذي اشتاق لأحدهم لن يفكر أن يطير إليه في الهواء بل صنع محرك الطائرة! ومن أراد منهم أن يتصل بأهله وأحبابه صنع الهاتف الذي مكّنه من ذلك ولم يبقَ مع همّه للانتظار، فعلى الرغم من أن لديه بُعداً ثانياً غيبياً إلا أنه لم يعول عليه في صناعة توقعاته.

● إنسان الانتظار الثاني:

مع بروز الحضارة الغربية يرى مالك بن نبي أنه كان من المفترض أن تخلق بنا الحضارة الغربية الفاعلية للتقدم، إلا أنه باحتفاظنا بعالم الأفكار ذاته بدأنا نسبح في عالم انتظار آخر! فسمى إنسان الانتظار الأول بعد ظهور الحضارة الغربية إنسان الانتظار الثاني، وهو المتمثل بالإنسان المعاصر عندنا، وهو شخص يعتقد أن الحل السياسي هو الذي سيحدث النهضة، فاستبدل السبحة بورقة الانتخابات، وحل العقدة بنواب يمثلونه في البرلمان، وعلى رأس كل أربع سنوات يذهب لصندوق الاقتراع ويعاقب النائب الذي لم يفعل له هذه الأشياء، ومن ثم ينتظر أربع سنوات أخرى ليعاقب النائب الآخر الذي بعده حتى لا ينتخبه، فبدَّل مكان الانتظار

من زاوية المسجد بسبحته إلى هذه الورقة الانتخابية التي يجلس معها في المقاهي.. فيلعن الظلام دون أن يشعل شمعة! فهو لن ينظف شارعه، ولن يبني مدرسة تعلّم أبناءه، ولن ينظِّف المسجد الذي يذهب إليه، ولا الحارة التي يسكنها، فقد يرى القمامة المرمية، وأولاد الفقراء يسيحون في الشوارع.. إلّا أنه لا يصنع شيئاً لبيئته بل هو باستمرار ينتظر غيره ليفعل!

إن مالك بن نبي رحمه الله قد تركنا مع هذه المنظومات والمواقف الفكرية.. وعلينا بدورنا أن نستكمل هذه الرحلة ونرى كيف يمكن لهذه الأفكار أن تتركب وتطبق على أرض الواقع، وكيف يمكن أن ننقلها لفضاء جديد من خلال الحديث عن مشروع النهضة الذي نشتغل عليه.

خامساً- مالك بن نبي ومشروع النهضة الذي نطرحه

تحدثنا في الفقرات السابقة عن فلسفة التاريخ، وأنهينا الكلام مع مالك بن نبي رحمه الله، وسنبدأ الفقرات التالية من "مالك بن نبي" لنتحدث عن علاقته وعلاقة الفلسفات التاريخية الأخرى بمشروعنا "مشروع النهضة". وإنه خيط يمكن مدّه للخلف ليبدأ من جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وخير الدين التونسي، لنلاحظ التراكمية الحادثة بدقّة في هذا الموضوع.. ولكننا سنبدأ من مالك بن نبي نظراً لأهمية تشخيصه في الحلول التي سنصل إليها.

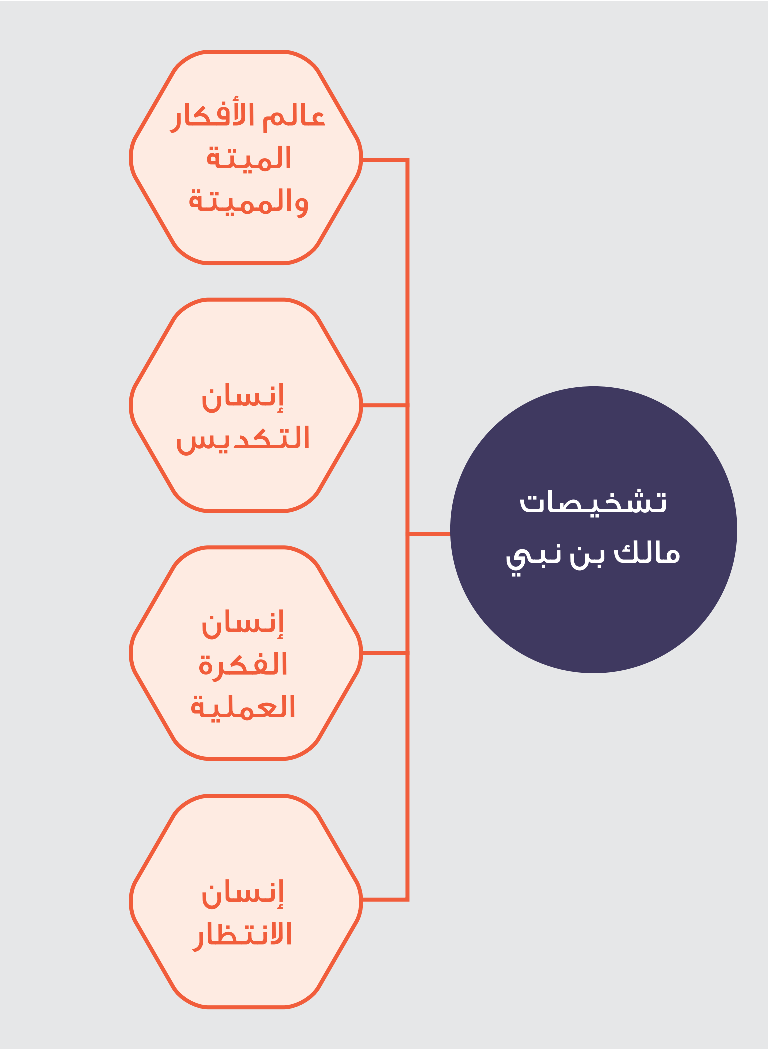
وإن الطرح هنا سيفدينا في وضع صورة مترابطة لما نقوم به في مشروع النهضة بضوء ما قام به مالك بن نبي رحمه الله، وامتداداً أيضاً لما قام بها أرنولد توينبي ومن سبقه..

وقفة مع تشخيص "مالك بن نبي"

كان دور "مالك بن نبي" كدور الجرّاح؛ فقد قام بتشخيص عام لجسم الأزمة الحضارية، وصاغ لنا مصطلحات وظّفها تعبيراً عن المشكلات التي لحظها.

قامت فرضيته الرئيسية بعد التشخيص على أن الحياة الإسلامية بعد معركة "صفّين" اختلّت فيها المبادئ التأسيسية الكبرى التي تحملها، فصفّين نقطة فاصلة بدأت الحياة الإسلامية

بعدها بالتدهور، فعالم "الأفكار الميتة والمميتة" سينتشر في الأمة، ومنه فكرة الجبر بمعنى (الإنسان مسير وليس مخيّراً)، واعتقاد تغيير الواقع بالفعل الإعجازي والكرامات، لا بفعل البذل الإنساني.. فأمثال هذه الأفكار الميّتة والمميتة أوصلت الإنسان المسلم لإنسان مستسلم لظروفه السياسية والاقتصادية، لايعتقد بخصائص المادة وأسرارها، فالأمور جميعها حاصلة لديه بأقدار الله وليس له فيها دور، ويسهِب مالك بن نبي حديثه عن أفكار كبرى انتشرت في الفضاء الإسلامي وقادت للاستعمار.



ومن تشخيصاته الهامة أيضاً

كما أسلفنا نشوء "إنسان الانتظار"، وهو الإنسان المتحوّل من ساحة الفاعلية الحضارية إلى ساحة الانتظار؛ فهو ينتظر المعجزات والكرامات وعلامات اليوم الآخر، معتقداً بأن الإنسان سيسوء بجميع الأحوال، والفعل حادث سواء بذل الإنسان أم لم يبذل، وهذا الإنسان بفعل الزمن ومزيد من الأفكار الميتة والمميتة التي يعاد تدويرها من حوله قد تحول لـ"إنسان التكديس"؛ الذي يكتفي بأخذ الشكل الخارجي للحضارة؛ أي تطوير عالم المادة مع استمرار الفقر بعالم الأفكار، فيطلق شراهته إزاء عالم الأشياء، ويفقد الحكمة في التعامل مع المادة، فيزيد في تكديس الأشياء دون أن يعرف أسرارها أو كيف يتحكم بها؛ فيشتري أحدث الهواتف والسيارات ولكنه غير قادر على تطويرها، كما أنه "يفتقر الفكرة العملية"؛ فيأتي بأفكاره من

الخارج، فإذا أراد تعليماً يأتي به من الخارج، وإذا أراد مصانع فأيضاً لن يطوّر مصانع داخلية بل يأتي بخلطة الآخرين، فكل شيء يستقدمه من الخارج ويؤسس به الحياة، ويعتبر نفسه أنه يمتلكه ما دام يمتلك عالم الأشياء منه، في حين أن لا دخل له بعالم الأفكار الذي يكمن وراء هذه الأشياء.

قام "مالك بن نبي" بقائمة تشخيصية طويلة حاول بها أن يفكك ماحدث بعد صفّين، ووصل منها إلى أنه لا يمكن لأمة أن تنجح إذا لم تصلح عالم أفكارها الذي يَصلُح من خلاله عالم العلاقات والمشاريع باعتباره أقوى العوالم؛ فبإصلاح عالم الأفكار ستتضح عملية الفكرة، ويتم التخلص من إنسان التكديس، وسيقضي على الأفكار الميّتة والمميتة، ليتحول الإنسان من إنسان الانتظار إلى الإنسان الفاعل...

وكلام "مالك بن نبي" في مجمله بالغ الأهمية، إلا أن أفكاره لا تزال معلّقة بالهواء؛ فمالك بن نبي لم يقدم لنا برنامجاً لتفعيل هذه الأفكار، ولم يخبرنا كيف يمكن أن ننتقل من هذه الأزمات، فقد شخّص ولكنّه لم يقدم الحلول.. ليبقى السؤال أمامنا كيف ستتكون لدينا هذه الكتلة الحرجة من البشر الذين يحملون الأفكار الصحيحية؟

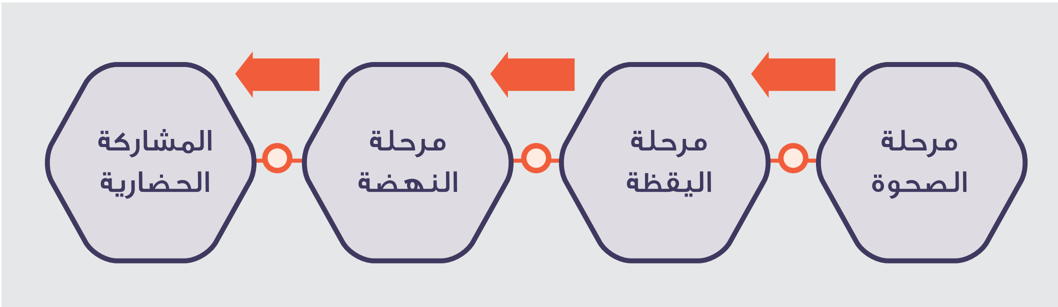
قادنا هذا السؤال لأن ننتقل خطوة بعد الكلام عن عظمة ما طرحه إلى تفعيل ماطرحه على أرض الواقع، فكيف يمكن أن نخلق لغة جديدة لمستقبل جديد؟

تحديد المسار الكلي:

إن أولى الخطوات الرئيسية تكمن بتحديد المسار الكلي الذي سنتحرك فيه، فإعطاء لغة للّحظة التاريخية الحالية هو أمر هام جداً؛ لكي يتمكن الفاعل النشط في مشروع النهضة أن يدرك في أي مرحلة يعمل وإلى أي مرحلة سينتقل.

وإن المسار هو مسار تجريدي؛ فإذا افترضنا أن الفترة الماضية من حياة الأمة هي فترة الصحوة التي دفعنا فيها أثماناً غالية جداً لكوننا لم نمتلك الرشد الكافي لبلورة التضحيات في نتائج، ولربما كان ذلك نتيجة الأفكار الميتة والمميتة التي تسكن فضائنا.. فنحن نحتاج إلى الانتقال للمرحلة الثانية وهي مرحلة اليقظة، حيث يكون فيها إصلاح هذه الأفكار السلبية وإيجاد الكتلة الحرجة التي ستنفعنا في هذه المهمة، التي إن نجحنا فيها سندخل

مرحلة النهضة، وهي مرحلة واقعة بفعل استيفاء عناصر اليقظة في داخل المجتمعات، ثم تلي مرحلة النهضة مرحلة الإسهام الحضاري، وهاتان المرحلتان هما نتيجة النجاح في مرحلة اليقظة، وبالتالي سنحتاج إلى أن نكتشف طبيعة مرحلة اليقظة.



مسارات مرحلة اليقظة:

إذا كانت اليقظة هي عبارة عن تفعيل الأفكار الحية وإزالة الميتة والمميتة من الفضاء، وخلق كتلة ثقافية وتيار جديد للأمة، فعلينا هنا أن نتكلم عن أمر في غاية الأهمية يُشَغِّب على قضية اليقظة؛ وهو اليأس الذي يصيب الناس نتيجة اختلاط المسارين ببعضهما، وهنا يجدر فصلهما حتى يفهم الإنسان كيف سيساهم في النهوض. فقد يأتي شخص ويسأل:

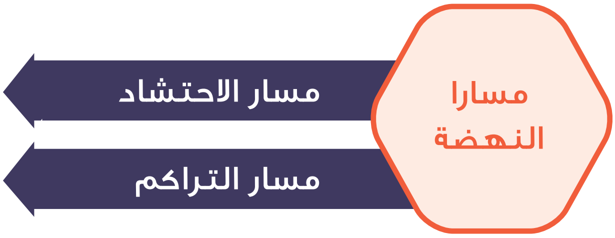
كيف يمكننا أن نتحرّك مع وجود الدكتاتوريات الموجودة في المنطقة؟ والنظام العالمي المهيمن؟

وكأن الطروحات هذه تقول بأنه لا يمكننا فعل شيء بانتظار حدث قدري يزيل الدكتاتوريات ويزيل النظام العالمي المتحكم..

وهنا نحتاج إلى أن نفصّل مسارين للنهضة مختلفين عن بعضهما البعض، هما؛ طريق الاحتشاد وطريق التراكم:

طريق الاحتشاد:

والمقصود بطريق الاحتشاد حينما تتبنى مشروع النهضة القيادات الكبرى في المجتمع (أي الدول)، وتقوم بتخطيط مركزي كما فعلت سنغافورة وماليزيا وتركيا والهند.. فسمّيناه طريق احتشاد لأن الدولة هنا تأتي بأفضل المُنظّرين والمخططين الاستراتيجيين، وأفضل الخامات العقلية الموجودة في المجتمع، فتضع خطة مركزية لعملية إعادة إنتاج المجتمع من



أَلِفِه إلى يائه.. كما فعلت الصين في حراكها فتحولت من مجتمع منهار - في سنة 1900 - إلى مجتمع يشق طريقه إلى قمة العالم، فهذا نسميه طريق احتشاد لأن الدولة حشدت الطاقات في منطقة واحدة وركزت الجهود، وإن هذا الطريق ليس طريقاً مستحيلاً ولكنه يحتاج إلى إرادة.. فعندما يكون هناك قيادة مدركة أنها ستقوم بعملية جراحية كبرى في المجتمع يمكن للمجتمع عندها أن ينطلق انطلاقة كبرى.. والسؤال هنا.. من أين تلتقط القيادة الأفكار الحيّة والعزيمة والإرادة الحقيقية؟ ومن أين يأتِي الأفراد الذين يحولون الأحلام إلى حقائق؟

طريق التراكم:

إن طريق التراكم هو الذي ينتج الأفراد الحاملين للأفكار الحية وللإرادة الحقيقية لصناعة التغيير في طريق الاحتشاد، وهذا ما ينساه كثير من الناس، فهؤلاء يأتون من طريق التراكم والفعل الاجتماعي الذي يأخذ مداه دون أن تتدخل الدولة بشكل مباشر في صناعته.. وهو عبارة عن الأفكار الأساسية الكبرى التي تطرحها القوى الاجتماعية بشكل أو بآخر والتي تواجه صعوبة الصدامات بين جموع الناس، فتنمو وتكبر بعزيمة أصحابها داخل البيئة والحاضنة الاجتماعية؛ بدءاً من الإنسان الذي لا يملك سوى القليل، وصولاً للمفكر الكبير، فهو مسار ينهض بأصحابه.

إذاً هناك طريق أمره ليس بأيدينا نحن كأفراد بل هو طريق الدول، ولكن حينما نقول أن الدولة الفلانية بدأت في مشروع نهضة، فذلك يعني أنها التقطت أفكاراً حية، وبأن هناك قيادات ستحمل المشروع وتنطلق به. فما الدور المنوط بنا كأفراد قبل أن تتبنى الدولة مشروعاً مركزياً للقيام بنهضة شاملة في المجتمع؟

النهضة عمل في ظل التحديات:

إن تقسيم المسارات لا يلغي فكرة أن النهضة عمل رغم التحديات؛ فعلى الفاعل في النهضة أن يوجد طريقاً للفعل النهضوي في ظل التحديات المحلية والإقليمية والدولية، وأن لا يتوقف

مهما صغر عمله طالما هو في الاتجاه الصحيح، فإننا سنفكر في كيفية للعبور في ظل وجود الأنظمة والتحديات والعقبات التي توضع في طريقنا، وهذا كلام هام لأن البعض يقوم بالتخدير فقط ولا يعطينا صورة واقعية للمشهد. فلا أحد من الأنظمة سيسمح للآخرين أن يتقدموا على حسابه، والحضارات تقوم رغماً عن الأنظمة الأخرى، فالصين نهضت رغماً عن أمريكا والغرب، وروسيا كذلك..

إذا ماكنا مجتمعاً حيّاً وأفكاره صحيحة فإننا سنعبر رغم العقبات؛ وليس لأن هناك أحداً رفع عنا العقبات

فمن نهض قد نهض رغم العقبات، لا لأن العقبات قد أزيلت، وهذه قضية في غاية الأهمية بالنسبة لصناع النهضة.

فكرة التيار والجداول الصغيرة:

ليس المقصود هنا بالتيار التنظيمات أو الجماعات، إنما نستقي تشبيه التيار من النهر، فنحن عادة نشاهد النهر المندفع من الجبال الذي يصب في مجراه الأساسي، ولكن حينما نذهب لمنابع النهر فإننا نجد أنه ليس له منبع واحد، بل العديد من المنابع التي تغذي المسار الكلي، فنشوء الأنهار ناتج عن جداول صغيرة من المياه تتدفق شيئاً فشيئاً لتتجمع وتكون مسار النهر التأسيسي، وهذا المسار المتكوّن من العديد من الفروع الصغيرة والجداول يسير مغذياً المدن، فمن شلالاته تتولد الكهرباء، ومن مائه تنمو الزراعة وتحيا المدن..

فالتيار ليس تنظيماً واحداً، أو شخصاً واحداً، أو مؤسسة واحدة، إنما هو مجموعة من الجهود تصب كلها في اتجاه واحد، فإذا نجحنا في صناعة تيار؛ أي أنشأنا نظام تفكير جديد يسمح لنا أن نلتقي في الكليات الكبرى رغم أننا قادمين من مسارات مختلفة (تنظيمات أحزاب، مؤسسات، أفراد مستقلين، أشخاص ممولين، أفراد عاديين..) كل هذا سيصب في الاتجاه الصحيح الذي نتكلم عنه. وهذا ما نسميه مسار التراكم.

وإن هذا المسار إذا التقى بإرادة حاكم مستنير، أو فئة مستنيرة، يتحول إلى مشروع احتشاد ودولة، كما حدث في الصين واليابان وبقية الدول.

أساسات العبور إلى اليقظة: فقرة مكررة في المحاضرات الأوائل

في سبيل تمهيد الطريق لمحاولة عبورنا من مرحلة الصحوة إلى مرحلة اليقظة، وفي سبيل إدراك الاحتياجات الأساسية للعبور أصدرنا كتاب "من الصحوة إلى اليقظة" واخترنا محاوره لتكون أساساً للعمل في هذه المرحلة من عمر الأمة.. فالأشياء الكبرى التي يجدر إنجازها في مرحلة اليقظة تتمثل بالتالي:

1. المسألة الأولى: صناعة جهاز معرفي مكافئ للواقع



قلنا إن أكبر مشكلة طرحها "مالك بن نبي" هي عدم سلامة الأفكار التي نحملها، ولطالما تعنونت مرحلة الصحوة بحماس شديد مع افتقار لإطار فكري يسمح بمواجهه الواقع بما يكفي، فإن أول قضية رئيسية للعبور من الصحوة إلى اليقظة هي أن يتواجد لدينا وعي مكافئ لهذا العصر، فإن العمود الأساسي في هذا البناء هو التغيير الجذري في الجهاز المعرفي الذي نصنع به القرارات، فالجهاز المعرفي الذي نعمل به الآن لا ينتج لنا إجابات للواقع، بل ينتج إجابات في الخيال؛ بمعنى أننا عندما نذهب إلى شأن الدولة مثلاً فإننا نبحث في الكتب القديمة عند "الماوردي" و"الجويني" عن الدولة التي لم تُصنَع حتى في عصورهم! ولا نتوجه لدراسة أحوال الدولة في عصورنا الحالية التي قامت، وما الذي يواجهها من إشكاليات، وما هي الحلول العملية لهذه الإشكاليات! فنحن لا نملك منهجاً يدرس الواقعة ليستخلص منها النتائج، بل نحن أمْيَلُ لأن نذهب للقديم الجاهز ونستخلص منه حلولاً للواقع دون أن ننظر للواقع ماذا يقول، فلا نسأل المريض ما الذي يعاني منه، بل نفترض مرضاً ثم نأتي بالإجابات من الكتب القديمة..! وإن هذا الواقع المعقد هو واقع أمة تسير بلا أقدام، ولا يمكن

لها أن تنجز شيئاً، فالجهاز المعرفي يحتاج لمعالجات كبرى، وهذه من مهام الانتقال من مرحلة الصحوة إلى اليقظة، فإن عدم سلامة الأفكار والخروج من الفاعلية الحضارية هو ابن الجزء العقلي المتعلق بنا، فعلينا أن نجدد نظم التفكير؛ فننتقل من قضية الاستنباط إلى قضية الاستقراء، ومن عدم اعتماد الواقع كمنتج للحلول والإجابات، إلى اعتماده واعتباره المؤثر الأكبر لما يدور حولنا، فمثلاً: شخص يريد أن يبحث في أسباب فرقة بين الإسلاميين، وتشتتهم إلى جماعات متناحرة، حتى إذا ما اتيحت لهم فرصة تلم شتاتهم كسوريا مثلاً أو العراق أو أفغانستان.. تفرّقوا ورفعوا السلاح ضد بعضهم البعض قبل أن يرفعوه ضد خصمهم! وإن المتصدّي لدراسة هذه الظاهرة لديه مساران؛ فإما أن يرتكز على الجهاز الاستنباطي ويذهب للنصوص ويبحث فيها ماذا قال الله وماذا قال الرسول والصالحون.. ويُخرِج لنا كتاباً نظرياً عما يجب أن يكون، وإما أن يرتكز على القدم الاستقرائية فيذهب لهؤلاء الناس ويصمم دراسة مبنية على مقابلة الشخصيات التي اتخذت القرارات في تلك الفترة، فيدرس الظاهرة من الداخل؛ عن طريق الاستبيانات، أو المقابلات، أو العيش في داخل الظاهرة، فيقدم لنا إجابات من الواقع، ويعطينا حلولاً محتملة من الواقع أيضاً.

وإن الانتقال في بيئاتنا من كثافة حضور الاستنباط إلى حضور الاستقراء هي قضية فارقة؛ إذا نشأت في الكليات والمدارس الشرعية، سنكون دخلنا عصراً جديداً، فبالنظر إلى نزاعاتنا في قضايا الجماعات الإسلامية فإن كلامنا لا يشير إلى التجربة العملية وماذا أنجزت، بل يتكلم عما ينبغي أن يكون، وكل هذا نتيجة أزمة الجهاز المعرفي، وبالتالي نحن لدينا هدف أساسي بأن ننتقل بجهازنا المعرفي من قضية إهمال الواقع إلى تبني قضايا الواقع ومعرفته معرفة حقيقية.

يقول د. جاسم سلطان: "سألني أحد الشبان الذي يريد إجراء بحث معرفي في مسألة "وحدة العالم الإسلامي"، فأخبرته بأنه مجال واسع، واقترحت عليه اختيار عينة صغيرة حيث توجد جماعات إسلامية كلها تنادي بالوحدة، والقيام بالبحث فيها، واستخلاص النتائج، فإذا نجح في ذلك فعندها يستطيع أن يجري البحث على مجموعات أكبر فتكبر العملية.. فسألني: ألا أستطيع أن أكتب كلاماً نظرياً؟ فأجبته: ماذا ستقول أكثر مما قاله الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾".

فما نحتاجه هنا أن نجيب على تساؤل: لماذا لاتتم الوحدة عملياً على الأرض بين جماعات يفترض أن جميعها تسلّم بهذه القيم الكبرى؟! فهذا ما يشغلنا، وهذا لن يأتي عبر مزيد من التنظير! فإنه لا يجدي نفعاً أن نشرح للناس أن هناك آية أو نص عن هذا الأمر، فنحن نحتاج اليوم إلى أن نحدد سبب عدم تحقق هذه الفكرة عملياً على الأرض..

2. المسألة الثانية: إيجاد ثقافة مكافئة لروح العصر

إن هذا "البرنامج التأسيسي" الذي نتكلم به وبرنامج "360 درجة"، وكتب النهضة وغيرها.. الهدف منها إنشاء ثقافة مكافئة للعصر، أي أن يكون عند الشاب المسلم والفتاة المسلمة في هذه اللحظة التاريخية القدر الأدنى من المعارف الأساسية الضرورية، والإطار الثقافي المناسب؛ الذي يسمح بقراءة العصر في إطاره الموجود فيه. فإن الإنسان إذا لم يكن له علم موضوعي بالمعارف الأساسية لن يستطيع التواصل مع عصره حتى ولو خيّل له أنه قادر على ذلك، فإن تواصله حاصل بجهاز معرفي مشوّه، بحيث أنه يتلقى الأشياء التي تقال دون أن يستطع محاكمتها إلى إطار معرفي منظم، فيصبح ضحية لها بدلاً من أن يكون شريكاً في الأخذ والعطاء مع المعارف الموجودة..

3. المسألة الثالثة: التجسير بين الفئات على قواعد مشتركة بما يخدم مصالح الأمة

المسألة الثالثة التي نحتاج أن ننجزها والتي تعتبر ثمرة للجهاز المعرفي والثقافة المكافئة للعصر هي بناء الجسور بين المختلفين، فاليوم أي نقاش ندخله سينتهي بقطيعة لأن الأنفس ليست مهيّئة لبناء الجسور، فنحن نبرع ببناء القلاع والحصون وقصف الآخرين، ولكن لا نسمح للآخرين بأن يعبُّروا عن آرائهم، فإنساننا ليس هيناً ليناً يستطيع أن يتقبل نقد الآخرين بليونة ويقول رأيه بأريحية، فنجد في مجتمعاتنا كثير من العلماء الكبار على الرغم من امتلاكهم لأفكار نيرة إلا أنهم يتحرّجون من طرحها لكونهم يعتقدون أن المجتمع سيثور عليهم.

إن أمتنا أمة لا تمتلك تياراً عاماً يتفق على الحدود الدنيا، فدائماً ما يتعذر علينا التنسيق حول المصالح المشتركة لمجتمعاتنا، وبالتالي لا اليساريون يتكلمون مع بعضهم، ولا الليبراليون، ولا الإسلاميون، ولا هؤلاء يتكلم بعضهم مع بعض، ولا مَن في السلطة يتكلم مع

من في المعارضة، ولا من في المعارضة يتكلم مع من في السلطة!! فعندنا جزر معزولة عن بعضها البعض، فنقوم بقصف متبادل طوال الوقت، وبالتالي لا ننتج حركة للأمام.. فيجب أن تتسم مرحلة اليقظة بأننا استطعنا أن نخلق أوانٍ مستطرقة بين هذه الفئات، وعقلية تسمح بهذا النوع من الحوار البيني على المشتَرَكَات، فكيف استطاع اليهود أن يقرروا إنشاء إسرائيل وهم من فئات مختلفة علمانية ويسارية ودينية.. كيف استطاعوا أن ينسقوا على القدر المشترك بينهم وعجزنا نحن أن ننسق على القدر المشترك بيننا في مجتمعاتنا العربية والإسلامية؟! إن هذا سؤال كبير جداً مطروح على النخب، وبالتالي نحتاج إلى أن نوجد آلية وعقلية جديدة تستطيع أن تجسّر بين الفئات الموجودة لمصالح الأمة والمصالح الكبرى التي نحتاجها.

وإن مشروع النهضة الذي نشتغل عليه في مرحلة ما بين الصحوة واليقظة يحاول أن يوفر هذه الأركان الثلاثة الأساسية، أما البرنامج المتضَمّن في هذا المقرر فهو واقع في إطار الركن الثالث والمتمثل بإيجاد ثقافة مكافئة للعصر.

استيثاق العبور إلى اليقظة:

وهنا يطرح السؤال نفسه: كيف سنعرف أننا دخلنا إلى مرحلة اليقظة؟ إن هذا لن نعرفه إلا إذا وُجدت كتلة حرجة ظهر منها القدرة على التواصل مع الآخر المخالف بأريحية، وأن شبابنا أصبح قادراً على التكلم بثقافة مكافئة لروح العصر، وليس بثقافة منقرضة! وإن جهازنا المعرفي يضعنا في إطار يسمح لنا أن نجيب عن تساؤل: لماذا سنغادر الجهاز القديم إلى جهاز معرفي جديد؟ فإذا لم تتحقق تلك المظاهر، ولم نستطع الإجابة عن تلك الأسئلة فهذا يعني أننا لدينا مشكلة حقيقية، ولا نكون قد عبرنا إلى مرحلة اليقظة بعد!

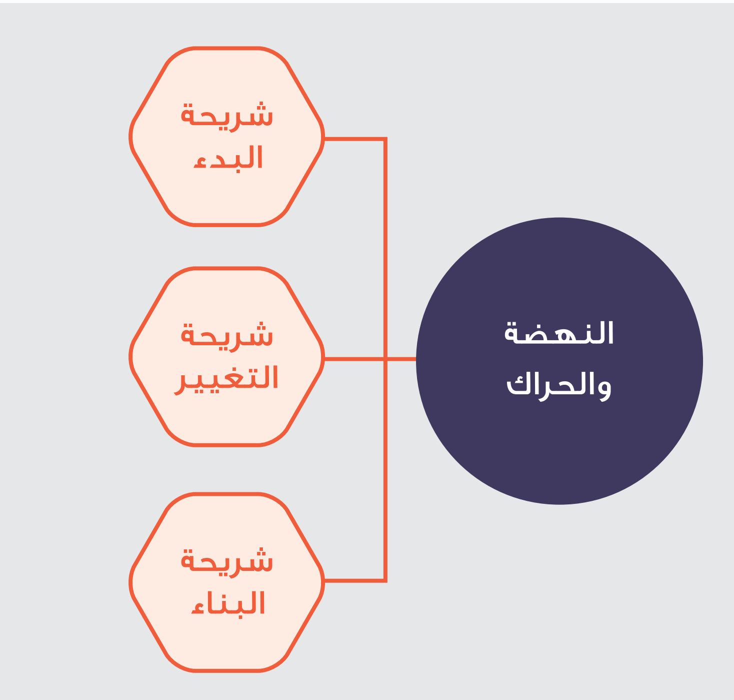
النهضة والحراك السياسي: فقرة مكررة

نأتي إلى قضية في غاية الأهمية متعلقة بالعمل السياسي والحراك السياسي..

إن حديثنا عن المسار التراكمي الذي نشتغل فيه لا يغني عن دراسة مسار الاحتشاد (مسار الدولة)، فهو تهيئة لمن يمكن له - ولو بعد زمن - أن يحمل مشروع النهضة على مستوى الدولة، فما الأساسات التي تلزمه حتى ينحت فضاءً جديداً في ظل التحديات؟

إن أي مجتمع يحتاج لثلاث شرائح أساسية مترابطة، وإذا تعذّر التواصل والعمل فيما بينها فإنه يتعذّر إحداث النهضة..

شريحة البدء:



عادة إذا كان المجتمع في حالة ركود فهو يحتاج إلى شريحة بدء؛ أي أناس يطرحون أفكاراً جديدة نيّرة تتسع دائرتها باستمرار لتحديث المجتمع، ومن دون فئة البدء هذه لن يحدث تحوّل ثقافي. وشريحة البدء هذه ليس من الضرورة أن تكون كبيرة جداً، أو أن تكون متملِّكة لعناصر القوة، فعادة تبدأ من فئات اجتماعية صغيرة من أواسط الناس تدعو لفكرة قوية تناقش من خلالها الوضع وتحاول أن تصحح وتقوّم البنى الموجودة.

شريحة التغيير:

إن شريحة البدء لا تنجح عادة في بلوغ أهدافها مهما اتسعت ما لم تستمع لها الشريحة التي تمتلك القوة والحكم؛ أي لا بد من حدوث اتصال إيجابي ودعم وموافقة من قِبل تلك الفئة، فالرسول عليه الصلاة والسلام لولا أن دعوته بلغت بشكل سلمي اتصالاً معرفياً مع الأوس والخزرج في المدينة لما كان لهذا الدين أن تقوم له قائمة وإطار يتحرك فيه، وهذا ما لم يحدث في مكة لكون الفكرة لم تستطع أن تبلغ دار الندوة، فإذا ما التقت فكرة شريحة البدء بشريحة التغيير التي بيدها مقاليد الأمور فعندها نكون قد انتقلنا للمرحلة الثانية من احتمالية حدوث النهضة.

شريحة البناء:

إن التقاء الشريحتين السابقتين لا يُحدث نهضة إلا في حال حصول اتفاق مع الشريحة الثالثة المتمثلة بجموع المواطنين والساكنين في ذاك المجتمع، والتي ستتحمل مسؤولية النهضة، فنموذج السودان على سبيل المثال نجد فيه أن شريحة البدء قد قامت بعمل فكري وثقافي، والتقت مع شريحة التغيير المتمثّلة بالجيش، وامتلكت الدولة لثلاثين عاماً، ولكن الذي أفشل المشروع عدم القدرة على الالتحام بشريحة البناء وجموع المواطنين المتواجدين في الأقاليم المختلفة حول مشروع واحد مقنع لجميع الفئات على اختلاف توجهاتهم، فقاد الفشل في بناء توافق اجتماعي واسع إلى انهيار المبنى على ساكنيه.. فتم فصل السودان الشمالي عن الجنوبي، ثم اشتعلت المشاكل في بقية السودان بين بعضه البعض إلى أن قامت الثورة الأخيرة.

فلسفة العمل لمرحلة اليقظة:

على افتراض أننا استطعنا إنشاء الكتلة الحرجة، ومرّ الإنسان في إطار ناضج أصلح له جهازه المعرفي، وملّكه إن ثقافة مناسبة للعصر، وأصبح قابلاً للتجسير مع الآخرين والاستماع لهم والتفاهم معهم.. فماذا تكون احتياجات تلك المرحلة؟

في هذه المرحلة ومن أجل الاستمرار يجب الاقتناع بفلسفة أساسية كبرى قسمناها إلى ثلاثة أقسام:

- **فلسفة التمرة:** والمقصود من تلك الفلسفة أن يقنع الإنسان أن أقلّ القليل الذي يستطيع أن يلتزم به سيؤثر في عمليات التحوّل طالما أنه كان مخلصاً في أداءه، فعليه أن لا يتردَّد، فليس بالضرورة أن يقود الإنسان الجيوش ويفتح البلدان.. فإن صغر المساهمة لا يعيب صاحبها طالما أنه مخلص لدوره وملتزم به.

- **فلسفة الفسيلة:** إن عادة المجتمعات في لحظات الانحدار أن يكسوها اليأس.. وإن إطلاق شرارة النهضة في جو الإحباط هو مهمة المهام، أما عند اشتداد عود النهضة فالكل سواء، فنحتاج لفلسفة الأمل التي يحدّثنا عنها ﷺ "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"، فإنه من دون الأمل لا يمكن العمل.

● **فلسفة الثوب:** أحياناً على الإنسان أن ينظر للمشروع كمشروع تعاوني، فحجر النهضة كالحجر الأسود الذي وضعه الرسول ﷺ على ثوبه.. ثمّ حمّل كل فئة طرفاً من أطرافه، فالحمل الكبير إذا تعاضدت من أجله الأطراف استطاعت حمله.. وبالتالي إن من يعمل في مشروع النهضة يجب أن يستيقن بأن لكلٍ مكانه من الفعل، وأنه سيرفع طرفاً من الثوب وليس الثوب كله، فلا يُطلب من شخص واحد أو فئة واحدة حمل الحجر لوحدها.. ولا يسقط في اليأس عندما يقوم بعمل جزئي ولا يرى غيره يحمل بقية الأجزاء، فكما تسخَّر هو لمهمة سيتسخَّر غيره لأخرى فجهده مقدر والخير قادم، وإن من أسوأ الأمور التي مرّت معنا في فلسفة النهضة فكرة استئثار جماعة واحدة بالخيرية وبأنها هي من ستقيم الدولة، وهي من ستضم كافة العناصر الجيدة إليها، فإذا ما وجدت جمعية ناجحة أو مؤسسة ناجحة صار الهدف الاستيلاء عليها ممن كان السبب في نجاحها أو قام عليها، بدلاً من مساعدتها على التطور والنمو؛ فأصبح السعي نحو التمكّن من المجتمعات بدل من تمكين المجتمعات. ففلسفة الثوب تحمل فكرة أن النهضة لن يحملها إلا فئات متنوعة من كل الاختصاصات والمؤسسات، وعلينا أن نساعد أي مؤسسة على النجاح وتحقيق الحد الأقصى من أهدافها.

مسالك فاعلية الإنسان في طريق النهوض:

حينما تتحقق الفلسفة السابقة بأجزائها الثلاثة نحتاج إلى أن نوجه الإنسان لمجال تأثيره وفاعليته، فنجد أن هناك الفنان وهناك المصور وهناك الطبيب.. فأين تكون فاعلية كل إنسان للمساهمة في النهضة؟

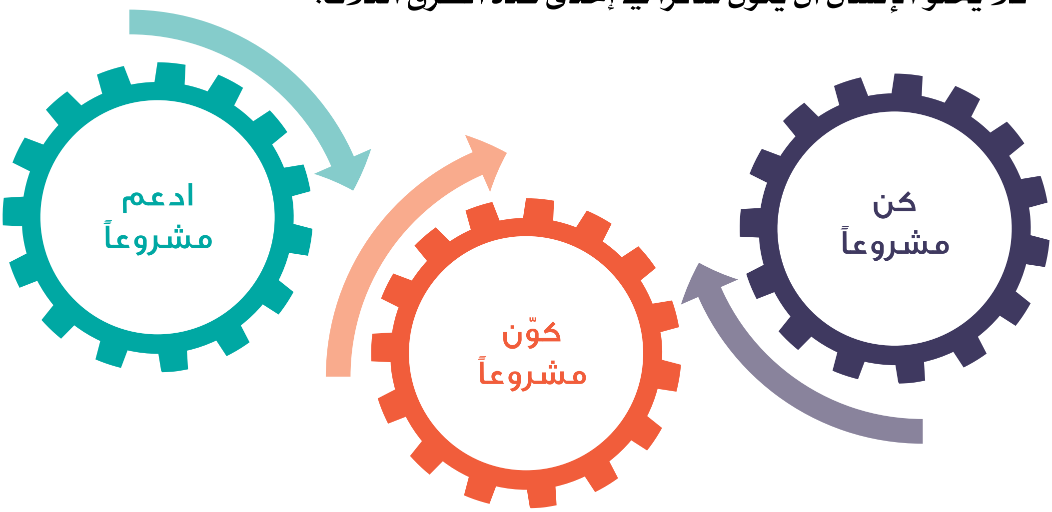
هناك في الغالب ثلاث طرق للسير:

- هناك الطريق الذي يكون الإنسان فيه مبدعاً في مجاله، فيؤلف ويجدد ويضيف ما يطوّر من خلاله بيئته وبيئات أخرى، وهذا يصنع عمقاً ووعياً في طريق النهوض.

- هناك الطريق الذي يستطيع به الإنسان القيام بمشروع متجاوزاً لذاته، يدمج فيه طاقات مختلفة للوصول للنتيجة، وهذا حسن وممتاز.

- أما الطريق الثالث أن يدعم الإنسان مشروعاً؛ فقد لا يكون الإنسان قادراً بظرفه أو بذاته على القيام بعمل، ولكنه قادر على الدعم بجهد ما من ماله أو وقته أو جاهه أو مهاراته..

فلا يخلو الإنسان أن يكون سائراً في إحدى هذه الطرق الثلاث:



فكن مشروعاً أو كوّن مشروعاً أو ادعم مشروعاً

إذاً إن مشروع النهضة في تجليه العملي هو مساهمة في الانتقال من مرحلة الصحوة إلى مرحلة اليقظة، وإن جميع الجهود الموجودة مباركة بعون الله ما دامت تصب في إحدى هذه الاتجاهات؛ من إحداث جهاز معرفي جديد، أو من إحداث تيار يستطيع أن يتكلم مع بعضه البعض، أو من غرس ثقافة مناسبة لهذا العصر قادرة على نقلنا من الحال الذي نحن فيه إلى الحال الأفضل الذي نتمناه لأوطاننا ومجتمعاتنا..

علم الاجتماع



سنتكلم في الفقرات القادمة عن علم الاجتماع، وإن علم الاجتماع من أهم العلوم التي نشأت في العالم هو والأنثربولوجيا؛ لكونهما يحددان عمليات التعامل مع المجتمعات، ويبحثان في أسباب تغيُّرِها، وبالقضايا المتعلّقة بالحراك الاجتماعي..

ورحلتنا مع علم الاجتماع ستكون رحلة بسيطة مفادها معرفة المفاتيح الأساسية، في محاولة لبناء إطار معرفي منظم، يسمح لنا بأن نرى المجتمع وتحولاته بصورة أكثر وضوحاً.

وسنبدأ طرحنا بموضوع أساسي أولي يحتاج الإنسان إلى أن يلم به في هذا المقام؛ وهو ما نسميه "المنتظم الاجتماعي"، ومن ثم سنعرّج على الفكرة المركزية والفكرة المحفزة، ومنها إلى زوايا النظر لمجتمع ما..

إن علم الاجتماع يتناول النسيج الذي نعيش فيه، فنحن كبشر أجزاء من جهاز كبير مكوّن من عناصر نحتاج بدورنا إلى أن نكتشفها ونقف عندها، ونكون قادرين على استحضارها باستمرار، وهذا ماسيعيننا عليه المنتظم الاجتماعي التالي:

أولاً- المنتظم الاجتماعي

1. مستويات القاعدة التي يقوم عليها المجتمع:

1. المستوى الأول: مستوى الاعتقاد والتصورات

إنَّ أي مجتمع - إذا أردنا النظر إليه بصورة ذهنية منظمة واضحة المعالم - يشكل البنية المجتمعية للدولة كاملة، و يمكننا أن نمثل المجتمع ببناءً أشبه بمئذنة من طوابق متعددة.. الطابق السفلي في كل مجتمع هو طابق تأسيسي يحمل معتقدات المجتمع وأفكاره الكبرى التي يُبنى عليها ويصبغ بقية الطوابق بها، ولا يوجد مجتمع لايحمل عقائد، فالمجتمع الذي يؤمن بالحرية كمعيار سيمتد ذلك المعيار لبقية طوابقه بحيث ستصطبغ جميعها بالحرية،



وكذلك إذا آمن المجتمع بالعدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة فإن كل البناء سيتأثر بهذا المعتقد، وأيضاً إذا كان يحمل في أساسه عنصرية أو غيرها.. فإن التأسيس العقدي التصوري في المجتمعات هو أمر أساسي يمتد صداه إلى أفرع المجتمع كافة..

2. المستوى الثاني: مستوى طقوسي (الشعائر)

إن جميع المجتمعات في داخلها طقوس معينة، قد تكون طقوس وطنية أو اجتماعية؛ كالاحتفال بالعيد الوطني، أو بعيد العمال، أو بعيد الأم، أو بيوم الطفل أو المرأة.. أو طقوس دينية؛ كاحتفال الأوروبيين بعيد الميلاد، أو احتفال المسلمين بعيدي الفطر والأضحى.. فباستمرار لدينا طقوس معينة وأشكال من الأفعال تولّد أو تعزّز أحاسيس معينة وتحذو بالمجتمع نحو اتجاهات مشتركة.. وإن علم الاجتماع ينظر إلى هذه الطقوس على أنها ظاهرة لها عمق وظاهر، ويدرسها من ناحية وظائفها والأدوار التي تلعبها، والنتائج التي تقود إليها. فيجد أن لكل نوع من أنواع الشعائر وظيفة ظاهرة ووظيفة باطنة، فعزاء أهل الميت مثلاً من الطقوس الموجودة في داخل المجتمعات، ويبدو في الظاهر أنه تكريم للميت؛ بحيث يتم ذكر محاسن الميت ونحو ذلك، ولكن في باطن هذه الظاهرة نجد أُنساً لأهل الميت وتخفيفاً لمصابهم، كونهم يمرّون في الأيام الثلاثة الأولى بأيام عصيبة، وحضور الناس المعزّين من شأنه أن يشغلهم عن مصابهم، إضافة لما يحققه من مواساة ومسامرة من قبل الحاضرين.. فالشعائر والعبادات لها وظيفتان؛ وظيفة ظاهرة ووظيفة باطنة، وعلم الاجتماع يتناول كلا المستويين من الوظائف ويبحث بها.

3. المستوى الثالث: النظام الأخلاقي

لايكاد يخلو أي مجتمع من نظام أخلاقي؛ أي معايير تحكم الصواب والخطأ في داخل المجتمع، إنما قد يعلو المستوى الأخلاقي في مجتمع ما وينحط في آخر، وكلّما قويت بنية

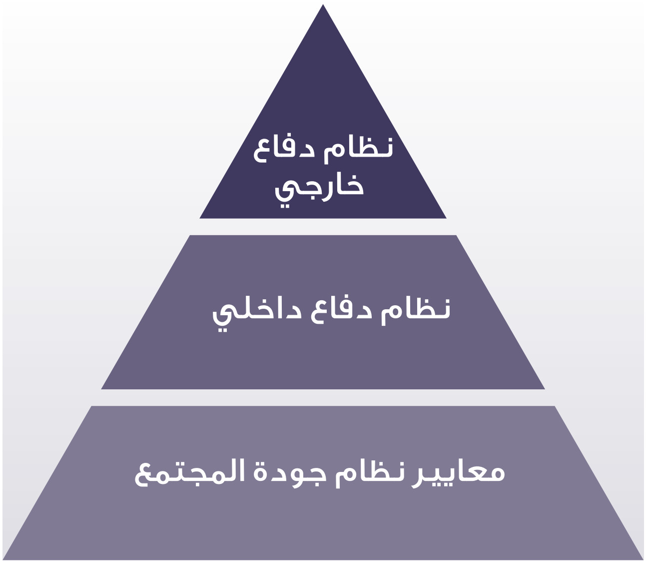
الأخلاق في المجتمع دلَّ ذلك على قوة المجتمع وتماسكه، ففي المجتمعات المتماسكة نجد احتراماً كبيراً بين الناس، وحضوراً واضحاً للنظام في الشارع، ومعاملةً طيبة في الدوائر الحكومية، وحصولاً للناس على حقوقهم في المحاكم.. في حين إذا مازُرنا مجتمعاً ضعيفاً فسنجد ضابط المطار يسيء للمسافرين دون وجه حق، وإذا سكنّا في سكن لا نجده نظيفاً، وإذا سرنا في الشارع لا نجد نظاماً، وإذا ذهبنا للتقاضي فلا تُعطَى الحقوق بالعدل.. وتؤثّر منظومة الأخلاق في المجتمعات على مسألة في غاية الأهمية وهي "الثقة" بين أفراد المجتمع في التعاملات، فالمجتمعات التي تعلو فيها درجة الموثوقية في التعامل وإعطاء الحقوق والواجبات هي من أقوى المجتمعات الموجودة، وكلما انخفضت درجة الثقة وقوي احتمال الغش بين الناس كلما كشف المجتمع عن هشاشة أساسية في تكوينه، فعنصر الثقة آخر العناصر التي يرتكز عليها المجتمع، والثقة هي أقوى العناصر التي تتمثل فيها الأخلاق؛ فاليوم في عقد الزواج، أو في عقد إقامة مشروع سكني، أو بناء جسر، أو في التعاقد مع الطبيب أو المهندس.. جميع هذه العقود تُبنى على الثقة فيما بينها، فهناك مجتمعات لا تتخيل فكرة الغش نهائياً، بينما هناك مجتمعات الأساس الذي تفترضة بأنها ستُغَش، فعلم الاجتماع يدرس الأخلاق وأثرها لكونها كالغراء اللاصق لحركة المجتمع.

إن منظومة القيم في المجتمعات محكومة بمعايير، فقد يقوم شخص ما بالفعل ذاته في منطقتين مختلفتين في العالم، ولكن لا يُصدَرُ عليه الحكم ذاته، فتختلف المجتمعات فيما بينها إنما مع بقاء التشابه في المعايير الأساسية، فتتفق المجتمعات مثلاً على مسألة العفة وجمال العفة، ولكن تختلف في معاني العفة في تجلّياتها، ففي حين تعني العفة في مجتمع ما عدم إقامة أي علاقة بين الجنسين إلا بعقد زواج وبنص من المحكمة وبتوقيع الشهود وما إلى ذلك.. فهي تعني في مجتمع آخر عقداً يتراضى به كلا الطرفين على العلاقة.. فلا يوجد مجتمع إلا وفيه مصفوفة أخلاقية تحكمه، يحكم من خلالها على الأشياء بالصواب أو الخطأ.

2. هرم المجتمع:

وبالنظر إلى هرم المجتمع سنجده يتكوّن من الأنظمة التالية:

- **نظام دفاعي خارجي:** يتمثل بالجيش أو بأي قوة من شأنها حماية الحدود من العدوان الخارجي، وقوة هذه المنظومة مهمة لبقاء المجتمع، فإذا ما كانت القوة العسكرية التي



تقف وراءها القوة العلمية والصناعية والبحثية قوية فهذا يعني أن المجتمع يتحلّى بسياج خارجي آمن.

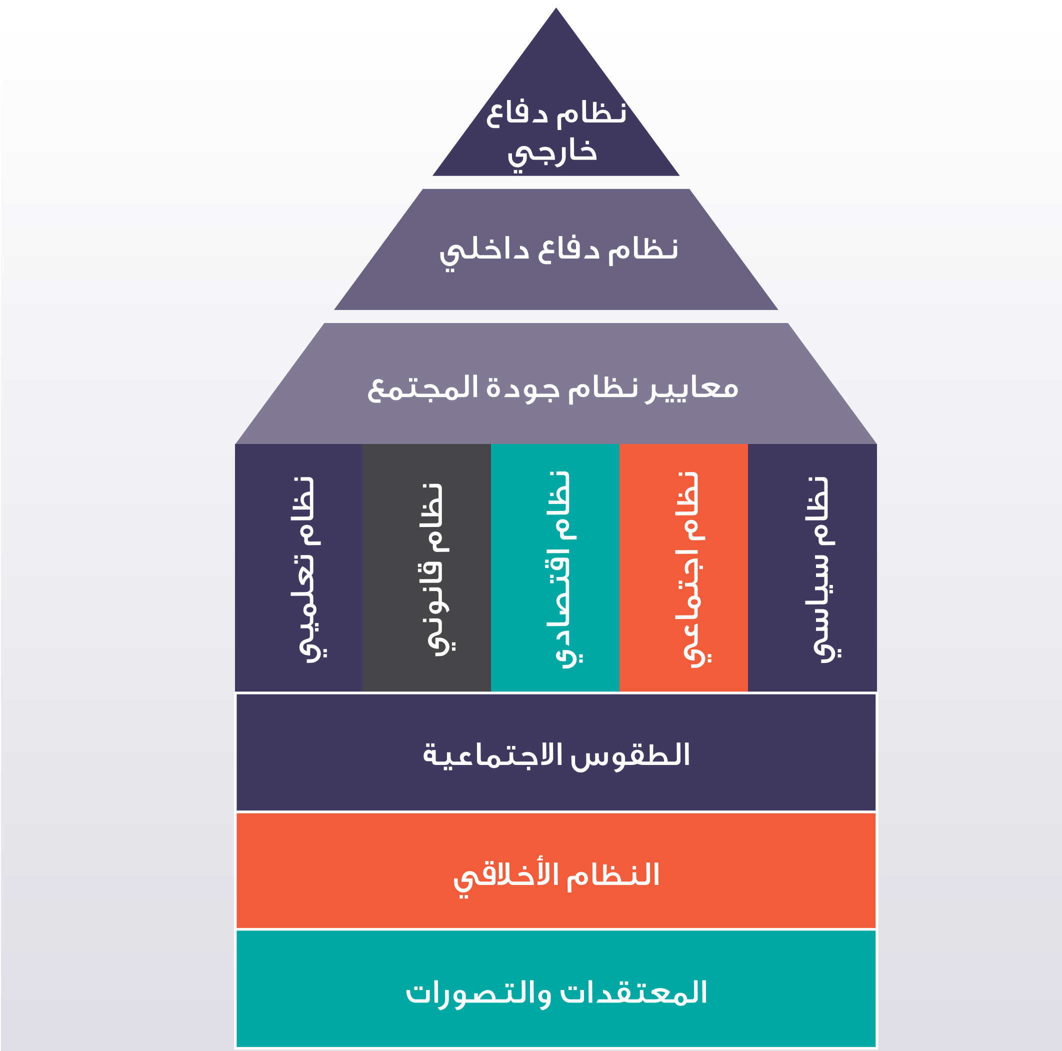
- **نظام دفاع داخلي (نظام الحقوق):** يوجد أسفل الدفاع الخارجي قوة تحمي المجتمع من العدوان أو الظلم الداخلي؛ فتحفظ حقوق الأفراد والجماعات وفق ما يسمى بنظام الحقوق سعياً لقيام الناس بالقسط، فحفظ الداخل يستوجب نظاماً للحقوق، والمجتمعات على تفاوت في هذا؛ فقد يتحلّى مجتمع ما بسياج خارجي آمن جداً، ولكن حقوق الناس في داخل المجتمع ضائعة بشكل كبير، ويعانون من الخوف والتهديد، وهذا نجده في النُظُم الديكتاتورية القوية؛ حيث إنها قد تخلق نظام مرهباً للخارج، ولكن في داخل المجتمعات نجد إنسانها يبحث عن ملاذ آمن للهرب بسبب رداءة النظام الحقوقي.

- **نظام جودة المجتمع:** تحت النظامين السابقين توجد منظومة تقوم بوضع المعايير للنظام ومتابعته؛ كمعايير صحة الأطعمة المقدمة للناس ونظافتها، والمنتجات وضبط الغش فيها ونحوه.. وهذه المعايير الأساسية التي يحتكم إليها المجتمع هي جزء مما يدرسة علم الاجتماع.

3. أعمدة المجتمع:

أما لحمة بقية المجتمع وأجزائه فسنجد في منتصف الهرم نظاماً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وقانونياً وتعليمياً..

ففي بناء المجتمع هناك ثلاثة طوابق، وفي كل طابق عدة أقسام؛ ففي أعلاه أبنية تحفظه وتحميه.. وثلاثة أبنيه في أسفله هي أساس المجتمع، وفي المنتصف جسم المنتظم الاجتماعي.. وقد سميته المنتظم الاجتماعي لكونه بناءاً متراصّاً كوحدة مع بعضه البعض، فإذا فقد جزء منه وظيفة من وظائفه تعرض الباقي للخطر، فمثلاً إذا تعرض النظام الدفاعي الخارجي لخلل ما فإن كل المجتمع سيصاب بالانهيار ويغزوه الآخرون، وكذلك النظام القانوني الذي يحمي حقوق الناس داخل المجتمع أيضاً إذا تعرض للخلل فإن المجتمع سيعاني نتيجة هذا الخلل، وستتأثر الأبنية الأخرى فتختل اقتصادياً واجتماعياً وتعليمياً، فتتساند جزئيات هذا النظام وكأنها آلة واحدة لتحقق ثلاثة أشياء نسميها مُخرجات النظام:



- **أولاً: ضمان وجود المجتمع**

- **ثانياً: تحقيق الاستقرار:** وهذا امتحان تفشل فيه مجتمعات كثيرة جداً، مثال ذلك السودان الذي حدث فيه الانفصال ولم يستقر إلى لآن، لأن النموذج الداخلي لعملية التعايش بين مكونات المجتمع لم تجد لها طريقاً للاتفاق. وقد تكون المجتمعات خليطاً بين المسيحين والمسلمين، أو بين المسلمين مع الوثنيين، بل وأحياناً بين المسلمين أنفسهم حينما يكونون تيارات مختلفة. فتكون مشكلة النظام الاجتماعي أنه لا يُخرج حلولاً وتصورات عن كيفية الاستقرار الاجتماعي وكيفية إدارة عملية التنازلات.

- **ثالثاً: التنمية:** وهي عملية تخطيط واسعة في المجتمعات، وتحتاج إلى عقول تهندس الموارد، وتهندس الطاقات، والقدرات، وتوفّر الوظائف، وتحشد المجتمع المحلي والإقليمي حتى لا يعترض التنمية.

فتبرز عندنا هنا فكرة المجتمع كمنتظم كامل يشتغل مع بعضه البعض كأول صورة نريد رسمها لما نسميه علم الاجتماع، أو التطور الاجتماعي السَّوِي.

وهنا يصل بنا المطاف إلى قضية مهمة جداً وهي الفكرة المركزية

ثانياً- الفكرة المركزية والفكرة المحفّزة

الفكرة المركزية:

تحدثنا سابقاً عن أن في كل مجتمع توجد موارد رئيسية (التراب، المجتمع، الوقت، الإنسان) وأن عالم أفكاره يقوده لضمان الوجود والاستقرار والتنمية، وأن الفكرة المركزية هي الخط الناظم لكل الأنشطة في المجتمع، فهي التي تُشكِّل في داخل المجتمع التصورات الكبرى، وتحكم تشكيل الأنظمة وتكييفها وإعطائها صبغة معينة.. ومع أن الفكره المركزية تتأثر بفعل التصورات الأساسية الحاكمة داخل المنظمات المختلفة، إلا أنها لا تشتغل في فراغ، بل تشتغل داخل المجتمع الذي تسكنه أفكار وتصورات ورؤى وأحزاب وطوائف وتجمعات مختلفة.. والفكرة المركزية هي توليفة يتم اختيارها وفق معايير هامة؛ لتضمن دوام وجود

المجتمع، ودوام استقراره وحصول التنمية فيه، ومن دون أن تتحقق تلك الشروط لا تكون فكرة قيام المجتمع ناجحة! فقد يصارع الناس من أجلها طوال عمرهم لكنها تعود عليهم بالفشل الذريع!

الفكرة المركزية	فكرة مركبة ومعقدة يفهمها قادة التخطيط في المجتمع، وهي بحاجة دائمة للمراجعة والتصويب، وأحياناً للاستبدال.
الفكرة المحفزة	تطلق طاقات المجتمع وتصل لأبسط الناس.

وليس هناك فكرة مناسبة تماماً أو غير مناسبة، ولكن درجات المناسبة تكون بقدر حفظ الفكرة لهذه الشروط الثلاثة.. فمثلاً الفكرة المركزية في ماليزيا تختلف عن الفكرة المركزية في تركيا؛ ففي تركيا بُنيت الفكرة على روح القومية، بينما في ماليزيا على التعددية العرقية، وإن الاثنتين لاتزالا صالحتين داخل هذه البيئات، ولكن لو نُقلتا لبيئات أخرى قد تحتاجان لتكييف آخر، فالفكرة المركزية وإن كانت في صيغتها العامة تحمل روحاً معينة، ولكن في تشكلها السياسي ستأخذ شكلاً يناسب البيئة التي توجد فيها؛ وسنفصِّل في مثال الصين كنموذج عملي، فالصين لديها الفكرة القديمة التي قامت عليها أيام "ماو تسي تونغ"، حيث اختارت الشيوعية كنموذج للعدالة، وقاد الحزب الشيوعي عملية التحوّل في البلد، والبدايات كانت كارثية بعد الثورة حيث نتج عنها مايسمى الإنسان الصنم، وبدأ المشروع الصيني يتجه في المسار ذاته الذي وصل إليه المشروع السوفييتي، من فقدان فاعلية المجتمع، حيث إن الفكرة الناظمة ظهرت فيها إشكالية، فالناس اندفعت للفعل، ولكن الخطة المرتبطة في حركة المجتمع كان فيها مشكلة، فاحتاج الموضوع منهم إلى مراجعات جذرية. فعالجوا فكرة الإنسان غير الفاعل، محاولين استقطاب بعضاً من نهج الرأسمالية المحفّز للفرد، المتعلق بقضية إطلاق طاقته للفعل وجعله إنساناً منتجاً. ليصبح السؤال هنا كيف أمكن إدخال هذه الفكرة الصالحة من الرأسمالية إلى النظام الشيوعي دون إسقاط النظام الشيوعي والفكرة

الأساسية الموجودة فيه؟ وهنا يأتي الإبداع الصيني حينما أخذ من الرأسمالية مع محاولة استبقاء الأفكار الأساسية للعدالة الاجتماعية، فلم يُبعِد الصينيون الفكرة المركزية، إنما عالجوها بحيث تصبح فاعلة في عصرهم. في حين أن هناك مجتمعات أخرى لا تستطيع أن تفعل ذلك فتدخل في فكرة غير مجدية في الواقع وتنهار الفكرة، ويبقى أهلها مصرّين على أنها مناسبة كما حدث في "الاتحاد السيوفيتي".

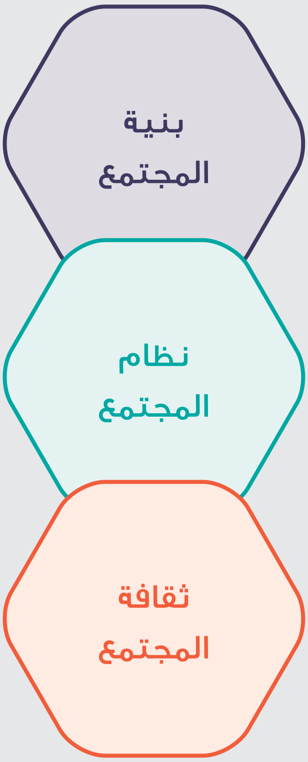
الفكرة المحفّزة:

إن المجتمعات تبحث عن أفكار كبرى تصبغ بها المجتمع تحقق بها ثلاثية الوجود والاستقرار والتنمية؛ وعن أفكار تحرك بها أفراد المجتمع نحو العمل المشترك والتضامني من أجل عبور العقبات التي تقف أمامهم

إن لكل مجتمع من المجتمعات هموماً خاصة به، وأوتاراً حساسة، إذا تم العمل عليها وصيغت بما يفهمه كافة أطياف المجتمع تحركت في الناس طاقة الفعل؛ فبعض المجتمعات تحركها روح القومية، وبعض المجتمعات عندها وتر حساس ديني، وبعض المجتمعات تحركها العدالة الاجتماعية، فإن الفكرة المركزية فكرة شاملة، أما الفكرة المحفزة فهي فكرة جزئية تجذب أكثر قدر من الناس إلى ساحة الفعل، وساحة الواقعية؛ بحيث تدفع بالناس شعوراً أنه بالإمكان إنجازها، وأنها تستحق أن يفعل الإنسان من أجلها ما يغير به واقعه، ففي يوم ما وجدت الاشتراكية من مظلومية العمال أداة لجمعهم على قضية أنهم مظلومون، وأن عليهم أن يتحركوا لتحرير أنفسهم من هذا الظلم. إن هذا النوع من الأفكار المركزية الجامعة التي تستطيع أن تحفز أكبر قطاعات المجتمع للفعل وجدناها أيضاً في الصين، فالمظلومية التاريخية التي تعتقد الصين أنها تعرضت لها حينما وقعت تحت هيمنة خمس دول كبرى، واحتُلت من قبل اليابانيين ولّدت فكرة المهانة الحضارية التي أدت إلى مزيد من الاعتزاز بكينونتهم كصينيين، وحفّزتهم بوجوب العمل للصين الكبرى، فخليط التحدي الذي نتج عن المهانة الحضارية التي تعرضت لها الصين مع اعتقادها بأنها أمة عظيمة.. أشعل لدى شعبها فتيل الطاقة للتحرك ولتبذل الجهد من أجل استرجاع المكانة الحضارية! وإن كل مجتمع يجد صيغة من

الصيغ لتحريك الجموع في اتجاه معين يحقق لها مصالح في مكان ما وفي لحظة تاريخية معينة، ونصل من هنا إلى مدخلنا لفكرة علم الاجتماع..

ثالثاً- علم الاجتماع



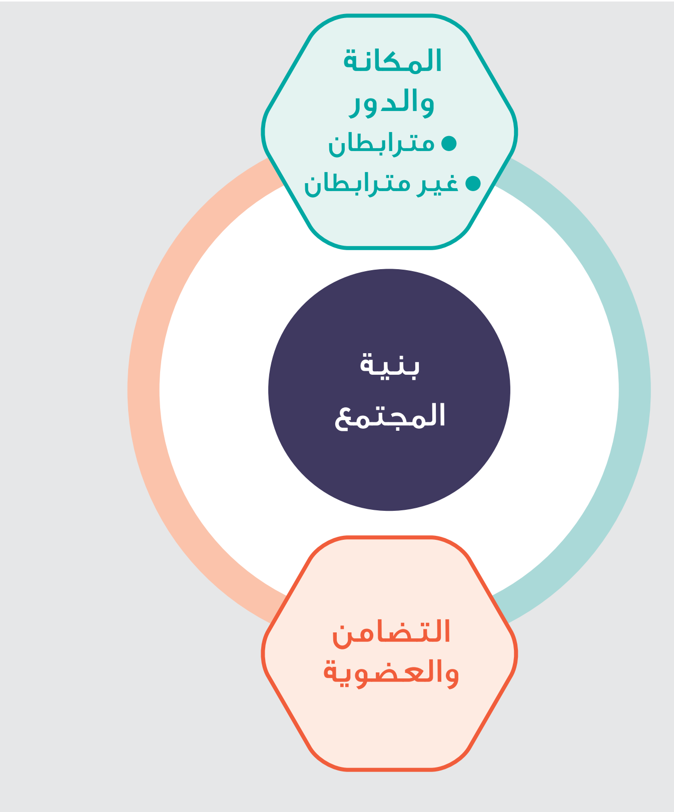
من أجل أن نفهم علم الاجتماع بشكل منظم علينا أن ننظر إلى المجتمع من ثلاث نوافذ مختلفة، إن المجتمع في شكله العام يبدو واحداً، إلا أننا عندما نوسع دائرة النظر وننظر إليه من عدة نوافذ، فستعطينا كل نافذة المنظر من زاويتها المختلفة عن زاوية النافذة الأخرى، بحيث ستساعدنا جميع تلك الزوايا على التفكير المنظم في شكل المجتمع وتقدمه..

1. النافذة الأولى: بنية المجتمع

إن أول قضية يُنظر لها من النافذة الأولى هي البنية الاجتماعية، وإن البنية الاجتماعية عبارة عن هرم تبدأ من الحاكم الذي يمتلك الصلاحيات والقدرات، ومن يأتي بعده من حكام ووزراء ومدراء وصولاً لبقية فئات المجتمع الوسطى والدنيا بحسب توزيع القوة والثروة في داخله.. فهو هرم صاعد تتركز فيه القوة والمال والقرار كلما اتجهنا تصاعدياً، وتقل كلما اتجهنا تنازلياً.. وإن هذا التصنيف للمجتمع ينفعنا في معالجتنا لقضايا اجتماعية عدة، منها:

المكانة والدور:

إن المكانة والدور في المجتمع القديم ليس بينهما علاقة حقيقية؛ بمعنى أن الإنسان يمكن له أن يكون وزيراً أو مديراً.. ولكن لم يتحصل على هذه المكانة بقدراته ومعرفته



وشهاداته.. فقد يستلم شخص ما أحد الأدوار في المجتمع، ويتوقع منه من خلال هذا الدور دراسة مستقبل البلد وموارده، ومستقبل الأجيال القادمة، أو التواصل مع الناس والاستماع لشكاويهم ورؤاهم، أو استقبال الوفود الخارجية وإعطاء رأيه بالقضايا الهامة.. ولكنه لايملك من هذا شيء، فهو غير مؤهل للقيام بهذه الأدوار، ولا يستطيع أن يفهم شيئاً منها؟! فهذه المكانة التي يشغلها لايستطيع أن يؤدي بها الدور المطلوب منه. وإن هذا الفصام بين المكانة والدور له أثره الوخيم في المجتمع مهما قلّت مساحته أو كبرت؛ فهناك قاعدة جديرة بالذكر هنا تقول "إن قوة أي سلسلة بقوة أضعف حلقة موجودة فيها"، فعلى افتراض وجود سلسلة متألفة من عشر حلقات قوية وواحدة ضعيفة، فإن دوام ارتباط حلقات السلسلة بعضها ببعض مرهون بتلك الحلقة الضعيفة، فضعف الحلقة الواحدة سيؤدي لتبعثر السلسلة. فإذا ما سُلِّم على سبيل المثال منصب قائد القوات المسلحة لمن لا يعرف بالعسكرية، ولا في الاستراتيجية، ولا التخطيط في بلد معرضة لاهتزازات أمنية كبيرة، فنتوقع أن يصبح الأمن الخارجي هشاً، وهذا يقاس عليه كل منطقة من المناطق، وكل حلقة من الحلقات، فنحن بحاجة لأن نصلح الخلل، وأن نجسّر علاقة الدور بالمكانة بعلاقة وطيدة متينة لكي نحافظ على المجتمع.

التضامن والعضوية:

إذا أمعنا النظر في بنية المجتمعات، نجد أن مجتمعات ما قبل الحداثة تسمى مجتمعات التضامن "Solidarity"، فمثلاً لو كنا في قرية أو في حي من الأحياء القديمة فلن نجد مشفى تخصصياً نسائياً للولادة، ولن نجد شركات بناء محترفة، أو عمال للنظافة محترفين،

> إن فكرة الدور والمكانة الاجتماعية أداة جيدة للنظر إلى مجتمع ما، ومعرفة أين يتجه في خارطة التقدم أو التخلف

ولا شركة كهرباء.. وبالتالي سيسود في داخل هذه المجتمعات سلوك تضامني؛ فعند حالة الولادة تأتي إحدى الجارات للتوليد، وأخرى للخدمة، وجميعهن لسن مختصات ولا يتقاضون أجراً.. وفي حالة سقوط جدار سيحضر الجيران أيضاً للمساعدة في البناء والترميم، وكذلك في موسم الحصاد والحرث.. فباستمرار هو مجتمع تضامني ليس فيه تخصصات، فالعلاقات فيه مبنية على القرابة والدم، يتساعد الجميع بالمهام بناءً على الأريحية والعلاقات الاجتماعية. فهو مجتمع يعتمد على القوة الذاتية المتوفرة لشخص ما في داخل البيئة. أما المجتمعات الحديثة ففيها تخصصات دقيقة؛ فمهندس الديكور يختلف عن مهندس البناء وعن مهندس الكهرباء، وحتى القانون المختص بحل المشكلات بين الناس يتفرع إلى تخصصات متنوعة.. وإن هذا المجتمع الحداثي الموجود يسمى مجتمعاً عضوياً؛ لكونه أشبه بتنظيم الجسد، حيث لا يمكن أن تقوم الرئتان بعمل القلب، ولا القلب بعمل العيون، ولا العيون بعمل الكلى، فكل شيء في هذا الجسم العضوي له تخصص محدد يقوم به ولا يقوم بغيره.

وهناك نمط ثالث لن تجدوه في الكتب هو نمط المجتمعات العالقة في الوسط، وهذه مجتمعاتنا نحن، التي يتم فيها الخلط بين النظام التضامني وصورة الأنظمة العضوية، فمثلاً إذا تقدّم أحد الناس لوظيفة ما على الانترنت غالباً مايحاول البحث في معارفه عن موظف في هذه المؤسسة، فهو يريد جزءاً من النظام القديم ليستصحبه معه في النظام الجديد لكونه يعلم أن النظام الجديد ليس نظاماً صرفاً ففيه الشكل الخارجي فقط، فثقة إنسان تلك المجتمعات في وجود هذا النظام الحديث غير موجودة..

إذاً علينا أن ننظر من المنظار الأول لبُنيان المجتمع وندرك الفرق بين المكانة والدور، لأننا بحاجة للتوفيق بينهما، فعضوية المجتمع كي تتحقق بحاجة لضبط التجسير بين الدور والمكانة، والإنسان الذي أتى لمكان لا يجيد دوره فيه سيديره بالنظام التضامني القديم، والنظام القديم سيوصل شخص ما إلى مكانة لا يجيد دورها.

إن المجتمعات العالقة بحاجة لدراسات خاصة تغطي الحد الوسط الذي لم تغطيه الدراسات الغربية، فإن استمرار الجمع بين القديم والحديث هو استمرار في السير على خطين لا يلتقيان.

2. النافذة الثانية: نظام المجتمع

ذكرنا سابقاً أن المجتمعات المتخلفة تميل إلى التكديس، بينما المجتمعات الحديثة تنظر للترابط والنظام بين مكونات المجتمع.. وسنقوم هنا بقليل من التفسير والتوضيح بهذا الخصوص..

إننا في المجتمعات العربية كنا قد أحضرنا نظم تعليم مدرسية للابتدائية والإعدادية والثانوية، وهذه النظم أتتنا من فرنسا، وهي نُظُم تفضي إلى دخول الجامعة، والجامعة هي أيضاً نظام حداثي أحضرناه من الغرب يفضي بخريجيه لأن يذهبوا إما كموظفين في القطاعات الخاصة، وإما للقطاع الاقتصادي الحر، أو للقطاع العام الحكومي بما فيه الجيش والقوات المسلحة، وإن حاجة الجيش والقطاع التجاري للمؤسسات البحثية والباحثين داخل المجتمع نابعة من احتياج تلك القطاعات لإجابات عن أسئلة متعلقة بالتقدم وبالعسكرية والحروب، فيعودون بأسئلتهم تلك على مراكز البحوث والدراسات والتصنيع، التي تقوم بدورها في الإجابة عن الأسئلة لتتطور الحياة الاقتصادية والحياة العسكرية في داخل المجتمع، فالمجتمع يصبح نامياً بفضل الترابط الحاصل بين مؤسساته؛ فالمنزل يعدُّ طفلاً بمواصفات معينة، والمدرسة تصقله بمهارات وعلوم أخرى، والجامعة تكمل تلك المسيرة، ومن ثم بيئة العمل تشترط شروطاً خاصة لها، فالقطاع الحكومي والقطاع البحثي لكل منهما شروطه الخاصة، كما ينتظر قطاع الأعمال والجيش والقوات المسلحة دعماً من هذه الفئات المجتمعية في داخل هذا البنيان، والمهم وجود ترابط حقيقي بين كل طرف من هذه الأطراف وبين المنظومة المتكاملة.. والسؤال هنا أين مكان بلادنا من هذا الترابط؟

سنبدأ من سؤال: هل قطاعات الأعمال والجيش والقوات المسلحة في مجتمعاتنا تطرح أسئلة حقيقية على مراكز البحوث الموجودة داخل المجتمع؛ بحيث تصب تلك المراكز البحثية بمخرجاتها داخل إطار الجيش والاقتصاد الموجود؟ أم أن العلاقة بينهما مفككة؟

إن تلك الجهات في بلادنا تبحث عن إجابات في الخارج، وهي لا تريد شيئاً من المراكز البحثية الموجودة في الداخل! إذاً لماذا الجامعة ستخرّج باحثين من الفئة "أ" وباحثين من الفئة "ب"؟ لمن سيعمل أولئك الخريجون؟ وبالأساس لماذا سنحتاج إلى مراكز بحثية إذا كنا بطبيعة الحال سنحضر الإجابات جاهزة من الخارج؟!

> في داخل مجتمع النظام يوجد تتابع؛ فكل طرف فيه يسلم الراية لمن بعده، بينما في مجتمعات التكديس فإن الأطراف مفصولة عن بعضها البعض لاعلاقة بينها

- إن تلك المراكز التي نسميها مراكز بحثية ليس لها وظيفة حقيقة، وبالتالي فإن أي شخص يعمل في هذه المراكز يدرك أنه لن يطلب منه إلا القيام بالشكل الخارجي للوظيفة!

- وإذا أخذنا مثال الأسرة في مجتمعنا نجد أن الأسرة تعدّ طفلاً صغيراً بمعارف ومهارات قد لا تلبي الحد الأدنى الذي تحتاجه المدرسة الابتدائية، وبالتالي تخفّض المدرسة الابتدائية شروط أخذها لهذا المُخرَج، وكذلك المدارس الإعدادية والثانوية والجامعة كل منها سيخفض شروطه بما يتناسب مع ما قبله، فتنخفض الشروط ليبدو البناء الاجتماعي متخلفاً وغير فعال، أما في المجتمعات الحديثة فهناك ترابط عميق جداً بين كل هذه البُنى، وبالتالي تغدو الحاجة للمصنع، والحاجة للجيش، والحاجة للعسكرية جميعها تصب في المراكز البحثية، وبالمقابل تطالب المراكز البحثية الجامعات بمستوى محدد من الباحثين ، وتتتابع السلسلة.. فالجامعات تطالب الثانويات، والثانويات تطالب الابتدائيات، والابتدائيات تطالب المنزل..

إذاً إن فكرة النظام فكرة أساسية نطلُّ بها على المجتمعات، ونعرف من خلالها إن كان المجتمع هو مجتمع تكديس أم مجتمع نظام، فكلا المجتمعين يحمل في داخله المسميات ذاتها، ولكن في داخل مجتمع النظام كل شيء يصب في الآخر؛ وكأن هناك سباق تتابع، كل شخص يسلم الراية لمن بعده، بينما في مجتمعات التكديس فإن كل الأشكال موجودة ولكنها أشبه بقطع غيار السيارة، فمهما حَسُنَت هذه القطع وعلت جودتها، واكتملت، إلا أنها في النهاية قطع متفرقة لا ترابط بينها لتشكل سيارة كاملة..

3. النافذة الثالثة: ثقافة المجتمع

إن ثقافة المجتمع في عمقها تعني "النظرة للحياة"؛ بمعنى إذا أردنا أن نقيم ثقافة مجتمع ما نتوجه إلى نظرته للحياة التي تتمثل بأمور عدة نسميها "المناظير الثمانية" وهي:

- **نظرة المجتمع للإنسان:**

أي كيف ينظر المجتمع للإنسان؛ فلو غابت الكرامة الوجودية مثلاً، فسينظر الأزواج لبعضهم بطريقة مختلة، وسينظرون للأولاد على أنهم أشياء وممتلكات، وسينظرون للسائق والخادم على أنهم جزء من منظومة الرقيق، وكذلك النظرة للإنسان الغريب في الشارع فلن ينظر إليه كإنسان له كرامته. وإن هذه النظرة للإنسان هي أهم ما يميّز مجتمع عن مجتمع آخر، وإذا ما اختلت، انعكس ذلك على بقية الأشياء الأخرى الموجودة.

- **النظرة للعلم/ النظرة للطبيعة:**

ونظرة المجتمع للعلم هو أمر في غاية الخطورة والأهمية؛ فالمجتمعات المضطربة علمياً يمكنها أن تؤسس الجامعات، ولكنها لن تخرّج علماء يبحثون في العلم وفي الطبيعة وفي المادة، أو في القوانين التي تحكم الكون وتعمّره. فنحن بإمكاننا أن نحضر أحدث الجامعات من الخارج ولكن قد تبقى النظرة الخرافية للأشياء هي النظرة السائدة في مجتمعاتنا.

- **النظرة للعمل/ النظرة للوقت:**

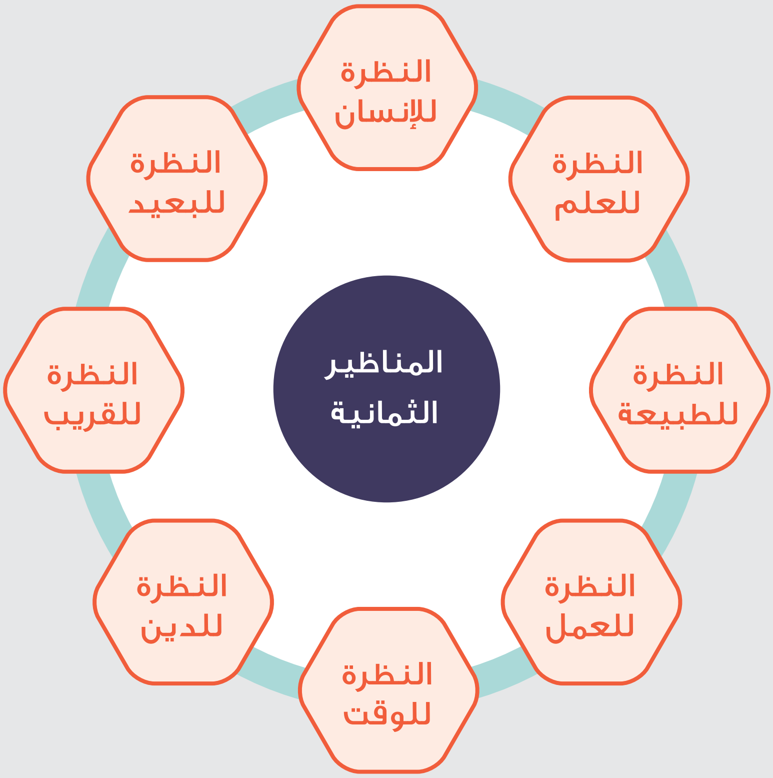
هناك مجتمعات تنخفض فيها قيمة الوقت والعمل بشكل وراثي، فالمجتمع يتوارث عدم الإحساس بالزمن وبالقضايا الرئيسية الكبرى التي تصنع المجتمعات، فلا يُتّجه بتلك المجتمعات نحو العلم أو نمو الإنسان.

- **النظرة للدين:**

فهل الدين في المجتمع قوة فاعلة لدفع الإنسان للعمل والعطاء وللإحسان والسباق {أيكم أحسن عملاً}، أم هي قوة قصور ودفع نحو الانعزال.

- **النظرة للعلاقات البينية (الداخلية):**

فهل ثقافة المجتمع تدفع للوحدة الوطنية أم تدفع نحو العكس؟!



النظرة للآخر البعيد:

المتمثلة بالنظرة للمجتمعات والحضارات الأخرى؛ فهل البنية الثقافية تقوم على الاستفادة من الآخرين ومن تجاربهم، أم تسعى إلى بناء قلاع وحصون أمام الآخرين وإنشاء معارك معهم؟!

فعلينا معرفة ثقافة مجتمع ما إن كانت موروثة أم ثقافة منتقاة؛ بمعنى هل هي فقط ما ورثناه من الماضي بجهل أم ما اخترناه بناء على احتياجاتنا وتوجهاتنا؟ فالمجتمعات الحديثة قد قامت باختيار القيم وتركيزها على أساس أن تصنع المواطن المناسب لنهضتها، وبالتالي هي لا تتوه في المسميات العديدة، إنما تركّز على قيم أساسية معدودة تطرحها في داخل المجتمع وتعتني بها بعيداً عن منظومة مطلقة من القيم لا يعرف أحد أولها من آخرها، فيُعرَف بالمجتمعات المتقدمة المطلوب في كل دائرة بوضوح، بدءاً من الأسرة مروراً بالمدرسة والجامعة وصولاً للسياق الاجتماعي، فتصنع نهضات المجتمع بالتصميم والتخطيط وليس

عن طريق الصدفة، أما مجتمعات ما قبل الحداثة فتأخذ موروثها ومن دون تنقيحات بل تعزز الأخطاء وتعيد تدويرها مرة أخرى.



عند النظر للهيكل العام للمجتمع علينا أن ندرك

ماذا يعني أن ننظر للنظام فيه؟
وماذا يعني أن ننظر إليه كبنية تتوزع فيها المكانات والأدوار؟
وماذا يعني النظر إليه على أنه مجموعة قيم تربط هذا البناء ببعضه؟
فإذا فهمنا هذه القضايا في المجتمع نكون قد وصلنا لمنطقة هامة، وأساس لابد منه في علم الاجتماع؛ لأنه حينما يعرف الإنسان ما الذي يقصد من "النظام"، وما الذي يقصد بـ"البنية" وما المقصود بـ"الثقافة"

فعندها يستطيع الإنسان أن ينظر إلى مجتمع ما بطريقة علمية، ويقيّمه من خلالها، مدركاً مواطن الزلل والنقص، ومواطن القوة فيه.

رابعاً- نظرية النخبة

حاولنا في الفقرات السابقة مشاهدة المجتمع من ثلاثة نوافذ أساسية؛ نافذة البنية، ونافذة النظام، ونافذة الثقافة، وقلنا إن غاية النظام الاجتماعي ضمان الوجود، وضمان الاستقرار، والتنمية.. وأن الفكرة المركزية التي تصبغ المنتظم الاجتماعي من أدوارها التمكين لهذه الثلاثية..

وسنتناول فيما يلي أموراً مهمة أخرى في علم الاجتماع، وهي من الضرورات التي يحتاج الإنسان إلى اصطحابها معه وهو يفكر في وضع المجتمعات التي نعيش بها..

إننا كثيراً ما نستمع إلى "سيناريو القوة الضخمة التي تسيطر وتتحكم" - حتى في البلاد الغربية -، وهذا الطرح هو مفاد نظرية في العلوم السياسية اسمها "نظرية النخبة"، وهي من أهم النظريات الموجودة، ولكن كثيراً ما يتم تجاوزها أو تجاوز أجزاء منها في منطقتنا العربية.. فإن نظرية النخبة قد تطورت عبر الزمن وتجلّت بتجارب واقعية حريّ بنا أن نتتبعها بدقة..

عند البحث في نظرية النخبة نجد أنها تطال الدول الغربية بما فيها "الولايات المتحدة الأمريكية"؛ فنجد أُسراً غنية تمتلك الشركات الكبرى لاسيما شركات النفط، ويقف وراءها المجمع العسكري الأمريكي الشهير، والقيادات الكبرى، فتشكل كياناً قوياً يقود المجتمع من خلال ما يموّله ويمتلكه من مراكز بحثية، ومؤسسات إعلامية، وجامعات، وأحزاب سياسية.. ويتحكّم بدوائر المجتمع من خلال التأثير بالرأي العام أثناء التصويت، فيدعم من المرشحين من يضمن أن يحقق مصالحه بالشكل الأفضل. وإن هذا أساس العملية الديمقراطية في الغرب، وبالتالي الغرب ليس حراً، والموضوع بحقيقته عبارة عن عملية دكتاتورية كالموجودة في بلادنا إنما بإخراج مختلف!

وإن النخبة التي نتحدث عنها ليست نخبة واحدة مهيمنة تتجه نحو ذات المصالح مشتركة، إنما هي نخب متصارعة، فتدعم كل نخبة الطرف الذي يحقق مصالحها، وتتراوح فترات القوة فيما بينها، فهذا السيناريو الأقوى أمام الأمثلة الحية التي نشاهدها؛ فـ "هيلاري كلينتون" مثلاً قد تم إخراجها من السباق أمام "ترامب"، علماً أنها حازت على أصوات أكثر منه! وأيضاً قد تم إخراج "ترامب" أمام "بايدن" في الدورة التالية.. فلو كانت نخبة واحدة هي المتحكّمة

فقط لكشف الطرف الخاسر عن هذه النخبة التي تقوم بالعمليات غير الشرعية، فلو كانت قوة واحدة لكانت بحاجة "شيفرة للصمت" وهذا مستحيل في دولة كأمريكا، فلو كانت قوة واحدة لتم الإفصاح عنها، ولأفشي سرها منذ زمن.

هابرماس واليسار الغربي:



إذا طورنا النقاش ودخلنا في نظرية النخبة بشكل أكبر للبحث عن أفضل من ناقش النظرية ، وحاول أن يجد لها حلولاً في هذا العصر، سنجد أن أشهر المؤسسات التي تتابع هذا الموضوع بدقة هي المجموعات الثقافية اليسارية الموجودة في الغرب، وأشهر شخصيات تلك المجموعات هو "هابرماس" الذي يرى أن في داخل الولايات المتحدة الأمريكية مشكلة حقيقية مع الديمقراطيات المعاصرة، والمشكلة في حقيقتها تكمن في كون اللعبة تُدار من خلال قوة تمتلك الإعلام والطاقة ودوائر أخرى مؤثرة في المجتمع.. وبالتالي لديها القدرة على توجيه وعي الناخبين نحو الاتجاه الذي تريده حتى لو كان في عكس مصالحهم.

فطرح "هابرماس" نظريته التي يرى بها أن سبب عدم فاعلية القوى الاجتماعية الضخمة في توجيه الرأي نحو مصلحة المجتمع هو فقر القوى الاجتماعية بالمعلومات عن الأوضاع، وعدم تداول النقاشات معها بشكل حر.. وبالتالي إذا ما وجدت آلية تواصل مع عمق المجتمع الأمريكي فحينها يمكن النهوض بطلبة الجامعات والمؤسسات المدنية لدوائر فعل أكثر نضجاً في اتخاذ القرار وتوجيه دفّته، واختيار القيادات التي تمثله. والمجتمع الأمريكي يمتلك الأدوات والقوة اللازمة بوفرة؛ مثل السينما وتلفاز ومسرح، وقنوات فضائية.. وبالتالي يقترح "هابرماس" تفعيل هذه الأدوات من خلال نظرية يسميها "الفعل التواصلي"، حيث يدعو من خلالها لتوظيف هذه الأدوات لجعل النقاشات تنزل لأدنى مستوى بحيث يستطيع أي إنسان عادي التعرّف على خبايا الأحداث والقرارات المؤثرة، فيتشكل بالمجتمع فئات ناخبة واعية بصنع القرار، تستطيع إنقاذه

من هذه العجلة المصمَمَة لتزييف وعيه.. ومانشهده اليوم من صراعات ضخمة في داخل النظام هي نِتاج الأدوات التي تُوفِّر للجماهير من أجل الحراك والتغيير..

نظرية النخبة اليسارية (المركز والأطراف):

إن نظرية النخبة في المجتمعات المتقدمة قد ناقشت الأوضاع بشكل علمي وموضوعي، كما شاهدنا في المثال السابق، ولكن إذا عدنا إلى الوراء قليلاً سنجد أن نظرية النخبة سابقاً اختلفت في طريقة تداولها للحلول..

إن الذي نظّر لنظرية النخبة القديمة هم مجموعة ثوار من أمثال "ماركس" ومن حوله، وتقول هذه النظرية إن المراكز الاستعمارية التي تبدّلت عبر التاريخ؛ من بريطانيا إلى الولايات المتحدة وقبلهم إسبانيا وفرنسا.. هذه القوى العملاقة هي التي صنعت الرأسمالية الدولية، فاحتلت العالم وحولته لما يشبه المركز والأطراف؛ فصنعت النخب الموجودة في المدن الكبرى في العالم (دول المركز)، وأقامت علاقة تبادلية بحيث تأخذ المواد الخام والأيدي العاملة من (دول الأطراف) الفقيرة بأرخص الأثمان إلى دول المركز، لتصنَّع فيها ثم تعود لدول الأطراف وتباع ثانية كبضائع بأغلى الأثمان، وبالتالي يستمر ضعف الأطراف ويقوى المركز باستمرار نتيجة تدفّق الأموال إليه!

وإن هذه النظرية حاصلة أيضاً في المدن التي صنعها المستعمر، فالنخب في مركز المدن تقوم تجاه الأرياف بالعملية ذاتها؛ فتأخذ المواد الخام والأيدي العاملة بأقل الأسعار، ثم تعيد بيع هذه الأشياء إلى الأرياف بأغلى الأسعار! فالعملية التي تتم بين النظام الدولي والمدن، تتم أيضاً بين المدن والأرياف!

وقد جاء الاقتراح اليساري التاريخي إزاء هذه المشكلة بأن تقوم ثورة عمالية داخل البلدان، وثورة على النظام العالمي بحيث تهدم المجتمع على رؤوس هؤلاء، وتبني المجتمع الجديد مثلما فعلت كوبا، ومثلما فعلت روسيا القيصرية، فكان نداء الشيوعية "ياعمال العالم اتحدوا"، وقد تمت هذه المحاولة على أيدي "الاتحاد السوفيتي"، فدعا العالم للثورة، ولتشكيل اتحاد عمال ضخم يسيطر على العالم، ولكن النظرية انهارت ولم تنجح، لتعود روسيا نفسها اليوم إلى نظامها القديم كدولة رأسمالية!

نظرية النخبة في أمريكا الجنوبية:

بدأت هذه النظرية بدعوة ثورية كبرى على المركز الذي يستغل الأرياف، وهذه الدعوى أدت لقيام مجموعات عسكرية توزّعت في الغابات، وتمثّلت بثوار كبار من أمثال "تشي جيفارا" وغيره من المقاتلين الشرسين، إلّا أن النظريات تتطوّر ولا تقف عند ذلك، فقد برزت إشكاليات على هذه النظرية منها مايقول بأننا حتى ولو غيرنا النخبة الموجودة في داخل المدينة بنخبة جديدة، فإن هذه النخبة ستصاب بالأعراض ذاتها لأنها تعيش في النظام الدولي الحالي نفسه، وستبتلى بالمشاكل نفسها الموجودة عند النخبة السابقة، وإن تعديل الأوضاع لن يتم بكيفية الثورة، لأن الثورات جُرِّبَت من قبل ولم تنتج إجابات لمعضلات التخلف الموجودة في هذه المجتمعات، فطرحوا حلاً مركباً لدول العالم الثالث يتجلى في عدة إجراءات:

- **أولاً- تقليص الاستغلال بالتفاوض:** فيتم التفاوض بين النخب الواعية باحتياجات المجتمع، وبين النخب صانعة القرار في المدن بعيداً عن الحروب، في سبيل تقليص الاستغلال، وزيادة العائد على الأرياف.
- **ثانياً: إنشاء أسواق ذاتية:** والعدول عن فكرة اعتبار أن السوق الدولية مع مراكز الاستعمار هي السوق المعتمدة، فإن دول العالم الثالث تستطيع أن تخلق بينها أسواقاً توفر لها قَدر من العدالة وقدر من العوائد تسمح لها بأن تطور ذاتها وتطور المجتمعات الموجودة..
- **ثالثاً: نبذ الحلول البدائية وتتبّع الحلول المطروحة:** إن النخب في دول العالم الثالث بحاجة لأن تدرك أن نظرية المؤامرة التاريخية الكبرى في مجالها العلمي وجدت تعديلات جوهرية سواء في الولايات المتحدة أم في أمريكا الجنوبية، وهذه المجتمعات التي لازالت تتحدث بالحلول القديمة إما أنها لا تقرأ كثيراً، أو أنها لا تريد أن تتطور فتعيش في إطار الضحية باستمرار!



المسارات فيها واقعية جيدة وأمل كبير، وخاصة مع تجربة الصين العملية في تعديل المسار الشيوعي إلى مسار رأسمالي شيوعي إلى حد ما، ومع تجربة الفتنام وماليزيا..

فإن جميع هذه التجارب قد دمجت بين منظمات مختلفة، وحصدت أملاً جيداً أكبر من أمل الصراع التاريخي السابق.

وعلينا بدورنا في بلادنا العربية أن ننتبه من كوننا لا نزال نغرّد بلغة الستينات التي طرحها اليسار الغربي منذ زمن، وطالتها التحديثات مع العصر الجديد، فلربما اللغة التاريخية لاتزال هي السائدة في منطقتنا العربية، وهذه اللغة لا تستبطن النظرية بتطوراتها، إنما تعالج فترة زمنية من مراحل تطورها!

السياسة



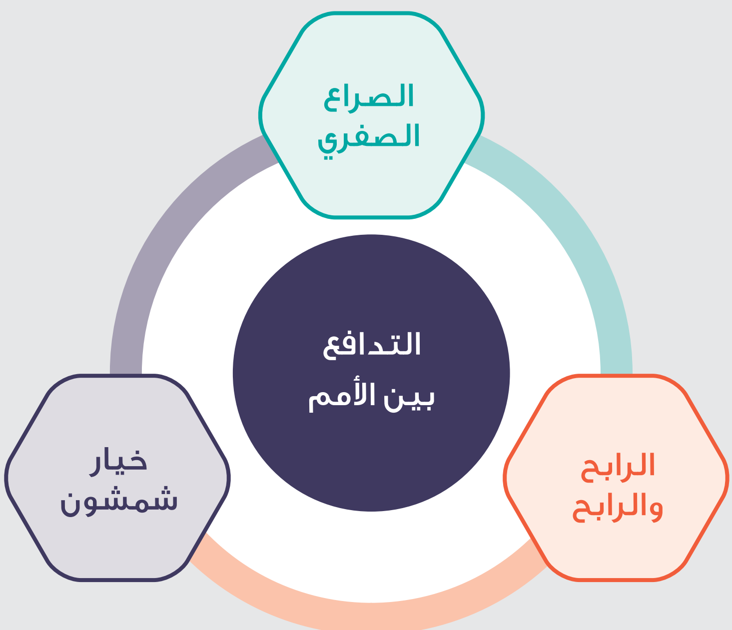
أولاً- السياسة والتدافع ومرتكزات القرار السياسي

كثيراً ما ترِد أسئلة من أشخاص من بلدان مختلفة عن إمكانية الفعل والتأثير في ظل الظروف السياسية الحاصلة في بلادنا اليوم، لاسيما في سوريا وليبيا ومصر وغيرها من البلدان التي تحمل ظروفاً وأوضاعاً خاصة..وهنا لا بد لنا من مسطرة نحاكم إليها القرارات والأفعال المتعلقة بالسياسة، ولا بد من دراسة هذه المساحات المتعلقة بالتدافع والقرارات السياسية.

وسنمر برحلتنا التأسيسية على بعض المحطات التي نحتاج فيها لمعلومات أساسية تزيد عمّا نعرفه ونتداوله عادة، وسنبدأ بأنواع الصراع وأنواع التدافع بين الأمم في العالم..

إن اتخاذ قرارات الحرب والسلم ليست بالقرارات اليسيرة، وللتدافع أو الصراع بين المتخاصمين ثلاث صور أو أنواع، نوجزها فيما يلي..

أنواع الصراعات السياسية في العالم



الصنف الأول: الصراع الصفري

وهو الصراع الذي يؤدي إما للربح أو الخسارة دون خيار ثالث؛ فيحدث حينما يرى طرف من الأطراف أن المعادلة بالنسبة له ليس لها حلول عاقلة، فيقرر إخضاع الطرف الآخر دون قيد أو شرط، فمثلاً بريطانيا كان خيارها في الحرب العالمية الثانية بمقابل هتلر صفرياً، فهتلر ليس من النوع الذي يمكن التفاهم معه أو مهادنته، فهو يريد أن يحتل المنطقة دون خيار آخر، وكذلك الصراع الصهيوني الفلسطيني، فإسرائيل أرادته صراعاً صفرياً وتريد أن تحله على المدى الطويل. فهناك صراعات لا تنتهي إلا بحلول جذرية، وهذا يسمى صراعاً صفرياً.

الصنف الثاني: صراع الرابح والرابح "Win win"

في هذه الصراع يخرج كل طرف من أطراف المعادلة كاسباً لشيء ما، وبالتالي بقدر رضاه عن الجزء الذي أخذه يستمر السلام لسنوات طويلة لاحقاً، فالأمريكان مثلاً بعد انتهاء الحرب حاولوا أن يعطوا بعض المكاسب للدول التي يحتاجونها من أجل توازن المعادلة الدولية، وبخاصة ألمانيا، واليابان، ولم يُحوِّلوا الصراع معهم إلى صراع صفري كصراعهم مع العراق.

وإن النظام الدولي المعاصر في شكله الخارجي انبنى على فكرة أن الفاعل السياسي هو فاعل رشيد وعاقل، ولديه مصالح يحترمها، وبالتالي يمكن الكلام حول مصالحه ومصالح الآخرين، فتدور النقاشات بين القوى الدولية المختلفة كل بحسب وزنه، فيأخذ كل حصّته من السوق العالمية بما يكفل له القدر الأدنى من احتياجاته في الدولة.

الصنف الثالث: خيار شمشون

تدخل بعض الجهات اللعبة السياسية بقناعة إما أن تربح هي وإما أن لايربح أحد، فيحدث دماراً شاملاً بين جميع الأطراف ولا يربح من العملية أحد، وهذا مايسمونه خيار شمشون (عليَّ وعلى أعدائي)، وهذا يحدث فيما يسمى حركات النضال الوطني بشكل كبير، وبين الأطراف المتعددة حينما يتقاتل أناس الغابات في جهة والحكومة في جهة أخرى، وتأتي التكلفة البشرية عالية.. فحينها تستمر الحروب وتستنزف المجتمعات لمدى زمني طويل، ثم لتعود بعد عملية التفاوض من جديد بإيجاد حل وسط وإقامة حكومات توافقية بين الموجودين. وهذا

كما حدث في سوريا فكانت جميع الخيارات متاحة بالنسبة للنظام السوري مقابل أن لا تحصل المعارضة على ما تريد.

فالخيارات متنوعة إزاء الصراعات السياسية في العالم، ونحن بدورنا علينا أن نعي الخيارات جيداً وندرك أنواع هذه الصراعات وبأي اتجاه ستسير.

تعريف السياسة

إن تعريف السياسة أمر في غاية الأهمية، إلا أننا نجد في كتب علم السياسة اختلافات كثيرة حول تعريف السياسة، ولنعرف إلى ماذا تؤول هذه التعريفات نسوق بعضاً منها:

- هناك من يعرف السياسة بأنها "فن إدارة الدولة"

- وهناك من يقول إن السياسة "فن توزيع القوّة بين الأطراف المختلفة"، وإن كلا التعريفين يفضي أحدهما للآخر؛ فالدولة في نهاية المطاف عبارة عن السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وكل طرف منها بحسب الدستور لديه صلاحيات محددة، وبالتالي قادر على أن يوقِف الطرف المتغوّل إن تجاوز حده، وقد تتواجد السلطة الرابعة المتمثلة بالإعلام وبحريته، والسلطة الخامسة المتمثلة بالمجتمع المدني.. وإن توزيع القوة بين هذه الأطراف المختلفة هو فن إدارة الدولة، حيث تُحدد صلاحيات وسلطات الجهاز التشريعي والجهاز التنفيذي، وبالتالي تُحدد سلطات الجيش والقضاء الممنوحة لهم، وحدود قوّتهم ومن يستطع أن يوقف قوة ما إذا طغت على القوانين العامة؛ أي بعبارة أخرى هل هناك توازن بين الأطراف ونظام مراقبة بينية أم أن هناك اختلالات لصالح جهة معينة تؤدي لأن يقف النظام على قدم واحدة؟ وإن كان قد يبدو في شكله الخارجي متوازناً؟ فإن الدول الناجحة، توزع هذه القوة بطرق أكثر فاعلية وكفاءة لإنتاج ثلاثية؛ الوجود والاستقرار والتنمية، بحيث يأخذ كل طرف من الأطراف حصّته من القوة، ويكون نداً لبقية الأطراف الموجودة في المعادلة السياسية، بينما الدول الأكثر فشلاً تفشل في توزيع السلطات، فقد تتركز السلطة في يد شخص واحد وبالتالي يختل التوازن في داخل السلطات وتتعرّض لانتكاسات كبيرة جداً.

- هناك من يعرّف السياسة بأنها "فن التفاوض"، والتفاوض يتم على أوراق القوة لدى كل طرف سواء إن كانت أطراف داخلية أو أطراف أخرى، والتنازلات تتم عادة بين الأطراف

بحسب وزن القوة الموجودة لديهم، وتنخفض القدرة على التفاوض كلّما قلت أوراق القوة.

- هناك من يعرف السياسة بأنها "فن التنازلات"، وهذا يقودنا إلى النقطة السابقة ذاتها، بحيث إن الأوراق الضعيفة يمكن أن تُسلَّم وبسهولة، في حين يُحتفظ بالأوراق القوية، وكلما استطاع طرف ما أن يحتفظ بأوراق القوة عنده كلما كان لاعباً سياسياً أكثر كفاءة في اللعبة المحلية أو الدولية.

- والبعض يعرف السياسة بكونها "فن حيازة القوة والمحافظة عليها وحسن استخدامها"..

وإننا لو نظرنا في داخل جميع المفاهيم المتضَمّنة بالتعريفات سنجد فكرة القوة حاضرة فيها، فالسياسة شيء متعلق بالقوة، ولنمسك الموضوع من أطرافه فإننا نحتاج إلى أن نعرّف القوة.

ليس المقصود بالقوة هنا نظام الغابة ، إنما هي القدرة على التأثير؛ أي قدرتنا على تحريك الآخر في اتجاه الطرف الذي نريده، فكيف يُستَحوَذ على القوة، وكيف يُحافَظ عليها، وكيف توزّع بين الأطراف الموجودين في داخل الدولة وخارجها.. هي من مباحث السياسة الهامة.

فاليوم على سبيل المثال هناك صراع ضخم جداً في اليمن يدور بين المجموعة الحاكمة في صنعاء وبين ما يسمي "الشرعية" في محاولة فرض الإرادة من الطرفين على بعضهم البعض، وإن عدم القدرة على حسم النزاع لصالح أحد الطرفين بطريقة واضحة جعل الصراع يطول لمدى زمني طويل جداً، فتستمر عملية الاشتباكات والاستنزاف بين القوى الموجودة، فإذا رجحت كفة أحد الطرفين واستطاع أن يفرض إرادته على الطرف الآخر فهذا يعني امتلاكه للقوة.

ومن القوة السياسية مثلاً أن يكون لدينا القدرة للتأثير على الصهاينة بأن يتزحزح موقفهم تجاه حل عادل للقضية الفلسطينية، فهذه إذا وجدت نسمّيها قوة سياسية، فعلوّ كفة أحد الطرفين واستطاعته أن يفرض إرادته على الطرف الآخر فهذا يعني امتلاكه للقوة.

عناصر القوة:

لمزيد من التعرف على القوة جدير بنا أن نتعرف على أدواتها، فللقوة ثلاثة أدوات تتفرع عنها جميع أشكال القوة، وهي:



1. المنطق وأدواته:

وهي قوة أساسية وفاعلة ذات تكلفة قليلة، فإذا ما استطاع طرف من الأطراف إقناع أناس معينين بصوابية حجته ورأيه، وصلاحية الموضوع الذي يطرحه عليهم، فحينها تكون استجابتهم تلقائية وطويلة الأمد، وبالتالي تكون التكلفة قليلة والعائد كبيراً، وإن أدوات الإقناع التي تستخدمها الدول تتمثل بالإعلام، وبالمفاوضات السرية والعلنية، والدبلوماسية المباشرة وغير المباشرة.. فإن جميع هذه الأدوات هي أدوات إقناع لطرف من المعادلة السياسية برأي من الآراء الموجودة.

2. المال:

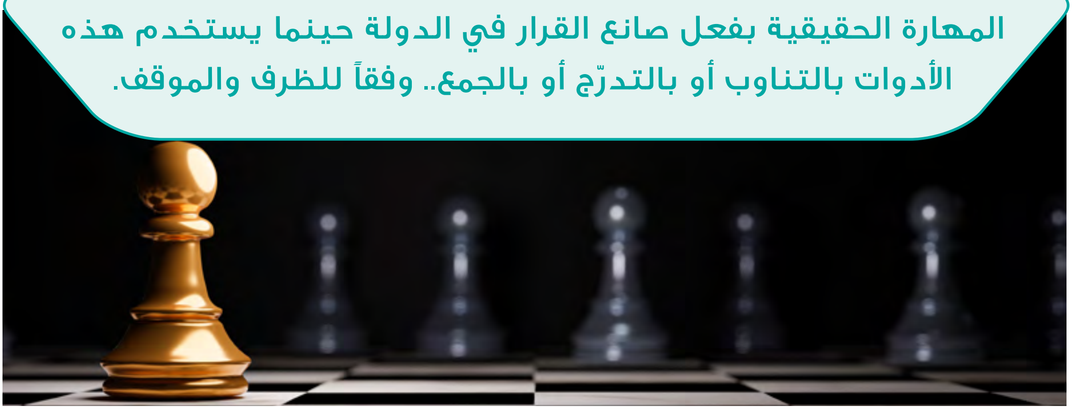
في حال عدم فاعلية أداة الإقناع ربما يتم اللجوء لأداة المال، وأداة المال قد تأخذ أشكالاً متنوعة ومتعددة مع الدول التي يراد التفاوض معها فمنها مثلاً؛ السماح للشركات بأن تعمل بهذه الدولة، أو السماح للدولة بأن تبيع بضائعها للخارج، أو السماح لها بأن تطور قطاعات معينة بطريقة ما حتى تستطيع أن تبيع بضائعها، أو تقديم حِزَم الدعم والمساعدات والمنح التي تأتي من الدول المانحة، أو السماح لصندوق النقد الدولي بإقراضها، أو السماح لمؤسسات ودول أخرى بأن تتعاون معها.. فهناك طرق عدة لاستخدام المال في العطاء، وإن هذه الطرق ذاتها يمكن أن تُستَخدم في المنع والحجب من خلال العقوبات؛ فقد يمنع البنك الدولي من أعطاء سلف لدولة ما، وقد تُمنَع الشركات من دخولها، وقد يُمنَع تداول العملة لهذه الدولة ويُضَيّق على وارداتها وصادراتها، وقد لا يُسمح لها بدخول قطاعات معينة من خلال حجب تكنولوجيا معينة عنها، وهناك كثير من الطرق الأخرى التي يسمونها حِزَم الضغط، وإن هذه الحزم متدرجة، فكلما صعدنا في الحزم زاد الضغط على الدولة وهو ما يسمى بالكمّاشة الاقتصادية.

3. القوة الصلبة:

مع أن القوة الصلبة هي أقوى الأدوات، إلّا أنها آخر الأدوات استخداماً ؛ لأنه لا يبقى بعدها غير نزيف الدماء، وإن استفتاح الحروب هو أمر ممكن، ولكن إغلاقها صعب جداً، وهذا مثاله ماحدث في فيتنام، وماحدث في العراق وسوريا واليمن.. فالإقدام على خطوة الانتقال من عملية الضغط الاقتصادي أو الضغط المعنوي والإقناعي إلى مسألة استخدام السلاح يمر بدرجات كثيرة، من ضمنها التهديد باستخدام السلاح والمناورات والعمليات الجزئية.. إلى أن تصل للاشتباك الشامل الكامل الذي لايرغب أحد من الأطراف بالوصول إليه نظراً لتكلفته الكارثية على كافة الأصعدة..

فمثلاً إذا أخذنا عمليات التفاوض مع إيران، نجد أنها بدأت بحزم اقتصادية منها تشجيعية ومنها عقابية، وحينما لم تنفع معها هذه الطرق بدأت حزمة أخرى بتصريحات الغرب بأن إيران لن ينفع معها إلا العنف، ثم تم التصعيد بالقيام بتدريبات على أهداف إيرانية، ومع عدم استجابة إيران دخلت المفاوضات مرحلة ثالثة فبدأت عمليات تحريك أساطيل وقطع عسكرية في الخليج العربي تلميحاً لحرب عسكرية، وحينها ردّت إيران بعمليات بحرية صغيرة تستعرض من خلالها قدرتها على تدمير الأساطيل التي تتحرك في الخليج.. وهذه الحزم كلها لم تصل لخيار القوة الصلبة (الحرب)، إنما هي رسائل للتفاوض، لتبقى الحرب آخر خطوة يلجأ لها الأطراف.

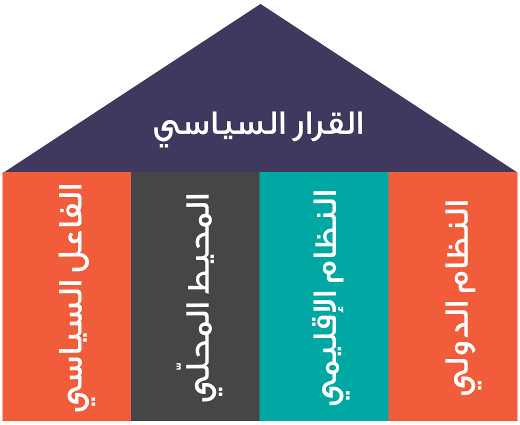
عادة ما يكون في كل مستوى من مستويات التفاوض درجات للتطبيق، وإن جميع الدول تمتلك درجة من درجات هذه القوة، وتكمن المهارة الحقيقية بفعل صانع القرار في الدولة حينما يستخدم هذه الأدوات بالتناوب أو بالتدرّج أو بالجمع.. وفقاً للظرف والموقف.



القرار السياسي ومرتكزاته (نظرية الطاولة السياسية)

سننتقل لموضوع في غاية الأهمية سنسميه "الطاولة السياسية"، والمقصد من ذلك المصطلح أن أي طرف سياسي في داخل الدولة (حزب أو حكومة..) يريد أن يتخذ قرارات معينة عليه أن يراعي الأرجل الأربعة للطاولة السياسية، وهذه الأرجل هي:

1. القوة الداخلية لصاحب القرار:



وتمثّل الحقيقة الذاتية لصاحب القرار كحزب أو تيار أو قوة، فإن أي طرف سياسي قبل أن يطرح قراراً ما عليه أن يدرك وزنه وكم يمتلك من أدوات القوة التي تحدثنا عنها (إقناع، ومال، وقوة صلبة)، فإن هذه الرِجل الأساسية التي يحتاج صاحب القرار إلى أن يطمئن على ثباتها عند اتخاذ القرارات.

2. الوضع المحلي: المتمثل بجموع المواطنين الموجودين ببيئة صانع القرار؛ سواء كانوا قوة تجارية، أو عسكرية، أو أمنية، أو اقتصادية.. فعلى الطرف السياسي المُقْدِم على قرار ما أن ينظر إلى أي درجة سيسانده الشعب في قراره، ومدى قدرته واستعداده على الصمود.

3. الوضع الإقليمي: من الضروري معرفة ردود أفعال الدول المحيطة للقرار الذي سيُتَّخَذ، وموقف تلك الدول تجاهه، فهل ستؤيده أم ترفضه، وإن كان سيؤثر ذلك على مصالحها سلباً أم إيجاباً.

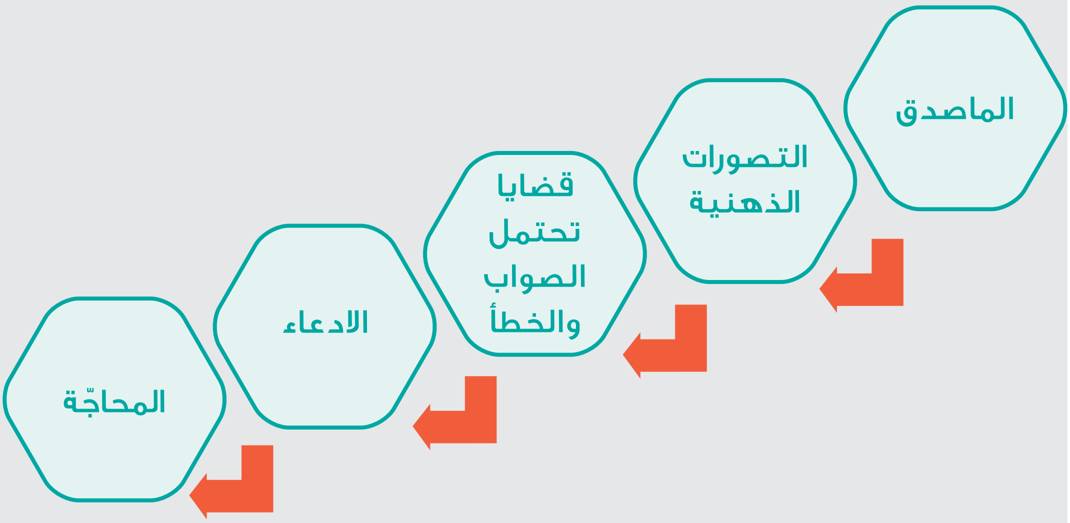
4. الوضع العالمي: إن جميع الدول لا تسبح في فراغات، بل تسبح في نظام عالمي، والنظام العالمي له من القوة ومن الأتباع ومن السيطرة والعلاقات ما يسمح له أن يفسد أي طبخة سياسية! وبالتالي إن صانع القرار السياسي الحكيم عندما يقرر أن يضع قراراً سياسياً على الطاولة السياسية عليه أن ينظر لهذه الأرجل الأربعة، وإلى أي مدى ستصمد وتتحمل نتيجة هذا القرار، فعلى سبيل المثال إن اتخاذ قرار حرب خارجية في دولة مرهقة بحرب

داخلية طويلة لن يَلقى تشجيعاً أو دعماً من المجتمع المنهك، فالمجتمع المحلي لن يساند هذه الحرب، وكذلك المجتمع الإقليمي والعالمي، وحينها سيقع العبء كله على الفاعل السياسي الذي اتخذ القرار، وبالتالي مهما كانت قوته لن يستطيع أن يتحمل لوحده عبء ثلاثة أرجل ناقصة في المعادلة، فإن وظيفة اللاعب السياسي عند اتخاذ القرارات السياسية أن يوفر أكبر قدر من القوة التي تحقق استقرار الطاولة السياسية، وإنه لن يوجد طرف قادر على امتلاك العناصر كافة، ولكن كلما استطاع أن يزن الموضوع ويراه في ضوء الأرجل الأربعة، سيكون قادراً عندها أن يقدّر درجة نجاح القرار الذي سيتخذه، ومدى قدرته على اتخاذه..

العلاقات النوعية ورعايتها

إن مسيرة أي حزب أو جهة أو مجموعة.. تريد أن تسير باتجاه تكوين كتلة سياسية عليها أن تبدأ أولاً بالعلاقات النوعية، سواء على صعيد محلي أو أقليمي أو دولي، وإن هذه العلاقات النوعية تُبنى على مدى زمني طويل؛ فإذا كنا نريد الإعلام فسنبني معه علاقات على مدى طويل، وإن كنا نريد نخباً علمية معرفية أيضاً سنبني علاقات طويلة، وكذلك هو الحال مع نخب الأحزاب السياسية.. إن رعاية هذه العلاقات قبل أن نبدأ العمل السياسي ستسمح بأن نخطو خطوة ثانية لاحقة نستثمرها حينما نحتاجها، فمثلاً في إحدى الدول تم اختيار مجموعة من الشباب النبّغ، وتم إرسالهم إلى أفضل الجامعات في أمريكا، فأثبتوا تفوقهم، والتقوا بالنخب الأمريكية في داخل الجامعة التي لديها شركات البترول والقطاعات الاقتصادية والأحزاب، وحينما عادوا إلى بلادهم وشغلوا مناصب عُليا واحتاجوا إلى معونة من الدول الأخرى كان بإمكانهم التواصل بشكل مباشر مع هذه النخب. فهذه مفاتيح أساسية في العالم، والداخلون في السياسية يهتمون بها بشكل كبير؛ لكونها أولاً مصدراً للمعلومات، فمن خلال هذه العلاقات تستطيع معرفة الأصدقاء والأعداء، وثانياً هذه العلاقات هي مصدر دعم قوي، سواء في فترات الرخاء أو الشدة؛ فيُستفاد منها كونها جسر اتصال مع القوة التي تعترضنا وتهدد مصالحنا، فتعمل على التخفيف والتجسير مع مراكز القرار القادم من القوة المهددة. وإن إهمال بعض الدول والكتل لهذا الإسناد هو دلالة ضعف سياسي، والذي يريد ويعي أهمية إسناد كهذا عليه أن يصنعه صناعة لا أن ينتظره ليتشكل.

نحو الهدف



أولاً- الاعتراف:

إن أول قضية أساسية للفاعل السياسي من أجل الوصول إلى هدفه الاعتراف بالواقع وعدم المكابرة عليه وتجميله، وهذا يساعد على المضي قدماً نحو الخطوة الثانية وهي تعريف المشكلة الحالية.

ثانياً- التعريف:

وتعني هذه المرحلة تعريف المشكلة الحالية، أو الوضع الذي نعيشه مضافاً إليه الخبرة التي اكتسبناها من أوضاع سابقة.

ثالثاً- المرحلية والرؤية:

الفاعل السياسي لديه باستمرار أحلام كبيرة ورؤى حالمة (الحرية/ الكرامة/ الوطن..)، وللوصول لهذه الرؤى نحتاج لتدرج واضح، فعلينا أن ندرك مسألة المرحلية؛ فنعي أن المرحلة التي نحن فيها ستقود لمرحلة ثانية وثالثة.. وقد تتمثل المرحلة الأولى بتأسيس تحالف وطني

جديد، أو تكون بالعودة خطوة إلى الوراء لتأسيس ثقافة تسمح لنا بإنشاء مشروع وطني، فالتراجع للخلف لا يعني عدم الاستعداد للقفز للإمام.

رابعاً- تدبيب السهم:

علينا تدبيب الهدف، أي أن نركز بدقّة كيف سننجز الهدف القادم؛ فلو كان هدفنا مثلاً نشر ثقافة الوحدة الوطنية والتغلّب على الأفكار القاتلة والانقسامية الموجودة في المجتمع، فعلينا أن نوجِّه السهم تجاه هذه الحالة التي أدت بالمجتمع للانكسار والهزائم، فإن كانت المفاهيم الدينية المغلوطة أو المفاهيم القومية والعلمانية هي التي أوصلت المجتمع للهزائم فنحن بحاجة لأن نغيرها ونوجه السهم صوبها.

خامساً- التقدم والتراجع:

في الفعل السياسي التقدم والتراجع مرهونان بكمية المصالح التي ستتحقق لنا؛ فقد نحمي بالتراجع مقدرات استراتيجية لفترة زمنية حتى نتمكن من أن نعيد الكرَّة في التقدم مرة ثانية، فمثلاً انسحاب المسلمين من مؤتة لم يكن تراجعاً صفرياً، إنما كان تراجعاً لإحداث تقدم في جبهة ثانية من مرحلة لاحقة في الصراع الموجود.

الخلاصة

إذا فهمنا هذه المعادلات البسيطة في السياسية؛ من تمييز الصراع إن كان "صفرياً"، أو "رابح رابح"، أو "صراع شمشون"، فعلى الأقل سندرك أنواع الصراعات وإلى أين ستتجه..

وإذا عرفنا أن السياسة هي القوة، وأن أدوات القوة هي المال والمنطق والقوة الصلبة، سيكون لدينا أشياء واضحة نستطيع أن نقيس بها بشكل واقعي وجدي مدى القدرة على الاشتراك في العمل السياسي..

في القرار السياسي: إذا ما أدركنا أهمية توازن القرار على الأرجل الأربعة للطاولة السياسية؛ سندرك مدى قدرة الفاعل السياسي على حمل القرار الذي اتخذه..

إن إدراكنا لمعنى العلاقات النوعية على صعيد محلي أو أقليمي أو دولي؛ سيجعلنا نعي أهميتها كصمام أمان للحصول على المعلومات، أو إفساد المخططات الموجودة في الخارج، وتذليل العقبات.. مما يجعلنا نحرص على أن نبنيها مبكراً في الفعل السياسي.

وأخيراً من الضروري أن ندرك أنه لتحقيق الهدف في الفعل السياسي علينا الاعتراف بالمرحلة التي نمر بها، والتعرف عليها، وتوصيفها، وأن نعي المرحلة التي نعيشها، والمراحل التي سنحققها باتجاه الهدف، وتدبيب السهم نحو الهدف الذي سنحققه في هذه المرحلة، وأن التقدم والتراجع ليس عيباً في السياسة، فإذا أدركنا هذه الأمور الأساسية، فهذا يعني أنه لدينا المفاتيح الأولى لتقويم أي عمل سياسي، والقدرة لتقديم المشورة في ذلك.



ثانياً- الاستراتيجية (الغموض والجمال)

سأتحدث في الفقرات القادمة عن فكرة الاستراتيجية.. وهي مفهوم هام جداً لاسيما في مجالي السياسة والإدارة.. فالسياسة في كثير من مساراتها تتعلق بالاستراتيجيات، وفن السياسة لا يقوم دون فهم معنى الاستراتيجية وأبعادها وطرق إسقاطها على أرض الواقع..

وإن كلمة "الاستراتيجيا" كما أنها تدخل في الكلام الكبير الذي يقال على مستوى الدول والشركات الكبرى فإنها تدخل أيضاً في المسائل الصغيرة..

وإنها وبقدر ما تبدو واضحة وشائعة بقدر ما يكتنفها الغموض، فهي من أصعب القضايا في تعريفها، حتى إن بعض الناس يرى استحالة تعريفها!

فمتى تحضر هذه الكلمة ومتى نستخدمها على وجه التحديد؟ وهل أن أي شخص يضع خطة يصبح لديه استراتيجية؟ أو هل أن أي شخص لدية فكرة جيدة يكون لديه استراتيجية؟

تعريف الاستراتيجية

تعددت تعريفات الاستراتيجية، وحاول العالم أنسوف (Harry Igor Ansoff) أن يحيط بمعنى الاستراتيجية، فوجد أن التعريفات التي وضعت للاستراتيجية تؤدي لخمسة معانٍ أساسية، في كل تعريف من التعريفات نجد كلمة مفتاحية نستخدمها في فتح مفهوم الاستراتيجية لندخل به في موضوع السياسة والعلاقات التي نتكلم عنها.. وهي:



1. إدراك أبعاد الموقف "Prospective":

> أول ما تُعرّف به الاستراتيجية وجود نظرة بانورامية علمية لكافة الأبعاد المحتملة، فكلما كان صاحب القرار أكثر دراسة للأبعاد كلما سَهُلَ عليه اتخاذ القرار الأكثر رشداً

إن أول ما تُعرَّف به الاستراتيجية مايسمى "Prospective" أي المنظور أو رؤية أبعاد الموقف، فالاستراتيجية في جوهرها رؤية أبعاد الموقف، فإذا ما أدركنا الأبعاد السياسية والاقتصادية والجغرافية والقانونية والمناخية.. لموقف ما بشكل جيد، نكون قد أمسكنا الاستراتيجية، وعندما يقول شخص ما "لم نكن نعلم" أو "لم نكن نتوقع.." فهذا يعني بالضبط أنه لم يكن يرى الأبعاد جيداً، فالقرار السياسي على سبيل المثال إذا لم تُرَ أبعاده السياسية كاملة فهذا يشكل مشكلة حقيقية.. فالموضوع ليس فقط من يمتلك سلاحاً أكثر من الآخرين، بل المسألة لها أبعادٌ اقتصادية واجتماعية، وإذا ما طال أمدها ستنعكس سلباً على خطط التنمية والتقدم والأمن وعلى جميع نواحي الحياة في داخل المجتمع، وإن معرفة هذه الأبعاد بدقة وعمق يتطلب مصادر خاصة للمعرفة، ولا تكفي المصادر العامة في ذلك، وهذا مايجعل للدول استخباراتها الخاصة، وأجهزتها الأمنية، والجواسيس، كل ذلك سعياً للحصول على معلومات حقيقية عن مدى استعدادات الأطراف الأخرى وخططهم الموجودة. فهي لا تخمن كما نخمّن نحن، وإن كان لها تخمينات بنسبة معينة فهي تخمينات علمية مبنية على معلومات حقيقية.

2. الخطة المثمرة Plan:

إن وضع الخطة سعياً للوصول إلى الهدف يسمى عادة استراتيجية، وهي خطوة ثانية بعد رؤية الأبعاد، والخطة تعني أن هناك تحركات معينة ستجري بنسق معين وبترتيب معين وبأطراف معيّنين، وهذا التحرك بعد أن يكتب على الأوراق يسمى خطة، فيقال إن هذه الشركة لديها خطة، أو أن هذا الجيش لديه خطة، إلا أن الاستراتيجية لا تعني وجود خطة

فحسب، بل الاستراتيجية هي "ثمرة الخطة"، فمن أجل التخطيط الاستراتيجي في مجال التنافس العسكري يُخَطط لما هو أفضل نوع من السلاح، ولما هو أفضل نوع من العلاقات التي تمكننا من التفوق على الأطراف الأخرى، ولأفضل موقع نتّخذه إعلامياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً، فلا يكفي أن يكون لدينا مذكرة فيها مجموعة من الخطط إذا كانت لاتحقق لنا الثمرة المطلوبة.

3. نمط التحركات Pattern:

هناك من يرى أن الاستراتيجية نمط تحركات نستطيع أن ندرسها من الخارج، فإننا وبأحيان كثيرة لا نتوصّل إلى استراتيجية جهات معينة، ولكننا قادرون على قراءتها من الخارج؛ فنحن لم نرَ استراتيجية إسرائيل ولم نطّلع على الوثائق التي وضعوها، ولكن يمكننا تخمينها، فبالنظر لأي دولة من الدول يمكننا معرفة وزن استراتيجيتها الحقيقي، فاليوم العالم الغربي يخاف من تقدم الصين على الرغم من أنه لم يطّلع على الخطط التي وضعتها.. ولكن نمط تحركات الصين في محاولات التمركز في التقنية والتكنولوجيا والعسكرية والتموقع الاقتصادي العالمي يقول إنه في نهاية المطاف إذا استمر النمو التصاعدي للصين فستصل إلى منطقة يصعب فيها التغلب عليها، وستصبح منافستها أمراً مستحيلاً.. وكذلك بالنظر لإسرائيل فإن مجمل التحركات التي تقوم بها ستنتهي لابتلاع فلسطين كاملة، وإخراج أهلها منها.. فيمكن دراسة اتجاه المسار الكلي عبر ما يسمى نمط التحركات، والتفريق بين الاستراتيجية الناجحة والاستراتيجية الفاشلة.

4. التموقع Positioning:

وليس المقصود بالتموقع التمركز في موقع استراتيجي معين من أرض معيّنة، فلربما هو تفوّق أخلاقي، فيكسب الرأي العام العالمي في الجانب الأخلاقي من القضية التي يحملها أحد الأطراف، كما يمكن أن يكون لديه تفوّق اقتصادي بمجالات معينة يسمح له أن يضغط على أطراف ويحيّد أطرافاً أخرى، وممكن أن يكون تموقعه جيداً من ناحية التحالفات المفيدة التي يمكن لها أن تقف معه في الأزمات، في حين قد يكون

الطرف المقابل داخل في تحالفات ستتخلى عنه أثناء الأزمات.

فمفهوم التموقع هو مفهوم أساسي في الاستراتيجية، فالبعض ينظر للاستراتيجية باعتبارها ثمرة التمركز الجيد داخل ساحة الفعل الذي حقق لنا ميزة على الأطراف الأخرى.

صانع الاستراتيجية هو باحث باستمرار عن التموقعات المادية والمعنوية التي تسمح له بالتفوق على خصمه.

5. الخطة الذكية (خدعة) "Ploy"

البعض يرى أن الاستراتيجة عبارة عن خطة ذكية (خدعة)، ومفاد مصطلح الخطة الذكية تأتي من كون اللاعب السياسي قد لا يمتلك باستمرار جميع أوراق القوة، فيجب أن يكون لديه درجة من الذكاء تسمح له بأن يصنع بأوراقه الموجودة مهما صَغُرَت نتائج كبيرة، ويوهم الأطراف الأخرى بقوته، وينتزع منهم ما لا ينتزعه بأشكال أخرى من الصراع.. وأذكر هنا مثال "خالد بن الوليد" في معركة مؤتة حينما كان جيش المسلمين صغيراً جداً حوالي ثلاثة آلاف مقاتل أمام جيش الروم الذي كان تعداده ما بين ستين إلى مئة وعشرين ألف مقاتل، فلم يكن أمام جيش المسلمين إلا الخسارة، حتى إن إمكانية الانسحاب كانت مستحيلة، فحينها وضع خالد خطة عبارة عن خدعة كبيرة، وسار وفق نمط تحركات يوحي للآخر برسائل مغلوطة بحيث لايتجرأ الطرف الآخر على التقدّم، فبدّل ملابس الجنود المتواجدين في مقدمة الجيش، وبدّل أماكن أفراد الجيش حتى يوحي للعدو تجدد الجيش وكثرته، وبدّل الرايات إلى رايات جديدة، ووضع قوات عسكرية في المؤخرة تثير الغبار بشكل كبير ليوحي أن هناك دعم قادم.. وحينما استيقظ الطرف الآخر وجد أمامه جيشاً جديداً ورايات جديدة، وظنوا بوجود مدد كبير لجيش المسلمين، وحينما انسحب جيش المسلمين ظن جيش الروم أنها خدعة وأن المسلمين ينصبون لهم كميناً، فلم يلحقوا بهم.. وخرج خالد بقواته سالماً.

الخلاصة

إن الاستراتيجية في تعريفاتها غامضة إلى حدّ ما، وإن كل تعريف يعطينا خيطاً معيناً لها، وما يربط هذه الخيوط ببعضها تصور عام، يبدأ من النظرة الشاملة، أي من إدراك أبعاد الموقف الذي نواجهه، ثم بوضع خطة صالحة ترفع صاحبها لـوضعية تسمح له بالفوز بالتنافسية الموجودة، ومن المهم أيضاً دراسة نمط التحركات للأطراف الأخرى التي من خلالها نستطيع معرفة مدى نجاح الاستراتيجية من فشلها، وأن يتم اتخاذ موقع بساحة الصراع يسمح بالنصر، وأن يكون لدينا حسن أداء ودرجة ذكاء يسمحان لنا بمفاجئة الخصم بخطة أو خدعة ذكية.. ويمثل هذا بمجمله فحوى قضية الاستراتيجية.

فمعرفة "روح الاستراتيجية" مهمة جداً، أما الكلام عن الاستراتيجية المطلقة المتمثلة بالرؤية والرسالة والأهداف العامة والأهداف المحددة والسياسات والإجراءات.. فإن هذا كله عبارة عن الشكل الخارجي للموضوع، ومن الممكن لأي محترف في الإدارة أي يضع الشكل الخارجي إنما من دون وجود استراتيجية حقيقية، فالاستراتيجية الحقيقية يدل عليها أمران كبيران؛ الأول نمط التحركات، والثاني قوة التموقع الذي تخلقه هذه التحركات، وإننا بمعرفتنا لمعنى الاستراتيجية نستطيع أن ندرس بدرجة كبيرة مدى نجاح استراتيجية كتلة ما، دون أن نطّلع على أوراقها السرية، أو على درجة نجاحها وفشلها كلاعب سياسي في المنظومة الدولية، وهذا ينطبق على المنظومات مهما صغرت أو كبرت.

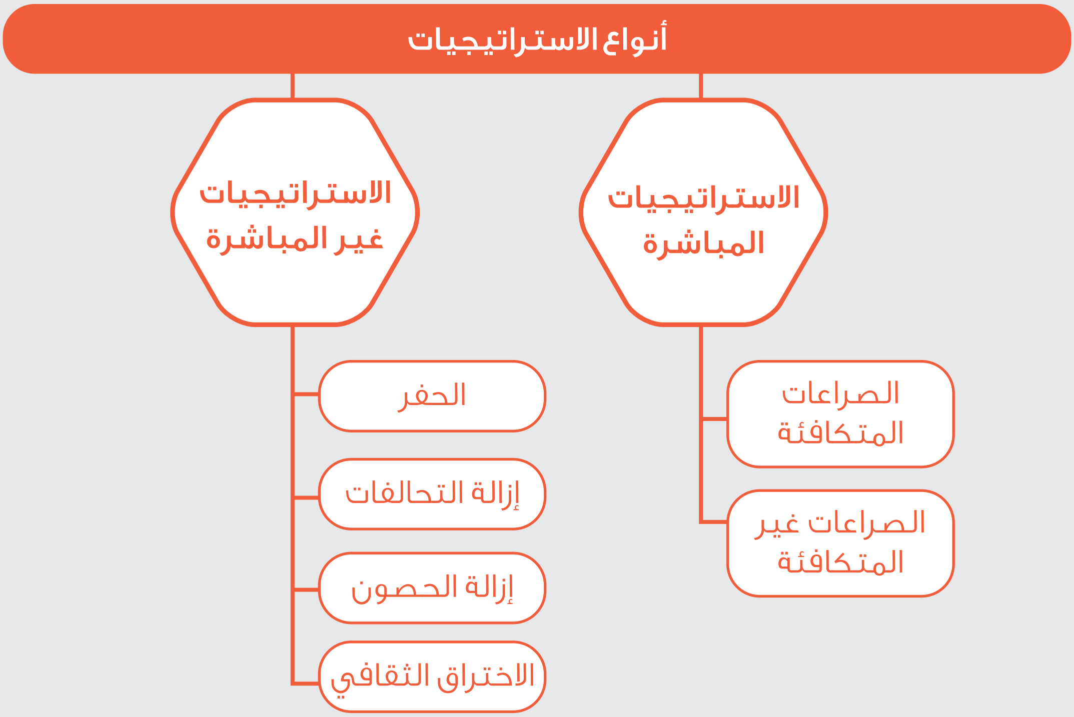


أنواع الاستراتيجيات

ننتقل الآن للكلام عن أنواع الاستراتيجيات، وذلك لزيادة العمق في فهم الاستراتيجية ووضوحها.

إن أنواع الاستراتيجيات تقسّم عادة لنوعين؛ فإما أنها مباشرة أو غير مباشرة..

الاستراتيجيات المباشرة:



تكون الاستراتيجيات مباشرة في الصراعات المباشرة، وتأخذ عادة إحدى شكلين:

- **الصراعات المتكافئة:** تكون حينما تضرب القوى المتكافئة بعضها كما حدث في الحرب العالمية الأولى والثانية، حيث كانت القوى متكافئة بالقوة والعتاد.
- **الصراعات غير المتكافئة:** وهذا أشبه بصراع الفيتناميين مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ فأمريكا تمتلك المال والسلاح، وتمتلك المعرفة والعلم، وتمتلك إعلاماً ضخماً، وتمتلك القوة، فلديها جيش مدرب هو من أحدث الجيوش العالمية.. فهي قوة متفوقة قادمة لاحتلال بلد فقير كفيتنام، فالفيتناميون هنا لايستطيعون خلق قوة عسكرية مكافئة بالمعنى المباشر من دبابات وطائرات ونحوها..، ولا إعلاماً مكافئاً.. فليس أمامهم إلا أن يستخدموا استراتيجيات غير متكافئة، فهم يمتلكون التصميم والإرادة، وكثافة التعداد، ويمتلكون

المعرفة بالأرض التي تتميز طبوغرافيتها بالغابات الكثيفة.. فقرروا أن لا يخوضوا حرباً صدامية مباشرة، بل ينتقلوا إلى نوع آخر من الحروب يسمى بـ"حرب البراغيث" التي نشأت تسميتها من مثال انقضاض البراغيث الصغيرة على الفيل الضخم الذي يعتبر من أقوى الحيوانات في الغابة، فحينما تنقض عليه مجتمعة وتأخذ منه قطرات الدم بكثرة يصاب الفيل بالأنيميا، لأنه باختلال كمية كريات الدم الحمراء يتعذر وصول الأوكسجين إلى الخلايا فيفقد القدرة على التنفس، وينهار على الأرض وعندها تستطيع جميع الحيوانات أن تنهش فيه، فمن هنا نشأت تسمية حرب البراغيث التي تعتمد على طول النفس وغزارة القرصات اللي يسببها الجسم الصغير للجسم الكبير.. ففي حرب فيتنام استخدم الفيتناميون حرب الأنفاق، وأصبحوا يظهرون في كل مكان، يضربون ثم يعودون للأنفاق .. إلى أن أُنهِكَت القوات الأمريكية ، وأصبحت فاعلية الأداة الإعلامية الفيتنامية أعلى بكثير من فاعلية الأداة الأمريكية الموجودة، ووصل صوتهم إلى الشعب الامريكي في الداخل عبر



الخطاب، وعبر الجثث التي تذهب في الصناديق إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فعندها لم يكن أمام الولايات المتحدة إلا أن تنهار كقوة غازية، وتخرج من الفيتنام ليعود استقلالها.

إذاً الاستراتيجيات المباشرة إما أن تكون متكافئة أو غير متكافئة، ولا يقتصر استخدامها على السياسة، وإنما يمكن لها أن تستخدم في معاملات الأسواق والمؤسسات..

الاستراتيجيات غير المباشرة:

الحفر:

إن الحروب غير المباشرة أشد خطورة من الحروب المباشرة، فإننا عندما بدأنا خوض الحرب ضد اسرائيل كانت القوى الكبرى في آسيا جميعها في طرفنا متمثلة بـ "دول عدم الانحياز" بما فيها الصين وتعدادها ملياراً وثلاثمائة مليون نسمة، والهند وفيها ملياراً من البشر، وإفريقيا وفيها سبعمائة وخمسون مليوناً، وأمريكا الجنوبية.. فكان هناك كتلة تصويتية ضخمة لصالحنا في الأمم المتحدة، وإعلام كبير يمكن للخطاب العربي من خلاله الوصول لأكبر كتلة بشرية موجودة للتلويح بقضية عادلة كالقضية الفلسطينية، وعندما تم السلام ووقِّعت معاهدات 1978م كمعاهدة "كامب ديفيد" ونحوها.. دخلت أكبر الدول العربية في صلح مباشر مع اسرائيل، وبدأت إسرائيل حينها ما يسمى بالحرب غير المباشرة، بسياسة "الحفر تحت الأسس"، فالسياسة العربية كانت مبنية على أساس أن لديها الكتلة التصويتية التي تسبب على الأقل ضعف وضغط معنوي على الولايات المتحدة وإسرائيل.. فذهبت إسرائيل إلى الصين التي كان لديها في تلك الأيام مشكلة في تطوير بعض الأسلحة المتعلقة بالطائرات، وأخبرتها أن الاتفاق والصلح قد تم مع العرب ولم يعد هناك مشكلة، وعرضت عليها أن تقدم لها التكنولوجيا المتقدمة في الطائرات - التي قد تأخذ محاولة تطويرها ذاتياً من الصين 50 عاماً- في مقابل عقد شراكة استراتيجية مع إسرائيل.. فقبلت الصين ووقعت وخرجت.. وبخروجها خرج من معسكرنا مليار وثلاث مئة مليون إنسان كانوا يمثّلون كتلة بشرية كبيرة جداً لصالح القضية العربية الفلسطينية، ومن ثم اتجهوا للهند والتي كان لديها مشكلة الكومبيوترات العملاقة فتفاوضوا معها على ذات المنوال، فعقدوا معهم اتفاق استراتيجي في تطوير الأبحاث في مجال الكمبيوترات العملاقة.. وخرجت كتلة بشرية أخرى فيها مليار من البشر، وأيضاً وقعت معهم إفريقيا في مقابل تطوير التقنية في

مجال الزراعة الذي يسد من احتياجات المجاعة البشرية الحاصلة لديها، فصحونا بين عشية وضحاها لنجد أن كافة الكتل البشرية قد خرجت من بين أيدينا نتيجة ما يسمى الحروب غير المباشرة، ولذلك تعتبر تلك الحروب في غاية الخطورة والصعوبة.

إزالة التحالفات

من ضمن التكتيكات التي تستخدم في الحروب غير المباشرة أيضاً هدم التحالفات، فمثلاً العرب كان لديهم تحالف استراتيجي مع الكتلة الشيوعية التي تمثلها روسيا أو الاتحاد السوفيتي. والروس من ناحية التحالفات كانوا أكثر مصداقية وثبات من الأمريكان، إلا أن الدول العربية لا سيما مصر قررت فض التحالف مع الروس والانضمام لصف الغربيين الذين كانوا حينها في صدام مع الاتحاد السوفيتي في أفغانستان، فدعم العرب إسقاط الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، وكنا نقول إذا ما سقط الاتحاد السوفيتي سنستعيد أفغانستان، إلا أننا – بالوقت نفسه – لم ندرك أننا سنكون قد خسرنا ورقة ضاغطة كانت تُمدنا بالسلاح في اللحظات الحرجة، ولو كان سلاحاً أقل جودة من المنتظر، إلّا أنها كانت تخلق توازناً معيناً في الصراع.. وسقط الاتحاد السوفيتي وكنا قد ساهمنا في سقوطه، فأصبحنا أمام قوة واحدة نتفاوض معها دون امتلاكنا لأي من أوراق المساومة! فكانت إزالة التحالفات تقنية من التقنيات الكبرى..

إزالة الحصون

لنفترض أننا في بلادنا نعمل على بناء اقتصاد بدرجة مستقلة عن العالم، وأنه لدينا تعرفة جمركية على البضائع القادمة من الخارج بحيث أن المصانع المحلية تعمل وتنتج، وبالتالي البضاعة القادمة من الخارج أغلى سعراً من البضائع المحلية، فللتاجر المحلي فرصة بيع بضاعته والكسب منها..

ولكن ماذا لو استطاعت القوى الخارجية إقناعنا بإتفاقيات إزالة الحماية الجمركية، فتدخل بضائع الصين والهند والولايات المتحدة الأمريكية للبلاد بميزات المصانع المحلية نفسها؟! عندها ستزول التنافسية ويغلق المصنع المحلي أبوابه لكونه لن يستطيع مجاراة العمالة الرخيصة الموجودة في الهند أو في الصين، ولا يملك رؤوس الأموال والتقنية الموجودة

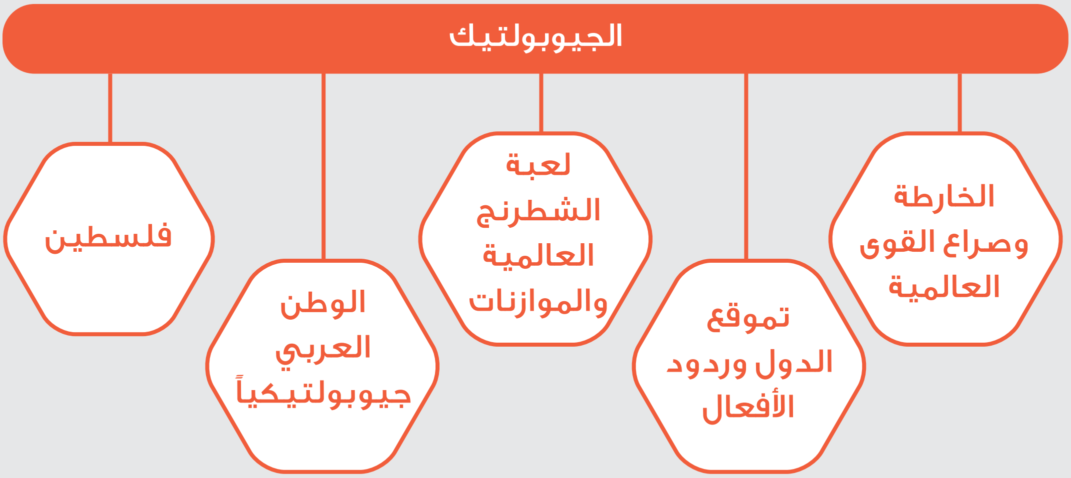
في الولايات المتحدة الأمريكية، فيضطر صاحب رأس المال المحلي لإغلاق مصنعه، وعندها يموت الاقتصاد المحلي، وهذا ما يسمى بإزالة الحصون التي تهدد الاقتصاد المحلي.

الاختراق الثقافي:

إن الاختراق الثقافي لا يقتصر فقط على محاولات التحديث أو بث الأفكار والأنماط الجديدة التي نخاف منها عادة، بل يتعداه إلى محاولات التجهيل وإبقائنا في القرون الوسطى، فيتم حينها إسقاط عمليات التقدم على إيدينا ونحن نظن أننا نحافظ على هويتنا أمام الموجات القادمة، وهذا ما نلحظه بشدة حينما نجد من يحارب العدالة والحرية باعتبارها موجات سيئة قادمة من الغرب، وكأننا في هذه القضايا متقدّمين ولم يبقَ أمامنا سوى هدم رموز الفساد! بينما في الواقع نحن أحوج الناس للحريات والعدالة بغض النظر عن مصدرها، وهذا جزء من الحرب الثقافية التي تعزز لدينا نزعة التراجع للخلف وعدم التقدم، فنحن غالباً ماندخل من الباب الخاطئ؛ فإذا تحدث أحدهم عن الحرية فسيردون عليه بسؤال عن المثلية، ففي حين أن هناك أنواعاً كثيرة للحرية تتمثل بحرية الرأي وحرية التعبير والمعتقد والتصرف والتنقل والتقاضي وغيرها، يأتي شخص ويدخلنا من باب ضيق جداً للحرية يتمثل بالمثلية الجنسية. فعلينا بدورنا أن نتحلّى بالوعي الكبير أمام هذه الاستراتيجيات المتبعة.

الجيوبوليتيك





أولاً- الخارطة وصراع القوى العالمية

سنتحدث في هذا القسم عن علم الجيوبوليتيك، وهو استكمال لكلامنا في السياسة، فبعد أن تحدّثنا عن السياسية وكيف تدار، سنتكلم عن العالم كيف يتشكل وماهية الصراعات فيه.

وهدفنا من الجيوبوليتيك تمليك المتعلّم لأدوات فهم اللغة السائدة في العالم، وحركة القوى الموجودة فيه، وحقيقة اللغط الموجود، بدءاً من الصراعات بين القوى الكبرى، وصولاً لوضعية الوطن العربي والإسلامي بشكل عام..فإن هذه القضايا الكبرى تحتاج من إنسان النهضة أن يستوعبها ويفكر فيها بطريقة موضوعية، ليبني تصوراته حول الأمور بنظام معرفي واقعي. وننوه بأن ما سيتم ذكره في الفقرات التالية مُتَضَمَّن في كتاب "الجيوبوليتيك والحلم العربي القادم" للدكتور جاسم سلطان، لمن شاء أن يطّلع على موضوع الجيوبولوتيك بتفاصيله.

1. سبب التسمية:

إن أول سؤال يُطرَح عادة حينما نكتب كلمة جيوبوليتيك "لماذا لا نسميها الجغرافيا السياسية؟ وما سبب تعقيد المصطلح بهذا الشكل؟".

"الجيوبوليتيك" مبنية على النظر للعالم وتحركاته، ونوع المصالح، وقوة الدولة وتمكنها في ذاتها وفي محيطها وعلى المستوى العالمي

إن الجغرافيا السياسية هي موضوع أوسع بكثير من الجيوبوليتيك؛ فالجيوبوليتيك فرع صغير جداً داخل الجغرافيا السياسية، حيث إن الجغرافيا السياسية فرع من الجغرافيا العامة، ومن الجغرافيا السياسية يتفرع الجيوبوليتيك...

والمقصود بهذا المصطلح: "أثر الجغرافيا على اتخاذ القرار السياسي"، إلا أنه لا يقتصر معنى الجيوبوليتيك على ذلك، فموضوع الجيوبوليتيك يحوي شقاً عدوانياً إلى حدٍ ما؛ فعند نشأة المصطلح كان يستهدف خلق تصوّر معين عند القادة والسياسيين وصانعي القرار، وليس فقط بكيفية الدفاع عن منطقة معينة؛ إنما بكيفية زيادة قوة الدولة لأخذ ما لدى الآخرين، فالروح العدوانية فيه جعلت الفرنسيين بعد الحرب العالمية الثانية يتخذون منحى آخر، ويرفضون كلمة "الجيوبوليتيك"، ويستخدمون كلمة "جيواستراتيجي"، وفي كلا الحالتين لم يفرق الأمر كثيراً فهو تغيير مصطلح لا أكثر.

2. ملحوظات أولية في الخارطة العالمية:

قبل أن نشرع بالحديث عن الجيوبوليتك نحتاج إلى أن نلم بخارطة العالم، وبما أن الخرائط كانت تشكّل إزعاجاً لنا أيام الدراسة نظراً لتعقيدها، فسنحاول قدر الإمكان أن نبسّط في طرحنا الخارطة العالمية.

بالنظر لخارطة العالم سنجد عدة ملاحِظ رئيسية:

- إن العالم أشبه ببركة ماء كبيرة فيها جزر متعددة يعيش الناس عليها، تتفاوت أحجامها، ويحيط بها الماء من كل جانب.
- إحدى هذه الجزر هي كتلة عملاقة متصلة فيما بينها تتألف من (آسيا وأوروبا وإفريقيا).
- بالنظر إلى جوانب الجزيرة العملاقة نجد جزراً تتفاوت في حجمها، منها جزر صغيرة كاليابان وبريطانيا واستراليا والفلبين وأندونيسيا.. ومنها جزر أكبر حجماً تقع على الطرف الأيسر المقابل للخارطة تتمثل بالأمريكيتين..



3. الجغرافيا الناطقة (تشبيهات مجازية للدول في الجيوبوليتيك):

إذا أردنا تشبيهات توضيحية، وتحمل دلالات أكثر تعبيراً لهذه القطع الكبرى من الأرض.. فبإمكاننا أن نلحظ التالي:

الصقر العملاق:

في الجزء العلوي الأيمن من خارطة العالم سنجد (روسيا) ضمن كتلة كبيرة تشبه الصقر الذي مدَّ جناحيه على العالم، ويهيم جناحه الأيمن في فضاء ليصل إلى البحار المتجمدة، مقترباً من منطقة اليابان وكوريا الشمالية وكوريا الجنوبية التي نجدها عند طرف جناحه الأيمن.. وعند الجزء السفلي للصقر الهند والهند الصينية..

وعند جناحه الأيمن وكأنما هناك ريشٌ يتساقط منه متمثّلاً بجزيرة اليابان، ويتوزع ريش الصقر المتساقط باتجاه منتصف الصقر مشكّلاً أرخبيل الفلبين وأندونيسيا وماليزيا، وفي الأسفل كتلة كبيرة جداً سقطت منه أيضاً هي أستراليا، فالعالم بدأ يتشكل لنا في صورة صقر ضخم جداً، وهذا الصقر يمد جناحيه على العالم، ويغرس رجليه في أسفله وتتشكّل منه البقعة الأكبر من العالم.

أما جناح الصقر الغربي الأيسر فنراه ملتحماً بالقارة الأوروبية، ملتقياً مع أوكرانيا، وجوروجيا وألمانيا (الشرقية) سابقاً، وغيرها من الدول التي كانت أشبه بسور بين الاتحاد السوفياتي السابق وبين دول حلف الناتو الذي تمثله ألمانيا (الغربية)، وفرنسا، وبريطانيا..



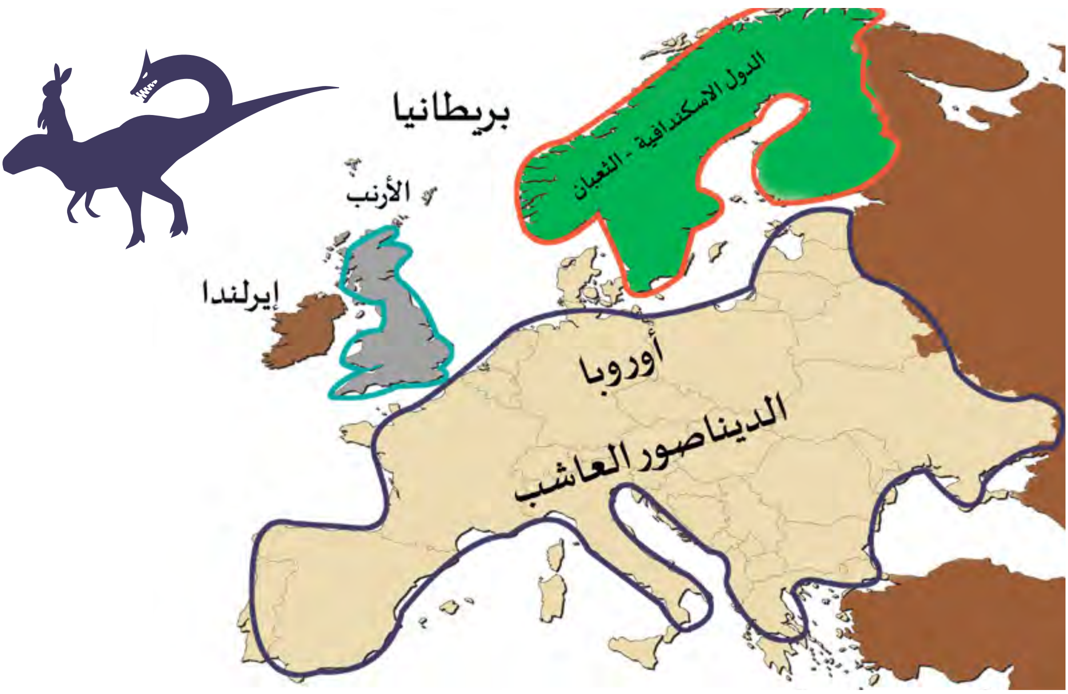
التنين النائم:

في داخل الصقر العملاق هناك كتلة هامة جداً هي أشبه بتنّين نائم أو مستلقٍ على ظهره يمثّل (الصين)، وعلى صدره هضبة مانغوليا ومن فوقها روسيا، ويلامس شواطئ البحار وعلى ضفافه جزر صغيرة من ضمنها هونغ كونغ وتايوان.. وهي بقع مهمة جداً في العالم، أما رأس التنين النائم فيمتد منه شيء أشبه بقرن وعند هذا القرن امتداد هو كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية.. أما إذا بحثنا عن ذيل التنيين فإننا سنجده في المنطقة الممتدة من إيران والشرق الأوسط الذي يليها إلى أن تصل لحدود إفريقيا..



الديناصور العاشب:

إن أوروبا على الخارطة أشبه بديناصور عاشب،ملتحم بجناح الصقر الأيسر برأسه المتمثل بإسبانيا وفرنسا، وظهره المتمثل بألمانيا، وقدمه إيطاليا، وذيله أوروبا الشرقية والدنمارك.



الأرنب المتذاكي:

على امتداد المنطقة الأوروبية يوجد بقعة هامة جداً تبدو كالأرنب الصغير الجالس على رجليه وهي (بريطانيا)، هذا الأرنب يحمل بيده لعبة كأنها دب صغير (إيرلندا)، ويتجه بنظره إلى الولايات المتحدة الأمريكية، هذه الجزيرة الصغيرة حكمت العالم يوماً ، وشكلت قوة ضخمة، وتتحالف اليوم مع الولايات المتحدة الأمريكية وتفسح لها الدور لإدارة العالم.

الثعبان:

في أعلى الديناصور الأوروبي نجد على الخارطة وكأنما ثعبانٌ يريد أن يقضم ذيل الديناصور، وهذا الثعبان يمثل الدول الإسكندنافية.

المسدسان:

ويبقى لنا أن نفصِّل في ثلاثة أشكال رئيسية مهمة وهي؛ إفريقيا التي تبدو كأنها مسدس يتجه باتجاه البحر نحو مسدس آخر مقابل هو أمريكا الجنوبية ، بينما تظهر أمريكا الشمالية على شكل ديناصور لاحم.



الديناصور اللاحم، حرف الـ C، السيجار الكوبي:

في الجزء الغربي من العالم يمتد ذيل الديناصور اللاحم(أمريكا الشمالية) في الماء وتنتهي أرجله إلى أمريكا الوسطى، وهو متأهب للقفز على العالم ، ويربطه من الأسفل مع أمريكا الجنوبية حرف الـC (أمريكا الوسطى)، وبداخل حرف الـ C يوجد خط رفيع جداً شكله كالسيجار الكوبي ويمثل ألماً شديد للولايات المتحدة الأمريكية تاريخياً (جزيرة كوبا). إذاً لدينا بالإضافة للصقر العالمي، وبالإضافة للتنين النائم، ديناصوراً لاحماً شهيته مفتوحة على العالم وينظر إليه بشراهة.

إننا إذا استطعنا كمتتبعين للجيوبوليتك النظر للخارطة العالمية بتصور من هذا النوع، واستطعنا تمييز المناطق التي أشرنا لها على مستوى الخارطة نكون قد بلغنا قدراً من النضج للكلام في الجيوبوليتيك؛ لأن الجيوبولوتك متعلقة بالجغرافية وبالكتل السياسية؛ أي بالحديث عن روسيا وأوروبا، وعن كوريا الشمالية والجنوبية، واليابان والصين والهند، وعن المنطقة المكتظة التي تضم الفيتنام ولاوس ومناطق الهند الصينية، أو بالحديث عن الشرق الأوسط أو إفريقيا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، وعن البقع الملتهبة في هذه المناطق مثل كوريا الشمالية وكوبا.. فنحن أمام الخارطة العالمية التي سنبدأ انطلاقاً من فهمنا لها في رحله الكلام عن الجيوبوليتيك.

4. مفاهيم يحتاجها الإنسان في رحلته لفهم الجيوبوليتيك:

أولاً: الجزيرة العالمية

يقصد بالجزيرة العالمية موطن البشرية الأكبر (آسيا وإفريقيا وأوروبا)،وهي أشبه بقطعة أرض واحدة متصلة كيابسة تحيط بها المياه من كل جانب، وإن العالم "ماكندر Halford Mackinder " حينما وضع نظريته "كيف يمكن أن نحكم العالم" اعتبر أن من يسيطر على هذه الجزيرة قادر على أن يحكم العالم.

إن العمق الرئيسي في الجيوبوليتيك هو النظر للعالم كصورة واحدة ووحدة واحدة، والنظر لمصالح الدول من خلال تلك الصورة الكبيرة، والتحرك على هذا المستوى العالمي الكوني

وتأتي أهمية هذه الجزيرة باعتبارها موطن الحضارات الكبرى والأولى في العالم، وبكونها كتلة كبيرة متصلة براً، وفيها وجود بشري ضخم، وفيها الأسواق والأيدي العاملة والممرات التجارية الحيوية، وهذا يعني أن القوى الموجودة فيها لا تحتاج إلى السفر جواً أو بحراً لتأمِّن احتياجاتها وتحقق تجارتها، بل إنه يمكن لها أن تتحرك في القطارات السريعة بين مناطقها ، وكذلك يمكن أن تُنقَل البضائع والعملة والعمال بشكل سلس وسهل.. وبالتالي لو أن قوة ما ظهرت في هذه المنطقة واستطاعت أن تمد خطوط القطارات بينها، ولديها الكفاءة التقنية والعلمية، وأصبحت المُصَدِّر الأكبر إلى هذه المنطقة فلن يستطيع أهل الجزر (الأمريكيتين وبريطانيا واليابان) أن ينافسوا من هو على اليابسة في الوصول إلى جميع هذه المناطق بطريقة سهلة وسريعة، وهنا تكمن خطورة وأهمية الجزيرة العالمية .

إن أولى قواعد الجيوبوليتيك النظر للعالم كوحدة واحدة، وأهم مناطقه الجزيرة العالمية.. وإننا بفهمنا لهذه القضية سنفهم كثيراً من الصراعات الدولية الموجودة الآن على سطح الأرض.

● ثانياً: قوى البر والبحر

حينما وصل "ماكندر" إلى نظرية تقسيم العالم إلى جزيرة عالمية، وجزر صغيرة تحيط بالعالم، أصبح لدينا تقسيم آخر للقوى في العالم؛ فصار هناك قوى البر وقوى البحر.

- فالدول الموجودة على الجزيرة العالمية وتتحرك على اليابسة بسهولة للوصول إلى مناطق العالم كثيفة السكان والموارد.. سنسميها قوى البر؛ لأن هذه الدول لا تحتاج إلى السفن وبالتالي أساس قوتهم مبني على فكرة أنها قوة موجودة على البر وتتحرك على اليابسة.
- أما قوى البحر فهي القوى المتواجدة على الجزر، والتي لا تستطيع أن تتصل باليابسة العظمى أو بالجزيرة العالمية إلا عن طريق السفن، ولذلك تسمى قوى البحر، مثل الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية وبريطانيا واليابان واستراليا .

ثالثاً: المنطقة الخطيرة (قلب العالم):

طوّر ماكندر كلامه خطوة إلى الامام وطرح سؤاله "من يستطع السيطرة على العالم؟ وأين توجد أهم منطقة حصينة تاريخياً فيه؟".

عاش ماكندر في الفترة التي كانت فيها الإمبراطورية الإنجليزية تحكم العالم، وبالتالي درس القوى العالمية وحركتها من مكانه وزمانه، ورأى أن الإمبراطورية الوحيدة التي كانت عملاقة عبر التاريخ بشكل مذهل وغزت العالم ولم يستطع أحد غزوها في منطقه تمركزها هي قوى "المغول"، فالمغول ابتداءً من جنكيز خان وأبنائه قد سيطروا على ثلاثين مليون كيلومتر مربع من العالم ولم ينافسهم في مساحة الأراضي التي احتلوها سوى البريطانين حيث سيطروا على ثلاثة وثلاثين مليون كيلومتر مربع من العالم، ولكن الفارق بينهم أن البريطانيين قد غُزُوا في أرضهم، وأن سبب الزيادة في مساحة الأرض التي غزوها وصولهم إلى الأمريكيتين، وبالتالي يظل السبق الأساسي للمغول حيث إنهم بلغوا مدى من الأرض على اليابسة لم تبلغه إمبراطورية سابقة من قبل..

بدأ ماكندر يدرس الميزة الاستراتيجية لمنطقة المغول (روسيا حالياً)، فوجد أنها كانت موجودة في العمق السيبيري في منطقة من مناطق السهوب التي يصعب أن تصل إليها أي قوة ثانية عن طريق البر.. وبالتالي لن يغامر أحد في عبور هذه المناطق لخطورة الطريق، ، فكان المغول قادرين على أن يخرجوا لغزو العالم ولكن لم يكن أحد قادر على غزوهم، لذا اعتبر ماكندر أن هذه المنطقة بسبب حصانتها الطبيعية إذا ما امتلكت الإرادة والقوة (التي عصبها التكنولوجيا والمعرفة) فيمكن لها أن تسيطر على العالم المحيط وتمد خطوطاً اقتصادية إلى الجزيرة العالمية من دون عناء، واعتبر أن الغرب في خطر في حال قيام قوة في هذه المنطقة تمتلك هذه الوضعية الاستراتيجية المميزة..

رغم أن نظرية "ماكندر" كانت مبنية على معطيات القوة العسكرية في الفترة التي وجد فيها ماكندر، وأن العالم قد تغير بعد ذلك، وتغيرت القوى التدميرية له.. إلّا أن الأسس الكبرى لهذه النظرية سليمة وصحيحة وظلت محور التفكير العالمي، وظلت القوى العالمية تدور حولها بطريقة ما، ويرون أنه لو قامت قوة من روسيا تحديداً (وهي مناطق وجود المغول سابقاً) وامتلكت التكنولوجيا والمعرفة، وتحركت على اليابسة لأمكنها أن تسيطر على العالم القديم (الجزيرة العالمية) من خلال مد خطوط المواصلات، لتصبح هي القوة الرئيسية، وذات الميّزة الاستراتيجية الأكبر في العالم كله؛ أي على حساب الجزر العالمية الأمريكتين وبريطانيا واليابان.. وهذا يضعنا أمام تساؤلات عن تفاصيل نظرية ماكندر..

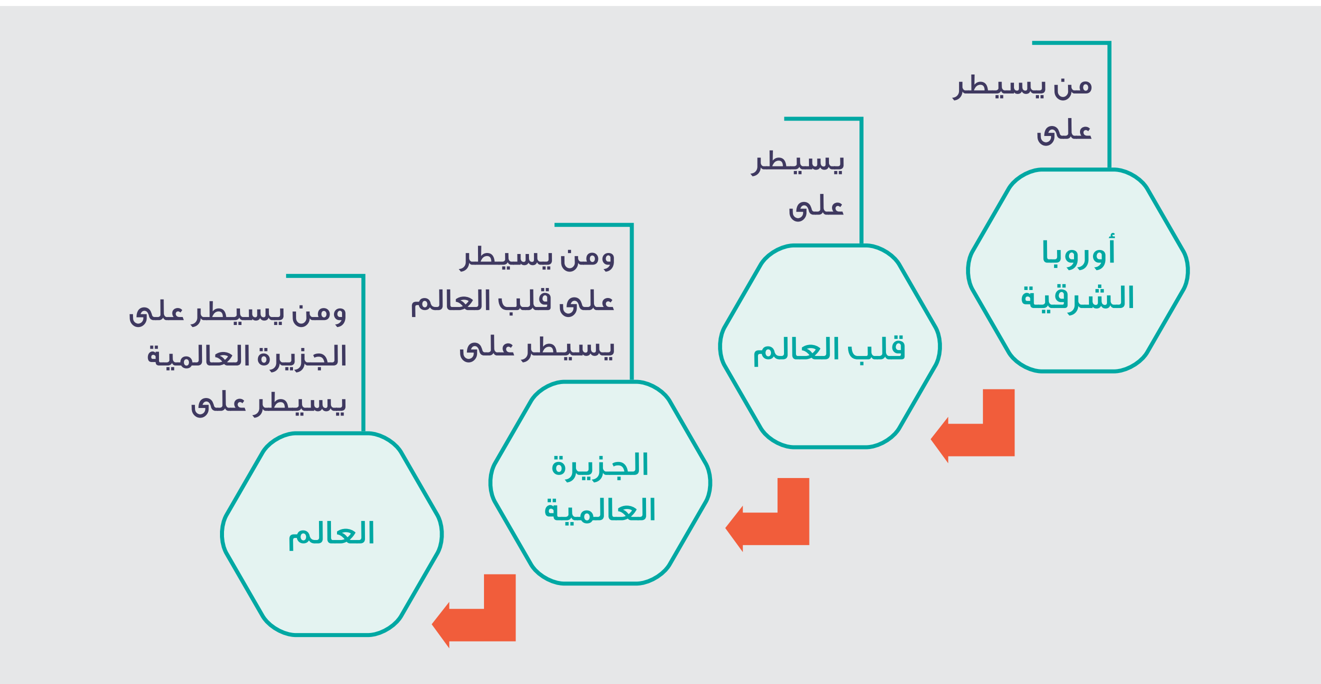
5. احتلال قلب العالم (نظرية ماكندر):

كان ماكندر موجوداً في بريطانيا (الأرنب الصغير الذي تكلمنا عنه)، وكان ينظر باتجاه الشرق، ويرى أوروبا ملتحمة بأوروبا الشرقية، ومن بعدها الاتحاد السوفيتي.. فوضع ماكندر التصور التالي:

عمق نظرية ماكندر

من يستطيع أن يسيطر على أوروبا الشرقية يستطيع أن يسيطر على قلب العالم (روسيا)، ومن يسيطر على قلب العالم (روسيا) يستطيع أن يسيطر على الجزيرة العالمية ومواردها (أسيا، أوروربا، إفريقيا)، ومن يستطع السيطرة على الجزيرة العالمية ومواردها يصبح سيد العالم ويسيطر عليه

أصبح العقل العالمي الاستراتيجي الكلي ينظر إلى روسيا باستمرار على أنها الخطر الرئيسي الذي لو تمكن ستسهل سيطرته على موارد العالم.



وبدأت القضايا تتطور حينما همّ هتلر في أن يحقق مضمون النظرية محاولاً المرور من بولندا إلى روسيا للسيطرة على قلب العالم، وتحققت نظرية ماكندر بنسبة معينة؛ لأن العمق الاستراتيجي والظروف المناخية لم تسمح لأحد بالعبور براً إلى هذه المناطق، وبالتالي اندحرت أفضل قوات العالم التي كانت تمثلها القوات الألمانية حينما دخلت في محاولة لاحتلال روسيا، وروسيا في المقابل أصبحت حريصة جداً على أوروبا الشرقية كستار حديدي لمنع وصول القوى الغربية إليها.

منطقة الارتطام "Crach Zone":

شكلت أوربا الشرقية ومناطق الشرق الأوسط ستاراً حديدياً بين كل من روسيا والغرب، فأصبحت مناطق ارتطام بين هذه القوى، فمن أراد أن يسد الطريق على روسيا فعليه أن يأخذ هذه المناطق إلى حضنه، وعلى روسيا أن تحاول باستمرار اختراق هذا الحصار والحصول على موطأ قدم داخلها.

تقدمت روسيا بعد الحرب العالمية الثانية مسيطرة على أوروبا الشرقية، كما ضمت قسماً من ألمانيا إليها، فانقسمت ألمانيا إلى قسمين شرقي وغربي، وأَدخلت (أوروبا الشرقية) والمناطق المحيطة بها في داخل المنظومة المسماة "الاتحاد السوفيتي"، وتمددت إلى مناطق (...ستان) الموجودة بالعالم فأصبحت روسيا كامبراطورية محاطة بحاجز بينها وبين أوروبا.

توازن الرعب:

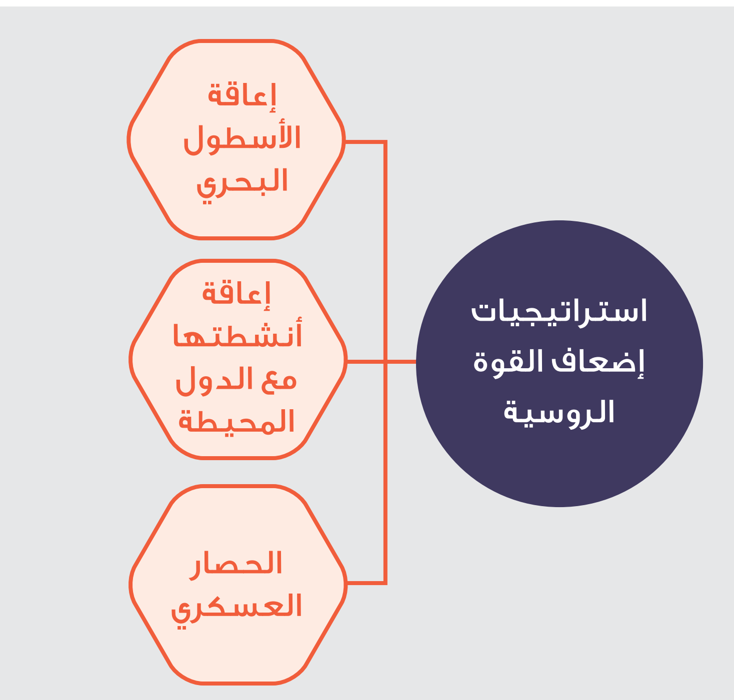
مع حالة التوازن في حجم القوتين بين الاتحاد السوفيتي والغرب نشأ صراع سمي بـ(الحرب الباردة)، تمثّل باستعدادات عسكرية متقدمة لصناعة صواريخ بالستية، وقنابل نووية، وطائرات حربية، وتزويد الوقود في الفضاء، والسيطرة على شبكة الاتصالات. وعلى الرغم من أنها سميت بالحرب الباردة إلا أن الحرب بشكل فعلي لم تكن باردة، إنما كانت حرباً بالوكالة؛ فكانوا يديرون اشتباكات ضخمة في إفريقيا وآسيا نتج عنها قتلى بأعداد كبيرة، وسميت باردة لكون القوى العظمى لم تصطدم مع بعضها بشكل مباشر؛ وذلك لأن بينها توازن رعب، فإذا ما اصطدموا سيدمرون أنفسهم والعالم، وبالتالي كان يتجنب كل من حلف وارسو، وحلف الناتو الصدام البيني.

تطورت الأمور، وضعف الاتحاد السوفييتي من داخله، وقرر الغرب حينها إنهاء الملف وتفكيك روسيا مستغلاً حالة الانهاك التي كانت عليها، فاستخدم أفغانستان كعصا لكسر الاتحاد السوفيتي، فبعد أن لعبت العوامل الأخرى (التدهور الاقتصادي، والاستنزاف العسكري، وفشل النظرية السياسية والاقتصادية..) دوراً بارزاً في الموقف.. قام الغرب بتسليح أفغانستان، ووجهوا طاقة الأفغان، فكانت القشة التي قسمت ظهر البعير، فانهار الاتحاد السوفيتي، وبدأت فرصة الدول التي تنتهي بـ(.. ستان) للتحرر من مجاله، ولدول أوروبا الشرقية للتحرر من سيطرته، فاستعادت ألمانيا قسمها الشرقي من أيدي الروس.

6. مخطط استراتيجيات الولايات المتحدة لإضعاف القوة الروسية:

مما يكمّل الصورة في أذهاننا، ويمكّننا من فهم التحركات الروسية التطرّق لبعض الاستراتيجيات التي كانت أمام الولايات المتحدة الأمريكية والغرب بعد انهيار الاتحاد السوفييتي للحد من القوة الروسية، ومنعها من أن تصبح قوة مسيطرة على العالم، ومنها:

- **إعاقة تحركات الأسطول النووي:** فلدى روسيا أسطولاً نووياً ضخماً يتحرك من البحر الأسود مروراً بمضائق تركيا وصولاً للبحر الأبيض المتوسط، ولديها قاعدتان لتزويد هذا الأسطول باحتياجاته؛ الأولى في طرابلس الغرب والثانية في سوريا.. فإذا ما تم تجريدها من الموانئ التي ترسوا فيها السفن، والتحكم بجزيرة القرم لعدم السماح لروسيا بالعبور من البحر الأسود أيضاً، فإن هذا سيشكل إرباكا لها، وسيضعف حركتها في المياه الدافئة التي تحتاجها.



- **إعاقة روسيا من التمدد وإقامة علاقات حيوية مع الدول المحيطة:** إذا استطاعت الولايات المتحدة سحب الصين والهند من التحالف مع روسيا، وإحاطة ظهر روسيا بقوة كاليابان وكوريا الجنوبية، وضم جميع المناطق التي تنتهي بـ (...ستان) كأفغانستان وباكستان وغيرهما، وضم منطقة الشرق الأوسط إلى تحالف غربي، سيكون عندها قد أُحكِم الطوق على روسيا، ولم يعد لها مجالٌ حيوي تتحرك فيه.
- **الحصار العسكري:** إن نصب محطات فضائية، وقواعد عسكرية في دول الحدود الروسية فيها صواريخ بالستية مضادة للصواريخ الروسية ، من شأنه إعاقة روسيا عسكرياً بما يمنع خروج الهجمات من أراضيها.

7. التحركات الروسية وردودها المضادة:

وبالفعل وبناء على الاستراتيجيات السابقة بدأت أوروبا تحركاتها الكبرى سريعاً قبل أن تستعيد روسيا أنفاسها لضم أوروبا الشرقية إليها، وذلك من خلال توسيع حلف الناتو، وبدأت فكرة نقل القواعد التي ترصد الصواريخ البالستية إلى الحدود الروسية مباشرة من خلال أوروبا الشرقية؛ بحيث يتم ردع أي صاروخ يمكن له أن يخرج من روسيا، وبدأ التفاوض مع الدول التي تنتهي بـ (..ستان) من أجل المزيد من التحرر من سيطرة الروس، وبدت روسيا حينها في منتهى الضعف، وبعد أن كان هناك قطبان في العالم (روسيا وأمريكا) بقيت أمريكا القطب الوحيد فيه.. إلّا أن امتلاك روسيا للذخيرة الوطنية وللعلم وللمعرفة والقوة جعلها قادرة على تجاوز تلك المحنة التي ألمّت بها، لتجمع خيوطها من جديد، فتم إحضار "بوتين" إلى سدة السلطة، مع دعم القوى الوطنية، فتغلّفت البلاد بالديمقراطية الظاهرة إنما بداخلها كانت دولة قومية تحكم بطريقه حديدية؛ فالدول عادة إذا تعرض وجودها حيوياً للتهديد تنكمش إلى شكل من أشكال المركزية القوية داخل الدولة..

بدأت روسيا تفكر باستعادة ما فقدته، فأعادت التفاوض حول الوجود العسكري على حدودها، وقادت هذه المسألة إلى مفاوضات شاقة ومناورات استراتيجية كبرى ربما لايزال بعضها حاضراً في الذاكرة؛ متمثلاً بأزمة القرم والتدخل العسكري الروسي فيه وفي جورجيا.. وذلك بعد أن كان الغرب قد أعطى الأمان لتلك المناطق، وأراد أن يضمها إلى

كتلته الأساسية وفق خطة حصاره لروسيا، ولكن روسيا قررت أن تظهر مخالبها، وأن تتقدم وتعلِّم وترمي القفاز في وجه الساحة الأوروبية! والتقط الأوروبيون الرسائل وأدركوا مدى جدية روسيا في هذا الموضوع.. فدخلوا في التفاوض معها، ولكن ليس على إزالة القواعد، وإنما على كيفية إدارة هذه القواعد، فالتقوا بما يسمى مؤتمر "لشبونة" في البرتغال، وتم الاتفاق على أن لا تكون هذه القواعد خالصة للأوروبيين والأمريكان، بل يجب أن يكون فيها أيضاً خبراء روس متخصصون في المجالات نفسها، إضافة لقاعدة عسكرية خاصة بالروس موجودة في هذه المناطق تتلقّى المعلومات ذاتها التي تتلقاها قواعد الغربيين، وبالتالي تأمن روسيا من أي غدر أوروبي بها.

وحينما انطلقت شرارة الصراع في سوريا قررت روسيا أن ترسل الرسالة الأكبر للعالم بكونها عائدة للمسرح الدولي، وأنها لن تتخلى عن هذه المنطقة حتى لو وضعت فيها كل أوراقها، وأنه على الغرب أن يعترف لها بهذا الوجود في المنطقة!

كما أنها وبعد أن أُخرِجَت من أفغانستان عادت بدور تصالحي معها مرة أخرى لتطل على المشهد دون أن تدعه يستقر لصالح الأمريكان.

ومن التحركات الروسية الأخيرة الحرب التي شنّتها على أوكرانيا، فهي ردات الفعل المحتملة لاستمرار الاتحاد الأوروبي بحالة الغزل مع الأوكرانيين.

كما وجدت روسيا مخرجاً ضخماً لها من خلال العلاقة بالكتل العملاقة الطموحة الموجودة في آسيا كالصين لإنشاء تكتل قوي، وبالتالي أصبحت مغناطيساً جاذباً للقوى التي تطمع في فضاء حريات أكبر في العالم..

ثانياً- تموقع الدول الكبرى وردود الأفعال

سنقف في الفقرات القادمة مع بعض المواقع ذات الأثر الكبير عالمياً، كما أننا سنمرّ على بعض المصطلحات الهامة التي تعتبر مفتاحاً إيضاحياً هاماً للأفكار التي سنأتي إليها، وسنبدأ بمصطلحي "الموقع والتموقع"..

ونذكّر ابتداء بنظرية هامة في الجيوبولتيك مرّت معنا، وهي:

تذكّر أن

من يسيطر على أوروبا الشرقية، يسيطر على قلب العالم، ومن يسيطر على قلب العالم، يسيطر على الجزيرة العالمية، ومن يسيطر على الجزيرة العالمية يسيطر على العالم.

وهذا ماجعل الألمان يسعون للسيطرة على قلب العالم، وبعد فشلهم ولدت فكرة "حصار قلب العالم"، وهو ما يفضي لمنع روسيا من التمدد في المحيط الذي يشكل لها مجالاً حيوياً، وإحاطتها بقوى صلبة كاليابان وكوريا الجنوبية، وغير ذلك من أشكال الحصار.

الموقع والتموقع:

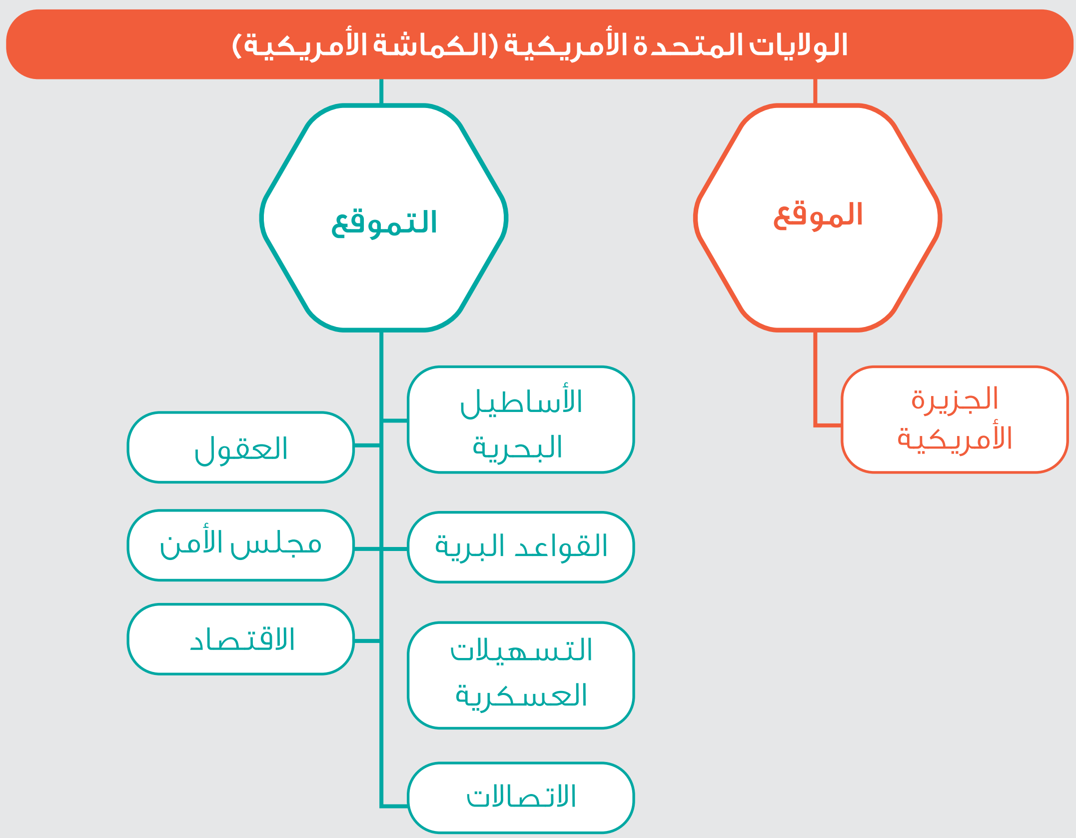
حينما نقول الموقع والتموقع نكون أمام مصطلحين مختلفين عن بعضهما؛ فالموقع هو الحدود الجغرافية التي نراها على الخارطة المعترف بها دولياً لبلد ما، أما التموقع فهو حضور لبلد ما في العالم غير مقنن بحدود معترف بها دولياً.. وهذا ماسيتضح لنا حينما سنتناول الولايات الأمريكية من ناحية الموقع والتموقع.

الولايات المتحدة الأمريكية:

نحن بحاجة إلى أن نعرف الولايات المتحدة كمفهوم لا كدولة فقط، بمعنى أن أمريكا لديها تصور كلي للعالم وضعت له مخططاً كبيراً وتسير وفقه، ولذلك نحن نسميها "الكماشة الأمريكية" لكونها تتحكم بالعالم بما يشبه قبضة الكماشة..

– فأمريكا من ناحية الموقع تبدو كأنها منطقة معزولة في تلك الجزيرة البعيدة عن العالم، وهي آمنة بموقعها البحري المحاط بقوى عسكرية بحرية تحقق لها أماناً كبيراً، وتحول بينها وبين أي عدوان خارجي.

– أما من ناحية التموقع فقد كانت مكتفية بعزلتها إلى أن حصلت الحرب العالمية الثانية، فدخلت الحرب بثقلها بعد أن أُنهكت القوى التاريخية الكبرى (بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا)، وحين انتهت الحرب العالمية الثانية كانت الولايات المتحدة التي دخلت متأخرة تمتلك القوة والمعرفة والمال وأصبحت سيدة العالم بامتياز، وبدأت بمرحلة الخروج من عزلتها والتحرك في العالم، وتبادلت المواقع مع الامبراطورية الانكليزية القائمة؛ بحيث تخرج بريطانيا باتفاق منمّق من مناطق سيطرتها وتعطي سيادة هذه المناطق للولايات المتحدة الأميركية، شأنها بذلك شأن الامبراطوريات الأخرى التي لم تقتصر حدودها على الأرض المقننة باسمها.



التموقع الأمريكي وأشكاله في العالم:

عند البحث والنظر في التموقع والانتشار الأمريكي حول العالم نجده واسعاً شاملاً يكاد يحيط بالعالم من كل اتجاه، عبر أشكال وطرق متعددة ومختلفة، منها:

الأساطيل البحرية والغواصات:

تسيطر الولايات المتحدة على العالم من خلال ثلاثة عشر أسطولاً بحرياً عملاقاً تجوب بحار العالم، فتمتد وتهيمن هذه الأساطيل في المحيط الأطلسي والمحيط الهادىء والبحر المتوسط والبحر الأحمر، بحيث أن سطح البحر يحمل مدناً عسكرية متحركة، تحوي مدارج للطائرات والمروحيات وقوات خاصة، وأسلحة نووية تكتيكية.. وكل ما تحتاجه الحروب يتواجد في هذه المدن المتحركة في البحار التي تمثل امتداداً للولايات المتحدة الأميركية، وقد حلّت الولايات المتحدة معضلة انقطاع المحيط الهادي عن الأطلنطي بحفر قناة "بنما".

وهنا يجدر التنوية إلى أن الناظر لخارطة العالم وهي مسطحة سيرى الولايات المتحدة بعيدة عن قلب العالم، ولكنها فعلياً ومع تموضعها على الأرض الكروية تلتقي مع روسيا بشكل وثيق جداً في ممر لا يكاد يفصل بينهما شيء.

وأيضاً نجد في عمق البحار أسطولاً أمريكياً من الغواصات العملاقة التي تجوب بحار العالم بما فيها البحار المتجمدة، وهي أيضاً مزودة بكافة أنواع الأسلحة والتقنيات المناسبة للحروب المعاصرة...

القواعد البرية:

يتم التمركز العسكري الأمريكي في العديد من المناطق، فنجد مايقارب مئة وثمانين قاعدة منتشرة ومنظمة تمتد من الولايات المتحدة الأمركية إلى الشرق الأوسط برمته، وإلى آسيا الوسطى، وإلى ما هو أبعد من ذلك، وتكاد تشكل دائرة تحيط بالعالم، وبالأخص روسيا والصين.. وحينما نقول "قواعد" يعني أننا نتحدث عما يشبه المدن العسكرية المزودة بكافة أنواع الأسلحة والخبرة والاتصالات، بحيث تستطيع أميركا أن تدير عملياتها في المدن من خلال هذه القواعد الضخمة المنتشرة..

التسهيلات العسكرية:

إن الوجود الأمريكي عالمياً لا يقتصر على القواعد، فهناك معاهدات توقّعها الولايات المتحدة مع كثير من الدول، بحيث يحصل تدريب مشترك لضباطها مع ضبّاط بلدان أخرى، فإذا ما احتاجت القوات الأمريكية الدعم أمدَّتها الجيوش الصديقة به، كما أنها تستطيع أن تستعمل المطارات والأراضي والموانئ التابعة لتلك الدول في حالة الحرب، فهناك احتياطي من المعاهدات للمستقبل لتسهيل عمل الولايات المتحدة الأميركية في حالة نشوب الحروب على الأرض.

الاتصالات:

الفضاء الكوني هو أيضاً مسرح لهذه الحركة المهيمنة، فنجدها حاضرة بعدد من الأقمار الصناعية التي ترصد التحركات على الأرض، وتجوب خارطة العالم وتمسحه تقنياً باستمرار..

وهذا هو الحال أيضاً بالنسبة للفضاء الالكتروني، فإن أية رسالة الكترونية نريد إرسالها إلى العالم من خلال الأجهزة الموجودة لدينا.. ستمر بسيرفرات موجودة في الولايات المتحدة الاميركية!

تشكيل العقول:

أنشأت الولايات المتحدة أكبر شبكة علمية وإعلامية، وإن أفضل تعليم يريده الإنسان قد يناله في الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك الحال إذا أردنا الاستماع لأقوى إعلام نجده أيضاً في الولايات المتحدة، من خلال الأفلام والمسلسلات والثقافة، فمنتجات هوليود الفنية متدفقة إلى العالم وتشكل خارطة ذهنية للشباب..

مجلس الأمن:

الهيمنة الأمريكية لا تتوقف على ما أسلفناه فقط، بل تمتد لدرجة أننا إذا أردنا أن نشتكي على الولايات المتحدة الاميركية فسنذهب الى مجلس الأمن الموجود في الولايات المتحدة الاميركية!!

الاقتصاد العالمي:

الاقتصاد العالمي مرتبط بالدولار بشكل وثيق، وبالتالي تُقيِّم عملات العالم نفسها أمام الدولار الأمريكي، وأمام الاقتصاديات الأمريكية الضخمة الموجودة فيه.

إذاً نحن أمام كماشة ضخمة تتمثّل بالتموقع العملاق للولايات المتحدة، الذي لايزال فاعلاً وحاضراً في العالم، فأمريكا قد تكون دولة كبقية الدول، إنما كمفهوم فهي وجود عالمي، بوزن استراتيجي ساحق، وبمسرح سياسي دولي استثنائي؛ بمعنى أن كل اللوبيات العالمية مسموح لها أن تعمل في داخل الولايات المتحدة الأمريكية وأن تساعد وتعين ضمن آليات معينة لتحقيق مصالح الدول الأخرى، فإن ساسة العالم يجدون مناطق ارتكاز في مناطق الدراسات وفي الكونغرس لآرائهم وتصوراتهم عبر الآلية التي خلقها النظام السياسي هناك، فأمريكا كمفهوم تختلف عن أمريكا كدولة وبالتالي ينظر إليها عالمياً بالوزن الفعلي لها.

ولكن الله لم يخلق السماوات والأراضين ليسيطر عليها طرف واحد من الأطراف، فالعالم لا يمكن له أن يحكم بإرادة واحدة مهما كانت قوية، وإن كُلاً من الصغير والكبير قادر على إيجاد مكانه في هذا العالم، إلا أن الصغير لافتقاره للقوة الكافية يحتاج إلى الذكاء، ومن لا يمتلك الذكاء سيصبح ضحية لا محالة.

الفعل ورد الفعل

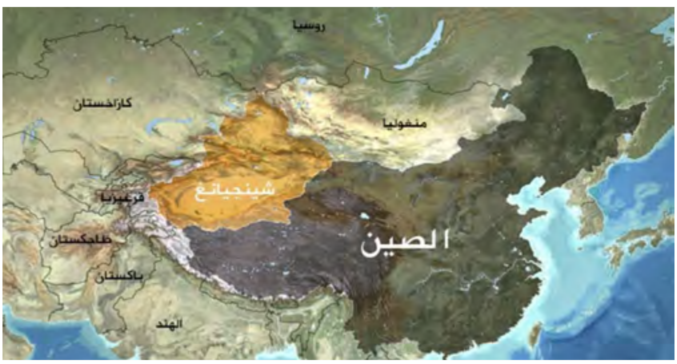
بالانتقال لجزء آخر من أجزاء المشهد سنأتي إلى ما يسمى بالفعل ورد الفعل.

كنا قد تحدثنا بأن روسيا هي محل نظر أمريكا لذا هي تسعى لحصارها؛ وقد رتبت خطتها على هذا الأساس؛ فأنشأت حلف "الناتو" وأحلاف أخرى لتطوّق روسيا بالحزام الأوروبي الغربي، وبالمقابل صنعت روسيا حاجزاً في وجههم تمثل بأوروبا الشرقية من خلال حلف وراسو الذي شكل بعد انحلاله أزمة "جورجيا" و"أوكرانيا".. وإن التدافع بين هذه القوى هو الذي شكل الحركة في العالم المتمثلة بـ"الفعل" و"رد الفعل"؛ فحينما بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بـ"الفعل" وهاجمت الاتحاد السوفييتي ونجحت بحلّه وتفكيكه، جاءها "رد الفعل" حينما أعادت روسيا تشكيل نفسها واستعادت لياقتها من جديد على يد القوميين الروس، وبدأت بإرسال الرسائل مقابل تهديد مناطق موانئها، فكانت سوريا من أعنف المناطق

التي تم من خلالها إرسال هذه الرسائل، ومن ثم تلتها ليبيا، وهما منطقتا الموانئ الروسية مع البحر الأسود كما أسلفنا سابقاً.

كان الرعب العالمي الأكبر أن تستطيع روسيا مد شبكة السكك الحديدية إلى أرجاء الجزيرة العالمية، فتسيطر على طرق التجارة، وتنخفض تكلفة المواد عليها، وتنافس بذلك القوى العظمى... وبالفعل ضربت روسيا ضربتها الكبرى فسعت بكل ثقلها لأن توجِدَ خطاً تواصلياً مع أكبر القوى الصاعدة في آسيا وهي الصين، فنجحت مستفيدة من الطموح الصيني في اتفاقية "شنغهاي"، وضمت إليها الهند وباكستان وإيران.. فتحققت المخاوف الأوروبية باتفاق هذه القوى المليارية على توحيد اقتصادها ومصالحها تدريجياً، وعلى توفير القدرات لمد السكك الحديدية إلى أوروبا وإفريقيا. لنسمع أن الرئيس الصيني يشيد بوحدة هذا التكتل بقيادة "روسيا"! وهذا يعني أن الرعب الأوروبي الذي بدأ به "ماكندر" حديثه عن قوى تسيطر على منطقة الجزيرة العالمية قد أصبح قاب قوسين أو أدنى! وها نحن أمام انقلاب كوني عالمي ضخم، قد حدث بشيء بسيط وهو اتفاقيات شنغهاي التي لم تتبلور حتى الآن!

الصين وأسباب تغيُّبها عن الصراع الدولي:



يطرح السؤال نفسه بنفسه عن أسباب تغيُّب الصين عن ساحة الصراع؟ فلو نظرنا تاريخياً إلى الصين سنجد أنها دائماً تفضل أن تكون معزولة عن العالم، وكأنه إحساس ملازم لها عبر التاريخ بأنها لا تحتاج إلى التمدد أو التفكير في الغزو العسكري للعالم المحيط بها، بل تكتلت باستمرار حول ذاتها، وبنت سوراً ضخماً حولها بحيث لا يأتيها أحد. وهنا السؤال: أين الصين من هذا الصراع؟ ولماذا لم تدخله كما دخلته روسيا؟

● إن الصين من حيث الموقع ليست دولة معزولة كالولايات المتحدة الأمريكية، فأمريكا كما أسلفنا هي جزيرة بحرية محمية بأساطيل، ويحدها من اليابسة شمالاً "كندا" وجنوباً "المكسيك"، وكلا البلدين لايشكلان أي خطورة أو تهديد عليها، وبالتالي لا يوجد لديها قلق جغرافي. وذلك على عكس الصين، فبنظرة واحدة لموقعها الجغرافي سنجد أنها في منطقة ملتهبة تحيط بها المشاكل من كل صوب وحدب:

- فنجد على صدر الصين هضبة منغوليا، وهي هضبة إشكالية بالنسبة للصين.

- وفوق هضبة منغوليا توجد روسيا بثقلها الاستراتيجي الضخم الذي شكل في لحظة من اللحظات حافزاً وتحدياً أثناء الثورة الشيوعية للصينيين حينما رفضت روسيا إعطاءهم أسرار المفاعلات النووية.

- أيضاً تلتحم الصين جغرافياً بقوة ضخمة هي الهند، ولديها خلافات حول الحدود معها.

- وهناك مناطق (..ستان) التي تحيط بها ولديها صراع حدودي معها أيضاً.

- ومن الجهة الأخرى هناك مايسمى الهند الصينية (لاوس- فيتنام- وماحولها من مناطق..) تعجّ بمشاكل ليست باليسيرة مع الصين.

- وفي شرقها حيث كوريا الشمالية والجنوبية ؛ حيث يحاول الغرب أن يخترق الصين من جانب هذه المناطق المتوترة، كما توجد اليابان التي غزت الصين في حقبة زمنية مضت.

- وفي البحر المقابل للصين سنجد مشكلتي تايوان وهونج كونج تؤرقانها باستمرار..

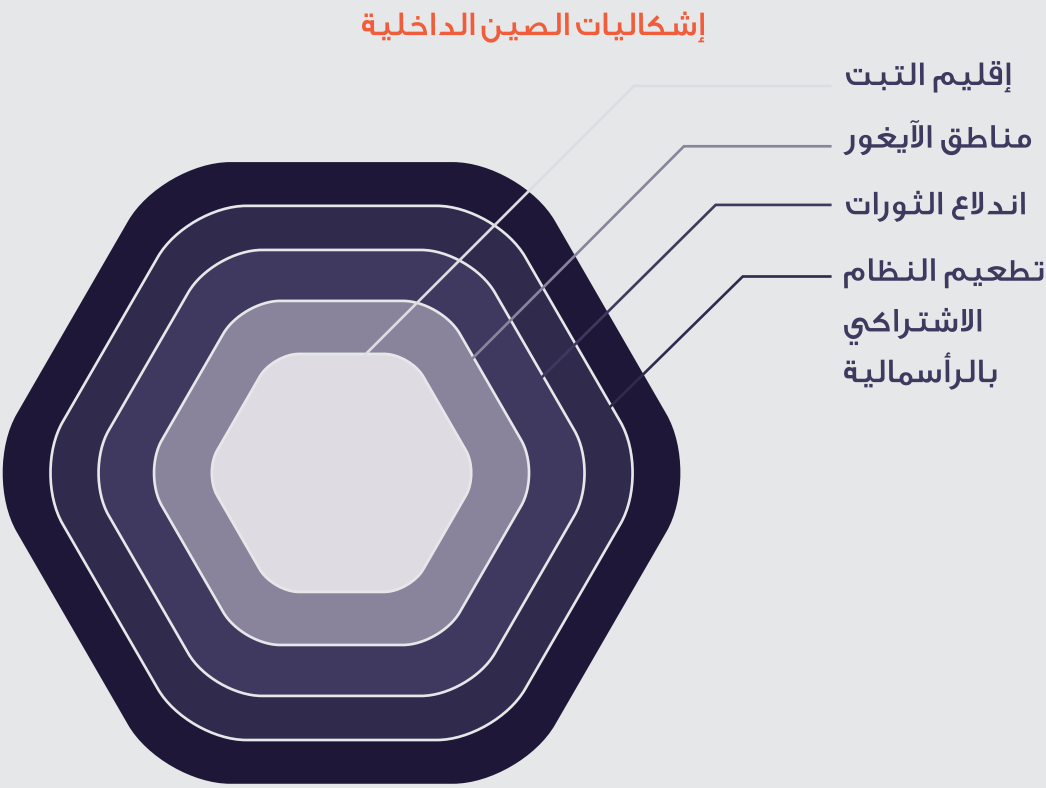
فالصين كعملاق له محيط ضخم جداً تحتاج مراقبته إلى تكاليف طائلة!

وهذا كله علاوة عن الصراع في الداخل الصيني، فمعادلة الصين الداخلية فيها إشكاليات عديدة تتمثل بـ:

- محاولة انفصال إقليم التبت تاريخياً عن الصين.

- محاولة مناطق الآيغور والمناطق المحيطة بها الانفصال عنها أيضاً.

- انخفاض مستوى الحريات في الصين نسبة لبقية العالم، مما ولّد ثورات كبيرة تم قمعها بقوة.



- تطعيم النظام الاقتصادي الاشتراكي الذي بناه ماوتسي تونغ بالنظام الرأسمالي.. فهناك تساؤل مستمر إن كان النموذج المطروح الآن سيقضي على الروح الاشتراكية الموجودة أم أنه ستنشأ خلطة مناسبة للمجتمع..

إذاً لا زالت الصين تعجّ بالإشكاليات؛ من ناحية تصورية استراتيجية، ومن ناحية عملية في الحريات وحقوق الإنسان، ومن ناحية الأقليات التي تريد الانفصال، ومن ناحية المحيط الملتهب الضخم... فإن هذا كله يستهلك موارداً عملاقة منها ويجعلها عرضة لإشكاليات ضخمة، في حين أنها تريد التركيز على التنمية التقنية والمعرفية والاقتصادية.. التي يكون لها نقطة ارتكاز وقوة مع العالم الخارجي، وبالتالي تسير على نهج التقليل من الصدامات الخارجية قدر الإمكان لتشتغل على الملف الداخلي توسيعاً لقوتها الذاتية، على عكس الولايات المتحدة الامريكية التي تستنزف نفسها في الخارج على حساب بنائها الداخلي والتعويل عليه!

وعلى الرغم من هدوء التعبير إلا أن الصين تُعدّ لاتفاقية "شنغهاي" إعداداً ضخماً، فالعملاق الصيني الذي يبدو هادئاً ونائماً ومتغافلاً.. هو في حالة حيوية، ويعدّ لمستقبله إعداداً كبيراً!

مراكز الثقل الاستراتيجي:

هناك فكرة أخرى كانت تحيط بفكره العالم وهي "مركز الثقل الاستراتيجي في العالم"، وهذه الفكرة أيضاً نحتاج إلى استحضارها معنا عند الحديث عن الجيوبولتيك.. فماذا يُقصد بمركز الثقل الاستراتيجي في العالم، وهل هو مركز ثابت أم متحرك؟

إنّ مركز الثقل الاستراتيجي يُعرف عندما يتكثّف حضور القوى العالمية في منطقه محددة من العالم؛ أي عندما يحدث صراع على منطقة محددة فيعرف حينها أنها هي القلب الجديد للعالم، فإذا نظرنا إلى تاريخ العالم سنجد أنه في لحظة تاريخية معينة التقى الصراع الروسي والأمريكي والإسرائيلي والبريطاني والفرنسي في منطقه ارتطام حادة جداً هي قناة السويس، حيث كانت تشغل نقطة محورية في تطور العالم في ذلك الوقت، وأهميتها لم تكن اقتصادية فقط كونها الممر الوحيد الذي يربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر الذي تعتمده التجارة العالمية بشكل كبير، ولكن من يسيطر على هذه المنطقة فسيسيطر على عصب العالم الحيوي الذي تتحرك منه السفن والناقلات العملاقة. وبمرور الأيام تغيّرت هذه الفكرة نتيجة تطور السفن والنقل البحري بشكل كبير جداً وأصبح الموضوع متعلقاً بالطاقة، فانتقل مركز الثقل الاستراتيجي إلى مناطق البترول في العالم، واشتعل الصراع حولها، فشهدنا صراعاً جوهرياً ضخماً جداً بين القوى الأوروبية وبين الاتحاد السوفيتي حول اختراق الشرق الأوسط أو تركه، وأقيمت القواعد، وأصبحت منطقة الشرق الأوسط مبتلاة بالحروب نتيجة غزارة البترول فيها، أما في أيامنا هذه فقيل إن مركز الثقل الاستراتيجي قد انتقل إلى جنوب شرق آسيا نتيجة ظهور قوة الصين، وبسبب عدم حاجة أمريكا لبترول الشرق الأوسط نظراً لتطور تقانة استخراج البترول من الصخر، وظهور مخزونات آلاسكا، فبدأ التفكير بشكل مفاجئ في إخلاء منطقة الشرق الأوسط تدريجياً، ومع فكرة تقليل الوجود الأمريكي في المنطقة أصبحت مسرحاً للصراع بين القوى الإقليمية في المنطقة؛ فبرز دور ايران وتركيا وإسرائيل، وحاول بعض العرب الدخول في اللعبة، وأخيراً دخلت روسيا لإسناد

حلفائها، وهدف كل الأطراف من التقدم هو حضورهم على مائدة اتخاذ القرارات بشأن المنطقة، فمن يمتلك وجوداً عسكرياً على الأرض لا يمكن تجاهله في المفاوضات أثناء تشكيل مستقبل المنطقة.

صراع الكبار:

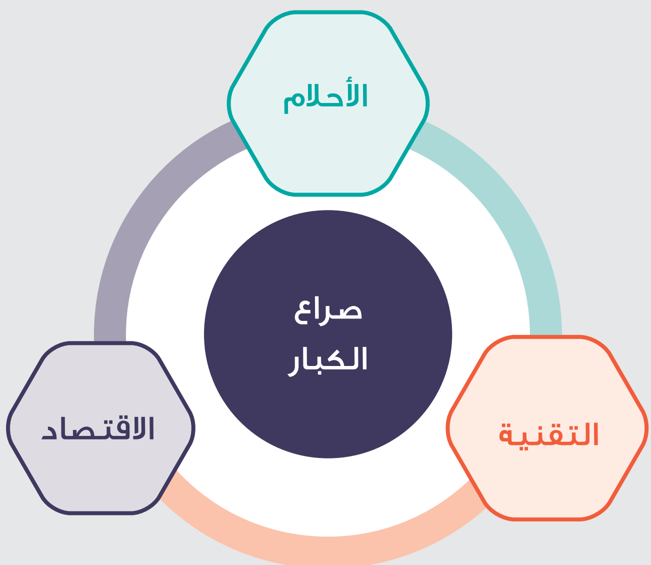
يتحكَّم في صراعات الدول الكبرى ثلاثة أمور أساسية تتمثل بـ: أحلام تلك الدول وكبار مؤسسيها، وأيضاً بالمجال التقني العلمي، فالحروب لم تعد تدار بعدد الأفراد إنما تدار بتقنيات وخوارزميات معقدة، وأيضاً ببناء الاقتصاديات الضخمة التي تزيد فيها الصادرات عن الواردات.

بين أمريكا والصين:

بالنظر إلى صراع الكبار، وتحديداً أمريكا والصين كفرسي رهان يمتلكان الأدوات أكثر من غيرهما، سنجد أن لكل من البلدين ما يميزها عن الآخر:

- امتيازات للولايات المتحدة الأمريكية:

من ناحية الوزن الاقتصادي؛ نجد أن إجمالي الناتج القومي في أمريكا حوالي واحد وعشرين ترليون دولار، في حين تقول بعض المصادر الموثوقة إن إجمالي الناتج القومي في الصين حوالي أربع وعشرين ترليون دولار، ولكن في المقابل هذا الرقم مقسّم في الصين على مليار وثلاثمائة مليون من البشر، أما في أمريكا فهو مقسم على حوالي ثلاثمائة وتسعين مليوناً من البشر.



- أما من ناحية التقنية؛ فنجد أن لدى الولايات المتحدة الأمريكية تقنية متقدمة أكثر بكثير عن الصين والروس.
- ومن الناحية العسكرية؛ نجد أن القوة الأمريكية أيضاً متقدمة على القوة الصينية، فالقوة الأمريكية هي قوة مستعدة، أما الصين وغيرها فهي قوات صاعدة.
- أما من ناحية ماذا بيد أمريكا ضد الصين؟
- نجد أن الأمريكان يوجّهون اتهامات دائمة للصين، وأكبر تلك الاتهامات تتمثل بالتجسس الصناعي، واعتداء الصين على الملكية الفكرية لهم، فما إن تُطرح فكرة في الولايات المتحدة الأمريكية نجد أن الصين تصنّعها ، وتنشرها في الأسواق.
- وأيضاً نجد أن أمريكا قد حدّت من الصادرات الصينية إليها.

– امتيازات للصين:

- ديموغرافية الصين تتميز بقوة؛ حيث إن لدى الصين كتلة بشرية ضخمة تسمح لها بتحريك السوق الداخلية حتى وإن قاطعها العالم.
- وأيضاً موقع الصين الجغرافي، وعلى اشتعاله، إلا أنه أكثر حيوية من موقع الولايات المتحدة الأمريكية.
- ومما يميز الصين أيضاً أن لديها نمواً مطرداً مستمراً نلحظه بقوة؛ سواء على الصعيد الثقافي، أو العلمي، أو الاقتصادي، أو التقني؛ فيوجد في الصين اليوم حوالي خمسة جامعات معنية فقط بمشروع السكك الحديدية، وأيضاً حاولت الصين ونجحت بالقضاء على الهيمنة الأمريكية على فضاء الاتصالات فتحرروا من هيمنتها التقنية، وتحرروا أيضاً من الهيمنة الإعلامية فأصبحوا هم المسيطرين على فضائهم الداخلي، كما تميزت بسباق التقدم بإعانة الدول والوصول إليها، ومحاولة بناء شراكات استراتيجية مع العالم.

– أوراق أخرى للعب بين الصين وأمريكا:

- **تايوان:** وهي منطقة تتألف بالأصل من الشعب الصيني، ويستمر الصراع عليها بين الولايات المتحدة والصين، فالشعب في تلك المنطقة انفصل عن الفكرة الشيوعية وأنشأ نظاماً رأسمالياً، وأقام تحالفات مع الولايات المتحدة الأمريكية.

- **إيران:** تعتبر إيران أيضاً من المناطق المركزية التي يدور حولها صراع ضخم، ونجد أنها قد عززت علاقاتها مع الصين بشكل مكثف، وتعوّل الصين على النفط الإيراني كعامل مهم في تغذيتها.
- **كوريا الشمالية:** عند النظر إلى عقدة كوريا الشمالية نراها تبدو وكأنها جزء من قرن التنين النائم. وقد طوّرت كوريا الشمالية نفسها بشكل مرعب، وأصبحت تمتلك أكثر من ستين رأساً نووياً، كما أنها طوّرت صواريخها بما يمكِّنها من ضرب السواحل الأمريكية، وقد حاولت أمريكا في فترة غير بعيدة تفعيل حالة غزل مع كوريا الشمالية، مما أزعج الصين وجعلها تتجه من جديد لإصلاح علاقاتها معهم.
- **كوريا الجنوبية واليابان:** وتبقى كل من اليابان وكوريا الجنوبية كالطوق الذي وضعته الولايات المتحدة الأمريكية حول الصين وروسيا، بما في ذلك أرخبيل الفلبين وأندونيسيا و..

إن فهم القضايا الجيبولتيكية الكبرى؛ كالفعل الأمريكي، ورد الفعل الروسي، وعقدة الصين وأسباب غيابها عن النشاط العالمي (رغم أهميتها الاستراتيجية وتركّز النظر إليها)، وفهم العلاقات المركبة بين الاقتصاد والسياسة، وفهم التدافع العالمي، والسعي نحو التموقع في العالم، والفارق بين الموقع والتموقع.. وإلى غير ذلك من القضايا.. يجعل الإنسان أكثر وعياً واستيعاباً، وأكثر امتلاكاً للأدوات التي تمكِّنه من تقييم الأحداث الصغرى التي نستمع إليها في الأخبار ووضعها في المكان الصحيح، والابتعاد عن الفهم السطحي الذي اعتدنا أن نتعاطى به عند التعامل مع خارطة العالم وتحركاته، فتتخلّق لدى الفاهم لخارطة تلك الأحداث قوة على مسرح التفكير والتصور، تجعله يتلقى التحليلات التي يسمعها ويُسقِط منها أو يضيف وفق إطار ناضج..

ثالثاً- لعبة الشطرنج العالمية

إن مصطلح لعبة الشطرنج كان قد استخدم لتشبيه العالم بأحجار متصارعة، أو للدلالة على القوى المتحكِّمة في العالم.. وسنستعير هنا التشبيه تعبيراً عن حالة الصراع الكبير، فالعالم باستمرار كرقعة شطرنج تقوم فيه التحركات والتحركات المضادة من غير توقّف.

وسنتابع في الفقرات القادمة إيضاحاً لتحركات اللعبة العالمية عبر رحلة سنستكمل فيها بعض الأجزاء الهامة من الفقرات السابقة التي كنا قد بدأنا بها في الجيوبولتيك..

خارطة العالم من زاوية أخرى:



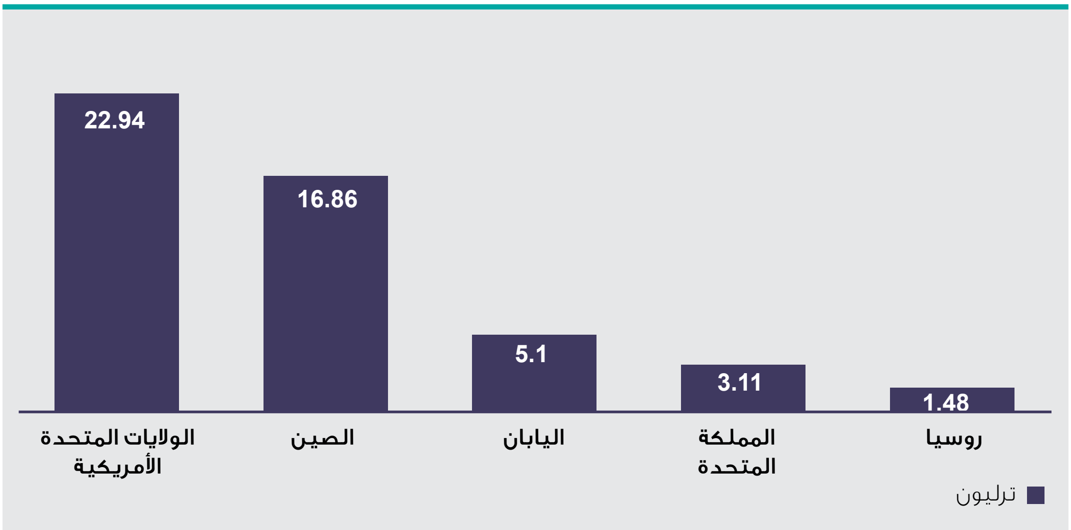
بعد ما عجز الألمان كما أسلفنا عن احتلال روسيا تحولت فكرة "احتلال قلب العالم" إلى فكرة "حصار قلب العالم"، ونشأ مع هذه الفكرة تصور جديد لخارطة العالم؛ يبدو فيها وكأنه قلب ويحيط به هلالين؛ هلال لصيق به يسمى منطقة الارتطام أو الهلال الداخلي، وهلال بعيد يحيط بالهلال الداخلي نسميه الهلال الخارجي، ويبدأ من بريطانيا ثم أمريكا واستراليا واليابان وجزر أخرى.. ومن هذا التقسيم تأتي فكرة أن من يحتل الهلال الداخلي يحتل القلب، ومن يحتل القلب يحتل العالم.

وزن اللاعبين الاقتصادي:

كنا تحدثنا في الفقرات السابقة عن اتفاقية شنغهاي وحلف القوى المليارية، ولمزيد من اتضاح الصورة وملء الفراغات، لا بد لنا من وقفة مع الجانب الاقتصادي لهذه الدول الذي

يقلب الموازين ويضبط حالة الأوهام التي تصنعها الخيالات الجامحة، فالبعض يتصور أن الغرب سينتهي، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية ستنتهي، وأنه سيبدأ العصر الصيني والروسي بتلك البساطة.. وهو احتمال موجود، إلا أنه لا يزال ضعيفاً في الفترة الراهنة.

إجمالي الناتج المحلي للدول الكبرى



وأولى الحقائق التي يجدر الوقوف عندها هو وزن اللاعبين السياسيين اقتصادياً، فالحروب تحتاج إلى اقتصاديات، أي احتياطات مالية موجودة في الدولة، وقدرة على تحمّل الضغوط والأعباء المادية، دون انهيار البلاد، فعشر سنوات من الحرب في كل من إيران والعراق أدت لتدهور أحوال البلدين، وانخفضت قيمة العملة وتردّت بشكل لم يُتَمكَّن من إصلاحه بعد.

وإن أول ما يُنظر إليه لتقييم اقتصاد بلد ما عادة الـ"GDP"، أي مايُسمى "مستوى إجمالي الناتج المحلي"، وهو رقم مالي معيّن يقاس به اقتصاد الدول وتتم المقارنات من خلاله فيما بينها. وإن أكبر مستوى لـ"GDP" بين بلدان العالم بحسب بعض الدراسات على اختلافها هو اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية الذي يبلغ حوالي 23 ترليون، وثاني أكبر اقتصاد هو اقتصاد الصين حيث يبلغ بحسب الشائع حوالي 17 ترليون، وتليهم اليابان بإجمالي ناتج محلي يبلغ حوالي 5 ترليون، ثم ألمانيا بحوالي 4 ترليون، ثم بريطانيا بحوالي 3 ترليون، ثم روسيا بحوالي 1.5 ترليون.

فروسيا بهذا المعنى هي عملاق عسكري يمتلك أسناناً حادة جداً، إنما من ناحية الاقتصاد تأتي بالمرتبة الثانية عشر في ترتيب اقتصاديات العالم!

والسؤال هنا الذي يطرح نفسه: كيف لدولة ضعيفة اقتصادياً كروسيا أن يكون لها وزن كهذا في السياسة الدولية بحيث تكون المنافس الرئيس للولايات المتحدة الأمريكية؟!

روسيا واللعب خارج الوزن:

حجم الإنفاق العسكري

استثمرت روسيا على مدار سنوات في الإنفاق العسكري، فبحثت عن توازن لها مع الغرب من خلال الصناعات البالستية والتوسع في الصناعات النووية.. فأنفقت إنفاقاً ضخماً في هذا المضمار، لتُحدِث بذلك مايسمى توازن الرعب.

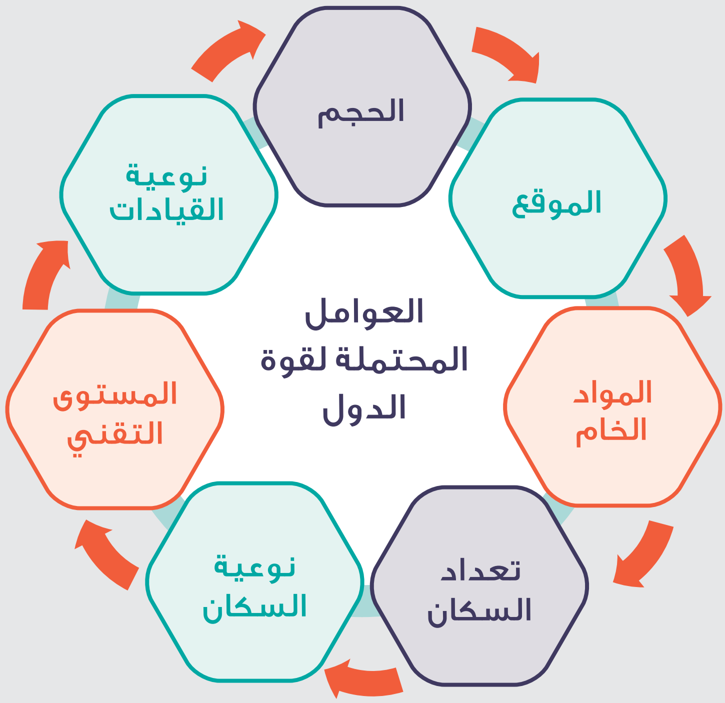
توازن الرعب:

ويُقصد بهذا المصطلح القدرة على تدمير الخصم بالقدرة ذاتها التي يستطيع بها الخصم أن يدمرها، حتى ولو لم تكن متكافئة معه اقتصادياً..

فلم توجّه الاقتصاديات الروسية لصالح الإنسان وبنائه بالدرجة الأولى، إنما وُجِّهت لصالح الإنفاق العسكري، فالعملة ضعيفة، والإنسان الروسي ضعيف في داخل مجتمعه، ولكن روسيا كقوة عسكرية هي بلد قوي جداً، وهذا ماشهدناه في الحرب الأوكرانية، فروسيا لديها قوة تدميرية ولكنها تفتقر للقوة النوعية!

عوامل القوة المحتملة:

حينما نقول إن روسيا تفتقر للقوة النوعية، ذلك لأن توازن القوى عالمياً يحتاج إلى عوامل أخرى تختلف عن القوى العسكرية، فهناك عوامل محتملة لقوة الدول، ونقول محتملة لأن هذه العوامل قد تكون عوامل ضعف في بعض الأحيان وليس بالضرورة أن تكون عوامل قوة دائماً، فالدولة إذا لم تمتلك ذكاء وفعلاً لتحويل القوة المحتملة لديها إلى قوة حقيقية فستتحول إلى منطقة استنزاف مادي، فتغدو عليها نقمة بدلاً من أن تكون لها نعمة، ومن تلك العوامل المحتملة:



● حجم الدولة:

إن حجم الدولة الكبير يسهم إسهاماً هاماً في كثرة الثروات والمواد الخام التي تغذي المصانع وتقوّي حركة البلاد، ولكن في حال الضعف العلمي للدولة ستصبح المساحات الواسعة عبئاً، فمصر على سبيل المثال هي بلد كبير، ولكن المساحات المأهولة فيها حوالي 5% فقط، وهي الأراضي المحيطة بنهر النيل، أما بقية المساحة 95% فهي أراضٍ صحراوية غير مأهولة، وكثيراً ماتكون مرتعاً للمناوئين للدولة والمهرّبين.. وهذا حال ليبيا أيضاً وكثير من المناطق الأخرى التي تُعتبر فيها المساحات الواسعة هماً بدلاً من أن تكون ميزة.

● الموقع:

موقع الدول أيضاً يلعب دوراً هاماً، فروسيا هي دولة محاصرة ولا يوجد لها مناطق تطل منها على المياه الدافئة إلا مساحة صغيرة تطل منها على البحر الأسود، فتعبر سفنها من ممرات مملوكة لدول أخرى، وهذا على عكس الولايات المتحدة التي تعتبر كجزيرة كبرى تحيط بها المياه من كل اتجاه فتسهل حركة أساطيلها ويصعب حصارها.. وهذه الميزات

المتعلّقة بالموقع هي ذاتها تسبب حروباً وإشكاليات كالحرب بين الكويت والعراق؛ فالعراق دولة ضخمة تتمتع بموارد كثيرة إلا أنها مخنوقة من الناحية المائية باستثناء شط صغير فتبدو محاصرة، وهذا جزء من مشكلتها مع الكويت التي تتمتع بشواطئ واسعة على الرغم من صغرها.

● الموارد الخام:

الموارد الخام أيضاً من العوامل التي يمكن أن تكون من الميزات أو تتحول إلى أزمات؛ فوجود المواد الخام الأولية في الدول الإفريقية أطال فترات احتلالها وإضعافها من قبل القوى الغربية، وأيضاً كثير من دول النفط يؤخذ منها النفط الخام بأسعار زهيدة ليُصنَّع في دول أخرى ويعود إليها فتشتريه بأضعاف المبالغ التي باعته بها.

● عدد السكان:

يلعب عدد سكان البلاد دوراً هاماً سلباً أو إيجاباً؛ فيعتبر عدد السكان الكبير ميزة هامة للدول المتقدمة، التي يُحسَن فيها إدارة البلاد، ونجد أن بعض الدول تطمح لزيادة معينة في عدد سكانها كماليزيا، ففي حين أن عدد سكانها يبلغ حوالي 25 مليون نسمة، إلا أنها تطمع بأن يصل في السنوات القادمة إلى 50 مليون من أجل صنع سوق داخلي ضخم تُصنِّع فيه وتبيع. وبالمقابل قد يغدو عدد السكان الكبير نقمة على الدول المتأخرة فمصر مثلاً عدد سكانها حوالي 100 مليون وتعتبرهم عبئاً عليها.

● نوعية السكان:

إنَّ عدد السكان ليس بأهمية نوعية الشعب وإنتاجيته، فاليابانيون مقارنة بدول أخرى عددهم قليل جداً أمام ضخامة إنتاجيتهم. على عكس شعوب أخرى تكثر شعوبها إنما تقل الإنتاجية لديها، ومثال هذا واضح في الدول العربية فبلداننا تتمتع بممرات وموارد وإمكانيات عالية، إنما مستوى إنتاجية الفرد محدودة وهذا يسهم في إضعافها.

● المستوى التقني:

من البنود الهامة جداً في تقييم الدول المستوى التقني، فدولة مثل اليابان أو أمريكا أو الصين ينظر لها باعتبار المستوى التقني الدقيق الذي وصلت إليه.

نوعية القيادات وطموحاتها:

من القضايا الهامة في هذا السياق نوعية القيادات في الدولة ومدى تبلور طموحاتها، وحساباتها الدقيقة للأرجل الأربعة للطاولة السياسية التي تكلمنا عنها، وهذا يتضح في المواقف العملية للدول.

حينما يتضح لنا حجم الطموح واستراتيجية الصراعات واتخاذ القرار التي تحتذيه قيادات الدول نستطيع أن نتنبّأ إلى حد ما كيف ستسير الأحداث فيما بعد؛ فمما يتضح لنا من سياسة روسيا مثلاً في طريقة مفاوضاتها مع الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفييتي بأنها تدفع بالصراع إلى حد عالٍ جداً ثم تساوم على سقف أخفض منه بالقدر الذي تحتمله، وهذا يجعلنا قادرين على خلق تصور معين لانتهاء الحرب الروسية الأوكرانية _وإن لم يكن على سبيل الجزم_ فمما يُتَصوَّر كمآل للحرب أن تخفف روسيا حدة الصراع مقابل إعطائها بعض المكاسب لا جميعها.

أين دور الدول الإقليمية؟:

من الأسئلة الهامة التي تخطر في بالنا في صراع العمالقة على رقعة الشطرنج.. ما دور الدول الإقليمية أي الأصغر مكانة وتأثيراً مثل تركيا وإيران...؟

التمركز الإقليمي:

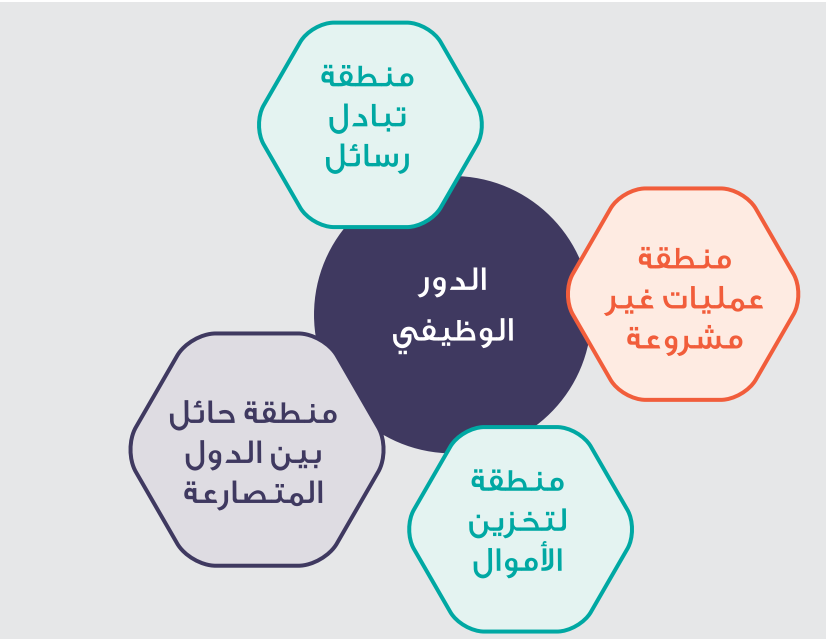
إن هذه الدول في سعي دائم نحو خلق مكانة لها تحقق بها وجودها وتخدم مصالحها، ومن أهم عمليات التمركز التي تسعى لها هذه الدول "التمركز الإقليمي"؛ أي أن تصبح قوة يُرجع لها في القرارات التي تخص الإقليم الذي تشغله، فلا يتم اتخاذ قرار دولي دون أن يمر عليها، فتصبح رقماً هاماً في هذه المعادلة، ويمكن قراءة تحركات هذه الدول بهذا الاعتبار؛

وظيفة اللاعب الإقليمي أن يُعاظم دوره المحلي بما يضمن ويرعى مصالحه.

فتركيا مثلاً سواء بالملف السوري أو الروسي أو بملف البوسنة أو أوروبا الشرقية.. تبدي حضوراً إقليمياً واضحاً بحيث تدعم سير الأحداث أو تعيقه في الرقعة الجغرافية المحيطة

بها بما يدعم مصالحها باستمرار. وأما إيران فنجدها قد وضعت أذرع عسكرية لها في لبنان وفلسطين وفي اليمن.. وحينما يتخذ قرار ما يخص هذه المناطق تكون حاضرة في ساحة القرار.

● الدور الوظيفي:



الأمر الثاني الذي يمكن أن تقوم به الدول الصغرى هو البحث عن أدوار وظيفية في خضم رقعة الشطرنج المعقدة، فبعض الدول في العالم وجودها يكمن بالدور الوظيفي الذي تشغله، وتتنوع أشكال الدور بتنوع الموقع الجغرافي والإمكانيات التي تتمتع بها هذه الدول:

- فالدور الوظيفي لبعض الدول يكمن بكونها حائل "Bufferzone" بين طرفين من أن يصطدما اصطداماً مباشراً، وهذا كالدور الذي كانت تلعبه أوروبا الشرقية حينما كانت حائلاً بين حلف الناتو وحلف وارسو، والأردن في يومنا أيضاً يمكن اعتبارها "Bufferzone" بين اسرائيل وبين المنطقة العربية، وهذا الدور لا يأتي غالباً للدولة عن سبق تخطيط أو إصرار، إنما يحدث لكونها تشغل منطقة جغرافية هامة لبعض الأطراف، فتستغل الدولة ذلك وتشغل هذا الدور بما يحقق مكانة لها ويضمن مصالحها.

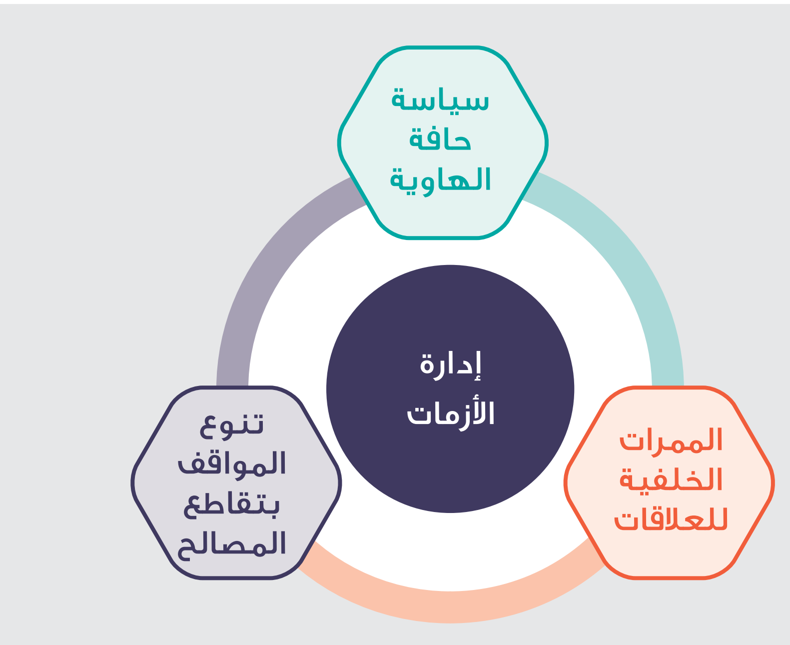
- كما يمكن أن يكون الدور الذي تشغله بعض الدول كونها منطقة تبادل رسائل في العالم كأفغانستان ولبنان.. فتتبادل الدول الكبرى رسائلها من خلال هذه الدول الصغرى، وتأتي الرسائل من خلال تفجيرات معينة، أو قتل شخصيات، أو نحوه..

- وهناك مناطق أخرى دورها الوظيفي القيام بالعمليات غير المشروعة؛ كتجارة السلاح أو المخدرات، أو تبييض الأموال.

- وهناك مناطق دورها تخزين الأموال كسويسرا مثلاً..

فتتنوع الأدوار الوظيفية التي تشغلها الدول الصغرى في داخل النظام الدولي في ظل انشغال الدول الكبرى بما يحقق لها المصالح والمكاسب.

بعض الأشكال الهامة لإدارة الأزمات في السياسة:



● سياسة حافة الهاوية:

من السياسات السائدة التي تتبع عند الأزمات بين الدول ما يُسمى سياسة حافة الهاوية، ويتجلى هذا المفهوم على أرض الواقع حينما نجد نزاعاً حاداً يحدث بين قوتين كبيرتين، فتتعالى المشادّات لتصل لأعلى مستوياتها حتى يكاد يُظَن أن الحرب ستنفجر.. وفجأة تُعقَد بين الطرفين اجتماعات ولقاءات لنجد أن الأزمة قد شارفت على الانتهاء، وأنَّ حالة التصعيد قد تراجعت، فسياسة حافة الهاوية هي حالة التصعيد لأعلى الدرجات ولكن ليس للوصول للحرب كما يعتقد البعض، إنما بهدف الوصول للتسوية، وهي سياسة معتمدة في كثير من أزمات العالم التي تحدث من حولنا، وإلا لكانت الحرب مشتعلة على الدوام في العالم على أوجها..

في العلاقات السياسية: الكثير من التصعيدات التي توهم البعض أن الحرب قد آن أوانها.. الغرض الخفي منها تحريك الملفات للوصول إلى تسويات معينة.

وهذه السياسة من المهم أن ندركها جيداً درءاً لأن نقع ضحية لآراء الخرّاصين الذين يذيعون باستمرار نهاية العالم مع كل تصعيد من هذا النوع..



● الممرات الخلفية للعلاقات:

إن وجود ممرات خفيّة بين الدول هو نوع من السياسات التي تخفى على الكثير من الناس، فإعلان إحدى الدول القطيعة مع دولة أخرى لايعني عدم وجود قنوات خلفية بينهم، ففي السياسة الدولية تلعب الممرات الخلفية دوراً هاماً في هندسة الصراع بين الأطراف، فالتصعيد أو القطيعة بين الدول لا يعني القطيعة التامة فيما بينها، فليس من المستغرب أن تنكشف لقاءات بين الدول المتصارعة - إلا لمن لا يقرأ السياسة بشكلها الصحيح -، فالممرات الخلفية تشتغل بشكل شبه دائم في حالات الصراع والحروب والانقطاعات..

● تقاطع المصالح سلباً وإيجاباً وتنوع المواقف:

هذه قضية تشغب على عقول كثير من الناس خاصة في البيئات التي لا تعرف إلا نمط الأسود أو الأبيض، فمثلاً قد تختلف تركيا مع إسرائيل في كثير من الملفات، ويتفقون على ملفين أو ثلاثة.. فهل سيتم إلغاء الملفين مقابل الملفات الأخرى المختلف فيها؟! ما يحدث في السياسة غالباً هو أنه تتم الموازنة بين هذه الملفات بما يخدم مصالح الطرفين!

فقضية الأسود والأبيض السائدة في عقولنا والتعاطي من خلالها مع تعقيدات الواقع هي ما يشكّل لنا حالة الصدمة باستمرار، ففي كل مرة نعلن الصدمة حينما نرى إحدى الشخصيات التي ننظر إليها على أنها بيضاء أو سوداء تدخل في منطقة اللون المقابل..

في العلاقات السياسية تقسم الصراعات إلى ملفات، وكل ملف يُتعاطى معه بطريقة مختلفة عن طريقة الملفات الأخرى بما يخدم مصالح الدول بعيداً عن العواطف.

الخلاصة

حينما نتكلم اليوم عن لعبة الشطرنج العالمية بما فيها تقسيمات (القلب والهلال الأوسط والهلال الخارجي)، والسيطرة على الجزيرة، ووزن اللاعبين السياسيين، وتفاوت القوى فيما بينهم بكل جانب على حدة، وأن قوة الجانب العسكري لا تعني قوة الجانب الاقتصادي.. وكيف إنه من الممكن أن تكون عوامل القوة لدولة ما هي ذاتها عوامل الضعف لدولة أخرى إذا لم تحسن استخدام الموارد لديها، وكذلك نوعية القيادة وطموحها، والتمركز الإقليمي للدول، أو تفعيل الدور الوظيفي، وأيضاً نوعية الإدارة بالأزمات.. فجميع هذه القضايا والمفاهيم يجب أن تكون حاضرة في عقولنا لكونها العدة الأساسية في فهم اللعبة الدولية، وحضورها في عقولنا تجعلنا في أمان من الشطح الذي نسمعه في التحليلات السياسية، فامتلاكنا لهذه الأدوات يمكّننا من التمييز بين الآراء الواقعية والجادة في التحليل، وبين ذوي النظرة الأحادية للعالم الذين يتكلمون وكأنهم يمتلكون التقارير النهائية التي لا يمتلكها رؤساء الدول الكبرى أنفسهم!.

رابعاً- الوطن العربي جيبوبولتيكياً (معايير التقييم)

كنا تحدثنا سابقاً عن تصرّفات الدول في ضوء معطياتها واحتياجاتها، وكيف أنها تُقسم إلى دول كبرى عالمية ودول إقليمية، ودول صغرى.

وما نضيفه في هذه الفقرات هو أنه لكلٍ من هذه الدول دوائر تسعى لتزيد من خلالها قوتها وتحقق مصالحها وفق ثلاثة اعتبارات؛ اعتبار الدولة (الوطن)، واعتبار الدين (الآيديولوجيا) والقبيلة (القومية)، وتختلف أولويات الدول من ناحية هذه الاعتبارات؛ فالأتراك مثلاً يأتي لديهم الوطن أولاً ثم يليه الدين أو القبيلة.. وبالتالي كافة القرارات التي تتّخذ لديهم تتخذ بالنظر أولاً لمصلحة وطنهم؛ وهذا مما يبرر التعاون التركي مع إسرائيل الذي استنكره الكثيرون ممن لا اطلاع لهم على الجيوبولتيك..

ونجد دولاً أخرى قد تبالغ في الجانب العسكري على حساب جوانب أخرى بما يضمن لها خلق حالة "توازن رعب" مع بقية الدول الكبرى، وهذا نجده غالباً لدى الدول التي تؤمن بآيديولجيا معينة غير مقبولة عالمياً كالاتحاد السوفييتي سابقاً، وكوريا الشمالية وإيران وإسرائيل. وإننا بإمساكنا لقواعد اللعبة الأساسية، وفهمنا لكيفية لعب الكبار والأقليميين والصغار.. سيصبح لدينا مفاتيح تفسيرية غير عاطفية للأحداث.

الوطن العربي من نظرة جيوبولتيكية:

من أدرك مرحلة الستينات في الوطن العربي فهو قد شهد الفترة القومية وترسانة الأناشيد التي تتغنى بالوحدة العربية نحو: بلاد العرب أوطاني.. أمجاد ي اعرب أمجاد.. وحدة مايغلبها غلاب.. هذا علاوة على ما تغتني به الكتب من معلومات عن خيرات مصر والسودان، والممرات الحيوية والبحار الهامة، وثروة النفط والغاز المتواجدة في الوطن العربي.. وهذا كله صحيح ولكن هناك جزئيات مغيّبة في الجيوبولتيك باعتبار أن الموارد في البلدان احتمالية إذا لم تمتلك البلاد إمكانية تحققها؟ فما هو الشيء الذي لم يقال لنا في هذه العملية الترويجية القومية؟ والذي شكّل إشكاليات حقيقية في الوعي العربي؟

1. القوس والسهم والصحراء المسيطرة:

سنحاول أن نعطي وصفاً للمنطقة العربية بما نسميه "القوس والسهم"، فعند النظر إلى الوطن العربي نلحظ ملحظين واضحين:

الأول: أننا إذا نظرنا للمنطقة العربية من موريتانيا مروراً بالمغرب العربي والجزائر وليبيا وصولاً للجزيرة العربية.. سنجد أن المناطق السكانية منتشرة كقوس رفيع على أطراف البحار، ونجد قلب الوطن العربي كقلب صحراوي خاوٍ من المدن المسكونة، فالكثافة السكانية في المنطقة العربية ليست منبسطة بانبساط الأرض، بل إن قلب الوطن العربي هو عبارة عن صحراء غير مستفاد منها، بل هي تزحف باستمرار على المدن فيتآكل الرصيد الاحتمالي للزراعة فيها.

الملحظ الثاني: إننا نجد الكثافة الحقيقية للسكان واضحة في مصر والسودان وكأنها سهمٌ للقوس الرقيق.

إذاً في الوطن العربي هناك مشكلة ديموغرافية، متعلقة بنوعية الأرض المتواجدين عليها، فالتصحّر منتشر بقوة، وهذا تحدٍّ كبير في الوطن العربي؛ متمثل بتوزيع الثروات وتوزيع البشر



ومناطق سكنهم، فمصر مثلاً يتوزع سكانها على 5% فقط من الأراضي، و95% من أراضيها عبارة عن صحارى ليس فيها سكان، ممتلئة بالألغام التي لم تُنزع منذ أيام الحرب العالمية!

1. علاقة قوة الشعب بعبء الموقع والموارد:

من التشخيص السابق نجد أنفسنا أمام مشهد مركب، وإن تطويره لحالة فاعلة حقيقية يحتاج لشروط هامة، تتمثل بنوعية شعوب متقدمة قادرة على تحويل هذه الموارد المعطلة في المنطقة العربية إلى مصادر قوة، وإلا فإن هذه الطاقات ستبقى إشكالية حقيقية في المنطقة العربية، بل ستغدو عبئاً على السكان إن لم يكونوا على قدر هذه الممتلكات.

فوجود المشروع القومي، وتوفر العقول في داخل المجتمعات، والحريات والعدالة، واستغلال الطاقات البشرية وبناء مشاريع عملاقة للتواصل بين أجزاء المنطقة العربية.. فهذه قضايا مفصلية وذات حساسية عالية، وتحتاج إلى تطوير لنتمكن من تحويل الثروة من نقمة إلى نعمة كبيرة تصب في صالحنا، فهذه الحلول حينما لم تتحقق بقيت البلاد العربية تردد الأناشيد القديمة ذاتها دون دراسة علمية حقيقية لجيوبولتيك المنطقة العربية بحيث تنظر للعوائق بواقعية كما تنظر للميزات!.

1. المسطحات الأربعة:

عند النظر إلى منطقة ما بين النهرين (بلاد الشام والعراق) نجدها تطل على بحار هامة، وتتمتع بميزات جغرافية ومناخية كانت جاذبة للسيطرة عليها عبر التاريخ، ونستحضر هنا قضية المسطحات الأربعة لخلق تصور جيبولتيكي عام عن المنطقة، فنجد:

- في جنوب (بلاد الشام والعراق) الجزيرة العربية كمسطح رملي قليل الموارد، كان يدفع بالقوة البشرية للهجرة إلى مناطق الوفرة في الشام والعراق.

- ونجد أيضاً مسطّحاً جبلياً يحيط بالمنطقة يتمثّل بالجبال الإيرانية، وحينما كانت تحدث فيه انهيارات جبلية كان سكانه يتّجهون نحو العراق ومناطق الثروة المائية، فنحن حينما نتحدث في التاريخ الإسلامي عن خراسان وخوارزم والدول التي نشأت فيها وسيطرت

على بغداد كالسلاجقة وغيرهم.. نجد أنهم كانوا جميعاً ينتهون إلى السيطرة على بغداد وإقامة قوة في الشام.

- لدينا مسطحٌ آخر يتمثل بهضبة الأناضول التي كانت أيضاً حينما يعجز قومها عن دخول أوروبا والسيطرة عليها تأتي صوب مناطق العراق والشام بما اشتهر بحروب الأتراك تاريخياً.

- وأيضاً كان الروم يجدون المسطح المائي المتمثل بالبحر الأبيض المتوسط باستمرار مطيةً للوصول إلى هذه المناطق الموجودة.. فتناوب عليها نفوذ الروم والفرس والعرب وأيضاً الأتراك الذين كان لهم النصيب الأكبر في السيطرة على المنطقة تاريخياً.



الخلاصة:

إننا حينما ندرك موضع القوة العالمية، والقوة الإقليمية، والقوة ما دون الإقليمية وكيفية تصرفاتها، سنستطيع أن نقدِّر أفعال الدول في الـ"Real Politics" السياسة الحقيقية لتلك القوى وما الذي ستفعله من أجل البقاء بعيداً عن العواطف..

ومن المهم حينما نتحدث عن المنطقة العربية النظر لها بشيء من التصور الذهني العام

الواضح؛ فحينما نتحدث عن القوس الواسع الذي يمر على المياه، وعن الكثافة السكانية عند السهم فهذا لنسهّل الرؤية البصرية للمشهد المعقد الموجود أمامنا..

وإن معرفة فكرة الجزر السكانية التي تحيط بها الرمال تشرح لنا فكرة سيطرة الصحراء وإحاطتها بالمناطق المأهولة التي تزحف إليها باستمرار، والاحتياج لحلول جبارة لربط هذه المناطق ببعضها البعض..

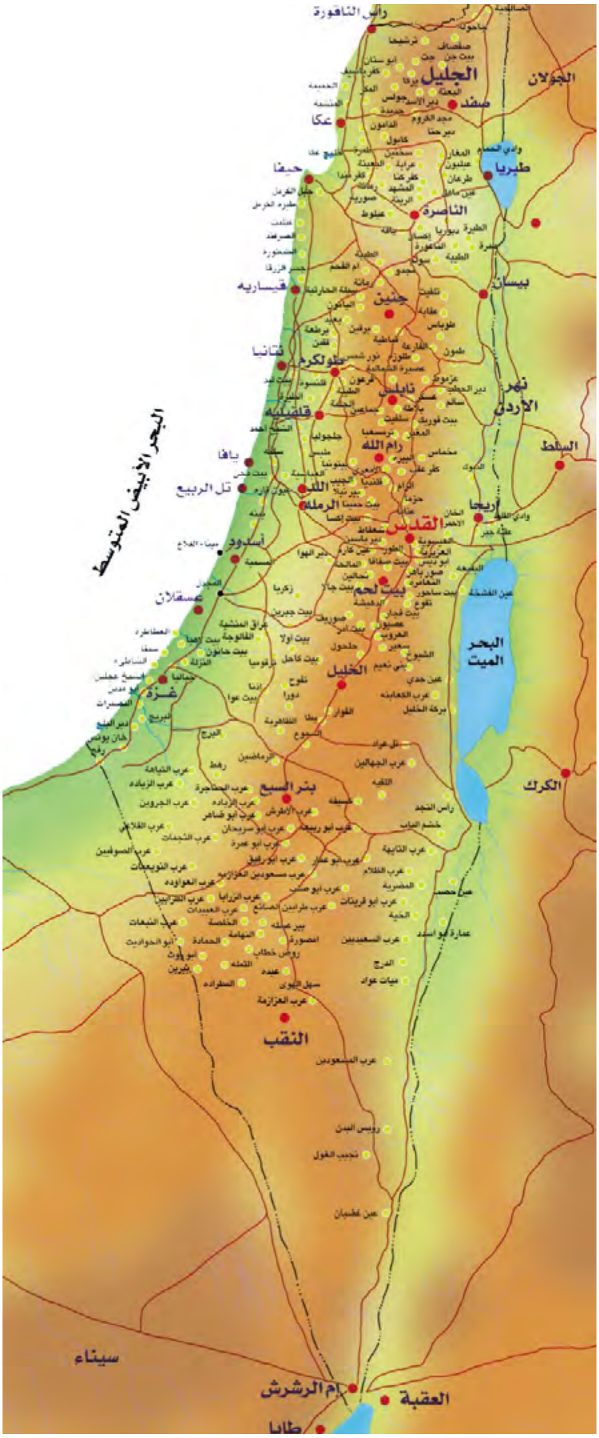
وأيضاً في حديثنا عن مشكلة الموارد الموزعة توزيعاً غير متساوٍ بين القوى؛ دون أن يوجد جهة تضحّي لحساب الجهة الأخرى مقابل تحقيق التوازن في المنطقة، فهذا للتنويه على أهمية إيجاد الحلول العميقة الواقعية للمشكلة الحاصلة.

وأيضاً بالنظر لمنطقة الشام والعراق كمنطقة ارتطام لأربعة مسطحات تُصرِّف فيها طاقتها باستمرار، - ولربما مستقبل المنطقة العربية عموماً مرتبط بهذه القضية الأساسية! فتجمع القوى هو مشهد مكرر تاريخياً وليس شيئاً استثنائياً في حركة التاريخ - فحينما تتم دراسة شخصية هذه المنطقة جيوبولتيكياً سنفهم من خلال النظر لحركة القوى هذه مصير العالم العربي ومستقبله، وما الذي يجب عليه أن يفعله حتى يستطيع بتعدد القوى والأعراق والطوائف الموجودة فيه أن يجد له مكاناً في الخارطة العالمية، وماذا عليه أن يفعل، وكيف له أن يستفيد من هذا المكان الحيوي الذي يتموضع فيه..

وإن هذا كله يقودنا إلى مسألة هامة "مسألة الخروج الحضاري"؛ أي عدم دخول الحضارة العربية في السباق المادي على الأقل، المرتبط بقضيتين؛ العلم، وقيم العمل، فصناعة الحضارة تعني وجود علم وقيم عمل، وهاتان القضيتان إذا غابتا في مجتمع ما سيفتقد الحصانة وقوة الردع، وسيصبح من السهل أن تغزوه قوة الآخرين، وهذا الكلام سنشاهد أبعاده واقعياً حينما نتكلم في الفقرات القادمة عن القضية الفلسطينية وكيف كان أثر وضع الوطن العربي عليها.

وإلى هنا نكون قد حوصلنا الجيوبولتيك العالمية بشكل من الأشكال، وتبقّى لدينا الضحية الكبرى "القضية الفلسطينية" ضحية الأوضاع العالمية المعقدة والصراعات، وضحية العجز العربي المزمن الموجود في المنطقة..

خامساً- فلسطين جيوبولتيكياً



يفترض للقارئ للفقرات السابقة أنه بات قادراً على النظر للعالم وكأنه وحدة واحدة، مع وضوح النظرة لتحركات القوى العالمية الكبرى، وحقيقة الصراع الدائر بين روسيا والغرب، ودور الصين المتنامي في المعادلة، وسبب عدم خروجها للساحة بحجم الوزن الذي هي عليه كقوة كبرى في العالم، وأيضاً وضوح تصرفات الدول الإقليمية والدول الصغرى، وفكرة الدور الذي تحاول أن تلعبه القوى..

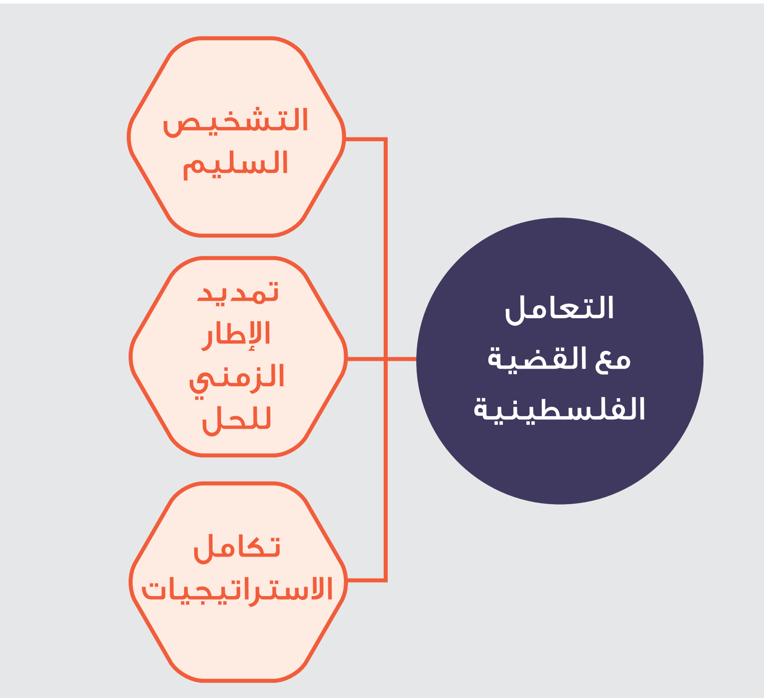
ويمكن للقارئ بهدف المزيد من التمكّن الوقوف على كتاب "الجيوبولتيك ومستقبل الوطن العربي" فإن فهم هذه الدوائر والتمكّن منها سيعين كما كنا تحدثنا سابقاً على فهم الأخبار من حولنا ووضعها في الإطار المناسب لها..

وبقي لنا في إطار حديثنا في الجيوبولتيك قضية فلسطين وشعبها الذي تعرّض لأقسى مايمكن أن يتعرض له شعب في العالم..

1. الموقع الوجداني لفلسطين:

إن فلسطين مشكلة حقيقية للضمير والوجدان الإسلامي والعربي، فنحن أمام شعب سرقت منه أرضه وهو حي، وهُجّر من وطنه ليحل غيره به، وهذا كله في حضور ما يقرب من أربعمئة مليون من العرب ومليار وأربعمئة مليون من المسلمين، ففلسطين ليست فقط الأرض، وليست فقط الشعب، بل هي قطعة من الوجدان العام في العالم الإسلامي يستشعره الجميع، لاسيما أحرار العالم وإن كان بدرجات متفاوتة.

2. الرمز والدلالة الفلسطينية:



إن فلسطين بالنسبة للمسلمين والعرب هي رمز لقضيتين تبدوان متناقضتين، فهي رمز للمقاومة (ممثلة بشعبها)، وهي رمز للهزيمة والانكسار (ممثلاً بالعجز العربي أمام التحدي الصهيوني الذي أحتل الأراضي وطرد من الأوطان).

ومن زاوية أخرى تحقق القضية الفلسطينية شيء من الحلم العربي بالوحدة؛ باجتماع المسلمين على قضية واحدة على الأقل، ففلسطين تبدو وكأنها عقدة الموقف بالنسبة لأحلامنا الكبرى، فإننا إن لم نستنقذ مساحة صغيرة من الأرض التي تنتهك وينتهك شعبها فأين لنا أن نوحد عالماً إسلامياً ضخماً ممزقاً ومنقسماً على ذاته، واقتتاله الذاتي أكثر من اقتتاله مع الأعداء والخصوم؟!.

3. تشخيص المشكلة وتشخيص الإمكانات:

من أين نبدأ؟! إن تشخيص أية مشكلة حينما يبدأ من مكان خاطئ كل ما سينبني عليه سيكون خاطئاً! فالعرب حينما جاءت اسرائيل كانوا ينظرون لها على أنها دويلة وكيان زائل، وكان التصور أن الجيوش العربية إذا ما اجتمعت من كل حدب وهاجمت إسرائيل فإننا سننتصر عليهم وسنحصل على ما نريد! وهذا ممثل بما كنا نهتف به على نحو: " أخي أيها العربي الأبي أرى اليوم موعدنا لا غداً".

كما أن القضية كانت تبدو وكأنها احتياج لأعداد بشرية، فلو استطعنا جمع قوات أكثر مما يجمعه الإسرائيليون وحصلنا على السلاح والعتاد من نوع ما فإن ذاك كل ما نحتاجه للتحرير.

> إن إمكانية التشخيص الصحيح هو مفتاح أساسي لحل المشكلة الفلسطينية والإعداد لها كما ينبغي، فمن دون المستوى الكافي في الأداء سيذهب الوقت هدراً والجهد سُدى.

ولكن! من حرب الـ48 إلى حرب الـ67 إلى الـ73 إلى الحروب التي تلت ذلك.. تبين أن الموضوع أعقد جداً من الأعداد والعتاد.. فكأنه عبارة عن فارق نوعي صنعته الحضارة الغربية التي تقدمت بشكل مذهل في التخطيط والتوجيه والرقابة، وفي بناء الأحلام والأهداف، وفي صناعة الأجهزة الاستخباراتية والأمنية، وفي بناء القدرات الصناعية؛ من بناء الصناعات الدقيقة، والبنية التحتية، وفي قضية تطوير الإنسان ذكاءً وقدرة وفعلاً.. فأصبح العدد القليل بإمكانه أن يهزم العدد الكبير نتيجة الفوارق الأساسية المتعلقة بالنمو الحضاري في المنطقة، وبالمقابل فإن المنطقة العربية لم تستطع أن تدخل مجال الحداثة لا في مجال السياسة ولا الاقتصاد ولا الاجتماع ولا الصناعة ولا الزراعة، ولا حتى في قضية تقدّم الأفكار نحو اتجاه الكرامة والحرية والعدالة الداخلية! فمشكلتنا ليست متعلقة بالكمّ أو بالشجاعة أو بحجم الغضب الذي يعتمر نفوسنا.. فهذا كله نفوق به إسرائيل، ولكن إسرائيل اليوم ليست في حقيقتها الكيان الذي نراه في الظاهر فقط، بل هي مجموع العلوم الغربية والتحالفات العالمية التي تساندهم في مشروعهم.. فبعد

الـ73 استطاع اليهود إقامة تحالف مع الصين ومع الهند ومد الجسور مع إفريقيا.. وبالتالي استطاعوا حصارنا بالكتل البشرية علاوة على الإمكانات المادية..

إذاً لدينا مشكلة حقيقية في التشخيص، وقلة ثقافة بالعصر الذي نعيشه، ونحيلكم هنا إلى موقف بعض الشباب الذين اتجهوا بعد ثورات الربيع العربي إلى القدس ليحرروها كما حرروا أوطانهم، ظناً منهم أنها ستُحرر بتلك الطريقة! فمثل هذا الموقف يوضّح طبيعة العقلية التي ربيناها عبر الزمن، التي تمتلك قدراً كبيراً من الحماس ولكنها لا تمتلك قدراً موازياً من الذكاء والقدرات العقلية لمواجهة الخصوم. فبمقابل هذا النوع من التفكير لدينا كانت اسرائيل قد تمكّنت في بضع ساعات في حرب الـ67 من إزالة كافة الطائرات والقوى المصرية الموجودة نتيجة الاستخبارات والعمل الأمني الذي قامت به آنذاك.

4. تمديد الإطار الزماني:

كما إنه من الضروري في التعامل مع القضية الفلسطينية اليوم إدراك الواقع جيداً، فمن الضروري أيضاً وضع التقدير الزمني الصحيح لإمكانية إصلاحه؛ فهناك حالة عزلة حاصلة مع الشعب الفلسطيني؛ بمعنى أن حلم تحرير فلسطين يكاد يكون تبخّر عند الدول العربية، وبات لديها يأسٌ تامٌ من تحقيق ذلك الحلم، وكل ما باتت تأمله الدول العربية اليوم من هذه القضية أن تقيم علاقات مع إسرائيل بدرجة من الدرجات سراً أو علناً، فتضمن بذلك مستقبلها. وهذا يعني أن على الشعب الفلسطيني أن يفكر في إطار زمني بعيد، فلربما عليه أن يكافح مدة قرن ولا يأتي لنجدته أحد، فعلينا أن نمدد التصور الزمني ونضع خطة متدرجة لحل المشكلة الحضارية التي نعاني منها في المنطقة العربية والإسلامية، فالشعب الفلسطيني بذاته لن يستطيع أن يقف أمام هذا التطور الضخم الموجود في العالم.. فقد يستطيع الصمود وقد يستطيع المواجهة، ولكن كما شاهدنا وعرفنا فإن الأرض تتقلص باستمرار من تحت أقدام الشعب الفلسطيني؛ بحيث أصبح معزولاً في الضفة الغربية وقطاع غزة، وهما كتلتان صغيرتان محاطتان بكتل استيطانية ضخمة.

إذاً موضوع الشجاعة هو موضوع مفروغ منه، وموضوع وجوب المقاومة هو أيضاً موضوع مفروغ منه، ولكن كيفية القيام بهذا على مدى زمني طويل، وتحقيق النتائج المرجوة يحتاج

إلى تفكير مختلف عن التفكير السابق الموجود؛ الذي يعتمد على أنه إما أن إسرائيل سيحدث لها شيء من الداخل، وإما أنه ستقوم حرب عالمية ستبيد الإسرائيليين فقط!

5. تكامل الاستراتيجيات:

إذا تغيرت لدينا فكرة المدى الزمني، وفكرة تشخيص الحالة إلى أنها حالة حضارية، فالخطاب عندها سيأخذ مساراً مختلفاً، والمواجهة ستأخذ مساراً مختلفاً أيضاً، وتمركزنا في العالم كذلك سيأخذ مساراً مختلفاً، والاحتشاد كذلك، والتحالفات.. بمعنى أن التخطيط لمواجهة طويلة الأمد في ضوء ما نعرفه من حقائق الوضع التقني والمعرفي والعلمي العالمي الموجود، وتطورات العالم في اتجاهات جديدة، وتحوّل العالم العربي في اتجاه خطٍ مواجهٍ للمقاومة لا مساند لها، وانعزال المقاومة في تحالف مع إيران لا يُعلَم مصيره إلى الآن.. فهذا كله يحتاج إلى تفكير استراتيجي كبير جداً.

وإننا نؤمن بأن المفكرين والقائمين اليوم على المقاومة الفلسطينية ليسوا قلة، ولديهم القدرة على إعادة المراجعة الجذرية للموضوع، وتمديد المدى الزمني للمواجهة، وهذا سيقود بطبيعة الحال إلى خطاب جديد وتمركز جديد؛ وحينما أقول تمركز جديد قد لا يكون في فلسطين، بل قد يكون في مناطق أخرى كأمريكا الجنوبية مثلاً.. فيتم تأهيل كتل ضخمة من الفلسطينين ليصبحوا مشاركين في عملية التحرير، وفي زيادة الوزن النوعي للفلسطينين في العالم، فعندنا اليوم مخيمات كبيرة في الأردن وكذلك في لبنان، وهذه المخيمات مليئة بالطاقات والقدرات التي تموت نتيجة الحصار الموجود عليها، وإن إطلاق هذه الطاقات وتفعليها على مدى قرن أو نصف قرن من الزمان



شأنه أن يحدث تمركزاً نوعياً جديداً سيعيد تركيب المعادلة مرة أخرى.

وأيضاً حشد الطاقات الفلسطينية من جديد حول مرتكزات جديدة، فالفلسطينيون انقسموا إلى قسمين؛ قسم يفضل الاستعداد العسكري، وقسم أراد السلام وانتهى للاستسلام، وإن كلا الفريقين يمثل فلسطين، ومهتم بها، ولكن اختلفت بهم المسارات، فمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلة بـ"فتح" اتجهت بعد مسار عسكري ونضالي طويل جداً للحل السلمي بدرجة من الدرجات، وفي هذا الحل السلمي تم استدراجها إلى فخ كبير وقعت فيه بحيث أصبحت جزءاً من الآلة الأمنية الإسرائيلية (بحسب ما نسمعه)، وبالمقابل أصبحت المقاومة محصورة في زاوية معينة وتُقصقَص الأرض من حولها؛ فأُخرِجَت من سوريا ومن لبنان وانتشرت بالمنافي لفترة من الزمن، وكوّنت في غزة كتلة شرسة مقاتلة أصبحت كالشوكة في حلق الإسرائيليين.. ولكن هذا كما أسلفنا لا يكفي لحل مشكلة الشعب الفلسطيني، فلا بد أن يكون هناك على الأقل دراسات وتصورات جديدة من خارج الصندوق الماضي الذي أوصلنا لمسارات مسدودة، ومع صدق العزم والنية سيفتح الله لنا مسارات جديدة في إجراء تحولات فكرية وإن كانت مؤلمة لمواجهة هذا السرطان المتمدد في المنطقة العربية والإسلامية.. وهذا كله سيعني بالضرورة رؤية جديدة للعالم، وبالتالي تحالفات جديدة..

أخيراً.. إن الطاقات موجودة، والعقول موجودة، إنما القرار بالتحول ليس يسيراً! فالناس بطبعها حينما تألف وضعاً معيناً، وتصميماً فكرياً، ومعالجات ونقولات معينة.. تصبح أسيرة لها، في حين أن الواقع الخارجي يشهد تحولات كبيرة، فمن كان يصدِّق أن يتحول أمل السلام من أمل إسرائيلي إلى أمل عربي؟! فبدل أن يطالب الإسرائيليون بالسلام، بات العرب هم الذين يطالبون به! وهذا الخط منذ ثمانينيات القرن يسير للإمام بشكل كبير، ففي الغد قد نرى تمدد خطوط القطارات بين الكيان الصهيوني والمنطقة العربية والإسلامية، وقد نرى الوفود والسفارات، ومظاهر أخرى كانت تبدو لنا غريبة، فمن ينظر للقوى العالمية وتحركاتها وينظر للتغيرات التقنية والمعرفية الحاصلة في العالم سيعرف أننا طالما بقينا خارج دائرة الصراع الحضاري، وبقينا في قضية العواطف لن نستيطع أن ننجز شيئاً أو أن نسير قدماً.

الاقتصاد



سننتقل بحديثنا إلى علم الاقتصاد، والحديث في علم الاقتصاد يطول، ولكننا سنكتفي بشرح مبسط للأفكار الرئيسية الكبرى التي تدور حولها اقتصاديات الدول، وكيفية اشتغال الأنظمة الاقتصادية على العموم.. وإن هذا المعلومات على بساطتها وأهميّتها إلا أنها تغيب عن الكثيرين!

أولاً- أنواع الاقتصاد

- الاقتصاد
  - أنواعه
  - العلمية الاقتصادية
  - الحكومة كعامل اقتصادي
  - الـ GDP
  - سعر الفائدة وأثره
  - مشكلات السوق التجارية
  - الاستقرار الاقتصاديللدول
  - الخضوع للنظام العالمي

يقسم الاقتصاد إلى نوعين:

- **الاقتصاد الجزئي Microeconomics:**

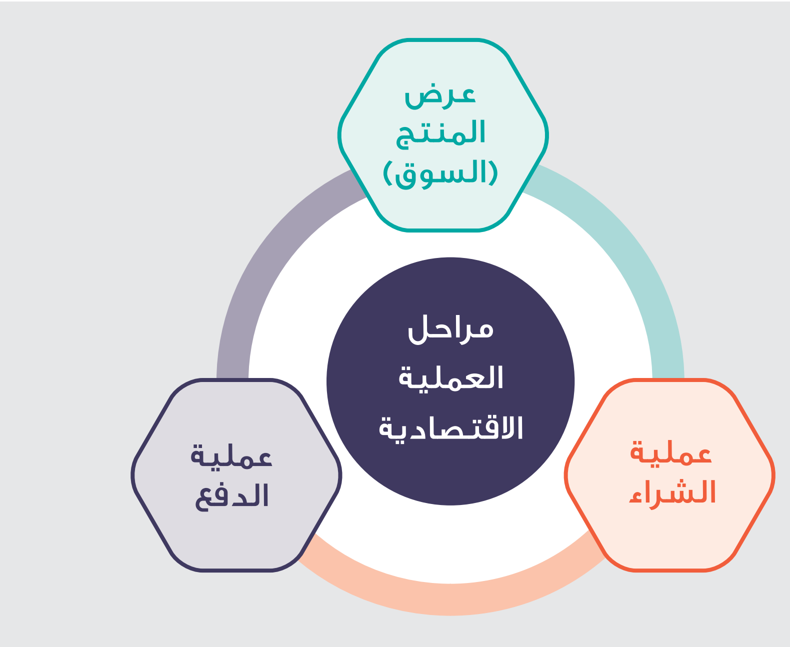
هو الاقتصاد على مستوى ضيّق متمثلاً باقتصاد الشركات والأفراد..

- **الاقتصاد الكلي Macroeconomics:**

هو ما يتعلق بالمساحة الكبرى المتمثلة باقتصاد الدول وكيف تدار. ومن المهم في مرحلة التأسيس أن نقف على الاقتصاد الكلي ابتداء، حيث لا يمكننا أن نفهم حركة الاقتصاد في البلدان التي نعيش فيها مالم نفهم حركة الاقتصاد العام.

ثانياً- العملية الأساسية في الاقتصاد

يتكون الاقتصاد في أساسه من عملية رئيسية، تحدث بين جهتين أو طرفين على ثلاث مراحل.



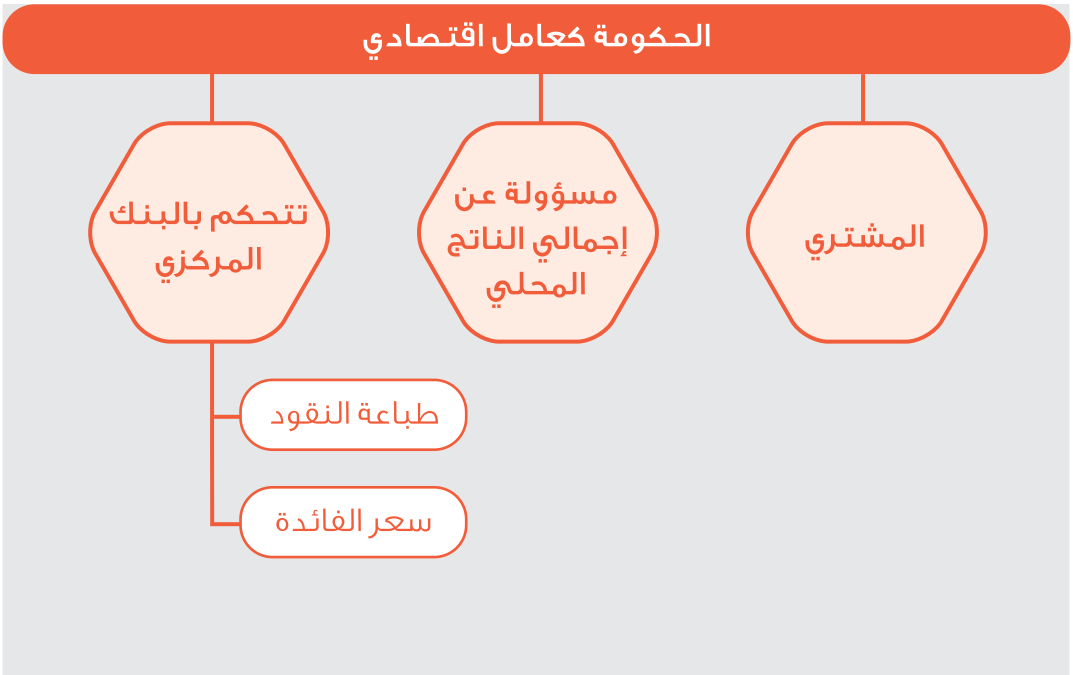
- **السوق:** تبدأ عملية الاقتصاد من البائع الذي يعرض منتجاته في السوق، وتتنوع هذه المنتجات من أسهم أو سيارات أو حبوب أو طاقة أو ذهب.. حتى أن العملة نفسها تشترى وتباع في الأسواق.
- **عملية الشراء:** في مقابل البائع هناك المشتري، الذي تَحْدُث من قبله عملية الشراء، وقد يكون المشتري فرداً أو مؤسسة أو دولة.
- **عملية الدفع:** تلي عملية الشراء مرحلة الدفع، التي تحدث عادة على شكلين؛ الدفع النقدي، أو الدفع بالدين (الدفع المستقبلي).

ومن تكرار مراحل هذه العملية بين البائع والمشتري لملايين المرات يتشكل الاقتصاد، سواء كان المشتري أو البائع فرداً، أو شركة أو حكومة.. وهذا هو ألف باء الاقتصاد الذي تدور حوله حياة البشر، ويؤدي إلى حروب واقتتال فيما بينهم.

ثالثاً- الحكومة كعامل اقتصادي

الحكومة مُشْتَرٍ:

إذا أردنا أن نعمّق أكثر في مجرى الحديث سنأتي لحكومات الدول وأثرها كلاعب اقتصادي هام، وأول ما ينظر للحكومات في الإطار الاقتصادي يُنظر لها على أنها "المشتري"، والحكومة ليست كأي مشترٍ، فحينما تطلب حكومة قوية قادرة على الدفع بضاعة ما سترتفع قيمة هذه البضاعة تلقائياً على المشترين لكونها ستطلب بضائع بكميات كبيرة.



إجمالي الناتج المحلي للدول:

وأيضاً مما تهتم به الحكومات وتساهم في زيادته وتُسأل عنه "إجمالي الناتج المحلّي" للدولة، فعلى الحكومات أن تدّخر نسبة قوية من رأس المال لأنه من خلاله يُقيَّم مدى قوتها من عدمه مقارنة بالدول الأخرى.

التحكم بالبنك المركزي:

وأيضاً من الأدوار التي تمارسها الحكومات في الاقتصاد امتلاكها لـ "بنك المركزي" في الدولة التي تحكمها، والبنك المركزي مسؤول عن أشياء رئيسية في اقتصاد الدول، منها:

- **طباعة النقود**: فإذا نظرنا لأي عملة بين أيدينا سنجد عليها توقيع البنك المركزي كضمان لهذه العملة.
- **التحكم بسعر الفائدة**: حيث تخضع جميع البنوك الربوية منها والإسلامية لسعر الفائدة الذي يضعه البنك المركزي بتسيير من الحكومة، ولا يوجد في أي دولة مؤسسة تجارية صغرت أم كبرت خارجة عن هذه النسبة التي يحددها البنك المركزي.

رابعاً- إجمالي الناتج المحلي للدول "GDP"

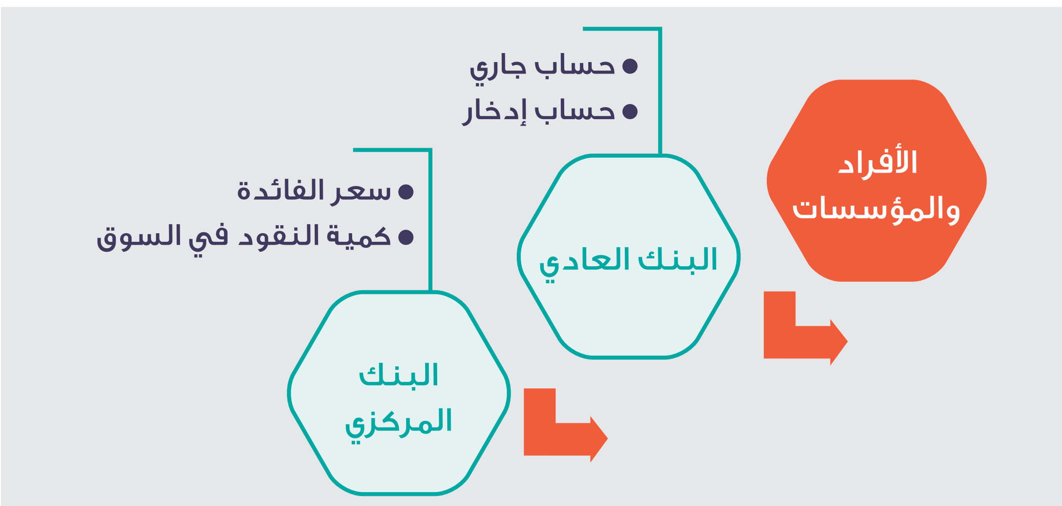
ما المقصود بالـ"GDP"؟ هو رمز اختصار لـ "مستوى إجمالي الناتج المحلي"، وهو عبارة عن رقم مالي معيّن يقاس به اقتصاد الدول، وتتم المقارنات بين اقتصادياتها من خلاله ، فمثلاً إجمالي الناتج المحلي للولايات المتحدة الأمريكية يقرب من 22-24 ترليون دولار، بينما الناتج المحلي لروسيا حوالي 2 ترليون دولار، وهذا يعني أن النشاط الاقتصادي في الولايات المتحدة هو أضعاف ما عليه النشاط الاقتصادي في روسيا. وكثيراً ما نسمع بأن وزيراً للاقتصاد في بلد ما يصرح بأنّه استطاع في فترة إدارته أن يزيد إجمالي الناتج المحلي لدولته.. وهذه الزيادة قد تفضي لإدارة رشيدة للاقتصاد..

المصادر التي يتولّد منها الـ"GDP":

هناك عدة مصادر يتولد منها إجمالي الناتج المحلي لدولة ما، منها:

الإدخار البنكي لأفراد المجتمع:

إن الفرد حينما يفتح حساباً بنكياً يكون عنده حسابان؛ حساب جارٍ، وحساب ادخار، حيث يدخر فيه شهرياً نسبة من دخله، وهذه النسبة تلعب دوراً كبيراً في اقتصاد الدول مهما صَغُرَت، فهي لا تُودع في البنك العادي بحسب ما نظن، بل تودع في البنك المركزي، وتساهم



في حصيلة الناتج المحلي للدول، وهي نسبة لا يستهان بها كونها تتشكّل من حصيلة ادخار عدد كبير من سكان البلاد الذي قد يصل للملايين وقد يزيد.. ويكون دور البنك العادي هنا أشبه بالوسيط المستفيد من عميلة الادخار، فهو ليس المدّخر الحقيقي، ولا يحق له الاحتفاظ بجميع هذه المبالغ، إنما يحدد البنك المركزي للبنك العادي النسبة التي يحق له أن يحتفظ بها، وباقي المبلغ المدّخر يودع في البنك المركزي، ، وبالتالي لو حدث أن طالب الناس دفعة واحدة بأموالهم المدَّخَرة في البنوك لتعذّر على البنك سداد كامل المبلغ، كونه لا يحتفظ إلا بحساباتهم الجارية، وبنسبة محددة من الحساب المدخّر التي يسمح بها البنك المركزي.

التجارة الداخلية (المستثمر المحلي) والخارجية (المستثمر الأجنبي):

ويقصد بالتجارة الداخلية حركة السوق المحلي؛ مثل استثمارات التُّجّار و شراء المقاولين لمواد البناء والسباكة والكهرباء .. مما ينشط السوق.

كما أن تميّز إحدى البلدان ببضائعها المحلية يجعلها مقصداً لتجار الخارج، مما يسهم أيضاً في تنشيط السوق المحلي.

المشاريع الحكومية والضرائب:

تقوم المشاريع العملاقة التي تقوم بها الحكومة برفع المستوى الإجمالي للناتج المحلي للدولة ، وتتمثل تلك المشاريع بالشوارع والمطارات وشبكة المواصلات وغيرها.. كما تقوم



الحكومات بتحسين مواردها المالية من خلال الضرائب التي تفرضها على السكان، فشراء المنتجات، ودخول المستشفيات، والسير في الطرقات، وفواتير الهاتف والكهرباء والماء.. كلها عليها ضرائب تصب لصالح اقتصاد الدولة.

الاقتصاد يُضبط بمعايير أخرى:

وتجدر الإشارة إلى أن "GDP" لا يعتبر ميزاناً دقيقاً، ومؤشراً حقيقياً بمفرده للمقارنة بين اقتصاديات الدول، فهناك اعتبارات أخرى يجب أخذها بعين الاعتبار، منها:

عدد السكان:

عندما يزيد مجموع الناتج المحلي لدولة ما على دولة أخرى لا يمكن اعتبار هذه الزيادة تفوقاً اقتصادياً قبل أن نُدخِل في المعادلة عدد السكان،فنقسم إجمالي الناتج على عدد السكان ليخرج لنا متوسط دخل الفرد، فبعد أن تتم المقارنة بين متوسطات دخل الأفراد في كِلا البلدين يمكن عندها تحديد الدولة الأفضل من ناحية الناتج المحلي.

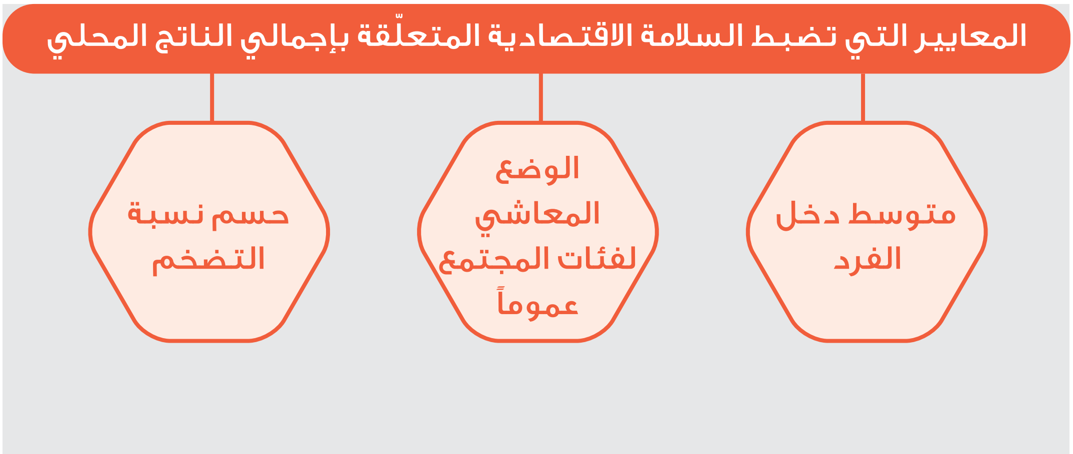
توزيع الثروة:

إن متوسط دخل الفرد – على أهميته - قد لا يعطينا نتائج دقيقة، فبعض البلدان لا يتم فيها تقسيم الثروة على عدد السكان بشكل متقارب، إنما تذهب النسبة الأكبر لصالح الطبقة الغنية ويبقى المجتمع في حالة فقر بسبب سوء توزيع الثروة. فتوزيع الثروة من المعايير التي يُحاكم إليها الوضع الاقتصادي أيضاً..

التضخم:

حينما يحدث التضخم في بلد ما يرتفع رقم الـ "GDP" فقد يبدو وكأنه هناك زيادة في الناتج القومي، ولكن في الحقيقة لا يكون النشاط التجاري قد ازداد شيئاً، وللتأكد من إجمالي الناتج القومي يُطرح معدل التضّخم من الرقم الصلب، وقد تنحسر الزيادة بعد طرحه فيعود الرقم وكأن شيئاً لم يحدث!

فكلام وزير الاقتصاد عن زيادة إجمالي الناتج المحلي يحتاج أن نحاكمه إلى معايير موضوعية، مثل أن نسأل عن التضخم وإذا ماتمّ حسمه من إجمالي الناتج المحلي، وعن أعداد



السكان، وعن الوضع الاقتصادي لعموم المواطنين.. وغيرها من العناصر الأساسية التي يجب أن ننظر إليها عادة في معالجة الموضوع..

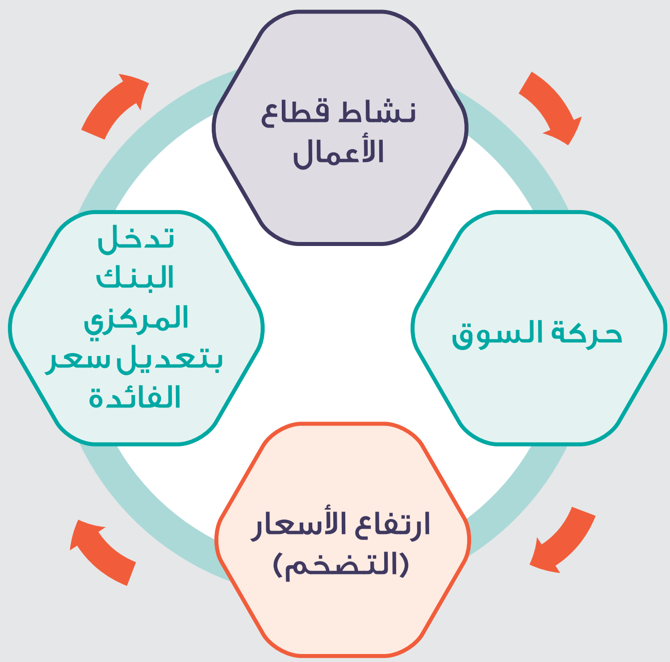
خامساً- سعر الفائدة وأثره على اقتصاد الدول

البنك ليس فقط مكاناً لتخزين الأموال وسحبها، بل هو كالتاجر الذي لديه مدخرات يتاجر بها، أو يقرض منها بما يخدم مصالحه.. فحينما يريد الفرد أن يفتح مشروعاً يذهب إلى البنك ويقترض منه.. وأرباح البنك من هذه العملية لا علاقة لها بأرباح التاجر أو إفلاسه، إنما الربح العائد للبنك حاصل من سعر الفائدة الذي يفرضه البنك مقابل إقراضه. ويُحَدَّد سعر الفائدة من قبل البنك المركزي وفق آلية معينة، ومن ثَمّ يضيف البنك العادي على سعر البنك المركزي نسبة ربح له.

لنفترض أن البنك المركزي حدد سعر الفائدة بـ 6% وهو رقم ممتاز بالنسبة للتاجر، لأن التاجر حينما يدير تجارته يحسب أرباحه على الأقل بنسبة 15% خلال العام، فعندما يدفع منها 8% بعد أن يضيف فائدة البنك العادي الذي أقرضه 2% يبقى لديه حوالي 7% وهو مبلغ ممتاز كربح بالنسبة للشركات والمؤسسات، وبناء على سعر الفائدة المنخفض ينشط التجار، ويتحرّك السوق، وتزداد القروض السكنية واستقدام العمالة من الخارج، ويكثر الطلب على البضائع، وكلما كان هناك نشاط أكبر في السوق وبيع وشراء كلما زاد اقتراض التجار لإنشاء شركات جديدة..

وعندما تبدأ أسعار المنازل والبضائع بالارتفاع، وتصير الأجور أقل من الاحتياجات.. يتدخل البنك المركزي ويرفع سعر الفائدة على البنوك، لأن البنوك قد أنهت مدّخراتها وتريد المزيد من الأموال، فيرتفع سعر الفائدة إلى 10% على سبيل المثال، والبنك العادي يضيف إليها 2% ربحه فتصبح 12%، فيغدو ربح التاجر 3% فقط، وهذا غير مجزئ فتتوقف عملية الزيادة في السوق، وتبدأ بالتقلّص ويبدأ هبوط الأسعار شيئاً فشيئاً، وتغلق بعض الشركات أبوابها، ويتم تسريح الموظفين، لأنها لم تعد تستطع أن تؤمّن عائداً مجدياً بالنسبة لها بسبب انخفاض النشاط التجاري.. وعندها يهدأ السوق التجاري وينخفض الاقتصاد.

فيتم التحكم من قبل البنك المركزي بالأسعار وضبطها وضبط التضخّم - أي عملية ارتفاع الأسعار وانخفاضها - عبر سعر الفائدة، وإن أي بنك سيعمل في السوق - بغض النظر عن إن كان إسلامياً أم ربوياً - سيخضع لهذه الآلية الأساسية في إدارة شؤون الدولة المعاصرة، ولا يستطيع أن يتحرك تحت سقف آخر، فكل ما يملكه أن يعدد المعاملات الداخلية، ولكن الآلية الكبرى وباستمرار معتمدة على سعر الفائدة.



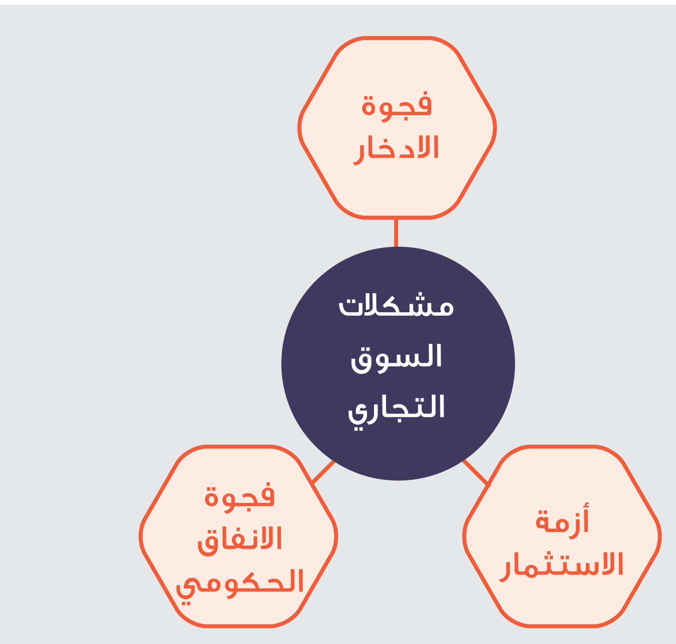
سادساً- مشكلات السوق التجارية التي تُؤدي لخلل في الاقتصاد

فجوة الإنفاق أو فجوة الادخار:

كثيراً ما يقال عن السوق التجارية بأنها سوق نفسية عاطفية، ويعني ذلك أن أي إشاعة معينة قد تُحدِث أزمة اقتصادية، فيكفي أن تشعر الأسر بقدوم حرب حتى يستخدموا مدخراتهم في البنوك ويكدسون احتياجاتهم في البيوت، ومع حركة الشراء الضخمة من الأسواق تنضب البنوك من المدخرات ويموت النشاط التجاري في البلاد، وتتوقف البنوك عن الإقراض فتتوقف الاستثمارات الجديدة وتزداد البطالة.. وتسمى هذه الحالة بفجوة الادخار حيث تستنزف مدخرات الأسر في البنوك فتُحدِث خللاً اقتصادياً في البلاد.

أزمة استثمار:

كذلك الحال بالنسبة للمستثمر، فقد تُحدث إشاعة معينة لقدوم حرب أو شيء من ذلك خوفاً لدى المستثمرين، فتؤدي إلى إغلاق محلّاتهم وأعمالهم، وتحدث أزمة استثمار، فيقل المستثمرون في البلاد، مما يؤدي إلى ركود اقتصادي.



فجوة الإنفاق الحكومي:

بعد أن تحدث الأزمات ويركد الاستثمار، يُطلب من الحكومة أن تتدخل من أجل تنشيط الاقتصاد ، فإذا تداركت الحكومة وتدخلت إيجاباً من أجل إحياء الاقتصاد، وزرعت الثقة مرة ثانية، وأعلنت عن مشاريع عملاقة في البلاد، فسيعتقد

الناس حينها أن البلاد مقبلة على نشاط تجاري، فيعاودون التجارة مرة أخرى ساعين لفتح المشاريع الجديدة، واستقراض القروض ليزهو الاقتصاد من جديد، وأما إذا لم تتدخل الدولة فسيصبح عندنا ما يسمى "فجوة الإنفاق الحكومي".

فباستمرار هناك آليات متعددة داخل السوق تحكمه، قد تؤدي إلى فجوات داخل الاقتصاد أو إلى ركود اقتصادي.

سابعاً- الاستقرار الاقتصادي للدول

بقي لدينا أمر هام في الاقتصاد نحتاج إلى أن ننتبه إليه وهو المعايير التي يقاس من خلالها مدى استقرار الاقتصاد في دولة ما، حيث إن الدول يقاس استقرارها الاقتصادي بنوعية الاقتصاد الموجود لديها، وهناك ما يسمى بـ "توازن الهيكل الاقتصادي في الدولة"، أي أن الدول كلما احتوت على الصناعات والزراعات كلما كان دخلها الاقتصادي أكبر وأكثر استقراراً؛ لأن الصناعات والزراعات لا تُسَيّل وتخرج بسهولة من الدولة، أما الدول التي يبنى اقتصادها على الخدمات والفنادق والسياحة وشركات التمويل وعمليات المضاربة وعمليات الترانزيت.. فهذا ما يسمونه اقتصاداً هشاً.. فلو حدثت أزمة أمنية في البلاد كتفجير ما أو نحوه يسهل جداً تسييل الاقتصاد ويركع البلد على قدميه.. فدائماً ما تعسى الدول لأن يكون لديها اقتصاد متوازن، وهو مرهون بما يسمى حجم السوق المحلية، وأيضاً متعلق بعدد السكان في المجتمع، فيقال إن أقل حجم تحتاجه الدولة للاستقرار واستمرار الحياة بطريقة جيدة في حال الأزمات أن يكون لديها سبعون مليوناً من البشر، وهذا حد التأمين لضمان استمرار الحيوية في السوق الداخلية، فتستمر المصانع في العمل والإنتاج لأن فيه سوق داخلية تستهلك هذه الأشياء.

ثامناً- الخضوع للنظام الاقتصادي العالمي

إن العمليات الاقتصادية للأفراد والمؤسسات ليست محكومة فقط محلياً بنظام البنك المركزي للدولة، حيث إن تحديد سعر الفائدة لا يرتبط بالسوق المحلي فقط، بل هو مرتبط

أيضاً بالسوق العالمية ، فالأنظمة الاقتصادية للدول تتماهى ضرورة مع النظام الاقتصادي العالمي، فكما أن الحكومات تشتري من السوق الداخلي، فإنها تشتري وتبيع أيضاً من السوق الخارجي، فهناك من يحدد سعر الفائدة عالمياً وهو متمثل حالياً ببنك انكلترا " Bank Of England"، الذي يحدد سعر الفائدة صعوداً أو نزولاً، كما يحدد العملية الاقتصادية الكلية في العالم.

إن كثيراً من الدارسين للاقتصاد الإسلامي اليوم غير مدركين لهذه الدورة الكبرى أو لهذه العملية المعقدة، فيتكلمون وكأنهم قد صنعوا اقتصاداً معزولاً عن هذه الاقتصاديات الموجودة، حتى إنهم لا يستغربون كيف أن البنوك العالمية يمكن لها أن تفتح نوافذ إسلامية، بل ويعتبرون ذلك حدث لاختلاف الاقتصاد الإسلامي عن المنظومة الاقتصادية الكلية، والحقيقة أنه يتم فتح تلك النوافذ لأنها تتماهى مع منظومتهم، بل هي جزء منها ولا تخالفها، وبالتالي هم مستفيدون بأن تأتيهم أموال زائدة من المسلمين، فالمسلم في النهاية يتعامل ضمن الإطار العالمي الربوي الموجود، إنما ضمن مبادئه الإسلامية! ولا يمكن أن يستغني عن هذا النظام لسبب بسيط جداً وهو أن الدول لا تستغني عن التعامل الاقتصادي مع النظام الخارجي الموجود، فحتى الاتحاد السوفييتي المعادي للنظام الرأسمالي مضطر للبيع والشراء وفق النظام العالمي المحيط به.

ويُنصح لمزيد من الفهم في هذا المجال والتوسع في الموضوع قراءة كتاب "خطوتك الأولى نحو فهم الاقتصاد" للدكتور جاسم سلطان.

الدولة

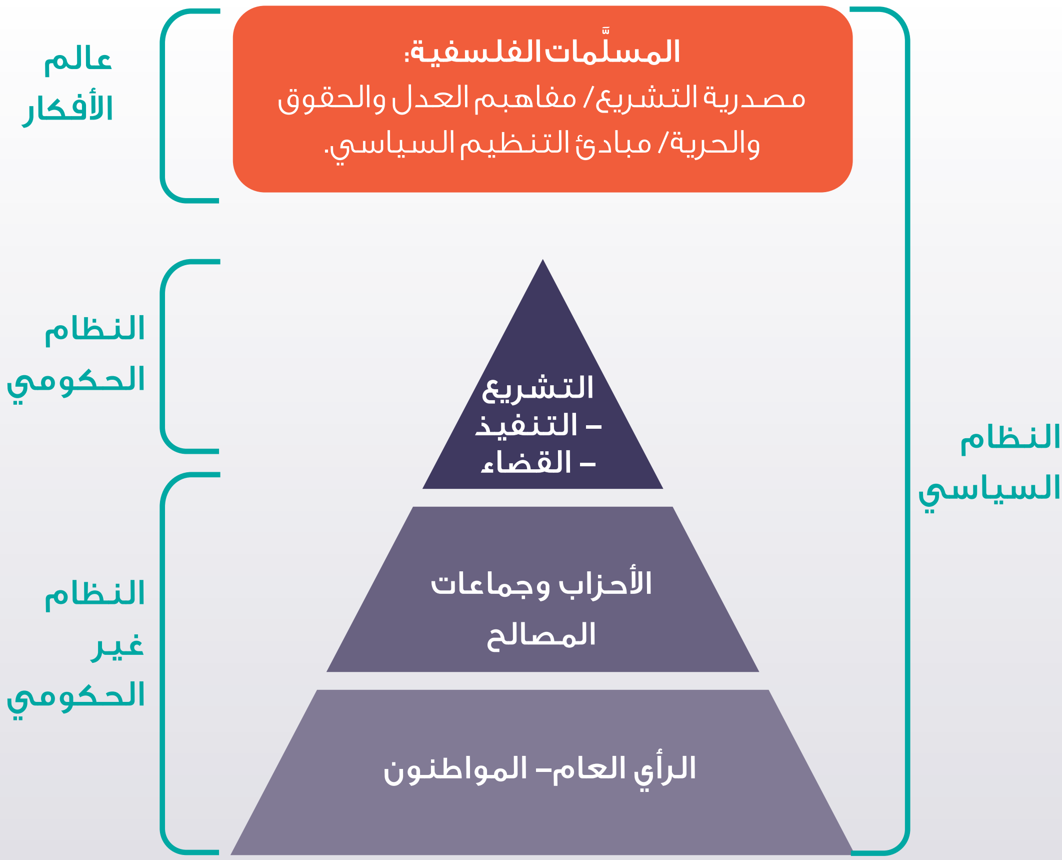
التصوّر العام للدولة ومشكلات التنمية



أولاً- شكل الدولة

تحدثنا سابقاً عن شكل الدولة التي كانت فيه العقائد في قاعدة الهرم، ومن فوقها الأخلاق، ثم الطقوس والعبادات، ثم نظام الدفاع ونظام الحقوق في رأس الهرم، وفي المنتصف جوانب الاقتصاد والاجتماع ونحو ذلك..

أما في هذا الفصل فسنعتمد في طرحنا مفهوم الدولة على الهيكل أدناه، حيث سيتم شرح مفهوم الدولة من زاوية أخرى وبطريقة أكثر تبسيطاً واختزالاً.. حتى يتسنى للمتعلّم في برنامج العلوم التأسيسية أن يختزن مفهوم الدولة ابتداء بأبسط تصور سياسي، ثم يبني عليه ما يبنيه، ويضيف إليه ما يضيفه حينما يتعمّق لاحقاً.



بالنظر للهرم أعلاه سنجد أنه **يتألف من ثلاث طبقات رئيسية:**

- **رأس الهرم:** نجد فيه النظام الحكومي الذي يمثّل الدولة، وفي داخله النظام التشريعي والتنفيذي والقضائي.
- **وفي منتصف الهرم:** لدينا المجتمع المدني، المتمثل بالأحزاب وجماعات المصالح المؤثرة في صناعة الدولة والنظام السياسي.
- **قاعدة الهرم:** وهي تمثل الرأي العام والمواطنين. ويأتي أثرهم في السياسة كونهم قد يشكلون الأحزاب وجماعات المصالح، أو قد يترشحون ويصلون لمناصب وزارية عليا..
- ولدينا على قمّة الهرم ما نسميه المسلَّمات الفلسفية؛ فالدولة في جوهرها الأساسي فيها مسلمات فلسفية، يمكن أن نسميها "عالم أفكار الدولة"، أو "عالم أفكار صانعي الدولة"، ومما يجلي لنا عالم الأفكار هو النظر في عدة أمور هامة:

  ما مصدرية التشريع لصانعي الدولة؟

  كيف يتركب مفهوم الحقوق والعدل لديهم؟

  وماهي الحرية ومبادئ التنظيم السياسي في العقل الجمعي الموجود؟

وتتأثر بهذه المفاهيم الأساسية الأولية جميع أجزاء الهرم؛ فكلما كانت هذه الأفكار الأساسية ناضجة في الدولة كلما كان وضع الدولة أكثر رقياً وتقدّماً، وكلما كانت هذه الأفكار مضمرة كلما كانت الدولة تمر بأزمات حقيقة في كافة مستوياتها..

فعلى المستوى الحكومي إذا سادت الدكتاتورية في بلد ما سنجد أن الأنظمة (التشريعية- والتنفيذية- والقضائية) ستندمج في أشخاص محدودين هم الذين يقومون بالتشريع والتنفيذ والقضاء، أما إذا كانت المسلمات الأساسية راقية بمفهوم العدل والحقوق والحريات فسنجد أن التنظيمات التشريعية والتنفيذية والقضائية هي سلطات حقيقية وفعالة، تعمل وفق صلاحيات محددة.

وأيضاً على مستوى مدني وشعبي كلما نضجت مفاهيم العدل والحرية، وقوي نظام الحقوق والحريات، كلما قويت الأحزاب والجماعات وكان الرأي العام أكثر نضجاً وتأثيراً في حال البلاد.

فعندما نلحظ في دولة ما اختلال في السلطات، أو على صعيد الأحزاب، أو على صعيد جماعة المصالح وتنظيمها في داخل المجتمع، أو اختلالات في الرأي العام، أو.. فهنا يجدر بمسؤولي التصحيح التوجّه نحو عالم الأفكار، والنظر في مشاكل المسلّمات الفلسفية الأولى؛ إما على مصادر التشريع، أو على صعيد مفهومات العدل والحقوق والحرية، أو على صعيد مبادئ التنظيم السياسي أو بها جميعاً.

وهذه هي أول قضية رئيسية عن تمثُّل الدولة يجدر أن توضع في ذهن المهتم في السياسة أو الفاعل السياسي.

ثانياً- مشكلات التنمية السياسية

يوجد في جميع الدول ما يسمى بمشكلات التنمية إنما بنسب متفاوتة ومن هذه المشكلات:



1. من أولى المشكلات الرئيسية في التنمية السياسية "تحديد الذات والهوية"، وهي انعكاس لمدى تقبل الناس في البلد الواحد - على اختلافهم - للانتقال من الأشكال الأولية (القبائل والأعراف..) إلى تمثيل سياسي واحد، يمكّن السكان من

تحديد هوية واحدة لهم يعرفون حدودها بشكل واضح، وإذا لم يتم هذا الانتقال فهذا يعني أن الدولة التي يريدون صناعتها ستواجه مشاكل حقيقية، ومشكلة الهوية هذه نجدها واضحة في دول عدة مثل سوريا، والعراق، ولبنان، وأفغانستان، وذلك لعدم قدرة هذه البلاد على الانتقال من الأصول الأولية للسكان إلى تمثيل سياسي يجمعهم ويوحّدهم.

2. من التحديات الأخرى في الدول ما يُسمى بـ "تحدّي التوزيع"، أي كيف توزع الثروة والسلطة بداخل المجتمع، ونأخذ السودان كمثال على بلد قد فشل فشلاً ذريعاً في توزيع الثروة والسلطة، فبقي المركز محتفظاً في كافة الخيوط الأساسية دون توزيع عادل يُشعر مناطقه المترامية بالانتماء والأمان.

3. وأيضاً لدينا مشكلة الشرعية ونأخذ مثالاً على هذه المشكلة جنوب إفريقيا، ففي لحظة تاريخية معينة كان الصراع على أوجّه بين قبائل الزولو - وهي المَلَكِيَّة القديمة التي كانت تحكم البلاد في الماضي-، وبين النظام العنصري الذي كان قائماً، وبين حركة مانديلا، فهذه ثلاث شرعيات؛ الأولى تدّعي الملكية، والثانية تدّعي القوة، والثالثة تدّعي المشروعية الجماهيرية والتأييد الشعبي.

4. وأيضاً هناك مشكلة "التغلغل الإداري" التي تتعلق بالسيطرة الفعلية على الأقاليم؛ فهناك بعض البلدان التي لم تتمكن فيها الحكومة أن تطبق خطتها على جميع بقاعها، ومثال ذلك ما نجده في الصومال حيث يوجد بعض المناطق التي لا تزال مستقلة عن الحكومة الصومالية ولا تخضع لقوانينها بشكل مباشر.

5. مشكلة المشاركة ونعني بها عدم قدرة القوى السياسية المؤمنة بالحريات والعدالة على أن تنسّق فيما بينها، فتحدث فراغات في داخل الدولة يمكن أن تودي بها، وأوضح مثال لتلك المشكلة نجده في مصر؛ حيث تصارعت القوى السياسية على السلطة، ومن ثم تم تسليمها للجيش بعد أن لم يتم التوصل لاتفاق بين القوى السياسية المدنية على نوعية المشاركة المطلوبة من الأطراف، وبالتالي احتدَّ الصراع الذي فتح الأفق أمام الجيش للتمكّن من السلطة في البلاد.

6. مشكلة الاندماج: وتأخذ مشكلة الاندماج عدة أشكال: ففي بعض الأحيان ترفض بعض الجماعات من أصحاب الهويات المعينة الاندماج، وتطالب بكثير من الشروط التي يصعب على بقية أطياف المجتمع تقبلها، وبالتالي يدب الصراع في المجتمع فيضعف حال الدولة. وأيضاً قد تحدث مشكلة الاندماج نتيجة عدم إجماع فئات المجتمع على بعض القيم السياسية والاجتماعية. وقد تتمثل مشكلة الاندماج بفجوة واسعة بين النخبة وبين الجماهير.

إن من معايير نجاح الدول هو مدى قدرتها على التغلب على هذه الإشكاليات ، فهي إشكاليات لا تختفي في الدول، ولكن تختلف نسب معالجتها بين المجتمعات، ويتحدد نجاح المجتمع في تحقيق ثلاثية (ضمان الوجود، وضمان الاستقرار، وضمان التنمية) من خلال معالجة هذه القضايا الرئيسية في شأن الدولة.

ثالثاً- كتاب علوم السياسة

أخيراً من الأمور الهامة في هذا الباب كتاب في العلوم السياسية اسمه "علوم السياسة: دراسة في الأصول والنظريات" لمحمد نصر مهنا، فقراءة هذا الكتاب وتلخيص الزبدة منه، مع التمكّن من الهيكل العام للدولة، وفهم إشكاليات التنمية السياسية، سيساعد في فهم فكرة الدولة والإشكاليات التي يمكن لها أن تتعاقب عليها.



إنشاء الدول

تحدثنا في الفقرات السابقة عن التصور العام للدولة والإشكاليات التي تعترضها؛ سواء فيما يتعلق بالهوية، أو في توزيع الثروات، أو شرعية الحكم، أو في السيطرة على مجال الدولة، أو في الاندماج بين فئات الشعب، وهي جميعها قضايا تقف حائلاً أمام التشكيل السليم للدول..

وسنتناول فيما يلي مفهومين يعتبران أيضاً معياراً هامّاً في تقييم مدى نجاح الدول أو فشلها، مع التأكيد على ضرورة فهم الفارق بينهما بوضوح، وهذان المفهومان هما: بناء الدولة، وبناء الأمة.

أولاً- نشوء الدولة والاحتياج الإنساني لها

عند النظر للمتكلمين عن نشأة الدولة سنجد أن هناك آراء مختلفة، منها:

نظرية الحق الإلهي:

يرى البعض أن نشأة الدولة مرتبط بأمر إلهي؛ حيث يوحي الله عز وجل لملك ما بإقامة الدولة، ويصبح بهذا الحق الإلهي سيداً على الناس، وبالتالي وجبت عليهم الطاعة، فتنشأ الدولة وفق هذه النظرية بنصر وتأييد وتكليف إلهي.

نظرية البيعة:

مع نزول الإسلام نازعت النظرية السابقة نظرية أخرى، حيث إن الموضوع لم يعد متعلقاً فقط بقضية أن شخصاً ما نزل عليه الوحي الإلهي، بل نشأ ما يسمى "البيعة"، وهي عبارة عن تعاقد بين الأطراف مقابل أداء واجبات معينة تجاه المجتمع والناس، بحيث إن الناس تختار شخصاً ما ويصبح ملزماً بأداء واجبات معينة تجاههم.. وبهذا الشكل ظهرت نظرية التعاقد الاجتماعي بشكل من الأشكال.

نظرية التعاقد الاجتماعي:

مرّت نظرية التعاقد الاجتماعي في التراث الأوروبي بمرحلتين:

1. **المرحلة الأولى:** كانت نتيجة إشكاليات كبرى حدثت في بريطانيا، حيث فُقِد الأمن، وسادت الصراعات، وكثر القتل، فخرجت نظرية ما يسمى "الدولة الوحش" التي تعني أن البشرية ميلها الأساسي للقتل والذبح وسفك الدماء، فالإنسان بطبعه متوحش، والجسم الاجتماعي هو وحش كبير، وهذا الوحش الكبير لا يستطيع أن يتعايش مع بعضه.. فقرر هؤلاء جميعاً أن يعطوا السلطة لشخص واحد من دون أي مساءلة، ويتنازلون عن جميع حقوقهم لهذا الشخص... وهكذا أصبح هناك حق مطلق ناشئ عن تعاقد اجتماعي توافَق عليه الناس، وله مطلق الصلاحية بأن يفعل بهم ما يشاء.

2. **المرحلة الثانية:** جاء من عدّل النظرية وقال إن الناس يجب أن لا يتخلوا عن كامل حقوقهم، وإن الناس بشر وليسوا وحوشاً، إنما الإشكاليات الكبرى التي تقوم بينهم بسبب حق الملكية، فهم يتنازعون على الأرض والعقار.. ويحتاجون لمن ينظّم لهم هذه الأمور، ولكن تبقى حريتهم في التنقل والتعلم والتدين ليست بالمجالات التي تعطى لأحد غيرهم، فالمجتمع بإرادته تخلى عن جزء من حقوقه لصالح شخص يقوم بإدارة هذه العملية، ولكنه في الوقت نفسه احتفظ المجتمع بحق تغيير هذا الشخص إذا لم يلتزم بالعقد ولم ينفذ ما وعد القيام به..

فإذاً باستمرار كانت البشرية بحاجة لتنظيم أحوالها.. ولذلك قلنا إن الدولة حاجة واقعية، ولم نبنِ ذلك على معرفتنا بكيفية نشأة الدولة، فهو ما لم يُقطع به تماماً سواء كانت قد نشأت من تطور الأسر إلى قبائل، والقبائل إلى حكومات صغرى، والحكومات الصغرى إلى دولة.. أم أنها ناشئة عن التعاقد بين الناس، إنما المقطوع به هو أن الدول لا تدوم، بل دائماً ما يحدث فيها انفجارات اجتماعية وسياسية تؤدي لزوال حكومات، ووصول أو عودة حكومات أخرى، وكلما نشأت أو عادت حكومة تعود بوعود جديدة كإقامة الاستقرار وتحقيق الأمن والعمل على البناء..

إذاً هناك ثلاث احتياجات أساسية للإنسان يجب أن نستحضرها من أول الرحلة لفكرة بناء الدول:

- أنها حاجة إنسانية.
- أنها رد على احتياج الواقع.
- أن الوعود التي ستأتي بها الجهة أو الشخص الذي سيتولى الدولة الجديدة؛ من ضمان الوجود والاستقرار والتنمية للمجتمع في الدولة الجديدة.. إما أنها وعود ستتحقق، وإما أن المجتمع سيدخل مرة أخرى في مرحلة ثورات وتغييرات..

ثانياً- بناء الدول والأمم

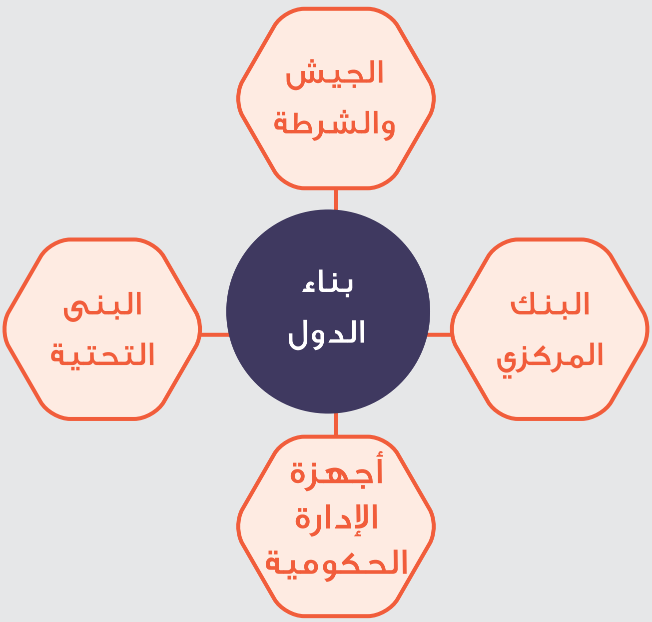
في العصور الحديثة بدأت تظهر أدبيات "بناء الدول State Building" و"بناء الأمم Nation Building".. ونشأت هاتان الفكرتان من تطورات كبرى حدثت في العالم. وعلى أن الأدبيات المتاحة في هذا المجال ليست كثيرة، وهي عمليات تجريبية يحاوَل أن ينظَّر لها، ولكن معرفة المصطلحين والفرق بينهما من الأمور الهامة لمن يشتغل في هذا الفضاء المتعلق بقضية المجتمعات والتطور الاجتماعي وقضاياه، وإنّ كِلا الفكرتين ليستا بالأفكار الجديدة، فعبر التاريخ كانت الدول تتشكّل، ولكن حينما أُرِيدَ تقنين هوية الشعب وضبطها بطريقة علمية نشأت لدينا مصطلحات مكافئة لمثل هذه الاحتياجات، فهناك دول أريد إنشاؤها من العدم كإسرائيل على سبيل المثال، فهي دولة ليس لها ماضٍ وليس لها تاريخ، أُنشئت على أرض أناس آخرين وأُقيمت لها المؤسسات والمنشآت.. وأيضاً في جنوب السودان كان هناك محاولات حقيقية لإنشاء دولة معاصرة ببرلمانها واقتصادها وبكافة مؤسساتها من الصفر في مجتمع قروي وأرض زراعية، إلا أنّ بناء دولة من الصفر من القضايا الشائكة وهي مما لايقل صعوبة عن إعادة بناء دولة قد انهد كيانها السياسي والاجتماعي كالعراق وسوريا وإفغانستان وغيرهم... والجدير بالذكر ابتداء قاعدة عامة كبرى وهي أن الدولة حاجة إنسانية وهي ردّ على حاجة واقعية، وهذا المبدأ الأولي البسيط كثيراً ما يضيع في خضم النقاشات.

بناء الدول:

عندما نتكلم عن إعادة بناء الدول أو إنشائها يظهر لدينا معنى من معاني "المشروع"، ويقصد بكلمة مشروع من ناحية إدارية؛ العمل المنظم الذي له مخرجات محددة وتكلفة محددة وزمن محدد، وإذا ما كانت الدولة صغيرة فترتيب أمورها والصرف عليها أسهل بكثير مما لو كانت كبيرة ومتعددة الأعراق والمذاهب وتقوم على مساحات كبيرة، فعندها تكون التكلفة ومحاولة الضبط والتنسيق عالية ومعقدة..

وإن بناء الدول، إضافة للإذن الدولي، يتطلب عدة احتياجات أساسية من أجل هندسة الدولة بشكل سليم تتمثل بما يلي:

- **الجيش والشرطة:** يُقرَّر عادة لكل دولة التعداد المناسب من الجيش والقوة العسكرية بما يتناسب مع حجم الدولة، وتعداد سكانها.
- **البنك المركزي:** وهو الذي يقوم بالعملية الاقتصادية ويديرها تسخيناً وتبريداً؛ فيصدر العملة ويحدد سعر الفائدة.. ونحو ذلك من الأمور التي تحدثنا عنها سابقاً.
- **الإدارة:** المتمثلة بأجهزة الإدارة الحكومية المختلفة الموجودة في الدولة.
- **البنية التحتية:** مثل بناء الشوارع والمدارس والمستشفيات.. والخدمات الأخرى التي يحتاج لها الناس في داخل الدولة.



بناء الأمم:

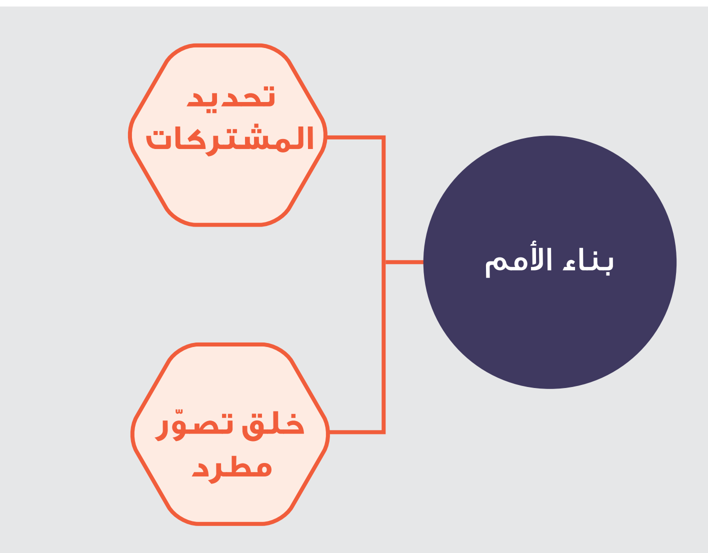
إن بناء الدول يعترضه بناء الأمم، فمن أجل بناء الدولة لا بد من تشكيل أمة، وبناء الأمم هو معضلة حقيقية في أغلب

بلدان العالم، والمقصود ببناء الأمم الانتقال من البنيان القديم للشعوب إلى البنيان الحديث في إطار الدولة، وذلك كالانتقال من حالة القبائل المتعددة أو التنظيمات الأولية العشائرية التي تسير على مجموعة الأعراف والتقاليد إلى كيان حكومي يوحّدهم في وطن واحد.

وإن الانتقال من الوضع الجزئي إلى الوضع الكلي ليس بالأمر البسيط، فإذا ما انتقلنا لمرحلة الكيف سنجد أن مصطلح الأمة مفهوم واسع ومعقّد جداً، وضبطه ليس بالسهولة التي قد نتصورها؛ فالأمة العرقية تختلف عن الأمة الدينية التي تختلف بدورها عن الأمة القومية..، فكيف سننشئ وحدة بين المتفرقين المختلفين الذين كانوا يتقاتلون فيما بينهم؟! وما هو نوع العَلَم الذي سيختارونه ويجتمعون عليه من بين الرايات المختلفة التي كانت ترمز لهم؟ وكيف سننشئ جيشاً واحداً من جيوش متفرقة؟ فغالباً ما تتنوع الشرعيات في البلد الواحد؛ فهناك من يدعي الإرث التاريخي، وهناك من يتكلم عن الشعبية الموجودة، وبالتالي هؤلاء الناس ينادون بالنظام الجمهوري والاتفاق الوطني، وهناك فريق آخر يمتلك السلاح ولا يهمه مصدر شرعيته، ويريد أن يأخذ قطعة من الأرض ويعتبرها ملكاً له.

وفي سبيل حل هذه المعضلات نحتاج أن نستشف الحلول الرئيسية التي اتّبعتها تلك الشعوب التي نجحت في بناء الأمم، حيث نجد في داخل هذه الدول:

1. الحد الأدنى الهوياتي:



والمقصود هنا البحث عن المشتركات الممكنة التي لن يختلف عليها شعب الدولة بجميع أطيافه، ونأخذ اليهود مثالاً لذلك؛ فحينما أقاموا دولتهم اعتبروا أنه من أجل التعايش بينهم يكفي انتساب الإنسان لليهودية بغض النظر عن الشكل التنفيذي لتديّنه طالما أنه يلتزم بالقانون الذي يسود في الدولة، ويقوم بالواجبات التي ينص

عليها القانون، ويحترم الإطار الاجتماعي.. فهذا كافياً ليعتبر مواطناً يهودياً ينتمي للدولة اليهودية. وكذلك الأمر في أمريكا التي تزدحم بالهويات المختلفة، حيث تم النزول للحد الأدنى للهوية المشتركة، فتم اعتبار أي مولود على الأرض الأمريكية هو مواطن أمريكي، **فكلما كان المجتمع أكثر تنوعاً كلما زادت الحاجة للنزول بالحد الأدنى للهوية**، فتحديد المشتركات أمر هام جداً، وهذه المشتركات في الغالب يتم تحديدها على نطاق الحد الأدنى، وهذه أول قاعدة كبرى فيما يسمى "Nation bulding" أو "بناء الأمة" في الدولة المعاصرة.

لماذا الهويات الوسيطة وليس النقية؟

إن الحديث عن الهويات الجامعة يقودنا إلى مسألة هامة وهي الأشكال النقية من الهويات، ونقصد بالأشكال النقية؛ الهوية الاسلامية والهوية الليبرالية والهوية الاشتراكية.. باعتبار أن هناك هويات نقية من هذه الأشكال ربما هي الأسلم لحكم منظوماتها الاجتماعية، فالميراث العام إذا وُجِدَ فإنه يساعد في قضية التضامن الاجتماعي والشعور بالهوية الجامعة، ولكن في الحقيقة نقاء الهوية في المجتمعات اليوم هو أمر نادر جداً، **فالهوية الجامعة في المجتمعات المعاصرة هي تشكُّل اختياري أكثر من كونها ميراثاً**، فلا بد في عصرنا من توليفة تقام بين عدد من التصورات لتناسب المجتمع، فلا تكاد توجد دولة معاصرة فيما هو معلوم نقية تماماً من الاختلافات العرقية والهويات الفرعية، وكل هوية ستنازع الآخرين على أنها التمثيل الحقيقي للدولة بسبب قدمها الاجتماعي أو لكونها تمثّل الأكثرية.. والمجتمعات التي تبدأ بالاستقرار تحاول أن تبحث عن منطقة وسطى لتشكل من خلالها هويات وسيطة وليست حدِّية.. وعندما شكل الإسرائيليون دولتهم كانوا خليطاً من العلمانيين والشيوعيين واليساريين والمتدينين.. وآخرون ليس لهم هويات محددة سوى انتمائهم إلى اليهودية وشعور الرغبة بالهجرة إلى الأرض الجديدة فجمعوا الشعب على الحد الأدنى من شعور الانتماء لليهودية.

> إنَّ إنشاء الدول يحتاج إلى اتفاق أدنى بين "مختلفين" على العيش المشترك لا بين "متفقين". وهو الأمر الذي يغيب عن أذهان كثير من الشباب المسلم في يومنا.

فاعتقاد بعض المسلمين اليوم أن الحد الأدنى مقررٌ سلفاً؛ بأن يكون الإنسان مسلماً هو اعتقاد

خارج عن الصواب، ففي واقع الدول المعاصرة يمكن أن تكون مسلماً بين أقلية غير مسلمة كحال الهند مثلاً وفيها 200 مليون مسلم يقابلهم أضعافاً مضاعفة من الهندوس، فهنا على الدولة أن تنزل بالحد الأدنى للهوية المشتركة لتجمع بين الملل والنحل المتواجدة على أرضها.

2. خلق تصوّر جامع

إن خلق تصوّر جامع إزاء الدولة لدى الشعب يمكّن انتماءهم ويعينهم على العيش المشترك.. وهذا يتم على مرحلتين:

1. **المرحلة الأولى: التوافق الأولي عند التأسيس:** ونعني به القيم والتصورات التي اتفق عليها المؤسسون أو المشرفون في مرحلة التأسيس، كاتفاقهم على العلمانية مثلاً.

2. **المرحلة الثانية: التنشئة والتوجيه اللاحق:** تأتي في المرحلة الثانية التنشئة الاجتماعية؛ فهل سترقى لأن تخدم القيم المشتركة التي وضعت في مرحلة التأسيس؟ أم أنها ستغذي النزعات القديمة الموجودة؟ وذلك كما حدث في الهند من انتكاسات كبرى في المجتمع تجلت بتصرفات بعض متطرفي الهندوس إزاء الهنود المسلمين، فعادت بالهند إلى ما قبل الاتفاق العلماني الحالي الموجود. وهكذا فقد ينجح الآباء المؤسسون وتفشل التنشئة.

إن الدعاية السياسية، والنظام التعليمي، ونظام الجندية، والاحتفاء بالإنجازات الضخمة المشتركة وعَلَم الدولة.. جميعها أدوات تسهم في خلق شعور مشترك يوحّد الأمة حول شيء معين، فمثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية حينما يقول الأمريكي "أنا أمريكي"، نتسائل: ما الذي وحّد الولايات المتحدة وهي الدولة التي تكوّن شعبها من شتات شعوب الأرض المتنوعة دينياً وعرقياً التي انتقلت هرباً من ظروف العيش الصعبة؟؟!

إن كون الشخص أمريكي اليوم يعني أنه يمتلك الحد المشترك من الثقافة الأمريكية الجامعة التي شكلها الدستور، والعلم الأمريكي، والجيش، والدعاية الهوليودية الإعلامية، والنظام التعليمي.. فجميعها شكلت هوية معينة وطابعاً معيناً للأداء الامريكي في الحياة،

حتى إنّ اللغة الانجليزية قاموا بمحاولة كتابتها ونطقها بالطريقة الأمريكية لتصبح جزءاً من تكوين الهوية الأميركية.

فحينما نتحدّث عن الأمة؛ فإننا نقصد إيجاد هوية جامعة ينتسب اليها الناس من دون أن يتنازع عليها هويات أقوى منها، وخلق شعور تضامني بين أفراد المجتمع يمكّنهم من العيش المشترك، ويعينهم على تقديم التضحيات من أجله، ومن دون هذين العنصرين تتعرض الدولة عادة لاهتزازات مستمرة نتيجة النزاع على الهويات.

من الأمور الهامة أيضاً في بناء الدول وتشكيل الأمم:

3. القيادات الموثوقة والمسؤولة:

أسلفنا في الفقرة السابقة أنه قد ينجح الآباء المؤسسون في خلق تصوّر جامع وتفشل التنشئة، والعكس صحيح؛ فقد تكون القيادات المؤسِّسة لا ترقى لمستوى اللحظة التاريخية لتكوين الدولة، وهذا ما لاحظناه في مصر فلم يكن هناك قيادات ترقى لإنشاء دولة تحوي جميع المواطنين، فحدث تنازع على هوية الدولة، وهو تنازع لم يكن ليحدث ضمن أطياف الشعب المصري، ولكن حينما فشلت النخبة في الاتفاق على الحدود الدنيا للهوية المصرية فتحت مجالاً لعودة الدكتاتورية مرة أخرى للمجتمع. فوجود قيادات ترقى لمستوى اللحظة التاريخية قضية أساسية في مشروع النهضة، ومن دون تلك القيادات التي تُعنى بمتطلبات التوفيق بين الأطياف المختلفة لا يُرجى أي أمل في إقامة الدولة بشكل سليم.

4. الخبراء موثوقون:

إن عمار الدول ليس أمراً عبثياً؛ فهناك أشياء معقدة كإنشاء الجيوش، وبناء النظام الاقتصادي، وتأسيس أنظمة التعليم القويمة، والتخطيط للعمليات المعقدة والمركبة في مجتمعات تُحسن حمل السلاح ولا تحسن البناء.. فالنخب تحتاج إلى خبرات تسهم في إنشاء الكيان السياسي الجديد، وفي حال لم تتوافر تلك الخبرات فسيحصلون على استشارات تقودهم إلى مسارات خاطئة؛ كما حصل في العراق حيث تم تكوين تيار طائفي أدى لعزل فئات كبيرة في داخل المجتمع، وبالتالي لم يستفِد المجتمع من الثروات الضخمة الموجودة لديه، فتولّد الخلل ذاته الذي كان في القيادات السابقة في القيادات اللاحقة!

بناء الامة يعتمد أولاً على

- إيجاد المشتركات الدنيا بين مكوناتها
- الاتفاق على العيش المشترك
- أدوات الدولة المعاصرة لتصب في تشكيل هذه العقلية المتوافقة بدرجة ما على الحدود الدنيا

ثالثاً- الاستراتيجيات المتّبعة عند بناء الدول

1. وقف الصراع:

إن أول قضية رئيسية يستهدفها الناس الذين يشتغلون على بناء الدولة أو ترميمها هي وقف الصراع أو تخفيضه للحد الأدنى، فوقف الحرب أو على الأقل تخفيض وتيرتها إلى الحدود التي لا تؤثر على البناء الجديد هو شرط أول لإعادة بناء الدولة.

ووقف الصراع يتم بإحدى طريقتين؛ إما أن تتفق القوى المتصارعة على وقف الصراع بينها وترك السلاح والاحتكام إلى العقل. أو تُترَك الحرب مشتعلة إلى أن تُستنزف طاقات الأفراد ومقدراتهم حتى يصلوا للحظة التي يستطيعون فيها البدء بالنقاش والحوار.. فبعض الحروب تترك لفترات زمنية طويلة إلى أن تصل الأطراف لنهاية المطاف في محاولة إلى فرض إرادتها على الآخرين.. فعندها يمكن قبول احتمالات الشراكة والبناء.

2. تحديد حجم الأجهزة الأمنية:

تحديد حجم الجيش اللازم والأمن والشرطة لدولة ما يحتاج لحساب النسب في داخل الدولة، كأن يقال إن كل عشرة آلاف مواطن يحتاجون إلى رجلين أو ثلاثة رجال من الأمن، بما يحقق ضمان الأمن الداخلي والخارجي.



3. تحديد حجم التمويل الضروري:

إن إدارة الدولة الناشئة تحتاج لتمويل ضروري لإدارة المرافق العامة؛ الصحية، والتعليمية، والشرطية، والخدماتية من مياه وكهرباء ونحوه.. وهذا يتطلب ابتداء ضبط موارد الدولة بالشكل الصحيح للوصول للقدر المعين الذي تحتاجه، ثم يتم البحث عن مصادر وجهات لتمويل الضروريات، وبالتالي يبدأ الناس يجدون الاستقرار في حياتهم.

4. تحديد حجم الفجوة الثقافية:

كثيراً ما تُعزى المشكلات بين الشعب الواحد إلى اختلاف الهويات والأديان وتنوعها، ولكن قد لا تكون المشكلة بحقيقتها كذلك، فكثير من المجتمعات تكمن معاناتها الحقيقية بوجود عوائق ثقافية ضخمة تحول دون سلامتها، فمثلاً دول مثل سوريا والعراق وأفغانستان لديها عوائق ثقافية كبيرة تجاه الوحدة تحول دون اجتماع شعوبها، وأيضاً شعوب بنغلادش وباكستان التي انفصلت عن الهند بسبب اختلاف الأديان بحسب ظنهم، ولكن ما حدث أنه

لم تصمد الوحدة الداخلية لكلا البلدين رغم اتفاق شعوبهم على ديانة واحدة، فكلتا الدولتين تعتمد من أجل البقاء على الخارج أكثر من اعتمادها على كيانها الداخلي.

5. المحاصصة أم الكفاءة:

كثيراً ما تنشأ عند قيام الدولة نزاعات بين القوى السابقة والقوى الجديدة فتبدأ المحاصصة، والمجتمعات التي تبدأ عبر التحاصصات غالباً ستنتهي الأمور بها إلى فئات اجتماعية لا تمتلك المعرفة والمؤهلات، ليصل إلى وزارة التربية والتعليم من لا يحسن القراءة والكتابة! وإلى وزارة الاقتصاد من لا يحسن حتى أن يفهم ما يقوله المستشار الاقتصادي! فالمحاصصة وصفة قاتلة لأي مجتمع من المجتمعات، وبنموذج لبنان يتضح لدينا فشل مسألة المحاصصة في إنشاء كيانات سياسية وكيف أنها قادت المجتمع إلى خراب كبير.

6. البحث عن منطقة ارتكاز اقتصادي

حينما تستقر الدولة على القواعد الأولية بدرجة معينة تبدأ عملية التنمية، وبحكم أن الدول الجديدة عادة لا تمتلك موارد لما يسمى بالنهضة الشاملة، فعادة ما تبحث عن منقطة ارتكاز للاقتصاد الجديد ستبدأ منها وتنفق عليها حتى تستطيع أن تأتي بدخل لتمويل المناطق الضعيفة الموجودة في داخل المجتمع، مع ضرورة السعي للوصول لمرحلة نضج الهيكل الاقتصادي في كل من الصناعة والزراعة والقطاع الخدمي والتكنولوجيا، وهو أمر هام لقوة الدولة، وإن فشل توليد المال من هذا المرتكز الاقتصادي أو سوء إدارته سيؤدي لأن يعاني المجتمع من الفقر مرة أخرى، وذلك كما حدث في العراق حيث يوجد مورد اقتصادي هو البترول، ولكنه سرق وذهب هباء، فضاع المورد الرئيسي بسبب الفساد الحاصل. فمعرفة من أين ستبدأ التنمية في المجتمعات التي لا تستطيع أن تنفق على تنمية كلية كاملة قضية أيضاً في غاية الأهمية وتحتاج إلى تخطيط وبناء.

7. اختيار النظام السياسي الأمثل:

إن اختيار النظام السياسي الأمثل هو أيضاً من القضايا المفصلية، وكثيراً ما تُذكَر الديموقراطية باعتبارها الحل الأمثل، فهل الديمقراطية هي بالفعل الحل الأمثل لجميع المجتمعات؟ إن كل نظام سياسي يأتي ومعه مشاكله، والمفاضلة ليست فقط بين نظام

كامل ونظام ناقص، بل تتعلق العملية بموازنة تخدم مستقبل البلد وتطوّره.. وفي الحقيقة الديمقراطية لا تشتغل منفردة، فلا يمكن أن تنجز الديمقراطية وعودها في جميع البلاد في ظل جميع الظروف؛ ففي بلد فيه طائفية مثلاً، والتصويت على أساس ديني، لا يمكن أن تطبق الديمقراطية فيه بشكلها الحر المبني على اختيار الشعب في حدود عالية للأكفأ، وفي حال تمت السيطرة على العملية الديمقراطية من قبل فئات معينة فإن العملية الديمقراطية ستفقد معناها وتتحول إلى شكل خارجي فقط بلا مضمون حقيقي! فالنظام السياسي الأمثل هو الذي يسمح بالتطور أكثر، ومدى درجة القبضة المركزية تتعلق باحتياجات المجتمع، فالديمقراطية ليست حلاً لجميع المجتمعات، وأيضاً الديكتاتورية ليست كذلك، فأحياناً تبدأ الدولة بقبضة حديدية ومن ثم شيئاً فشيئاً تتحول إلى نظام ديمقراطي، وأحياناً يستبد الإنسان الذي أنشأ الدولة الأولى بالقبضة الحديدية ويريد الاستمرار والدوام، فعندها تدخل الدولة بصراع الديكتاتورية بعد أن كانت حركتها تصب في محاولات الإنشاء والبناء.

أخيراً.. إن اعتقاد بعض الناس أن هناك وصفة واحدة سحرية مُثلى صالحة لكل زمان ومكان وفيها سعادة الشعوب وإمكانية البناء هو اعتقاد باطل، فالمدينة الفاضلة قيامها ممكن في الخيال ولا تقييد عليه، أما في الواقع فهناك ظروف تقّيدها وتعيد تشكيلها.. وإن هؤلاء الناس حينما تتكلم فإن كلامها من وحي الجانب النظري دون أن ترى إمكانياته في الواقع الموجود، فحال المجتمعات العربية والإسلامية اليوم كمن يقع في البحر ويوشك على الغرق لعشرات المرات ثم لا يزال يدّعي أن لديه الوصفة المُثلى للسباحة! وهذا مما لا حل له في عقولنا نحن المسلمون! فحتى وإن كان الذي يقود رحلة البناء رسول أو نبي فإنه سيراعي البيئة والواقع، وهذا ما نستشفّه من قوله عليه الصلاة والسلام في مسألة بسيطة كمسألة إعادة بناء الكعبة على أسس إبراهيم عليه السلام، فنجده يقول للسيدة عائشة: "لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة، ثم بنيتها على أس إبراهيم عليه السلام "

فباستمرار لدى المجتمعات ما تفرضه، وإن عدم أخذ التطور الزمني، والبنية الاجتماعية، والإشكاليات الواقعية على محمل الجد يقود إلى وصفة لا تناسب البنية والتطور والقدرات المعرفية، ولا تُوجِد الاستقرار ولا تضمن الوجود ولا التنمية..

ولعل التثقيف يكون منظار الناس للنور، وأداة لتجلية الأوضاع الموجودة..

الإدارة



سنبدأ جولة مع الإدارة والأفكار الإدارية، وإن كتب الإدارة اليوم كثيرة جداً، والأناس المشتغلة في الإدارة والتنمية كُثر ومنهم قامات كبيرة، والقضايا التي سنذكرها في الفقرات التالية على أهمّيتها إلّا إنها قلّما تُذكر، وهي قضايا عملية ومفيدة بشكل مباشر في السياقات التي نتحدث بها.

أولاً- جوهر الإدارة

إن فكرة الإدارة الرئيسية "التحكُّم" لدرء الدخول بأنشطة عبثية، فجُعلت الإدارة لضبط المخرجات والتوفيق بينها وبين المدخلات، فخضوع المدخلات للعمليات الإدارية سيجعلنا أمام مخرجات أفضل، وهذه هي آليات عمل المؤسسات والحكومات عموماً؛ أنها تأخذ الموارد، وتدخلها في عمليات معينة، لتخرج بنتائج تؤثر بالبيئة ، وكلّما كانت الإدارة أفضل كانت النتائج أفضل.



1. بين روح الإدارة وبين تنمية المهارات الإدارية:

إن القضية البسيطة والأولية في الإدارة تقودنا لمسألة هامة جداً؛ وهي أن الكلام في الإدارة يمكن أن يتجه إلى اتجاهين رئيسيين:

إما أنه يتّجه لما يسمى بالمهارات؛ أي ما يسمى بالتنمية البشرية في عمومه (كيف تنظّم وقتك؟ وكيف تطوّر شركتك؟..) أو يتجه للمعنى الجوهري للإدارة، وهو الاتجاه الذي لا يُتناول في الغالب ولا ينتظم في عقولنا على الرغم من ضرورة تنظيمه، فإن تنمية المهارات الإدارية من الأمور الهامّة في الإدارة، ولكن تبيّن عبر الزمن ومع كثرة الدورات أن اقتصار الطرح في اتجاهها لا يسد الاحتياج، ولا يجعل الإنسان واعياً بمدى احتياجه من عدمه بالمدخلات الإدارية التي يسمعها طالما أنه لم يعي روح الإدارة وجوهرها.

2. جناحي الإدارة:

من أهم القضايا التي نريد أن نتحدث بها الفارق بين مصطلح "Management" وبين مصطلح "Administration" الّذَين يعتبران كجناحين للإدارة، وإن كلا المصطلحين حينما يستخدمان بشكل منفرد يؤديان إلى المعنى نفسه، ويستخدمان على أنهما أمر واحد، ولكن هناك فارق هام بالنسبة لنا كمهتمين بعملية الإدارة

إذا قلنا أن الإدارة هي اتخاذ القرارات فنحن نتحدث هنا عن الجناح الأول من الإدارة وهو الـ Management، ويكون الجناح الثاني التأكد من نفاذ القرارات وهو الجزء المتعلّق بما يسمى الـ Administration.

وإن كثيراً من المؤسسات الكبرى في بلادنا تُتَّخذ فيها القرارات ليلاً نهاراً دون أن تجد لها طريقاً للتنفيذ، فأين هذه القرارات ولماذا لم تنفَّذ؟ السبب أن عملية اتخاذ القرار ليست هي العملية الوحيدة.. فالقرار عندما يخرج من قاعة المدراء يجب أن يُتابَع من عدة نواحٍ: أين سيذهب؟ ومن سيحتفظ به؟ ومن سيقوم بالإجراءات اللاحقة له؟ وكيف ستتم متابعته والتوصّل إلى كونه نُفِّذَ أم لم يُنفِّذ؟ وهل تأخر عن وقته؟ وهل يحتاج إلى مزيد من القرارات؟

إذاً المشكلة تبدأ من عدم فهم الإدارة بجوهرها الصحيح ابتداء، فنحن مجتمعات مكتظة بالقرارات التي لا تعبُر نحو التنفيذ، وهي مشكلة كبيرة جداً في الإدارة وإذا ماحُلّت يُحَلُّ معها كثير من المشكلات الأخرى.



في إحدى المرات عُقِدَ ملتقى في بريطانيا حول فكرة مواجهة العولمة بحضور الدكتور جاسم سلطان،..

يقول د. جاسم: أثناء حضوري اللقاء اكتشفت أن الموضوع ليس له تحديد ولا يمكن ضبطه، وأكبر من قدرة الناس المجتمعين في التحدث عن الموضوع ناهيكم عن اتخاذا إجراءات ضده..، في نهاية الاجتماع اتُّخِذَ بضع وثلاثون قراراً لمواجهة العولمة، وتم توزيعها على الموجودين حتى يقوم كل واحد بدوره في مواجهتها. ومرت الأيام والسنوات وقابلت أحد الأفاضل ممن كانوا في الاجتماع فأخبرني أنه خارج من مؤتمرٍ يحمل العنوان ذاته و والفكرة ذاتها، فقلت له: أنتم اتخذتم أكثر من ثلاثين قراراً يومها فماذا حدث لها؟ فأجابني: بأنه لم يُنَفَّذ منها شيء، بل أضيف لها بضعٌ وثلاثون قراراً جديداً!

هنا تبرز معضلة القرارات التي ليس لها أرجل، فلدينا في المنطقة العربية تُخمة في اتخاذ القرارات، يقابله ضعف شديد جداً في كيفية تحويل هذه القرارات إلى الواقع التنفيذي على الرغم من كثرة الحديث في الإدارة في بيئاتنا، فالقرار الذي له إدارة (Administration) لا بد أن يصل إلى مراحل تنفيذه الأخيرة، وإن من لا يلم بهذا الأمر سيحضر عشرات المؤتمرات وهو يتساءل عن عدم فاعلية هذه المؤتمرات التي تركت كلّ شيء في مكانه دون أدنى جدوى من حضورها! فتعاد وتتكرر وتعالج المواضيع ذاتها وفق الآليات القديمة ذاتها، وكأن قاصد هذه المؤتمرات يدور في حلقة مفرغة.

فالإدارة ليست مجرّد اتخاذ قرارات إنما هي أيضاً تدوين هذه القرارات، وتوزيعها، والتأكد مَن المسؤول عنها، ومن الذي سيتابعها، وما الإجراءات التي ستترتب لإصلاح المسار في حال لم ينفّذ القرار، وتوزيع المعلومات بين الأطراف؛ أي وصول القرارات لنتائجها أو إلغائها، فهي دورة كاملة تمر بها العملية الإدارية.. وإذا حُلَّت هذه المشكلة ستحل معها مشكلات كثيرة، فعلينا إذا اتخذنا قرارات أن نتأكد أن الجهاز الذي يأخذها من قاعة اتخاذ القرار إلى الفاعلية حاضر وموجود، وإلا سيكون القرار فارغاً من المعنى، مثله مثل بقية القرارات السابقة.

وبصورة أكثر عمقاً.. فإن الجناح الأول للإدارة أو الـ Administration هو عبارة عن فن إيجاد الأجهزة المناسبة التي تتحرك عليها القرارات لتأخذ مسارها في الواقع العملي.

وبالمقابل فإن الجناح الآخر للإدارة الـ Management عبارة عن عملية اتخاذ القرار المتعلقة بعقل متخذي القرار، ومدى إدراكهم للموضوع الذي يتحدثون به، وخبرتهم عنه، ووجود الاستشاريين الذين يحيطون بهم.. وهذا الجناح أيضاً قد تعترضه مشكلات؛ فحينما ننظر لمتخذي القرار في معظم المؤسسات الفاشلة نجد أن خلفياتهم لا تسمح لهم أن يفهموا ما يقوله الخبراء، وفي أحيان كثيرة لا اهتمام لهم أساساً بأن يعرفوا ما هو الموضوع الذي يدور الحديث حوله، فعملية متخذي القرار في غاية الأهمية، وكلما كان القرار هاماً، سواء في السياسة أو في الاقتصاد أو في التربية أو التعليم...، كلما كانت المعرفة أهم؛ فمن يدخل في حرب ولم يحضر في حياته حرباً فمن أين له أن يتّخذ قرارات حكيمة تنقذ المجتمع والبلاد من الشرور التي تحيط بها.

فالقضية الأولى التي نتحدّث عنها تدور حول ضرورة كفاءة متخذي القرار، ودقة متابعيه في دوائر التنفيذ والتعديل بداخل المنظمة، وهذا يحتاج إلى تطوير طريقة التفكير في المنظّمة، وينقلنا لآليات فحص المنظمة والتأكد من سلامة سيرها.

ثانياً- تقويم المنظمات

قد يسأل شخص ما عن تقويم إحدى المؤسسات.. أو عن مدى سلامة سيرها من عدمه، سواء كانت مؤسسة أم حزب أم حكومة أو..، وفي سبيل ذلك هناك إطار سباعي يسمونه (7S) يضم سبعة عناصر تبدأ بحرف الـ S، يحسن تذكرها باستمرار وتنفع عادة بشكل كبير في حل تلك المسائل:

1. أهداف المؤسسة "Shared Values":

إن أول قضية رئيسية ينظر لها عند تقويم المؤسسة هي الأهداف التي أُنشِئت من أجلها هذه المؤسسة، فبعض المؤسسات أهدافها ربحية فقط، وبعض المؤسسات تحمل أهدافاً كبرى وتخدم في أعماقها تطلعات سامية.. وكلما كان الهدف الذي أنشئت من أجله المؤسسة هامّاً، ويحمل في طياته قيماً كبرى، كلما تفاعل معه العاملون وقُدِّمَت له التضحيات؛ فحينما

نتكلم عن الأهداف الكبرى للأنبياء والمضحّين عبر التاريخ؛ من إنقاذ الناس وهدايتهم وإنشاء الأوطان.. نجد وراءهم قوافل من الناس التي ضحَّت بالغالي والنفيس لقوة قيمة الهدف الذي حملوه. وهذا ما يجعل القائمين على المؤسسات يضعون الأهداف الكبرى ويزرعونها في أذهان موظفيهم، الكبير منهم والصغير.

وأيضاً هناك معضلة أخرى تكمن بتلاشي أهداف المؤسسة مع الزمن، وصيرورتها إلى الذاكرة الخفية، وتبقى المؤسسة في الواقع تشتغل لتدوير عجلة ما هو قائم فقط؛ فيصبح دور الحزب مثلاً أن يدير نفسه دون الالتفات لأهداف التأسيس الرئيسية! وهذا ما يحدث أيضاً في الدول الناشئة فيُقال نريد إنشاء دولة وطنية لأننا أمة تستحق الكرامة والحياة، ونحتاج وطن مستقل يمكن أن ينافس بقية الأمم.. وبعد فترة تفقد الأمة هذا الحس ويصبح تدوير الكيان والتنافس عليه هو الأساس، وهذا يحدث كثيراً في حياتنا أيضاً كأشخاص فتكون لدينا حياة سامية وأهداف سامية ومع مرور الزمن نكتفي بإدارة حياتنا فقط وتختفي الأهداف السامية في طيات الزمن!



2. الاستراتيجية "Strategy":

المؤسسات عادة تحتاج إلى استراتيجية معينة للوصول إلى أهدافها بالشكل الأفضل، فيسعى المؤسسون لاعتماد وسيلة معينة يعتقد أنها ستوصلهم إلى غايتهم بأقصر الطرق.

وكنا تحدثنا عما يرمز له مصطلح الاستراتيجية؛ من كونه الخطة التي توضع، أو التموقع الذي يؤخَذ، ونحو ذلك مما يصب في سؤال "ما هي الاستراتيجية التي اعتُمِدَت للوصول إلى الغايات والأهداف؟" أو "ماهي الاستراتيجية التي تجعل هذه المؤسسة مميزة عن بقية الشركات الموجودة؟" فإن الجزء الذي يخص التفوق على الآخرين هو ما يتعلق بقضية الاستراتيجية. فقد تكون الاستراتيجية تنافسية سياسية في الأحزاب، وقد تكون حربية وعسكرية في منظمات انقلابية، وقد تكون حكومات تعتقد أن استراتيجيتها للتقدم تكون بتطبيق نظام اشتراكي أو ليبرالي، أو بتطبيق نظرية ما لخبير معين..

في بعض الأحيان قد تكون الاستراتيجية التي أنشئت من أجلها المنظمة تعداها الزمن، وثبت أنها غير نافعة عملياً على الأرض، ومع ذلك ونظراً لكون الغاية قد فُقدِت يتم استخدام الاستراتيجية ذاتها على اعتقاد أنها ستنتج إجابات في المستقبل، وهذه إحدى المشكلات الكبيرة التي تواجه المؤسسات حينما يطول أمدها وتفقد الاتجاه..

3. الهيكل أو البنية "Structure":

عادة تبنى الاستراتيجية على هيكل يحققها؛ فمثلاً استراتيجية الجيوش عند الحرب تبنى على شكل هرمي عسكري وهو أصلب الأشكال، يسمونه "المنظّمة الميكانيكة" أي نفّذ ولا تسأل، فالمعلومات تكون في أعلى الهرم، أما في أسفله فيتم التنفيذ فقط دون معلومات، فهذا الشكل يصلح للعسكرية التي لا يصلح بها أن يسأل الجندي في منتصف الحرب لماذا عليَّ أن أفعل كذا؟.. أما في المنظمة الإبداعية التنافسية التي تقوم على المبدعين لو وضعت في قالب بيروقراطي فلن تنجز في مسيرتها شيئاً، فهذا الشكل الصلب لا يصلح لها، لكون أمثال هذه المؤسسات ترقى بأفكار المبدعين بها. فما يصلح لشيء قد لا يصلح لشيء آخر، فالسؤال الثالث لتقييم المؤسسة "هل يتناسب الهيكل الذي وضع مع الاستراتيجية التي وضعت؟".

4. التوظيف "Staffing":

الهيكل عادة عبارة عن أشكال وفراغات وصناديق موضوعة يتم ملء احتياجاتها من خلال التوظيف ، فهنا السؤال "هل تمتلك المنظمة العدد الكافي من الأفراد لإدارة الأهداف التي تشتغل عليها؟ وهل المنظمة اختارت الشخص الأنسب للمكان الأنسب؟"، فقد يترأس المهام صاحب الشهادة الأعلى رغم قلة كفاءته، ويبقى صاحب الكفاءة تحت جناحه كونه يحمل شهادة أدنى، ونجد في أحيان أخرى شخصاً واحداً تكتظ حوله المهمات في المؤسسة لقلة أعداد الموظفين، فتضيع منه خارطة العمل، ويحدث إرباك في سيره.

5. المهارات "Skills":

لتقويم مدى فاعلية المؤسسة ينظر لحال الموظفين فيها، ف"هل الموظفون الذين يشغلون المؤسسة يمتلكون الكفاءات والمهارات التي تسمح لهم بأداء أعمالهم بأفضل دور؟"، فمثلاً إذا كانت المنظمة تحتاج إلى إبداع فهل يا ترى الجزء الخاص بما يسمى "Researsh and Developmet" أي "البحث والتطوير" فيه المهارات اللازمة؟ فإذا خلت هذه الصناديق من أناس يمتلكون المعرفة والمهارات المناسبة فستكون المؤسسة أشبه بهيكل سليمان بعد موت سليمان؛ فيبدو فيه حياة ولكنه فاقد للحياة.. وهذا شأن كثير من المؤسسات التي تبدو ضخمة جداً من الخارج، إنما عند الدخول إلى تفصيلاتها نجد فراغاً ضخماً من المعرفة والمهارات داخل القطاعات الموجود فيها، فأحياناً تدفع المنظمات والمؤسسات والدول مبالغ طائلة جداً على أشياء لو ننظر إلى جوهرها لوجدناه فارغاً!

6. النظم "Systems":

وأيضاً هناك أمر هام وهو "هل المنظمة مبنية على الأنظمة أم على الأفراد؟"، فإذا ما تم سحب أحد أفراد المنظمة فهل ستتعطّل المؤسسة أم ستتابع سيرها بشكل سليم؟ يجب أن يكون في المؤسسات لوائح وقوانين تمنع تضارب الصلاحيات والأعمال، وتسمح لأن يعرف كل شخص ما له وما عليه، وكذلك إجراءات الفصل والتعيين والتعاون بين الأطراف المختلفة جميعها تخضع لنظم تسمح للمؤسسة بأن تشتغل بشكل مريح، فالكل يعرف حقوقه وواجباته، ويعرف الإجراءات التي يجب عليه أن يتبعها والحدود المسموح له أن يتخذ قراراً فيها..

7. شكل القيادة "Stayle":

الأمر الأخير الذي يهمنا في موضوع تقويم المنظمات هو "مدى تناسب القيادة الموجودة مع المؤسسة وأهدافها وغاياتها وطريقة عملها"، فمثلاً لو افترضنا أن لدينا فيلسوفاً ومنظرّاً كبيراً ولكنه ليس شخصاً عملياً يستطع أن يسمع المشاكل الإدارية، ثم وضعناه في القيادة، فعندها سيصاب العمل بالشلل ، فالمشكلة هنا ليست في ثقافة الشخص، بل المشكلة أن ثقافته لا تتناسب مع البيئة ومع المكان والعمل الذي سيقوم به. وكذلك الأمر لو أن المكان يحتاج إلى قيادة مفكّرة استراتيجية ووضعنا شخصاً إدارياً مشغولاً بالتفصيلات، فأيضاً لن تعمل المؤسسة ولن تنجح، وكذلك لو كانت المؤسسة تحتاج الى إبداع وبنيتها الأساسية بحاجة لمطور مبدع وأتينا بشخص بيروقراطي لا يهمه إلا الهرم الموجود.. فستفقد حينها المؤسسة قدراتها على الفاعلية والنشاط... وأيضاً لو أخذنا النمط الديمقراطي ووضعناه في الجيش، وكان لكل فرد من أفراده خيار رفع القضايا وإجراء النقاشات إزاء الأوامر الصادرة لانهار الجيش.. وكذلك هو الحال لو عيَّنَّا شخصاً من الجيش لإدارة البرلمان الذي يحتاج إلى حوارات وأخذ ورد ونقاشات واعتراضات، فمن الأكيد أنه سيفشل! فالنمط القيادي مهم جداً لشكل المؤسسة.. ولذلك في نظريات الإدارة هناك سؤال تقليدي يُطرح عادة: هل الأفضل الإدارة الديمقراطية في المؤسسة أم الإدارة الدكتاتورية؟ والسؤال هنا مربك للذهن، لأنه من ناحية أخلاقية الإنسان يفكر بالشكل الديمقراطي، ولكن الشكل الديمقراطي لا يصلح لكل مؤسسة، وأيضاً الشكل الديكتاتوري لا يصلح لكل مؤسسة.. فنشأت نظرية وسيطة تسمى "Best Fit System" أي أفضل نظام مناسب للعمل الذي سيقام، أي هناك درجة من الدكتاتورية، وهناك درجة من الديمقراطية قد يوائم بينها لمناسبة هذا العمل، فالذي سيحكم اختيار النمط القيادي هو نوع العمل والمنتج الذي يراد أن يخرج.

إن التمكّن من هذه المعايير الأولية السبعة التي تسمى "Seven S" هو أمر هام جداً للمشتغل في النهضة أو المهتم بها لكونها بمثابة الأدوات الحقيقية لتقويم منظومات الحياة من زوايا مختلفة.

ثالثاً- تاريخ الإدارة

الإدارة قديمة وليست حديثة:

إنّ الادارة في حياتنا ليست بالعمليات الحديثة، فالمشاريع التاريخية العملاقة؛ كبناء سور الصين العظيم، والأهرامات، وسد ذي القرنين وغيرها من المشاريع كانت جميعها تحتاج لإدارة معقدة ومركبة..

ففي مثال الأهرامات: من المحال أن ترتفع الحجارة للسماء بهذه الأشكال العملاقة دون نظام إداري عملاق.. فالمشتغلون في هكذا مشروع هم آلاف مؤلفة، وتغذية هؤلاء الناس العاملين، وعلاجهم، وبناء مساكن لهم، وإدارتهم لسنوات العمل الطويلة ليس بالأمر اليسير، كما أن طبيعة العمل هي طبيعة شاقّة؛ بدءاً من تقطيع الحجارة وتوضيبها بأحجام مختلفة، مروراً بنقلها من مكان التحجير إلى مكان صف الحجارة، وصولاً لبناء الأهرامات، وما سبق هذه المراحل من هندسة وقياس للأهرامات.. فهذا كله عمل معقد وكبير.. وتنظيمه يحتاج لعقول إدارية جبارة، فالمشاريع العملاقة التاريخية كان وراءها إدارة عظيمة، إنما لم تترك لنا آثاراً مكتوبة عن طرق الإدارة وكيفيتها.. فالإدارة ليست أمراً حادثاً إنما الكتابة فيها هو الأمر الحادث.



رابعاً- الوظائف الإدارية

سنتحدث في الفقرات القادمة عن الوظائف الخمس الإدارية، وعن وظائف أخرى هامة للمدير استُنبِطَت من الواقع العملي له، لنصل من هذا كله لمعنى الفاعلية والكفاءة في الإدارة، ونتعرف على المستويات الدنيا للإنتاج.

1. أساسات الإدارة (الوظائف الخمس الإدارية):

بالتأملات الأولى للإدارة نجد فيها خمس وظائف رئيسية، فالإدارة من ناحية أساسية هي عمليات (التخطيط، والتنظيم، والتوجيه، والتنسيق، والرقابة)، وهناك كتيب قديم اسمه "Management" يحوي سلسلة باقية في الأسواق إلى يومنا، وعلى الرغم من أنها قد تقادمت وخرجت سلاسل أخرى فيها صور ورسوم توضيحية، إلا أن أسلوب العرض في تلك السلسلة قائم على اختصار الموضوع في صفحات قليلة، كما اعتمدت أسلوب القصة لإيصال الفكرة، لذا سأسوق منها شيئاً لتوضيح بعض الأفكار الآتية..

1. التخطيط:

يُضرَب بتلك السلسلة مثالٌ لشخص دُعي لإنشاء منتجع سياحي كبير، في أرض طينية سبخة فيها مستنقع مياه، وفي داخله تماسيح ضخمة.. وإن أول مسألة ستخطر في ذهن الرجل هي الخطة التي ستضمن له القدرة على إقامة البناء وتجاوز الإشكاليات الموجودة على الأرض، فالمياه تحتاج إلى أن تستنزف، والحيوانات تحتاج إلى اصطياد، ومن ثم سيحتاج المكان إلى عمليات ردم كبرى، وهذا يتطلب كميات هائلة من الصخور والطين.. فإن العملية التي سنقوم بها حينما يُعرض علينا مشروعٌ ما؛ علينا أولاً التخطيط لما هي الصورة النهائية لذلك المشروع بعد أن ينجز، وثانياً التخطيط للمراحل والخطوات التي سيمر بها المشروع.

2. التنظيم:

عند عودة الرجل إلى منزله أمسك بورقة ووضع جدولاً لتنظيم هذه المشاريع بحسب خبرته، ثم بدأ في التفريغ على الورق تفصيلاً لأجزاء المخطط الكلي، وبدأ يظهر تنظيم معين لمن سيقوم بمراحل هذا التخطيط وكيف ستنتظم الهياكل الموجودة..، وبدأت عملية

استقطاب الشخصيات المناسبة للتنفيذ، وبذلك انتقل المشروع من مَوْضِع التخطيط إلى مَوْضِع التنظيم، فالعملية الثانية تنظيم المشروع في شكل أجزاء صغيرة بحيث يقوم كُلٌّ بمهامه. المقصود بالموضِع المكان، كأنّ حال الكلمة السابق كان أفضل.

3. التوجيه:

بعد أن تم وضع التنظيم الكبير، واختيار طاقم العمل، وانطلاق المشروع، ستبرز بعض المشكلات، وسيحتاج العاملون إلى جهات يعودون لها كمستفسرين، وتعود هي عليهم بالمتابعة والتوجيه، فالمشاريع تحتاج لضبط بوصلتها باستمرار، ولا يمكن أن تترك فقط للتخطيط والتنظيم.

4. التنسيق:

في داخل العمل الكبير كثيراً ما تتداخل الأعمال وتحتاج للترتيب والتنسيق فيما بينها، وإلا يكون حالها كحال الشوارع في بعض البلدان؛ فكثيراً ما نمر في إحدى الشوارع فنجد الحفريات وأعمال الصيانة الكهربائية قائمة، وبعد تسوية الشارع بفترة قصيرة نجده محفوراً من جديد! وحينما نسأل عن سبب حفره مرة أخرى يُقال لوضع أنابيب المجاري! وهنا السؤال: لماذا لم يتم وضعها حينما كانت حفريات الكهرباء قائمة من قبل؟ السبب ببساطة عدم وجود تنسيق بين الأطراف، فكل يجتهد في وقته ويقوم بالعمل بمعزل عن الطرف الآخر، وهذا ما يزيد العمل كلفة وجهداً ووقتاً.. فيجب التنسيق بين الأطراف والمراحل بحيث تصب كل مرحلة في المرحلة التي تليها، فهذا أيضاً من مهام الإدارة.

5. الرقابة:

إن التوجيه يحتاج إلى عملية رقابة ومعايير؛ أي ما الذي تم؟ ومتى؟ وبأي جودة؟ وماهي التكلفة؟ ومتى سينتهي؟ وماهي درجة الانحراف عن المواعيد المقررة في الجدول؟ فعملية الرقابة هي عملية أساسية لضمان سير الأمور بالكفاءة المطلوبة، وفي الوقت المحدد بحسب الجداول الموجودة والموازنات، فقد نجد في بعض المؤسسات العمل الذي خطط له أن ينجز في سنة يتطلب عدة سنوات، وذلك لغياب الرقابة المطلوبة.

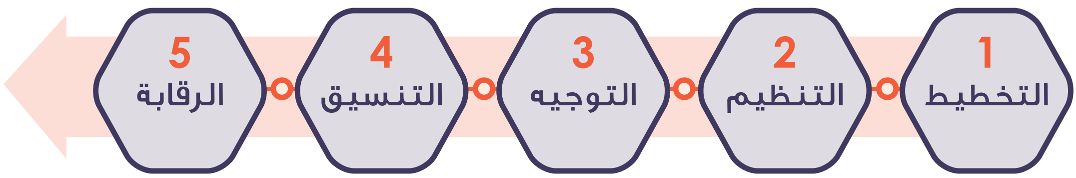
إننا كثيراً ما نسمع عن الصَرْعات الإدارية التي تظهر وتختفي وتُدفَع من أجلها الملايين، مثل ظهور صرعة الإدارة بالأهداف، حيث صرفنا كمؤسسات مبالغ مهولة عليها باعتبارها

الفكرة المنقذة، وكذلك هو الحال بالنسبة لغيرها من الصَرْعات الأخرى..

والحال أن الأساسات في الإدارة تبقى أساسات، وإننا نحتاج إلى أن نمسكها بشكل جيد، ونعرفها في أبسط أشكالها، لأنها تعطينا إطاراً واضحاً لفهم الأمور الإدارية..

وإنه مهما خرجت أفكار وصَرعات جديدة يبقى مآل الإدارة بشكل أساسي إلى هذه القضايا الخمسة البسيطة التي لا تزال تشكّل المرتكزات الرئيسية للفكر الإداري، ولا يوجد كتاب في الإدارة إلا ويبدأ بها ويتكلم عنها.

الوظائف الإدارية الأساسية



2. وظائف إدارية أخرى ومهارات يجدر توافرها:

هنالك من ناقش الإدارة بشكل أكثر عملية وقرر أن يعايش المدراء خلال يومهم ويقف على مهمّاتهم الحقيقية التي يُستنزف بها وقتهم بعيداً عن الجانب النظري، فتم الوقوف على أمر هام جداً وهو أن معظم المدراء في يومنا أصبحوا يأتون إلى شركات ناضجة، فيها أجهزة تغطي عمليات التخطيط والتنظيم والتوجيه والتنسيق والرقابة، فلا ينشغلون بهذه القضايا الخمس..

فعلى الرغم من أن عدم معرفة المدير بتلك الأساسات هو من سوء حظ المؤسسات، إلّا أن وضع الشركات التي تخدّم تلك العمليات من خلال أجهزة منفصلة عن الإدارة يوجّهنا لتركيز النظر على شخص المدير وإلى الأدوار التي تستنزف جلَّ وقته، والتي من المفترض أن يتمكن منها ويمتلك مهاراتها..

حينما تمت دراسة الوظائف التي يقوم بها المدير في يومنا، تم الوصول إلى أنه يقضي معظم وقته في مهمّات يحتاج من أجل تأديتها لعدة مهارات تتمثّل بالتالي:



● وجاهة تمثيلية للمؤسسة:

المدير غالباً ما يمثّل المؤسسة في الاجتماعات الرسمية واللقاءات.. ويمضي جزءاً كبيراً من وقته يقابل شخصيات ومؤسسات، فيشرح لهم، ويناقش معهم القضايا المتعلقة بمؤسسته، ولذلك يجدر أن يكون قادراً على التعريف بها وبالذي تفعله بأفضل صورة، وعلى طرح أفكار قوية تدل على نضج المؤسسة، وهذا الدور وإن كان غير موجود في الكتب الإدارية، إلا أنه يستنفد وقتاً جيداً من عمل المدراء.

● القدرة على حل المشكلات:

الأمر الثاني الذي تمت ملاحظته في هذه الدراسة العملية هي أن المدير يقضي وقتاً كبيراً في حل المشاكل الخارجية مع الزبائن، أو الداخلية بين الموظفين، وهذا يأخذ وقتاً أكبر بكثير من عمليات التخطيط للمؤسسة.. وبالتالي فإن القدرة على حل المشاكلات من المهارات الأساسية التي يجب أن تكون لدى المدير، فالمدير الجيد هو مستمع جيد، صاحب وعي عال، منظَّم في عقله، ويستطيع أن يربط الأشياء ببعضها، ليجد حلولاً آمنة تسمح للمنظمة

بالاستمرار، موظِفاً الحزم واللين والتشجيع في أمكنتهم الصحيحة، بحيث يكون جزءاً من الحل لا جزءاً من المشكلة.

التنسيق:

يشتغل المدراء أيضاً في قضية التنسيق بين جوانب المؤسسة، فكثيراً ما تنشأ فجوات أو خلافات بين الدوائر المتنوعة في المؤسسة الواحدة، وذلك يحدث لأسباب متعددة؛ مثل أن تسوّر الدوائر حدودها وتحتفظ بخطتها لذاتها، أو تختلف وجهات النظر بين الدوائر.. وغيرها من الأسباب التي من شأنها أن تخلق فجوات وتولّد نزاعات وتحدث خللاً في نتاج المؤسسة؛ فمثلاً لو كانت إدارة التسويق التي تدرس احتياجات الجمهور في إحدى المؤسسات غير مرتبطة بإدارة الإنتاج، وذلك كما حدث مع أشهر الشركات الأمريكية في تصنيع السيارات (فورد) التي كان يقودها "هنري فورد"، وكان رجلاً مسناً ويعتقد أنه سيفرض على السوق ما عليه أن يختاره، فاختار أن يبني أساطيل من السيارات السوداء الطويلة، في حين كان لدى اليابانيين قراءة جيدة للواقع، فلاحظوا نشوء الطبقة الوسطى التي لا تريد سيارات كبيرة، وكثرة النساء الذاهبات للعمل، وميلهن للألوان المتنوعة، فاحتلت اليابان السوق بسياراتها في حين خسرت شركة فورد خسائر هائلة.

فالإدارة في جزء كبير منها هي إدارة التنسيق، وعندما لا تكون الإدارة قادرة على التنسيق والقيام بالحوار الداخلي وحسم الصراع على أساسه فحينها تخسر المنظمات...

القدرة على استطلاع البيئة:

إن المنظمات لا يمكن أن تعمل بمعزل عن التحولات المحيطة، ووظيفة المدراء مراقبة البيئة الخارجية والبيئة الداخلية، والاستعداد للمستقبل، وبالتالي من الضروري أن يكون لدى المدير ثقافة عامة بالحياة، وقدرة على الإلمام بالتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحيط بالمؤسسة، وتغيّرات الاتجاهات الذوقية في المجتمع، والتغيّرات المتعلقة بقضية الدول التي يتم استيراد الموارد منها، وعمل البنوك.. ف "هنري فورد" في المثال السابق لم يستطع أن ينظر لصوت الجمهور وصوت الناس، وأصوات التحولات الأخرى من حوله.. ولم يلحظ دور العمالة الجديدة من النساء وأثرها في سوق المشتريات.. وهذه من أهم الأساسيات في عمل

المدير. وإن تحقق هذا القدر من المعرفة التأسيسية ضروري جداً لاستطلاع البيئة الخارجية ومراقبتها بالشكل الصحيح، وبالتالي فإن تدريب المدراء ومتخذي القرار على مراقبة البيئة الخارجية، وفهم كيف تُدرَس مؤشراتها، هي قضية في غاية الأهمية في عصر المتغيرات الذي نعيشه، مثل ما حدث مع مرض ككورونا حيث انشلت معه الحياة الاقتصادية، وانهارت مشاريع وأحلام كبرى..

● القدرة على قراءة المعلومات وتحليلها بدقة:

مما يحتاجه المدير في منصبه القدرة على فهم المعلومات التي تصل إليه من أطراف الإدارة، فقد نصادف مديراً في منظمة تخوض صراعاً سياسياً ضخماً، لا يعرف عملية اتخاذ القرار السياسي ومراكز اتخاذه، وأهمية التفاعل السياسي الدولي والمحلي مع القرار، وقد نصادف مديراً في مؤسسة مالية يعجز عن أن يقرأ وثيقة التوازن المالي أو يحللها، أو يعرف التدفقات النقدية الموجودة، ومن الطرائف أنه ليس من ضمن ما نعلّمه في المدارس قراءة الإحصائيات والأرقام وتحليلها! وإذا ما أُعطيت فيعطى منها هامشاً صغيراً، في حين أن من يعمل في الإدارة سيجد نفسه أمام سيل من المعلومات والأرقام والإحصائيات والرسومات المعنية في هذا الجانب، فإذا لم يكن يحسن قراءة هذه الأشياء قراءة علمية موضوعية سيجد نفسه خارج الخارطة، ومضطر للاعتماد على الآخرين ليتخذوا عنه القرار، فالقدرة على استيعاب المعلومات الموجودة في الخارج أصبح ضرورة بالنسبة للقيادات في هذا العصر أكثر من أي عصر آخر.

● الطبيعة الإبداعية والانفتاح على التصورات الجديدة:

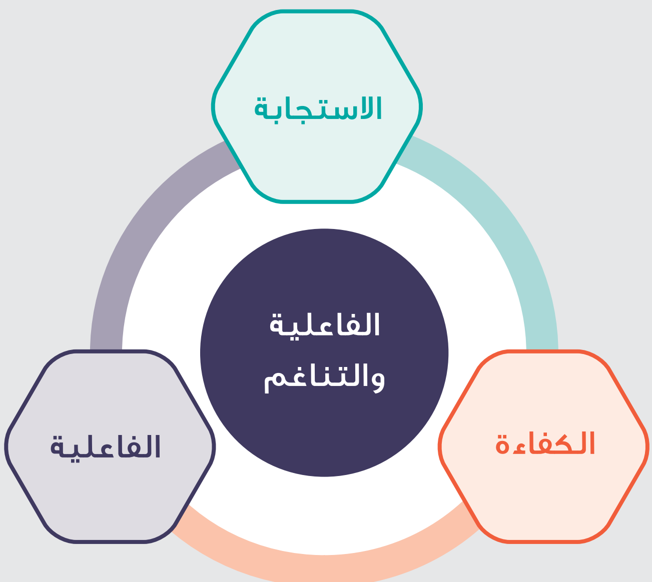
من الأمور الهامة التي لوحظت أن المدراء يختلفون في أمور الإبداع والانفتاح، فـ"هنري فورد" كان في لحظة تاريخية من أكبر مؤسسي الشركات في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنه كبر في السن وفقد عملية الإبداع، ولم يكن منفتحاً على التحولات الحاصلة في المجتمعات ليسابقها، فمن المهم أن يكون لدى المدراء القدرة على سماع المقترحات الجديدة وإحداث التغيير في الوقت المناسب، فلم يعد بالإمكان السير على قالب ثابت دون الاستماع لصوت العصر وللتحولات الحادثه فيه.

- **مهارة التفاوض:**

أخيراً إن من أهم الأمور لدى المدراء القدرة على التفاوض، فالمدراء عبارة عن جهاز تفاوضي مستمر مع الموظفين، ومع الزبائن الخارجيين، ومع البيئة السياسية، ومع المجتمع العالمي في سبيل مصلحة المؤسسة بما يوفر لها أفضل المكاسب ويقلل خسائرها باستمرار، فالقدرة على التفاوض واحدة من أهم القضايا التي يجب أن يعد لها المدراء في هذا العصر. وهو أيضاً مما لا يدرّس كثيراً.

إننا بإلمامنا لهذه الجزئية التي تحدثنا بها سنتمكن من التخطيط لأشكال المدراء الذين نحتاجهم، وإعداد القيادات القادمة لشيء مختلف عن الأشياء التقليدية التي كانوا يتلقونها في السابق فيما يسمى بالإدارة..

3. الإدارة رحلة بحث عن الفاعلية والتناغم:



إن كل ما تحدثنا عنه سابقاً يصب في هذا المكان، فهناك مثلث في غاية الأهمية في رحلة الإدارة، من المهم أن ندرك أساساته جيّداً لنحدد ما إن كانت المؤسسة تحذو حذو الانتاج السليم، أم أن انتاجها عبثي؛ تنتج لمجرّد الإنتاج، فعملها يكون بمثابة تدوير للموارد فقط لكونه يعاني من: خلل الاستجابة للبيئة، أو ضعف الكفاءة، أو قلة الفاعلية، أو يعاني منها جميعها، فسواء نشأت المؤسسة من أجل الربح، أو لإيجاد الاستقرار السياسي، أو لإحداث التنمية في المجتمع، أو للفوز في صراعات عسكرية.. يبقى السؤال باستمرار عن مدى

درجة فاعليتها وكفاءتها في تحقيق ما أنشئت من أجله، ولذلك سنقف مع توضيح بسيط لتلك القضايا:

1. الاستجابة للبيئة:

إن فشل المؤسسة بالاستجابة للبيئة يُخرجها من السوق، مثل ما حدث مع شركة نوكيا حيث فشلت في قراءة السوق، فكانت استجابتهم لتغيرات السوق ضعيفة، فأدّى ذلك لخروجها منه بعد أن كانت قد احتلت سلّم الريادة بهواتفها النقالة.

2. الكفاءة:

وهي النظر إلى عمل المؤسسة من ناحية جودة المخرج، والميزانية التي صُرِفَت عليه، والزمن الذي استغرقه في الإنجاز، فالكفاءة هي أن ننتج ما نعرفه على وجه حسن؛ فمن الممكن أن يأتي مقاول ويبني منزلاً جيداً، ولكن يأتي مقاول آخر ويبنيه بمواصفات أجود وبزمن أقل، وبأنسب من تكلفة المقاول السابق، فنقول إن المقاول الثاني أكفأ في أداء عمله من المقاول الأول.

3. الفاعلية:

وتعني أن تنجح المؤسسة بتوفير النتيجة المرجوة؛ بحيث تغدو منتجاتها ذات فاعلية حقيقية في البيئات التي تطرح فيها، وكثيراً ما نجد أن بعض المؤسسات في حصيلتها النهائية لا تنتج ما تعد به، وهذا وجدناه بكثرة في العمل الإسلامي، فهناك جهد كبير يبذل، ولكن حينما ننظر إلى الحصائد الأساسية نجدها متدنية أو شكلية فقط دون أدنى فاعلية حقيقية، فمثلاً في المخرجات التربوية؛ على نحو التعامل مع المراهق، أو تنمية مهارات الطفل وغيرها.. نجد فراغات ضخمة، ومخرجات لا تقدّم حلولاً فعّالة. وأيضاً نجد برامج في البيئات الثقافية عفا عليها الزمن وأصبحت غير صالحة للعصر الموجود، وتُجرى عليها تحسينات طفيفة من ناحية إدخال العلوم الإدارية، أو العمل على إخراجها بأشكال جديدة، ولكنها من ناحية علمية لا تنتج شيئاً فعالاً، فالناتج الذي يحصل عليه الإنسان في مقابل الساعات التي يقضيها في "التمدرس" ضئيل جداً.

إذاً التقصير في قضِيَتَيْ الفاعلية والكفاءة يمكن أن تنحدر بالمؤسسات إلى مستوى التدوير فقط؛ حيث يشتغل الموظفون ويظنون أنهم يفعلون شيئاً، ولكن نتاجهم يأتي دون فاعلية أو كفاءة، فتصرف الجهود والأموال والأوقات والطاقات على تدوير الطاحونة وليس على إنتاج الطحين!

خامساً- رحلة الإدارة عبر الأزمان

هناك جوانب في الإدارة كثيراً ما تغيب عن الأذهان ولا يتم تناولها ولا التطرق لها، ومن هذه الجوانب مراحل الإدارة والسياقات التي ولدت فيها الأفكار الإدارية، وإنه من دون معرفة مراحل السياقات الإدارية لا يمكن أن ينشأ عقل إداري سوي قادر على فهم الظاهرة الإدارية بشكل صحيح. ولربما استحضر البعض أفكاراً عفا عليها الدهر، وتعاقبت عليها التحديثات ولم تعد تصلح لزماننا الحاضر.

فمعرفة السياقات الكبرى التي نشأت فيها الأفكار مهمة لمن يعمل في الإدارة حتى يكون على بيّنة من أن هذه الأفكار لم تولد في فراغات، وأن نعرف حدود هذه الأفكار، ومدى فائدتها.

1. معالجة موضوع الإدارة عربياً:

كثيراً ما يتم التعامل مع الإدارة في سياق قديم مرّ عليه الكثير من التحديثات. ونذكر هنا قصة حدثت مع الدكتور جاسم سلطان حيث يروي أنه كان في إحدى الدول العربية من أجل حضور مؤتمر إسلامي عن الإدارة في الإسلام، وكان هناك عدد كبير من المحاضرين سيتناولون مواضيع متنوعة، وبحسب العنوان كان من المفترض أن يقدّم المؤتمر بحوثاً ميدانية عن الإدارة وبالتالي المتوقع أن يكون هناك كلامٌ إداريٌ عن الإدارة في البلاد العربية، والأنماط السلوكية الشائعة، والعقبات في البيئات الموجودين فيها ميدانياً عبر طرح بعض العينات، ثم نحصد النتائج التي سنصل إليها، وربّما قمنا بمقارنتها مع مجتمعات أخرى لديها سلوكيات أكثر تطوراً في العمل الإداري..

ولكن ما حدث فعلاً أن المحاضرات كان منها ما يحاول أن يلبس ما أنتجه الآخرين عمامة أو عباءة بحيث يصبح إسلامياً، ومنها ما تحدث عن حال المسلم في الإدارة؛ من كونه صادقاً

وأميناً ويؤدي دوره.. ونحو ذلك من القضايا.. فلم ينتبه أصحاب المؤتمر أن هذا هو النمط السائد ما قبل العصور الحديثة، فهم هنا يتكلمون عن نمط من الإدارة المتخيَّلة التي ركّبها الفيلسوف في ذهنه بشكل معين ويعتقد أنها ستشتغل ميكانيكياً بطريقة معينة. وبالتالي كانت الدراسات المقدمة لا تزيد ولا تنقص عن كونها مواعظ، واستحضاراً لمراحل إدارية عفا عليها الدهر!

حينما تشاهد شخصاً يحلّق بك **فيما ينبغي** فهو يعيش في ما قبل العصور الحديثة، لأن العصور الحديثة ميزتها الأساسية أنها انتقلت وارتقت لمسار تبحث فيه **كيفية تحقق أقرب مسافة ما ينبغي أن يكون** من خلال دراسة الواقع والخروج بحلول عملية منه.

2. الرحلة الإدارية:



كنا قد تحدثنا عن أن الإدارة قديمة عبر العصور، وهي لم تنشأ ابتداء نتيجة العلوم والتطورات الحديثة، فلا يكاد يوجد مجتمع إلا وكانت فيه إدارة ما تضبط اتجاهاته الكلية، فالمجتمعات فيها بيروقراطية تضبط إدارة الدولة، والشركات والمؤسسات كذلك، فلا يوجد فراغات إدارية في العالم، أما التنظير الفعّال للعملية الإدارية ومحاولة تطويرها بطريقة واعية فهذا جهد معاصر وحديث.

وحينما نتحدث عن رحلة الإدارة العلمية نجدها قد تطورت في ثلاث مراحل واضحة؛ مرحلة الفلسفة، ثم مرحلة العسكرة، وصولاً لمرحلة الأنسنة.

مرحلة الفلسفة:

بدأ الكلام عن الإدارة في الفكر القديم في إطار فلسفتها فقط، فهناك كتب فلسفية تناولت الإدارة ككتاب "الجمهورية" لأفلاطون، وكتاب "المدينة الفاضلة" للفارابي، ولكن هؤلاء تكلموا في جانب فلسفي نظري تخيُّلِي.. يتخيّل فيها الفيلسوف الصورة الأمثل لما يجب أن تكون عليه الإدارة والإنسان النموذجي في البيئة النموذجية.

وبعد هذه المرحلة برزت فكرة الأجرأة والحسابات والدقة في العمل الإداري كما في مرحلتي العسكرة والأنسنة.

مرحلة العسكرة:

كانت الفكرة المهيمنة في كتابات هذه المرحلة هي الفكرة العسكرية؛ أي أن شخصاً ما يسيطر ويرتب الأمور بطريقة هرمية من الأعلى إلى الأسفل، ويتحكم بالمشهد بالطريقة الميكانيكية التي تدار بها الجيوش، وهذه الفكرة ظلّت مسيطرة إلى العصور الحديثة تقريباً.

- من أقدم الكتابات المتاحة في هذه المرحلة كتاب "فن الحرب"، ويقال أن من وضعه هو سون تزو "Sun Tzu" في القرن السادس قبل الميلاد، وهو قائد عسكري عاش في فترة تفكك الدولة الصينية، وكان منظّراً لعلم الاستراتيجية العسكرية؛ أي كيف تدار الجيوش وكيف تنتصر، وقد اختاره الإمبراطور في زمانه ليكون قائداً للقوات المسلحة، وكان على الإمبراطور من أجل ضمان النجاح فقط تحديد الهدف الذي ستتم محاربته، ثم يترك التفاصيل الأخرى لـ "Sun Tzu" الذي لم يخسر أي معركة من المعارك، وقد أصبح كتابه أيقونة في العصور الحديثة، ويقال إن الأمريكان حينما غزو العراق كانوا يوزّعون كتاب "فن الحرب" على الجنود والعساكر والضباط، فسون تزو حوّل الأفكار الإدارية العسكرية إلى أفكار إجرائية يمكن إجراء حسابات حولها.

- ساد بعد ذلك فراغٌ ضخمٌ إلى أن ظهر كتاب ميكافيلي "الأمير" في القرن الخامس عشر تقريباً، الذي كتب فيه عن كيفية تصرف الأمير عملياً ليحافظ على الحكم في دولة ما.. وبغض النظر عمّا كُتِب فيه، فإنه قد أخذ مساحة جيدة، وتم تداوله بشكل كبير، لكونه قد تحدث عما يجب أن تفعله السلطة إجرائياً لإدارة الدولة، وتسيير أمورها..

فكِلا الكتابين عبارة عن محاولات إدارية وضعت قواعد عملية للحياة التي نتحرك فيها يومياً، فـ"سون تزو" وضع قواعد يتّبعها قائد الجيش ليصل من خلالها للنتائج التي يريدها، وميكافيلي في كتابه "الأمير" أيضاً وضع قواعد لتَحكُّم الأمير في إدارة إمارته؛ أي كيف يدير الصراعات الموجودة فيها، وما الذي يستطيع فعله حتى يضبط الإيقاع في داخلها.

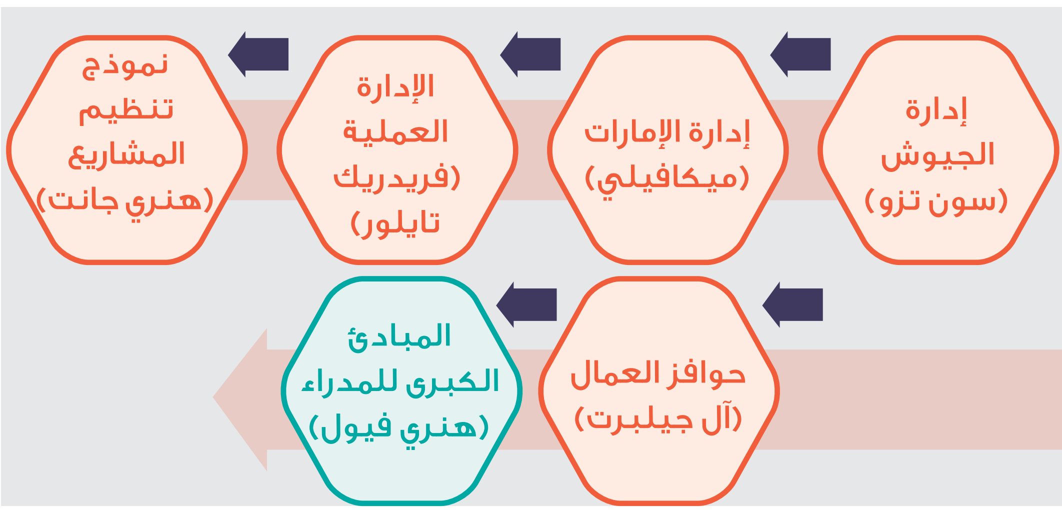
- عَقَبَ كتابَ ميكافيلي فجوةٌ امتدت من سنة 1531 إلى حوالي سنة 1910 ليُصْدِرَ حينها فريدريك تايلور "Frederick Taylor" كتاباً أسماه "الإدارة العلمية"، وصاحب هذا الكتاب مهندسٌ كان يشرف على ورشة عمل ويطل عليها من غرفته في الأعلى، فأخذ ورقة وقلماً، وأخذ يراقب العمال أثناء عملهم.. فلاحظ كم يضيّع العامل من وقته وهو يبحث عن الأدوات التي سيعمل بها، وكم يمضي في الكلام مع أصحابه أثناء العمل، فوجد أن وقتاً كبيراً يضيع في العلاقات الاجتماعية التي لا تجدي في العمل شيئاً، فأصدر كتابه وأنشأ فيه نظاماً يقوم على مبدأ الإنسان الميكانيكي؛ بحيث أن الموظف لا يقوم إلا بعمل واحد في مكان واحد، وكل عامل عدته موجودة عنده، والأشياء تتحرك إليه، ويقوم بعمله دون أن يبحث عن العدة ودون أن يتكلم مع أحد، فحينما نرى السيارات تأتي لعامل ما ليركب العَجَلات عليها فهذا من بقايا أفكار "تايلور"، فالنظرية العلمية تعني ضبط الحركة الميكانيكية في المصانع، وضبط العمال والعمل الذي يقومون به، وتوفير الزمن والتكلفة لترتفع العوائد في الشركات. ومن هنا بدأنا نصل إلى مرحلة الإدارة للإنسان الذي تم تحويله إلى جزء من آلة ميكانيكية.

- تبع "تايلور" في عام 1919 هنري جانت "Henry Gantt"، ونجد أن معظم الناس الذين يشتغلون في المشاريع عندهم ما يسمى "Gantt Chart"؛ وهو نموذج تنظيمي هام للمشروع، يتم تطبيقه على ورقة كبيرة تُظهر تفاصيل العمل في المشاريع؛ متى تبدأ، ومتى تنتهي، والعلاقة الموجودة بين هذه المشاريع في بداياتها ونهاياتها.. بحيث نتمكن من مسك كافة هذه الخيوط والتحكّم بها. ولا يزال "Gantt Chart" مستَخدَماً بشكل كثيف جداً في الإدارة ولا يخلو متعلم للإدارة إلا ويعرف هذا النموذج والذي تعود بداياته لأكثر من 100 عام.. فأحدث "جانت" قفزة كبيرة في متابعة المشاريع.

- بدأ تغيُّر طفيف في أساس التفكير الإداري في العام 1920 مع الزوجين "آل جيلبرت".. فكّر هذان الزوجان بآليات تزيد الأرباح، وبحثا عن الأسباب التي يمكن لها أن تُخفِّضَها، ووجدا أن هناك علاقة بين الزمن وبين الحوافز، أي أن العامل إذا اشتغل لفترات طويلة جداً ومن دون حوافز سيصاب بالإجهاد، وستقل إنتاجيته في العمل، وبالتالي ستقل أرباح المصانع والمؤسسات.. فهنا دخلنا في عصر جديد أصبح فيه الإنسان عنصراً أساسياً داخل العملية، وأصبح هناك التفات للإنسان العامل، وليس فقط للربحية..

- تطور الأمر شيئاً فشيئاً إلى مساحات أكبر من ذلك، ففي سنة 1925 ألَّفَ الفرنسي هنري فيول "Henri Fayol" كتاباً في الإدارة، وكان يعمل مديراً في منطقة للتعدين، ويمثل النموذج المثالي للإدارة الناجحة في عمله، وضمّن كتابه الواجبات الكبرى للمدير، فوضع 14 مبدأً أساسياً، ولا تزال مبادؤه إلى اليوم معتمدة في العمليات الإدارية، ويُرجَع إليها كمفاهيم كبرى، ومنها:

- تقسيم العمال إلى فرق.
- تخصص كل فريق بعمل واحد.
- عدم تلقي العمال الأوامر إلا من جهة واحدة، حتى لا تتضارب مع بعضها.
- تحقق العدالة في الشركة بحيث لا يشعر الموظف أن هناك موازنات غير عادلة فتقل كفاءته.



- تحقق الاستقرار الوظيفي، فلا يتغير الموظفون كل مدة فيتأثر الأداء الوظيفي في المؤسسة.
- سيادة المصلحة العامة، فلو أن شخصاً ما اشتغل لمصلحته الخاصة فذلك من شأنه أن يحدث خللاً في المؤسسة.
- التركيز على روح الفريق.. وغيرها من الأمور التي تطور بها علم الإدارة بشكل كبير..

- وصلنا إلى العام 1935 تقريباً وفيه دخلنا في مرحلة أنسنة الإدارة؛ وتعني العناية بالإنسان في داخل العملية الإدارية.

ومما سبق نود التأكيد على أهمية أن يدرك الإنسان الفارق بين الفلسفة العامة في الإدارة (ما ينبغي أن يكون)، وبين ما انتقلت إليه العصور الحديثة (دراسة ماهو كائن، ومحاولة أجرأته وتحويله إلى ماينبغي أن يكون) وملاحظة النتائج.

مرحلة الأنسنة:

بعد أن كانت النظرة للإنسان العامل في المرحلة الثاني من مفهوم الإدارة قائمة على أنه كالآلة، ويتم البحث عن السبل التي يمكن من خلالها زيادة الربح على حساب إنسانيته.. بدأت النظرة تتغير باتجاه ما يحقق إنسانيته، التي بتحقيقها يتحقق النجاح الحقيقي للمؤسسات.. فستأخذ رحلة الإدارة طريقاً آخر وستقفز قفزة جديدة على صعيد الاهتمام بالإنسان.

في سنة 1970 قدّم أبراهام ماسلو "Abraham Maslow" رؤية غير علمية؛ أي غير مدعومة بإثباتات، تمثلت بتقييم الحاجات الإنسانية من خلال هرم مشهور شغل العالم به، يقول فيه إن الإنسان لديه مجموعة حاجات مرتبة ترتيباً هرمياً، وكان هرم ماسلو من أنجح النماذج في إيصال المعلومات.

يرى ماسلو في هرمه أن أول حاجات يسعى الإنسان لتأمينها هي الحاجات الفيزيولوجية؛ كالطعام والشراب والتكاثر .. وإذا حقق هذه المهمة يأتي إلى الحاجة الثانية وهي حاجته للأمان؛ فيبحث عن بيت يسكنه، وعن وظيفة مستقرة، ويحاول أن يوجد شروط الأمان التي تجعله آمناً من الحاضر والمستقبل وتغيّراته، فإذا وصل لهذه القضية، فهو يبحث عن وسط اجتماعي، فالإنسان كائن اجتماعي في طبعه يريد علاقات إنسانية، ويريد أناساً يتعاطفون

معه عندما يمرض، وحينما يتعب أو تحدث له ضائقة، وإذا حقق هذا الأمر فالإنسان لا يتوق فقط لأوساط اجتماعية، إنما يحب أن يُنظر له أيضاً بتقدير واحترام ضمن هذه الأوساط، وأخيراً الإنسان يبحث لنفسه عن إنجاز ما في اتجاه معين لينجزه في حياته وينسبه له، أي إنه في قمة الهرم يريد أن يُعرَف بكونه أنجز شيئاً في حياته، وتحققت ذاتيته الداخلية، وشعر بأنه قدم شيئاً مهماً في هذه الحياة. فيري ماسلو أنه كلما تحققت الحاجات الجسدية للإنسان، وشعر بالأمان، ولُبِّيَت حاجاته الاجتماعية مع التقدير بشكل سليم، واستطاع تحقيق ذاته.. كلما كان الإنسان أكثر إشباعاً لذاته وإحساساً بالاستقرار والراحة، وبالتالي كان أكثر إنتاجاً، وبالتالي على المؤسسات أن تراعي هذه الاحتياجات لدى الأفراد العاملين بها.



اعتُمِدَ هرم ماسلو بقوة إلى يومنا هذا، واستُخدِم في تقويم الحاجات، وقامت عليه دراسات كثيرة في علم النفس على الرغم من أنه لم يقم على دراسات نظرية وتجارب عملية تقول بصحته، فالهرم فيه إشكاليات أهمها أن ثقافة الناس تختلف من مجتمع لمجتمع آخر، والأولويات تختلف، فبيئة القرية تختلف عن بيئة المدينة، والبيئة الغنية تختلف عن البيئة الفقيرة، كما أن الانتقال من مستوى إلى آخر ليس تلقائياً، فبعض الناس منذ بداية حياته يتأثر بمحيطه الذي يختلف من مجتمع لآخر، فالبعض لديهم استشعار لمستوى في الهرم أكثر من مستوى آخر، ومستعد لأن يضحي بمستوى لصالح مستوى.. إلّا أن ماسلو قد ظل علامة فارقة في مدرسة العلاقات الإنسانية..

وها نحن وصلنا إلى منطقة في غاية الأهمية وفي غاية الطرافة، وهي كيف انتقلنا للخطوة الثانية من الإدارة في العصور الحديثة، أي كيف انتقلنا إلى الكلام الذي يدور بيننا عن الإدارة في يومنا الحالي، وهذا ما أحدثته الثورات الإدارية بنقلة كبرى في علم الإدارة..

3. الثورات الإدارية الكبرى:

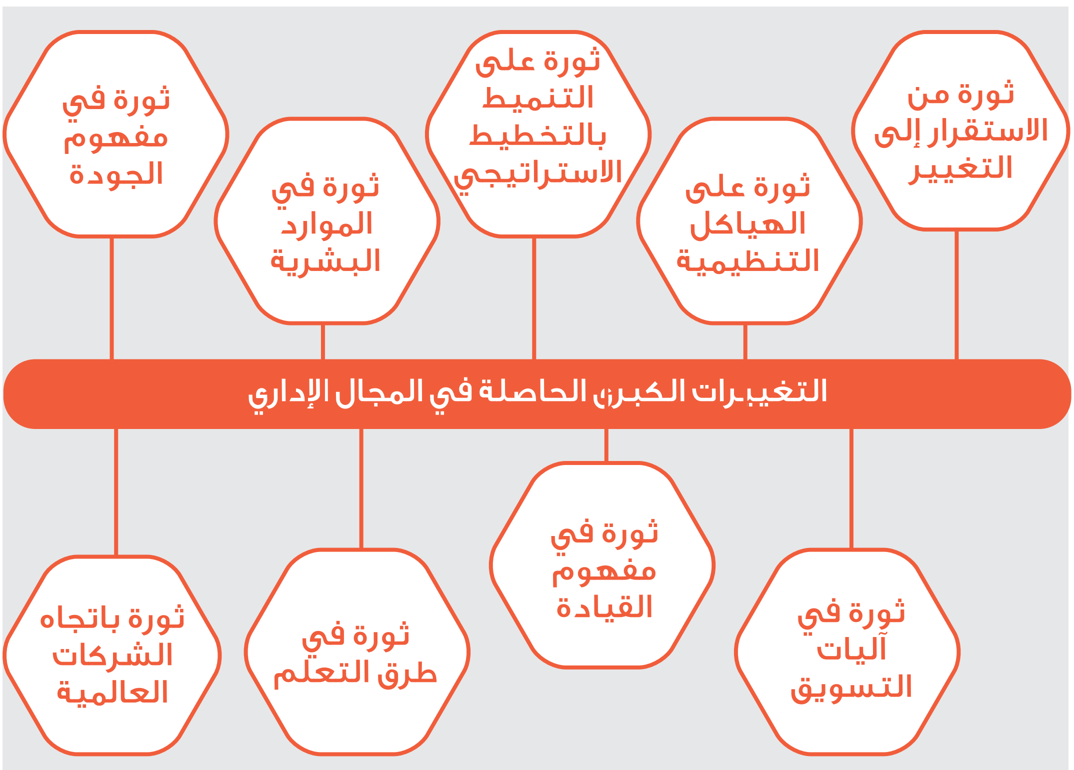
يلخِّص كتاب "Key management Ideas" أهم الأفكار الكبرى التي طُرِحت في الإدارة، والشخصيات التي طرحتها، وسياقها التاريخي الذي ولدت فيه.. وهو كتاب مهم جدا لدارس الإدارة ليطلع على السياقات التي ولدت فيها الأفكار بحيث لا يظل أسير فكرة واحدة، فيرى كيف تطورت الأفكار ولا زالت تتطور على مدى الزمن طالما أن هناك علماء وباحثين ومنُظِّرين.. وسنسوق في الفقرات القادمة بعض من الأمور التي تضمنها الكتاب والتي تخدم السياق العام الذي نتحدث عنه.

من أفكار الكتاب أن هناك تغييرات كبرى حدثت في الفكر الإداري في تسع مساحات أساسية سنتناولها بإيجاز..

أولاً– ثورة من الاستقرار إلى التغيّر:

إن أول قضية رئيسية شكلت تحولاً هاماً في علم الإدارة التغيرات الحياتية؛ حيث إن الشركات سابقاً كانت تبني أفكارها على أن التغيّرات تحدث ببطء شديد. ويتم التخطيط لها كالتخطيط للجيوش دون الاعتقاد أن هناك تغييرات سريعة يمكن أن تحدث في الحياة..

ومع دخول التسعينيات بدأت التغيرات تصبح ضخمة وسريعة، وخاصة من بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أن حجم الشعور بالأزمة لم يكن كبيراً، وبدأ يكبر شيئاً فشيئاً مع تغير التكنولوجيا المتطورة، فبدأت ترد فكرة أن الاستقرار الذي كان موجوداً من قبل هو استقرار وهمي، وأن الأصل في العالم هو التغيّر وليس الاستقرار، فلم تعد تستطيع المؤسسات والشركات أن ترى المشهد لأبعد من سنة أو سنتين، لكونه لا يلبث أن يخرج منتج جديد فيغير السوق بالكامل ويقلبه رأساً على عقب! فأصبح الانسان الذي يشتغل في مجال "البزنس| الأعمال دائم التوقع للمفاجآت والتي لا تحدث فقط بفعل التكنولوجيا، فهناك مفاجآت من نوع آخر مثل الأوبئة ككورونا على سبيل المثال.. ونظراً لكمية الانشغال الكبير في علم التغيّر ظهر علم كامل اسمه "Change Management" أي إدارة التغيير، ويحكم هذا العلم مسارات كبرى؛ فقد يطال التغيير الهياكل، أو نوعية العمل، وقد يكون تغيير البزنس وإلغاؤه بالكامل وتسريح أناس من أعمالهم.. فعمليات التغيير قد تحمل معها آلاماً كبيرة، ولكن إذا ما عجزت الشركات القيام بعمليات التغيير الضرورية فإن مصيرها الخسارة، وذلك كما حدث مع كثير من الشركات التي كنا قد أسلفنا ذكرها (فورد، نوكيا..).



ثانياً- ثورة على الهياكل التنظيمية الهرمية "Matrix Organization":

> إن التغير أصبح حاكماً في العالم، والقادرون على مواكبته بشكل سريع يحققون تقدما كبيرا على الآخرين الذين ما زالوا عالقين في فكرة الهرم التحكمي التاريخي الذي كان سائداً.

تَبِعَ الثورةَ الكبرى الناتجة عن التغيرات الحاصلة في العالم ثورةٌ ثانية متعلقة بالهياكل التنظيمية؛ أي بأشكال التنظيم، فتاريخياً كان الشكل الهرمي هو سيد الموقف كمثال الجيوش التي يعلو الهرم فيها قائدٌ عسكريٌ وتحته قادة أصغر منه، وهؤلاء بدورهم تحتهم قادة أصغر إلى أن نصل إلى الجنود الذين ليس لهم حيلة في المشروع، فدائماً كانت هناك فكرة الهرم، ومع تعقد الحياة الاقتصادية وحدوث الثورة الصناعية بدأ العمل ينقسم، ويزداد بانقسامه الهرم ابتعاداً عن القاع، فبات من يتخذ القرار بعيداً جداً عن ما ينفذه وعن ما يجري لدى الموظفين والعمال.. ومع تغيّرات العصر بدأت فكرة الزمن تلعب دوراً كبيراً أيضاً؛ حيث إن القرار إذا لم يتخذ في وقته الصحيح واستغرق وصوله للإدارة العليا ونزوله لأسفل الهرم وقتاً طويلاً فقد تكون الفرصة التجارية قد ضاعت ولن يساوي حينها شيئاً، فبدأت فكرة ضغط العمل؛ من خلال شل الإدارات الوسيطة، ومحاولة تقريب القمة من القاعدة، فأوجدوا التنظيم المسطح (Flat organization)، ثم أوجدوا فكرة تجميع فريق عمل واحد في مكان واحد، من تخصصات مختلفة، لإدارة مشروع محدد في المؤسسة؛ كأن يحضر محاسب من قسم المحاسبة، ومهندس من قسم الهندسة، وإداري من الإدارة، وشخص فني من جهة فنية، ومسوِّق من قسم التسويق، ومن ثم يكوَّن منهم فريقاً لإدارة المشروع في زمن محدد، فبدأ يظهر شكل ثانٍ من أشكال الإدارة، وهي الإدارة التي يكون أفرادها ليسوا من داخلها، إنما مستعارون من أجزاء أخرى من المنظمة ولديهم عقلين؛ عقل الجزء الأساسي الذي جاؤوا منه، والعقل الجديد الذي سيشتغلون به في إدارة المشروع. والتطور لم يتوقف عند ذلك، فمع تطور العصر وظهور الاتصالات وتواجد أشخاص ذوي خبرات في مناطق مختلفة ظهرت فكرة الأشخاص الذين يعملون من مكانهم "Freelancers" لحسابهم الخاص، وبدأت تتكون منظمات ظرفية؛ كأن يوجد صاحب العمل شركته في أي مكان بالعالم ويستقطب الفنيين المتخصصين من شتى أنحاء العالم،

فتوضع خطة المشروع، وإدارة المشروع، والأرباح المتوقعة ويتقدم المشروع باسم الشركة، وبعد أن يتم تنفيذه في الواقع تنفض الشراكة ويتم البحث عن مشروع آخر.. إذاً أصبحت الشركات القائمة تستطيع أن تشتغل "Freelancers" في إدارة الفريق، فظهرت منظمة هلامية تعتمد على الذكاء المعرفي وتكوين مجموعات عمل سريعة لالتقاط الفرصة.. فحتى شكل المنظمة الهرمي بدأ ينهار لصالح التشكيلات الأخرى بفعل التقنية وتسارع التغيرات في العالم، فقد نجد مدير شركة في يومنا الحالي يشتغل من مطبخ بيته، ومكتبه هو حاسوبه النقال، وتتم جميع العلاقات من خلاله..

ثالثا- ثورة على فكرة التنميط بالتخطيط الاستراتيجي:

أما القضية الثالثة التي حدثت فيها ثورة كبرى هي فكرة الاستراتيجية، والاستراتيجية فكرة لطيفة مبنية على التحكم في المسار المستقبلي لمدى زمني طويل من خلال التخطيط، أي أننا نخطط من الآن لعشر سنوات قادمة ونحدد نوع المشاريع وكيف ستتحرك.. إلَّا أنه وفي داخل هذه الفكرة هناك فرضيتان أساسيتان كبيرتان غير مضمونتي الحضور:

- **الفرضية الأولى:** هي استمرارية استقرار الظروف في البيئة التي نخطط فيها؛ بحيث تبقى ظروف اليوم هي ذاتها بعد عشرة سنوات.
- **الفرضية الثانية:** معرفة تفاصيل "البزنس" الذي سنشتغل فيه بشكل دقيق..

وهاتان الفريضتان سمحتا بظهور ما يسمى التخطيط الاستراتيجي الذي ظهر في المؤسسات من بعد سنة 1945 تقريباً، حينما تم تسريح عدد كبير من الجنرالات الذين كانوا في الجيوش الأمريكية والبريطانية والفرنسية، وبعد تسريحهم تم توظيفهم كمدراء للشركات باعتبار أن أفضل المدراء هم الذين يمتلكون عقلية عسكرية، وذلك لأن العقلية آنذاك كانت تعتبر الشركات أشبه بجيوش صغيرة تحتاج لانضباط، وهؤلاء الجنرالات قد نقلوا معهم آلية التخطيط الاستراتيجي المعتمدة في الجيش، فالجيوش تحارب قوى معروفة، وحدوداً محددة، ولا يوجد تغيرات في العالم إلا في حال حدوث تغيّر في التسلح، وهذا عادة لا يحدث بشكل سريع.. إلا أن وضع الخطط الاستراتيجية في الشركات تختلف عن تلك التي في الجيوش، حيث لا يوجد استقرار، ولا تعرض لنا عوائق السوق كما تعرض في الجيوش.

في سنة 1965 وُلِدَ أول كتاب في التخطيط الاستراتيجي على يد عالم كبير في مجال الإدارة اسمه إيجر أنسوف "Igor Ansoff"، وسرعان ما أبهر كتابه الشركات والمؤسسات لأنه قام بوضع نظام يوضح كيف يمكن للشركات أن تفكر بنمط تخطيط استراتيجي، فوضع لها خطوة تعرف بها واقعها؛ من عناصر الضعف والقوة، والفرص والمخاطر الموجودة، ودراسة البيئة والإشكاليات، وتحديد مكان الشركة المستقبلي، وكيف تعبر مؤسسة ما من وضعها الحالي إلى الوضع المستقبلي.. طارت الشركات فرحاً بطروحات "أنسوف" لكونها أصبحت تستطيع أن تضمن مستقبلها عبر التخطيط الدقيق الذي ضمّنه في كتابه، وصرفت مئات الملايين في هذا الموضوع، إلا أنه وبعد مرور بضع سنوات تبين أن 96% من الشركات التي صرفت أموالها على التخطيط الاستراتيجي لم تنجح و4% من الشركات فقط استفادت، وهي نسبة عادية قد تحدث في جميع الأحوال! فطرح أنسوف من جديد كتاباً اسماه "الإدارة الاستراتيجية"، واعتبر أن الإدارة الاستراتيجية هي التفعيل الخاص بالوصفة الأولى، ولكن الشركات وبعد عدة سنوات من جمع كلا الوصفتين وتطبيقهما معاً لم تجد أيضاً النتائج المرضية، فطرح أنسوف فكرته عن البرمجة الاستراتيجية، وقامت الشركات بتطبيقها، فلم يكن أثر تطبيقها على الشركات بأفضل من السابق! فعندها قرر أنسوف التفكير والبحث ملياً.. وبعد عشر سنوات من العمل مع فريق كبير مكوّن من أكبر الجامعات العالمية خرجوا بفكرة أن المشكلة الرئيسية تكمن في الجاهزية الاستراتيجية، وأن المطلوب هو إجراء فحص للشركات الموجودة ليتضح مدى جاهزيتها وصلاحيتها لتحمل استراتيجية معينة،



فليست جميع الشركات تحتاج إلى التخطيط الاستراتيجي؛ لكون التغيّر هو طابع العصر، والتخطيط الاستراتيجي مبني على الاستقرار الطويل الأمد، وهذا يقودنا إلى قضية مهمة وهي أن التخطيط للشركات عبارة عن أداة من أربع أدوات كبرى في العمل الاستراتيجي، والإنسان يحتاج إلى أن يعرف أي نوع أو أي وصفة من الوصفات تنطبق على مؤسسته ليتمكن من اختيار نمط التخطيط المناسب لها.. فهناك عدة حالات يجب اعتبارها لإنزال الوصفة المناسبة عليها:

1. الحالة الأولى: التخطيط الاستراتيجي

يمكن أن يطبّق التخطيط الاستراتيجي حينما تتواجد الفرضيتان اللتان تحدثنا عنهما؛ المعرفة في العمل والاستقرار في البيئة، فيصلح معها التخطيط الاستراتيجي.. وهذه الحالة نجدها غالبة في الجيوش، فالجيوش كما أسلفنا تعتمد على التنظيم الميكانيكي الذي لا يناقش، والتغييرات التي تحدث فيها طفيفة وليست بنيوية، أي أن التخطيط الاستراتيجي يحتملها بهامش التغييرات الصغير لديه..

2. الحالة الثانية: منحنى التعلم الاستراتيجي:

وهي الحالة التي يعمل فيها المستثمر في سوق مستقرة ويسمح بالتخطيط طويل الأمد، إلا أن معرفته بالبزنس تكون قليلة، فحينما يدخل ذاك المستثمر سوق العقار على سبيل المثال سيجده مستقراً بدرجة كبيرة، حيث إن الناس تفضل استثمار أموالها فيه لذلك السبب، وسيجد أمامه خيارات متعددة؛ فإما أن يأخذ أراضٍ كبيرة ويقوم بإعمارها ثم يبيعها، وإما أن يبني عمارات وشقق ويقوم بتأجيرها، وإما أن يعتمد على عمليات الإقراض.. وبما أنه لا يعرف السوق العقاري فسيمر بنوع من التخطيط يسمونه "منحنى التعلم الاستراتيجي"؛ أي إنه يدخل في مجال يعرف أنه سيتعلم فيه بمساحة معينة، وإن لم تنجح معه خلال فترة ستة أشهر أو سنة فسينتقل لمحاولات أخرى.. ومن خلال تجربته لمسار أو مسارين أو ثلاثة سيكتشف أي مسار أكثر ربحية ليضع قدميه عنده.

إذاً ليس كل شيء ينفع في التخطيط الاستراتيجي، فأحياناً نضطر إلى أن ندخل بما يسمى التخطيط في منحنى التعلم.

3. الحالة الثالثة: التخطيط بالرؤية

في الحالة الثالثة تكون السوق غير مستقرة إلا أن الخائض فيها لديه معرفة عالية بالمجال.. فلنفترض على سبيل المثال أن هناك تقنياً مهتماً فيما يخص الهواتف وعارفاً جيداً في السوق، إلا أن طبيعة سوق الهواتف متغيرة جداً وكل ستة أشهر يظهر موديل جديد.. وبالتالي لو خزّنت الهواتف بكميات كبيرة لمدة عشر سنوات ستذهب المخزونات كلها هدراً، فبأمثال تلك الحالة يطبق التخطيط بالرؤية، أي تكون الرؤية بعيدة المدى ولكن التخطيط يكون قصير المدى، فالتخطيط الطويل المدى يكون لنمو الشركة وتطويرها، والتخطيط القصير المدى يكون لِما سيُشتَرى ويُباع في السوق.

4. الحالة الرابعة: العمل بالحدس:

أحياناً تكون المعادلة أن العمل يبدأ من منطقة تجارة غير معروفة و في سوق غير مستقر فيسير على الحدس.. وهذا حال معظم "البزنس" التاريخي عند الناس؛ حيث إنهم يشتغلون بما يسمى بنظرية الحدس، فغالباً عندما تسأل أحد التجار عن كيفية البدء بتجارته سيتحدث عن رأس مال استثمره في مكان ما فربح، ثم اتجه لاستثمارات أخرى نجح الكثير منها بشكل حدسي إلى أن كوّن ثروته.

فإذاً لدينا أربعة مسارات كبرى للتخطيط تعتمد على مدى استقرار السوق وعلى المعرفة بالعمل، ولا تعتمد على مجال واحد كما يتم الحديث عادةً عن التخطيط الاستراتيجي.. فلو سمعنا شخصاً يتحدث عن خطة استراتيجية على أساس تطوري لمدة ثلاثين عام فهذا جيد كتدريب عقلي، ولكن في الواقع العملي هذا أشبه بالاستحالة لأنه مبني على افتراض بأن العناصر لن تتغير وهو افتراض باطل، فالتخطيط الاستراتيجي له عناصر معينة تقود إليه وبالتالي نحتاج أن نميز جيداً بين هذه المساحات.

لم يعد التخطيط الاستراتيجي الحل الدائم للشركات والمؤسسات، فاختيار التخطيط المناسب يعتمد على نوعية العمل إن كان يحتاج لتخطيط استراتيجي، أو إلى تخطيط بمنحنى التعلم، أو التخطيط بالرؤية، أو بالحدس.

رابعاً: ثورة في الموارد البشرية:

من الأشياء التي تغيرت بشكل جوهري في الإدارة التعامل مع الموارد البشرية، فحينما ظهرت فكرة الموارد البشرية بدأت كفكرة بسيطة جداً، فكان العامل قديماً يُعتبَر أرخص شيء في داخل المصانع والشركات، لكون الأيدي العاملة كثيرة، فكلما احتاج صاحب المصنع لأيدٍ عاملة كان يعلن فيأتي الناس أفواجاً فيسترخصهم، وبالتالي كان العامل يُعطَى ألفاظاً وأسماء لا تليق بمكانته كإنسان وكشريك في إنتاج الثروة.. تغيرت لغة الكلام عن العامل، وبدأت تظهر فكرة تعليم الموظفين وتطويرهم والعناية بهم، وطريقة إدارتهم أيضاً، فتولدت فكرة الموارد البشرية "Human Resources" ، وفكرة الأصول العقلية "Intellectual Assent" التي توجد داخل المنظمة، فأصبحت المؤسسات تعتمد اعتماداً كلياً على كفاءة وقدرة وتفاعل الموظفين الموجودين فيها، وأصبحت فكرة "Headhunting" أي البحث عن الكفاءات ورصد العناصر المميزة في العالم، كما أن المحافظة على العمال والحرص على عدم انتقالهم لمؤسسات جديدة أصبحت عملية مهمة، فتغيّر أساس النظرة إليهم من كونهم عمالة رخيصة يؤتى بها اليوم وتُغيَّر غداً إلى كونهم ثروة المؤسسة الأساسية التي يراد الحفاظ عليها.

خامساً: ثورة في مفهوم الجودة:

وأيضا حدثت ثورة في التعامل مع الجودة.. فبعد أن كانت النظرة الفاحصة لجودة المنتج قاصرة على الشكل الأخير، بحيث إنه يأتي مشرف الجودة لفحص المنتج في مرحلته الأخيرة، أصبح هناك حالة تنافسية كبيرة على قضية الجودة والإشادة بالجودة إلى أن وصلنا لفكرة "Total Quality Managment" أي إن الجودة تبدأ من أول عملية من عمليات الإنتاج لترتبط بكامل السلسلة من بداية الإنتاج إلى نهايته (الإدارة الشاملة للجودة).. وهذه الأفكار التي برزت في قضية الجودة ستؤثر في فضاء الإدارة بشكل قوي، فمنها برزت أفكار كبيرة كالآيزو (ISO) وشهادات التميز في الجودة.. وأيضاً لم تعد الجودة مرتبطة بتوقعات المصنِّع، إنما أصبحت مرتبطة بشكل أساسي بتوقّعات الزبون ومدى رضاه عنها، وهذا كله نشأ عنه "بزنس" مهم وأصبح له عالمه الكبير..

سادساً: ثورة في آليات التسويق:

من أكبر الثورات التي حدثت في الإدارة ثورة التسويق.. وكانت فكرة التسويق الرئيسية سابقاً هي أن تنتج الشركات والمعامل الأشياء التي يحتاجها الناس، فإذا التقطت الجهات التجارية حاجات الناس بشكل جيد فسيقصدها الناس للشراء.. أما في الوقت الحالي أصبح العصر يقول لك إنه بالإمكان بيع أي شيء في السوق بأعلى سعر إذا استطعنا تسويقه بطريقة جيدة؛ أي إننا يمكن أن نخلق الحاجة عند الجمهور ثم ننتج ما يناسبها، بحيث نبحث في الأعماق الدفينة لنفسية الجمهور ونكتشف الطرق التي نحتاجها لبيع المنتجات! وهي فكرة نحتاج الوقوف عندها لكونها فكرة أساسية في العصر الرأسمالي وهي فكرة (خلق الاحتياجات) أو البحث عن الاحتياجات الدفينة الغائرة في نفس الإنسان الداخلية.. فمن كان يصدّق أن البنطال الممزق القديم سيصبح أغلى سعراً من البنطال النظيف المرتب! كيف استطاعوا عبر التسويق أن يقنعوا الشاب والفتاة أن يلبسوا بنطالاً ممزق الركبتين والأفخاذ وشكله قديم وكأنما سيارة قد داست عليه عشرات المرات؟! وكيف خلقت الصورة النفسية التي تجعل الإنسان يتجه من باب المحل مباشرة إلى تموضع البناطيل الممزقة؟ في تلك المسألة يلعب علم النفس دوراً هاماً جداً في عمليات الربط غير المنظور، والبحث عن ثغرات النفس لدى الفئات المستهدفة؛ فمثلاً البنطال الممزق ربما يسد احتياجات الرجولة لدى الشباب لكونه قد يحمل في شكله الممزق سمات الرجل الخشن، فإذا ما أُلبِسَ لشاب جميل لديه عضلات وجسم جميل، ويقف بجانب سيارة فراري وبجانبه حسناء في غاية الجمال.. فهذا من شأنه أن يسد احتياجات الرجولة التي يطلبها الشباب.. وإن هذا الأمر أصبح فناً ضخماً يبيع الوهم للناس ويخلق في أذهانهم الاحتياجات.. وأيضاً الأمر ذاته في مثال التسويق للأجهزة الرياضية، حيث إننا قد نجد إنساناً لديه في بيته جميع أشكال الأدوات الرياضية، ومع ذلك لا يزال سميناً ولم ينقص وزنه كيلو واحد بسببها! وهنا السؤال كيف استطاعوا بيع جميع هذه الأجهزة؟ إن الجهاز الرياضي حينما يسوّق تصاحبه فكرة بساطة الاستخدام، وفكرة فاعلية النتائج، وقصر الزمن التي ستحدث فيه، فالصورة المصاحبة له أن شخصاً كان سميناً وفجأة خسر وزنه، وفتاة كانت سمينة وأصبح لها جسم رشيق، وكل ذلك حدث بمجرد تركيبه لهذه الدراجة والمشي عليها وعلى الآلات الرياضية الأخرى دون أي تغيير في

المجال الغذائي أو غيره.. وبهذا الشكل يمكن أن يباع الوهم إلى الناس، فالتسويق أصبح لا يبيع لنا ما نحتاجه، ولكنه يخلق عندنا احتياجات وهمية ويبيع لنا من خلال هذه النافذة كل ما يريد.. فهي ثورة ضخمة في مجال التسويق قلبته رأساً على عقب، وجعلته يلعب بعقول الناس، فقطعة قماش لا تساوي شيئاً يُطبع عليها شكل صغير وماركة معينة تباع بعشرة أضعاف مثيلاتها فقط لوجود هذه الماركة عليها! وهي عملية لا تعني شيئاً أكثر من غيرها سوى أن صاحبها يشعر بأنه أكثر غنى من الآخرين.. وإن ثورة التسويق كغيرها من الثورات لها روادها الذين ألَّفوا عنها كثير من الكتب والنظريات..

سابعاً: ثورة في مفهوم القيادة (التفكير الاستراتيجي والمهارات):

بعد أن كانت القيادة متعلقة بالمدير الذي تكمن وظيفته بتسيير المؤسسة، أصبحت متعلقة بالرؤية والأهداف، وكيف للمدير أن (يفكّر استراتيجياً)، وننوه هنا إلى أن التفكير الاستراتيجي مختلف عن التخطيط الاستراتيجي، فقدرة المدير على التفكير الاستراتيجي تعني أن لديه القدرة على التفكير الاستباقي والخطوات الاستباقية، ومشاهدة التغييرات بشكل جيد، وإلى أين ستتجه رياح الأرباح في العالم، ونحو ذلك.. سواء استخدم آلية التخطيط الاستراتيجي، أو آلية الحدس، أو آلية التعلم، أو التخطيط بالرؤية .. وذلك بحسب المناسب لمؤسسته. وعلى أن فكرة القيادة هي فكرة حقيقية نتجت عن ثورات في الإدارة، إلا إنها أصبحت في يومنا مجالاً للبيع بشكل مختل، فبدأ البيع التسويقي بأمثال جملة (كيف تصبح قائداً في بضعة أيام)، وأصبح من الممكن إقناع إنسان ما بأنه سيصبح قائداً كبيراً بمجرد حضوره لدورة معينة والدخول فيها، فقلما تطرح حقيقة أن هذه الدورات قد تدعم قدرات وتطور مهارات لدى الإنسان تمكّنه إذا ما كانت لديه القابلية أن يصبح قائداً ناجحاً..

فمجال القيادة لدينا فيه خلل نابع من أن التنمية البشرية جعلت فكرة القيادة مرتبطة بمجال واحد وهو إدارة "البزنس"؛ فشاع الظن السائد بأنه إذا أحضرت شخصاً وأدخلته دورة في التخطيط الاستراتيجي، وفي كتابة مخططات البزنس، وزودته بمهارة العلاقات مع الناس والذكاء العاطفي فأكون قد أعددته لأن يكون قيادياً ناجحاً في الحياة، حتى ولو كان لا يمتلك أي من المؤهلات التي تمكنه من ذلك!.. فإن هذا النمط منتشر بشكل واسع، وهو أزمة

كبيرة لثلة من الناس في أساس شخصيتها حيث لا تمتلك مؤهلات القيادة ولكنها تبرع في مجالات أخرى..

ثم إن مجال القيادة في مجتمعاتنا لم يعد يفرّق بين إعداد إنسان ليكون فاعلاً ثقافياً في المجتمع، وبين أن يكون صاحب شركة، وبين أن يكون إنساناً جيداً في الكشافة.. فأصبحنا حينما نتحدث عن برنامج قيادي فالغالب عليه هو إعداد في المجال الإداري.. بينما نحن نعيش في مجتمعات شكواها الأساسية أنها تحتاج لمثقفين اجتماعيين عندهم القدرة على الوعي بعصرهم وزمانهم ومكانهم الذي يعيشون فيه، فتنتج هذه الدورات شخصاً كل معرفته عن الأفكار المتعلقة بالبزنس، حتى إن معرفته عنها قد تكون مشوهة في كثير من الأحيان! فنحتاج إلى أن نفهم في موضوع القيادة أنه قد حدثت فيه تغيرات ضخمة، إلا أن ما نقوم به نحن هو وجه واحد من هذه الأوجه؛ وهو بيع بعض المهارات المتعلقة بالإدارة ربما لكونها الأسهل بيعاً من بقية الأشياء التي من شأنها أن تغير تفكير الناس وتصوراتهم.



ثامناً: ثورة في طرق التعلّم:

في مجال التعلّم أيضاً قد حدثت ثورة كبرى فبعد أن كانت طرق التعلم الكلاسيكية هي الطرق السائدة، أصبح بإمكان الإنسان من خلال التعلّم عن بعد أن يحصل على أفضل شهادات في أفضل المهارات.. وأيضاً تغير مفهوم المؤهل العلمي لكثير من الشركات الحقيقية في العالم، فالموظف المطلوب اليوم هو القادر على حل المعضلات بأقصر وقت وبأنسب طريقة؛ بحيث إنهم سيعطون للمتقدم إلى الوظيفة معضلة حقيقية ليحلها، فإذا استطاع حلها فهذا يعني أنه كفء ليأخذ الوظيفة بغض النظر عن الجهة التي حصّل منها شهاداته.. فيتجه التغيير في طرق التعلّم إلى تحجيم الجانب النظري الصرف مقابل التوسّع بالاهتمام بالجانب العملي الذي يتعلق بحل إشكاليات الواقع بشكل فعال.

تاسعاً: ثورة نحو الشركات العالمية

آخر القضايا الإدارية التي حدثت مع العولمة وانفتاح العالم على نفسه جغرافياً هي الشركات الضخمة، فأصبح هناك شركات عالمية تختزن رؤوس أموال ضخمة، بحيث إنها قد تمتلك عوائد أكبر من ميزانيات الدول، والسبب في ذلك أن الشركات لم تعد محصورة في السوق المحلية، فلم تعد فكرة "هنا وهناك" إنما أصبحت "ما هو هنا هو هناك، وما هو هناك هو هنا".. فهذا التغير الضخم في مجال الإدارة أيضاً أُلِّفَت فيه كتابات هامة.

إن الثورات الكبرى الحادثة في الإدارة كان لها سياقٌ عالمي، وقد حدثت في بيئات تنافسية يتم البحث فيها عن أفضل وسائل في كل مجال من هذه المجالات.. فهي تسير بمسار تطويري، وبالتالي ما نسمعه اليوم من أفكار وصرعات موجودة في الإدارة جميعها متعلقة بهذه الثورة العالمية التي غيرت شكل العالم..

ولكن علاقتنا الإدارية بهذه الأحداث والأفكار علاقة سطحية جداً، بمعنى إننا نأخذ قشور الأشياء دون أن نفكر في السياق الذي ولدت فيه، ومدى احتياجات شركاتنا أو مؤسساتنا منها! فمثلاً بعض الحكومات تخصص ميزانيات لتدريب الموظفين على الدورات الإدارية، والدورات الإدارية مصممة بالأساس لأناس يشتغلون في القطاع الخاص أو في القطاع الحكومي التنافسي؛ بمعنى أنه يحسب الصرف على كل موظف بالعائد الذي سيعود به عندما يعود

إلى شركته، فهو ليس تدريباً مقابل لا شيء، ولكن الموظف الذي يعيش في مؤسسة حكومية غير تنافسية ويعرف أنه سيحصل على راتبه سواء عمل أم لم يعمل فماذا يمكن أن يفعل بهذه الدورات؟! فهو يعرف ضمناً أنه لن يسمح له بممارسة ما تعلمه في مجاله! فأصبح الهدر ضخماً في مجالات كثيرة!

وكثيرا ما يأتي شخص قد حضر عشرات الدورات بما يخدم التخطيط الاستراتيجي، وحينما نسأله سؤالاً بسيطاً (كيف تعرّف الرؤية؟ ما الفرق بين الرؤية والرسالة؟) فلا يستطيع الإجابة! فالعائد من هذه الدورات في الغالب هو عائد قليل.

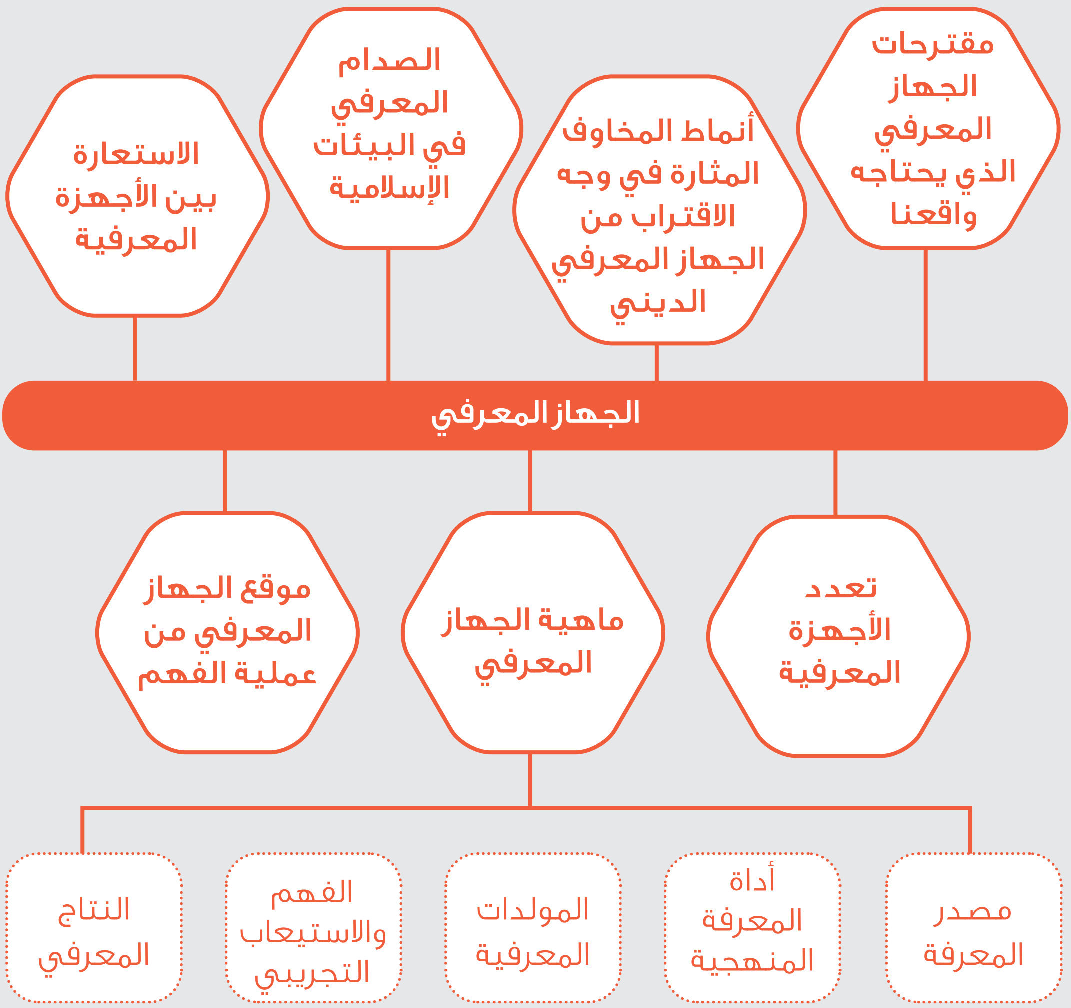
فمعظم ما يحدث اليوم أننا ننتج مستهلكين أي أناس يصبحون أسرى الصرعات أو الأفكار التي يُرَوَّج لها، ثم لا يدرون لماذا اختفت أموالهم التي صرفوها على هذا المجال الذي كان يُعتقد بأنه هو نهاية المطاف!.

الجهاز المعرفي



بوصولنا إلى موضوع "الجهاز المعرفي" نكون قد اقتربنا من نهاية البرنامج التأسيسي، الذي كان الغرض منه إثراء الخارطة العقلية وإعادة ترتيبها، بحيث يكون باستطاعة الإنسان استحضار معارفه العقلية، وتوظيفها في الحياة بالشكل الأفضل.

وسنستعرض في هذا المبحث موضوع الجهاز المعرفي أو القناة المعرفية التي نعتمدها في إنتاج المعرفة وفق العناوين التالية:



أولاً- موقع الجهاز المعرفي من عملية الفهم

الصورة التي أمامنا تفصّل بطريقة ما اكتساب الإنسان لمعارفه ومفاهيمه:



- إقبال عقل الإنسان على المعرفة، سواء المعرفة المنظمة، أو المعرفة التي يحتاجها الإنسان العادي في حياته، التي يكوِّن بها أفكاره وتصوراته عن العالم الخارجي.
- بمقابل العقل هناك المصدر الذي سيكتسب منه الإنسان معرفته، سواء كان هذا المصدر الكون، أو النص... فإن غالب معارفنا التي نكتسبها في الحياة ناتجة عن القراءة في هذين المصدرين، فإن فهم الواقع الخارجي محل دراسة؛ من الطبيعة والسنن ونحوه.. وأيضاً النص محل دراسة لنا، فثقافة بيئاتنا تتمركز حول النص الذي يشغل جزءاً كبيراً من فضاء المعرفة لدينا.
- بين عقل الإنسان وبين مصدر المعرفة يوجد قناة يتلقّى من خلالها الإنسان معارفه، وهي ما نسميه (الجهاز المعرفي)، وهو بمثابة المنظار الذي ينفتح به الإنسان على الكون.
- وعن هذه الأمور الثلاثة ينتج فهم الإنسان، الذي يتنوع من شخص لآخر، ومن مجتمع لآخر بناء على تنوع الأجهزة المعرفية.

وفي سبيل التوضيح نأخذ مثالاً عن شخصين، الأول يعمل في "ناسا"، والثاني من سكان الأمازون يعيش فيها معزولاً عن العالم وقد ورث جميع معارفه من قبيلته التي تحيط به، وهذه

القبائل "أرواحية"؛ تعتقد أن كل شيء في الكون فيه روح، وأن الأرواح تتناسخ، فهو يعتقد أن أسلافه جميعهم لا زالوا موجودين في داخل الأشجار أو النباتات أو الحيوانات أو الطيور، فكل من يموت سيدخل في جسم من أجسام هذه الكائنات الموجودة، والشخصية الدينية الموجودة لديهم، ستقوم بتأويل الأشياء من حولهم، وستفسر لهم أي شيء غريب، فكل شخص في القرية لديه جهاز معرفي ينظر من خلاله إلى العالم الخارجي، ويفسر العالم في ضوءه، فمهما كان جهاز هذا الإنسان بدائياً يمكن له أن يرى العالم، ولكن نتاجه بالفهم سيختلف تماماً عن نتاج الشخص الأول بما يدخل عليه من معارف وأحداث وحقائق علمية كبيرة، وإن كلا الشخصين أيضاً ستكون نظرتهم مختلفة عن فتاة عاشت في الصعيد المصري، أو شاب ولد وكبر في كوريا الشمالية، فكل واحد من هؤلاء الناس قد شكلت له بيئته نظرة للعالم يطل من خلالها عليه.

ويحكي الدكتور جاسم مثالاً يوضح ذلك لإحدى الحالات المرضية التي واجهتهم كأطباء، حيث إن إحدى السيدات كان ينقلب صوتها لصوت رجل عند الكلام، فيقول الدكتور جاسم: كان التشخيص الأول الذي راود عقولنا أنها حالة جن وعفاريت، وهذا على الرغم من أننا ندرس الطب والعلوم المادية المبنية على الحسابات الدقيقة، ولكن بحكم أن جهازنا المعرفي الذي هو أقدم من الجهاز الذي اكتسبناه بعد دراسة الطب كان ينظر لهذه الأشياء على أنها جن وعفاريت فجميعنا فسّر الموضوع على هذه الشاكلة ابتداء!

> نحن لا ننظر للعالم كما هو بتجرّد تام، بل نستقبله من خلال قناة معرفية، تكوّنت من البيئة من حولنا وتلاحقنا دائماً في كافة قراءاتنا، إلى أن نكتسب قنوات أخرى.

وحينما وصل العلم لفكرة أن الإنسان يقرأ العالم ويشكِّل معارفه من خلال قناة يكتسبها من البيئة بدأت المخاوف حول كيفية تجنيب الإنسان لتأثير بيئته، أو عن حلول للتخلص من هذه القناة التي تؤثر أو تُخلّ بفهم الإنسان للعالم، ولكن ما تم التوصل إليه بأن هذه القناة لا يمكن التخلص منها، ليتّجه السؤال نحو جودة هذه القناة، ومدى قابليتها للتدقيق من قبل جهات خارجية، أو إمكانية وضع معايير مشتركة تنقّح من خلالها وتعاير القنوات بين البشر على اختلاف بيئاتهم وتنوّعها.

وقد تم التوصل إلى أن هناك أجهزة معرفية يمكن لها أن تُضْبَط بمعايير مشتركة بين البشر جميعاً، وذلك على نحو المعايير التي يُضبَط بها بحث جامعي، أو مقال يجاز لكونه استوفى معايير علمية محددة في العلوم الإنسانية، أو على نحو تجربة معملية في العلوم المادية إذا أجريناها في الواقع ستعطينا نتائج مشابهة.

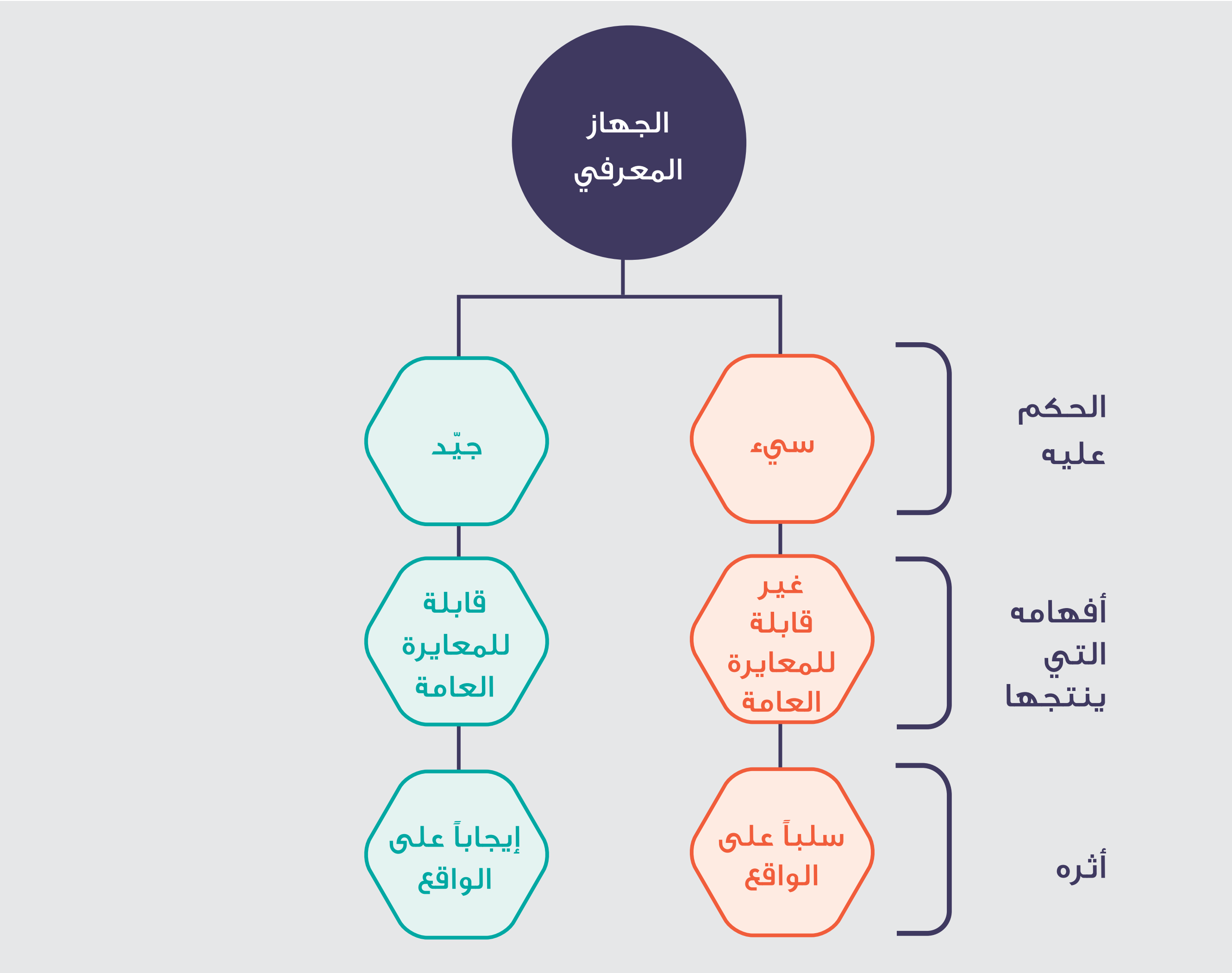
إننا حينما نطلع على موضوع ما سنطلع عليه من خلال الجهاز المعرفي، وإن دقة المنتج الذي نأخذه وجودته تأتي من المعايير التي يحتكم إليها هذا الجهاز؛ سواء كانت معايير ضيقة خاصة لا تُقنع إلا فئات معينة، أم معايير كونية عامة يتقبلها الناس على اعتبار أنها تشكل وحدة بينهم، فالمعايير المضبوطة التي يمكن لها أن تُعمَّم هي المعايير التي إن كررت تجاربها من قبل أشخاص مختلفين استطاعوا الوصول إلى النتائج نفسها، أما إذا تضاربت الفهوم مع أجهزة أخرى فهذا يعني أننا لن نستطيع أن نحسم شيئاً في اتجاه محدد، أو بعبارة أخرى: هنالك مشكلة في معايير هذا الجهاز.

إن جودة الجهاز المعرفي ستنعكس على مخرجاته؛ فإن كان جهازاً سيئاً سينعكس سلباً على الفهم الناتج عنه، وإن كان جيداً سينعكس إيجاباً، وإننا من هذا الفهم الناتج عن الجهاز المعرفي سنصنع واقعنا الخارجي سواء في الاقتصاد أو الاجتماع أو الفلسفة أو التاريخ أو الصناعة أو التجارة..

> كلما كانت الأمة أصوب في جهازها المعرفي كلما كانت قراراتها وأحوالها أصوب من غيرها، فكل عطب في الجهاز المعرفي للأمة سينعكس مباشرة على الواقع الخارجي لها.

وبالتالي إن الأهمية الأولية لأي أمة لديها أزمة، أو حالها أدنى من بقية الأمم، أن تنظر في جهازها المعرفي لتعرف ما هي مشكلته.

والمفارقة أن كثيراً من هذه الأمم تعتقد أن جهازها المعرفي ثابت، وعلى الأمم الأخرى أن تستجيب للطريقة التي تفكر بها! وهذا ما لا يحدث في الواقع، فما يحدث هو أنّ الواقع الخارجي يسير في طريقه ويترك هذه الأمة منفردة بأفكارها وتصوراتها، وكلما تقدَّم الزمن ابتعد العالم خطوة إلى الأمام عن الواقع الذي تعيشه هذه الأمة!



ثانياً- ماهية الجهاز المعرفي

إن ثقافة أي شخص في عصرنا لن تكتمل دون أن يمر على مشكلة اسمها "أزمة الجهاز المعرفي"، وأزمة الجهاز المعرفي نلحظها مع مرور كل يوم، وفي كل لحظة وثانية من ثواني حياتنا.. فيكفي أن نفتح مواقع التواصل الاجتماعي لنعرف الأزمات المتوالية الموجودة نتيجة الخلل في جهازنا المعرفي.. فباستمرار لدينا صراع كبير جداً بين رؤيتنا (للدين) وبين رؤيتنا (للحياة المعاصرة)، فهذان المركبان يبدو وكأنهما لا يلتقيان وليس بينهما اتساق، فتبدو مشكلة كبيرة بين هذا الفضاء وذاك..

وكمثال بسيط على هذا الصراع: تحديد بداية شهر رمضان المبارك.. فاليوم وعلى الرغم من وجود التلسكوب، ووجود الحساب الدقيق لميلاد القمر، إلا أنه لا زال لدينا في كل سنة أزمة كبيرة في تحديد دخول شهر رمضان والعيد.. فندخل في لغط كبير إن كانت الرؤية العينية هي التي ستحسم المسار، أم الفلك بدقته هو الذي سيحسمه! وتطفو محاولات التوفيق بين الاثنين، ويعاد تكرار القضية ذاتها في كل عام.. وتتكرر المسألة وكأننا ندور في حلقة مفرغة؟! فمع أن العلم المعاصر حسم موضوع ميلاد القمر حسماً نهائياً بحيث أصبح بإمكان العلماء تحديد موعد ميلاد القمر، ومن أي مكان، وفي أي زمان، وفي أي منطقة من العالم يمكن مشاهدته، وفي أي ظروف جوية، وفي أي درجة نمو نريد أن نراه.. فعلى الرغم من كل ذلك لا نستطيع أن نحسم هذه المسألة لصالح العلم!

هنا تظهر أزمة الجهاز المعرفي بين فكرة القمر الديني، والقمر العلمي الموجود في الأرض، وهي تمثل عمق الأزمة؛ فنحن أمام تأويل علمي وتأويل ديني وبينهما تناقض غالب! حتى أن مدرسة المقاصد الشرعية التي ترى أن المقصد هو معرفة القمر، وعلى الرغم من وجودها منذ زمن الشاطبي، لم تستطع حل اللغز والانتصار في هذه المعركة.. وبين ثلاثية القمر الديني والقمر العلمي وأزمة الأطروحات التي تحاول إيجاد حل عبر مدرسة المقاصد، نستطيع أن نكتشف أزمات كثيرة تدور في الدائرة ذاتها، ولا نستطيع أن نحسمها، فنظل ندور فيها إلى يوم القيامة، وكأنها تولد من جديد في كل مرة من المرات مع ورود الحدث ذاته، وعلى الرغم من أننا نعرف شكل الإجابات التي ستكون عليها، إلا أننا نعيد تكرار ذات الظاهرة وذات النقاشات!

وأزمة الجهاز المعرفي أزمة كبيرة تطال القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والظواهر العلمية وحياة الأفراد الخاصة والعامة وقضايا الدولة المعاصرة والسياسة الدولية.. فجميعها تصطدم باستمرار بالعائق ذاته؛ وهو أن الجهاز المعرفي فيه مشكلة لم نستطع أن نقوم بحلها، وكذلك لم تستطع الحلول الوسيطة؛ كمدرسة المقاصد، ومدرسة الضرورات، ومدرسة فقه النوازل، وفقه الأولويات، وفقه الموازنات.. القيام بذلك.

فجميع تلك المدارس لم تستطع أن تحل الصراع وتحوله إلى شيء مفهوم في أذهان الناس، فما زالت هذه البنى لا تستجيب للتحولات وللمطالب الأساسية الموجودة في العالم، مما أحدث فجوة كبيرة بين الاحتياجات المعاصرة، وبين الأفكار الأساسية التأسيسية، لتزداد اتساعاً مع تطور التقنية والتكنولوجيا وتقدم العلوم..

فإذاً من الأشياء المهمة جداً التي نريد أن نعرفها أزمة الجهاز المعرفي، ونحن لا ندعي أننا نملك الحل له، ولكن على اعتبار أنه من المهم جداً أن تُشَخَّص المشكلة ابتداء لنعرف ما الذي يقف أمامنا وما الذي نريد حله، فإن تشخيص السؤال بطريقة جيدة لا يقل أهمية عن إيجاد الإجابة المناسبة.. وربما تكون الإجابات موجودة ولكننا مُعْرِضين عنها، أو أن قطاع من الناس لا يدرك أنها موجودة.

مكونات الجهاز المعرفي



ولشرح ماهية الجهاز المعرفي بشكل دقيق لدى المجتمعات والأمم، سنستعين بنظرة الغرب للجهاز المعرفي كنموذج، وإن الجهاز المعرفي السائد اليوم في الغرب ينظر له من خمس زوايا رئيسية، وإن هذه الزوايا هي بذاتها المكونات الأساسية لأي جهاز معرفي في العالم:

1 مصدر المعرفة

وهو المنبع الذي نستقي منه المعرفة كالنص والعقل والواقع والإلهام الغيبي.. فمثلاً في المعرفة الدينية قد يشترك العقل والإلهام كمصدر، ولكن يبقى النص حاضراً بالدرجة الأكبر.

2 أداة المعرفة المنهجية

هي الآلة التي يتم بها إنتاج المعرفة، أو المنهج الذي يُتَوَصّل من خلاله للمعرفة؛ كاللغة، أو المنطق، أو الاستقراء الواقعي، أو النصي.

3 مولّد المعرفة

هو ما يمكنه تفسير أكبر قدر ممكن من القضايا العائدة للجهاز، فمثلاً الظاهر العربي للنص في عصر التنزيل يفسر أكبر قدر من مخرجات الجهاز البياني وهو أساس له.

4 الفهم

حين نتعامل مع النص قد نخضعه للمعنى الإشاري، أو التأويلي، أو الظاهري، أو الإيضاحي، وبالتالي يختلف نوع الفهم، فقول القرآن ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ قد يفسر بالظاهر، فيقال: استواء على الحقيقة بما يليق بجلاله دون التعرض للكيف. وقد يتم التفسير بالإيضاح، فيقال: بما يفيد التجسيم من التحيز والمماسة. وقد يفسر بالمجاز، فيقال: استوى يعني استولى، وقد يقال بالتفسير الإشاري بمعنى اتصف بعز الصمدية وجلال الأحدية وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية.

5 النتاج المعرفي

هو كل ما ينتج من معرفة لاحقة.

باستمرار لدينا خمسة أشياء يمكن أن نسميها الجهاز المعرفي، ويمكن فحص أي جهاز معرفي من خلالها حينما نتساءل عن

ماهو مصدره؟	ما هي أدواته؟	ما هو جهازه المولد؟	ما نوع الفهم الذي يحدثه؟	ما هي منتجاته؟

ثالثاً- تعدد الأجهزة المعرفية

هناك عدد من الأجهزة المعرفية المتنافسة في الواقع، فلو نظرنا مثلاً إلى الغرب كنموذج لدراسة الأجهزة المعرفية سنجد أن لديه ثلاثة أجهزة معرفية متنافسة في البيئة، وعلى الرغم من أن الجهاز الاستقرائي هو المسيطر بينها، ولكن الجهازين الآخرين يشتغلان في البيئة ولهما منتجات.. فمثلاً لو أننا افترضنا أن الغرب عبارة عن طاولة وأن هذه الطاولة عليها منتجات تلك الأجهزة المعرفية فسنجد أن المنتجات هي ثمرة ثلاثة أجهزة معرفية كبيرة:

الجهاز الأول **الاستقراء**	وهو الغالب على الحياة الأوروبية.
الجهاز الثاني **الفلسفة**	فالفلسفة جهاز معرفي آخر وأداة الحفر فيها هو المنطق، ويمر على قضية البرهان باستمرار، ومنتجات هذا الجهاز لها الطابع الفلسفي، فيوجد بداخل البيئة الغربية منتجات لها طابع فلسفي، وتحاكمها أساساً الفلسفة وليس التجربة العملية والمختبرية.
الجهاز الثالث **الجهاز الديني**	الذي رغم ضموره في هذه المجتمعات إلا أن له حضوره أيضاً وينتج عوامله، فهو يعتمد على النص وعلى وجود اللغة التي تفسر النص بشكل من الأشكال.

فإذاً هناك ظاهرة وجود عدد من الأجهزة المتنافسة والتي نحتاج أن نعرفها باستمرار..

رابعاً- الاستعارة بين الأجهزة المعرفية

ظاهرة الاستعارة ظاهرة موجودة بين الأجهزة المعرفية، فلا يوجد جهاز معرفي إلا ويستعير من جهاز معرفي آخر موجود في البيئة ذاتها، فيستعير أشياء محددة – من غير إدراك – ويحل اختناقاته من خلالها،.. فعلى سبيل المثال المدارس التجريبية الصرفة تعتمد على الاستقراء، ولكن في بدايات عملها استعارت من المدرسة الفلسفية تصوراً فلسفياً عن طبيعة الكون، ففيزياء نيوتن بُنِيَت أساساً على فلسفة مضمرة بأن الكل مركب من أجسام، والأجسام ذرات وكل واحدة لها كتلة.. وعلى هذه الفلسفة الأساسية تبنى بقية المنظومة الموجودة..

وأيضاً عندما دخلنا فيما يسمى "الفيزياء الكمية"، فقد كانت نقلة فلسفية تقف وراءها فلسفة كبرى تقول إن العالم عبارة عن موجات وليس ذرات وكتل..

والجهاز الديني أيضاً يستعير، فمثلاً في إثبات الحجج الدينية قد يستعير الديني في الغرب فكرة علمية معينة ويؤكدها.. مثلما فعلت الكنيسة مع أفكار أرسطو، فأرسطو كان يتكلم عن تركيب الكون بطريقة معينة، والمسيحية وجدت أن تفسير الكتاب المقدس قابل لأن يتشكل بهذه الطريقة، ففرضت أفكار أرسطو على تفسير الكتاب المقدس بما يسمى التفسير العلمي للكتب المقدسة.. فسنجد في داخل الأطر استعارات أحياناً تكون مكشوفة ومعروفة وأحياناً تكون استعارات مضمرة.

> المناهج المعرفية يستعير بعضها من بعض خاصة حينما تصل إلى اختناقات معينة، وتكون استعاراتها أحياناً مكشوفة وأحياناً مضمرة.

إن الذي يميز هذه الأجهزة عن بعضها أمران؛ المصدر، والدينمو المولد.. فالنظام يحافظ على نفسه من خلال حماية المصدر وحماية النظام المولد، ففي الحضارة الغربية مثلاً إذا حذفنا (المصدر) الذي هو الطبيعة لا يقوم عندها العلم التجريبي، وإذا بقيت الطبيعة من غير التجربة (الدينمو المولد) لن يكون هناك علم غربي.

> يحافظ العلم على نفسه من خلال احتفاظه بالمصدر واهتمامه بالدينمو المولد.

وهنا يطرح السؤال نفسه.. لماذا تتعدد الأجهزة المعرفية في داخل البيئة الواحدة؟

السبب هو أن المنهج نحت بشري، والبشر مختلفون في تصوراتهم.. فأنتجوا مناهج مختلفة لمقاربة الواقع الموجودين فيه..

خامساً- الصدام المعرفي في البيئات الإسلامية

إن الأجهزة المعرفية الكبرى داخل الحياة الإسلامية سمتها الظاهرة عند اجتماعها أنها متصادمة ومتنافرة، وليست متناسقة، وإن هذا التصادم أنتج لنا صراعاً يتجلّى في عدة نواحٍ؛ فنجده في العقائد، وفي الفقه، وعلى مستوى الطوائف.. ويتكرر صداه في الفتاوى المختلفة التي تدور حول السياسة والاقتصاد، وحول المناسبات والأعياد. كل هذه القضايا نسمع فيها صراعاً مريراً يصل لحد التفسيق والتبديع والتكفير..

إشكالية في المنهج أم في الدين؟

إن هذا الصراع بلغ مبلغاً رهيباً من الاقتتال البيني بين طوائف المسلمين في القرن الرابع والخامس والسادس الهجري.. وانتهينا إلى أننا لا نصلي مع بعضنا البعض؛ فالأحناف يصلون منفردين، والمالكية منفردين، والشافعية منفردين، والحنابلة كذلك، وأصبح لكل أناس مسجدهم ومدارسهم..! ونجد في بعض الكتب الحديثة التي حاولت أن ترصد الظاهرة علمياً في محاولة معرفة ما الذي كان يدور في تلك الفترة كمّاً من الصراع الكبير داخل البيئات الدينية حول صوابية كل اتجاه من الاتجاهات، لدرجة أنه قد يأتي شخص ويقول لك: إذا تزوجت من الشافعية تزوجها على أنها كتابية..! فأصبح الموضوع قاتلاً بين أفراد الأمة، ولم ينتبهوا إلى أنها مشكلة منهج لا مشكلة دين؛ وذلك لأن من يدرس في داخل مذهب من المذاهب يُصَوَّر له أن هناك تطابقاً بين فهم المذهب وبين الدين، فيعتقد كمالية المنهج الذي يحتذيه؛ فإذا كان حنفياً فهو كامل، وكذلك إذا كان شافعياً أو مالكياً أو حنبلياً أو ظاهرياً أو منهج آخر.. وكل منهج يوهم كماله بالنسبة لمحتذيه.. وبالتالي تصبح المناهج الأخرى خارجة عن الدين بشكل او بآخر! ولذلك انتشر التكفير والتبديع والتفسيق بين المسلمين في تلك العصور (الرابع والخامس والسادس الهجري) وهي بذاتها العصور التي غُزينا فيها من قبل الصليبيين والتتار وانتشر القتل والفوضى نتيجة هذه القضايا.

إننا الآن في عصر جديد، وفي تصور جديد للحياة، وإذا فهمنا أن هذه الأجهزة المعرفية تشتغل عبر أدوات معينة؛ أي أن لديها مصدر، ودينامو مولد.. وبأن هذين الأمرين يحكمان الأفهام التي تخرج منها، ويحكمان المنتجات التي ستخرجها.. فعندها ستخفّ حالة الصراع البيني، وسيصبح السؤال حول كفاءة هذه المناهج في الإجابة على أسئلتنا المعاصرة؛ هل ستستطيع الإجابة أم أننا نحتاج منهجاً آخر يضبط لنا المعادلة؟

وإننا إذا لم نستطع أن ننتج عصراً جديداً عبر تغيير المناهج وإعادة النظر فيها فلن نستطيع أن نتحرك للأمام، بل سنظل أسرى ذات القضايا، بالشكل ذاته، والآليات ذاتها..

ملاحظة هامة

إن المناهج المذكورة سابقاً جميعها مناهج محترمة، ولكن بالمقابل جميعها نحت بشري، وبالإمكان النظر إليها وتقويمها تقويماً معرفياً، يسمح لنا بأن نختار ونقدم ونؤخر وننظر فيها علمياً ومعرفياً إذا اقتنعنا بأن هناك مشكلة، أما من لا يرى أن هناك مشكلة فلا داعي لإكمال الحديث معه.. فحوارنا هنا مع من يستشعر المشكلة، ويرى بأنها قضايا قابلة للنظر العلمي التجريدي، وبأنه يتوجب القيام بمحاولات لإنتاج تصورات جديدة لهذا العصر الجديد كما فعل الصحابة والعلماء بزمانهم، حينما أنتجوا شيئاً احتاجه الواقع ولم يكن على عهد الرسول ﷺ..

خلاصات

- الجهاز المعرفي يتكون من خمسة مصادر رئيسية هي؛ المصدر، والأداة، والجهاز المولد، والفهم، والمنتجات.
- جميع الأجهزة المعرفية هي نحت بشري وليست وحياً منزلاً، فالبشر ينحتون مناهج يستخرجونها إما من الظواهر الطبيعية، أو من النصوص، أو من مختلف المجالات العلمية التي يشتغلون بها.
- نتاجات الأجهزة المعرفية في البيئة الواحدة؛ إما أن تكون متصالحة ومتّسقة، وإما أن تكون متصادمة ومتنافرة.

سادساً- أنماط المخاوف المثارة في وجه الاقتراب من الجهاز المعرفي الديني

مما لا يُغفَل عنه أن الأجهزة المعرفية أنشأت منتجات كثيرة، فلو نظرنا إلى منتجات كل مذهب من المذاهب الفقهية فإننا سنجد آلاف الكتب التي خرجت من تحت كل مذهب، وآلاف مؤلفة من العلماء الذين تخرجوا من هذه المذاهب.. وكذلك إذا نظرنا للفرق الكلامية فسنجد أيضاً عشرات من الفرق الكلامية المختلفة التي تنازعت في مسائل الاعتقاد، وكذلك إذا نظرنا إلى الطوائف الموجودة.. وإن الكثير من الناس يعتقدون أن الاقتراب من ظاهرة الجهاز المعرفي قد يربك عليهم أعمالهم ويسبب لهم مشاكل كثيرة وبالتالي أي محاولة للاقتراب من فكرة فهم الجهاز المعرفي تلقى صدوداً كبيرة جداً تتنوع أنماطها:

- **أولاً:** هنالك من يستنكر وجود مشكلة في الجهاز المعرفي معتبراً الحديث عن تلك المشاكل ضرب من الأوهام، وحجته في ذلك بأنه لو حصلت مشكلة فعلية في الجهاز المعرفي لأدركها العلماء والفقهاء..
  - إن هذا المنطق لا يرقى للحديث معه لأن مظاهر المشاكل الموجودة كبيرة وصادمة وهي حاضرة بوضوح في كثير من المجالات؛ ففي مجال الاعتقاد مثلاً نجد ظاهرة الإلحاد، وظاهرة التكفير البيني المتبادل بين الفرق، وغيرها من القضايا.. وأيضاً في الفقه نجد صدامات كبيرة في القضايا المستجدة حيث إنها أصبحت تسبب إرباكاً لا حدود له في البيئة، هذا علاوة على تاريخ الصراع بين المذاهب.
- **ثانياً:** هنالك من يصد محاولات الاقتراب من الجهاز المعرفي على مبدأ إذا كنت لا تمتلك بديلاً لهذه الأجهزة فاصمت ولا تهدم البيت وتترك الناس في العراء. فيقولون إنه إذا ما تم البدء بنقد الأجهزة المعرفية وتشريحها، فإن الناس لن تستمر بالإيمان بهذه الأجهزة القائمة، وسيجدون أنفسهم في فراغ كبير جداً.. فأين سيذهب الناس إذا فقدوا السقف الذي يقفون تحته؟
  - إن هذه الحجة هي حجة شهيرة ومتكررة بينما هي في الحقيقة متهافتة.. لأن الإشارة إلى تصدعات بيت ما لا تعني هدمه، كما أنها لا تعني بالضرورة إيجاد الحل؛ فلو كان

لك بيت وفيه تصدعات ولاحظ بعض أهل البيت هذه التصدعات فأشاروا إليها فقد يسارعون إلى تعميره وإصلاحه من جديد.. وقد يفكر هؤلاء الناس في أن هذا البيت لم يعد صالحاً ويُنشِؤون بيتاً آخر، وقد يفلح هؤلاء الناس في وضع مخطط لبيت جديد.. فإن البيت لا ينهار وينتهي لمجرد أنه يُنقَد، فقد تستمر الأجهزة المعرفية وقد تتجاور في بيئات كثيرة جداً، وإن أقدم الأنظمة الموجودة عن السحر والجن والعفاريت والتنجيم لا زالت قائمة في المجتمعات العالمية، فالأجهزة المعرفية لا تختفي بالكلية، بل تبقى بقاياها طالما أن هنالك أناس يؤمنون بها.. فإن مقولة من لا يمتلك بديلاً فليصمت ليست قاعدة جيدة، لأن إشارة أحد الأشخاص إلى خلل في سيارتك لا يعني أنه يستطيع تصليح السيارة أو إيجاد الحل!

- **ثالثاً:** قد تكون حجة بعض الناس أنه من الإجرام تصفير تراث ومناهج عمرها ألف وأربعمئة سنة..

  - في المعرفة دائماً وأبداً يكون الجديد عبارة عن اعتراضٍ بوجه ما على الأمر السائد القديم، ولكن ليس بالضرورة إلغاء لكل ما هو قديم، فعلى الجديد أن يقف على كافة إيجابيات القديم ويستصحبها معه، ويحاول إزالة الشوائب والإشكاليات الموجودة فيه.. فمثلاً التراث الصيني لايزال موجوداً، والتراث الأوروبي أيضاً لايزال موجوداً على الرغم من كل النقد الذي وِجِّه له، فلا تزال كتب أرسطو وأفلاطون وتوما الأكويني تُدَرَّس في جامعات العالم وما زال يُبحَث فيها، فنقد الجهاز المعرفي ليس عبارة عن النهايات، ولا يوجد شيء في المعرفة اسمه "تصفير".

- **رابعاً:** هناك من يستنكر فكرة الإتيان بشيءٍ جديد بناءً على أن من سلف لم يترك شيئاً لمن خلف.. وهذه الفكرة تُطْرَح بوجهين:

  - **الوجه الأول:** باعتبار أنه لا داعي للجديد أساساً، وأن العلم قد نضج حتى اكتمل، وهذا يطرح في كافة المجالات؛ ففي التكنولوجيا يقال إن كل شيء من التقانة قد انتهى وقُدِّم ولا حاجة لأي شيء جديد.. ويقال ذلك في الفلسفة أيضاً فلا نحتاج إلى فكرة جديدة، ويمكن قوله في الدين..

- **والوجه الثاني:** باعتبار أنه لا جديد فيما يُقدّم، ولو كان جديداً لقبِلَه، فبعض الناس كلما ذكرت له منظومة فكرية جديدة، ذكر لك جزئيات مشابهة لها قد قالها السابقون في لحظة تاريخية معينة نفياً لحداثة المطروح..

- أما بخصوص الاعتبار الأول: فالواقع يقول عكس ذلك؛ فالحياة متجددة باستمرار وفيها أسئلة جديدة، وبالتالي هي تطرح أشياء جديدة وتحتاج لأفكار جديدة.

- وبخصوص الاعتبار الثاني: فنؤكد هنا بأن الفارق كبير جداً بين أفكار تجديدية مجزأة مترامية، وبين نظام يوحّد الأفكار ويصوغ منها منظومة كلّية، وهذا كالفارق بين إيجاد قطع غيار السيارة وبين إيجاد السيارة.. فقطع الغيار قد تكون متناثرة في كل مكان إلا أن تجميعها في نظام موحد أمر شاق جداً، وكذلك هو الأمر مع وجود أشياء كثيرة قيلت عبر التاريخ، فتوضيب هذه الجزئيات لا يقل أهمية بل لربما هو الأهم من وجودها.. فقول الفقيه الفلاني والأصولي الفلاني لا يغني عن فكرة إيجاد نظام جديد، لأن الجهاز المعرفي ليس مجرد قطعة صغيرة إنما هو نظام كامل.

خامساً: هناك من يقول بأننا لو أخذنا بالمقاصد، وفقه الأولويات، وفقه الضرورات، وفقه المآلات، وفقه النوازل، ستُحَل كل مشاكلنا..

- ولكن ما الذي يعيق عمل هذه الأنظمة في الواقع؟! فالمقاصد مخدومة وفقه الضرورات مخدوم.. وكل هذه المدارس موجودة في داخل البيئة الإسلامية، وأُلِّف فيها دراسات وبحوث كثيرة.. فلماذا لا تفعل فعلها وتنتج لنا جهازاً معرفياً يستطيع أن يجيب على أسئلة العصر فنخلص من الإشكاليات الموجودة بنوع من راحة الضمير؟

سادساً: يضاف إلى الإشكاليات السابقة إشكاليات متعلّقة بجانب ليس له علاقة تماماً بالكلام الذي نتحدث فيه، فهناك من يقول إن نقد الجهاز المعرفي الديني ومناقشته تؤدي إلى بث الإلحاد.. وهذا الطرح يدخل ضمن ما يسمونه بالمنحدر الزلق؛ وهو نوع من المغالطات المنطقية التي كنا قد تطرقنا لها سابقاً، وهي تعني مد نتائج معينة غير محمودة إلى قضايا قد لا تكون قريبة منها.. فالإلحاد له مجاله، وله أسبابه التي تختلف عن مناقشة الأجهزة المعرفية..

إن المصادرة على المطلوب من قبل أن يبدأ هي أداة من أدوات الحجر على العقل، ومن أدوات وقف تقدم المجتمعات التي تعاني من إشكاليات حقيقية ناتجة عن اضطراب الآراء والتصورات.

وكذلك الحال بمن يقول إن هذا النوع من الكلام يؤدي إلى فساد وفسق وفجور وانحلال وما الى ذلك.. وأيضاً هنالك من يرى أن في هذا النوع من الطروحات يتم الاعتداء على السنة النبوية وعلى النصوص قطعية الدلالة وقطعية الثبوت.. إلا أن هذا كله ليس بالضرورة أن يحدث، بل هو مرهون بما سينتج عن النقاش في النهاية.. فالنقاش قد ينتهي إلى جوانب ممتازة ورائعة مثلما حدث مع أمم كثيرة تقدمت، وكذلك قد ينتهي إلى نتائج سلبية.. فلعل أحداً ما قد يُنتج جهازاً معرفياً جديداً يمكن أن يصبح قابلاً للتداول، وأحداً آخر يمكن أن يقترح جهازاً معرفياً أو يعدّل في جهاز معرفي.. ولكن الحَجْرَ على الموضوع من قَبْلِ أن يبدأ بسبب كل هذه المخاوف ليس وضعاً طبيعياً، إنما هو جزء من آليات التخويف التي اتبعتها النظم القديمة لمنع تقديم تصورات جديدة أو على الأقل بحث الأشياء القديمة..

سابعاً- الجهاز الذي يحتاجه الواقع

وبعد الحديث عن الجهاز المعرفي والخلل الحادث، سيطرح السؤال نفسه، ما الذي يحتاجه واقعنا اليوم؟

إن العقلية التي تولدت عندنا هي عقلية متعلقة بالمنهج الاستنباطي الذي فصّلنا في الحديث عنه سابقاً، فالجهاز المعرفي لدينا يعتمد على وجود نص سواء قرآني أو حديثي، أو نص لشخصية قديمة.. ليتم القيام بتفسيره وشرحه باعتباره يجيب عن أسئلة الواقع.. بينما العلم كله أصبح مبني على الاستقراء! فلو أن أمة من الأمم تعاني من انقسام ومشكلات لا يكفيها شخص يخبر شعبها أن في الاتحاد مصلحة، فالسؤال المهم هنا يكون ما الذي يعوق هذه المصلحة؟

إن جهازنا القديم مبني على قضية حلال وحرام، ولكن من الصعوبة بمكان أن يجيب عن سؤال معقد فيه السياسي والاقتصادي والاجتماعي.. علاوة على أنه لربما أيّد اتجاهين متنافرين تماماً! فكثيراً ما يخرج شيخ مؤيداً لقضية معينة، فيخرج بمقابله عشرات المشايخ ليخرجونه من الملة والدين!..

وقامت خلال الفترة الماضية أحداث في غاية الأهمية، وهي أحداث تؤكد مستوى الضعف في الجهاز المعرفي لدينا، فالمثلية الجنسية والتجريم الحاصل إزاء أي انطباع عدائي نحوها، ومطالبة المساجد ببعض المناطق بالاعتراف بزواج المثليين، علاوة على الحملة الشرسة ضد الإسلام في فرنسا وغيرها.. فهذا كله جزء من تحديات يعانيها المسلمون الموجودون في بيئات لا يستطيعون أن يخرجوا منها بعد أن فروا من بيئات القهر إليها..

فالواقع بدأ يشكل فضاءً صعب التناول، ويجعلنا نقتتل فيما بيننا، دون أن نجد بوصلة تفسر هذا الاضطراب الموجود سوى أن ننعت الآخر بأنه متفلت وخارج عن الشريعة وخارج عن الإسلام!

ويحكي الدكتور جاسم فيقول: إنني حينما سألت أحد المشايخ الأفاضل عن الصراع بين روسيا وأوكرانيا والرأي الفقهي فيها فأجابني: بأن القتال في الفقه الإسلامي معنون لإعلاء كلمة الله، وفي حرب أوكرانيا لم ينشأ القتال لتكون كلمة الله هي العليا، فالموضوع يدور في دولة وطنية، ولا يوجد لدينا في الباب شيء يخص الحرب في دولة وطنية لها خصائصها ومكوناتها وتختلف عن دولة فيها مسلمين!

إننا متى ما تعملنا أن العالم ليس ابن الإطلاقيات، وأنه ابن الواقع الذي نتحرك فيه، فسنفهم لماذا نزل القرآن الكريم منجماً.. فالقرآن نزل منجماً لأنه كان يعالج واقعاً، والواقع جزئيات متناثرة، فلو نزل نصاً مطلقاً لقالت الناس عرفنا ولكن كيف سنعمل! لكن هو نزل منجماً ليجيبهم عن السؤال العملي المباشر الموجود على الأرض ثم ينتقل بهم خطوة للأمام.. فالواقع هو الذي يعطي الإجابات الممكنة والغير ممكنة انطلاقاً من إحداثياته، وإن معرفة الواقع لا تعني الانسحاق له والاستسلام، إنما معرفته هي المقدمة الحقيقية للانتقال به خطوة أو خطوتين للأمام اتجاه الأهداف المطلوبة..

في صميم كل ماسبق!

إذا كان لدينا عقل، وجهاز معرفي جيد، وعندنا الواقع أو الكتاب الذي سنقرؤه.. فسينتج لدينا فهم، وإن هذا الفهم ليس ادعاء بل هو أحوالنا وأوضاعنا العملية الموجودين فيها، وإن مهزومية أمة ما يعني أن جهازها فيه أخطاء، فإذا كانت الأمة لا تُصنِّع ماتستهلكه فهذا يعني أن جهازها فيه مشكلة، وإذا كانت الأمة تفتقر للالتزام والصدق في معاملاتها فهذا يعني وجود مشكلة، فكل خلل في الجهاز المعرفي ينتج خللاً في الواقع الخارجي المقابل له، ومن مجموع الاختلالات أو خليط الإيجابيات مع الاختلالات تتشكل الوضعية الحضارية للأمة، وقد كانت رحلتنا الطويلة في صميم البحث في كيفية تعاطي عقولنا في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفلسفة والتاريخ..

مقترحات الجهاز المعرفي الجديد:

يجدر التنويه ابتداء بأننا حينما نقول جهاز معرفي جديد قابل للمعايرة فنحن هنا نتحدث عن جهاز يستوعب النظام القديم وليس العكس، بمعنى أن النظام الجديد لا يهمل ما أنجزه النظام القديم، ولكن يضعه في إطاره وفي تصوره، بحيث إنه يستوعبه ويدخله داخل منظومته التي يعمل من خلالها.

وإن المعايير التي ينبغي أن يحاكم لها الجهاز الجديد هي معايير محايدة تستخدمها البشرية جمعاء في العلوم، فمثلاً معيار "دراسة الواقع" ليس أمراً خاصاً بشيء محدد، فإن جميع الأجهزة الموجودة تفهم فكرة دراسة الواقع، وإحصائيات الواقع، والأرقام الموجودة فيه، وأيضاً معيار "تتبع المقاصد" فكون القضايا لها غايات فهذا لا يتعلق فقط بالمسلمين، إنما يتعلق بالبشرية جمعاء، فهناك دائماً حكمة من وراء وجود الأشياء ولا يوجد عبثية، وأيضاً الحفاظ على "الوجدان الاخلاقي الفطري العام" فهذا أيضاً ما يجب أن تعاير به مخرجات أي جهاز معرفي، فالفطرة البشرية بوجدانها العام تحب أن يُعترف لها بالفضل والإحسان.. وتكره أن يسرقها أحد أو يغشّها..، وأيضاً لا بد من أن يحكم الجهاز المعرفي "المنطق" الذي تشترك فيه

البشرية، وخاصة قانون عدم التناقض، وفي داخل هذا كله لا بد من مراعاة فكرة "الأنساق"، وهي ما سنُفرِد له حديثاً مفصلاً في مواقع أخرى بعون الله.

إذاً معرفة المعايير الجديدة التي يجب أن تضاف إلى المعايير القديمة، ومعالجة المعايير القديمة بحيث تصبح جزءاً من النظام الجديد أمر هام جداً، وهو علم بحد ذاته اسمه "علم الطريقة"، وقد فصَّل به الأستاذ "يحيى محمد" وأفرد جزءاً كبيراً للأمثلة الواقعية في العقائد والفقه وفي القضايا المعاصرة.. في كتابه "النظام الواقعي"، وعلى الأخوة الذين يحاولون أن يفهموا النظام الجديد، أن يفهموا الأساسات المطروحة ويتقنوها بشكل جيد ثم يدخلوا لدراسة الحالات العملية الموجودة لأنها تساعدهم على الفهم أكثر، فكلما بذل الإنسان جهداً أكبر كلما أمكن له أن يتقدم في الموضوع ويصبح أكثر كفاءة به.

ويبقى أن نضع بعض المقترحات للجهاز المطلوب، والتي قد اختصرناها في تسعة نقاط أساسية متمثلة بـ:

1. **أن يعترف بالنص:** فالنص وعاء التكليف ولا قيمة لفهم إسلامي يستبعده أو يعزله.
2. **أن يعترف بأن الأصل في النص القصدية؛** فلا يعامل النص على أنه نص أدبي نبحث فيه عن الجماليات على حساب القصدية، وهذا فارق أساسي عن دائرة النصوص الأدبية حيث تختفي قصدية الكاتب عند رؤية القارئ وذوقيته.
3. **حضور واقع التنزيل المحايث للنص،** فنزول النص منجماً مراعياً بيئة وثقافة وظرف وحاجة المفسر لتغاير الأحكام، وهو منهج القرآن المغاير لألواح موسى ذات الوصايا العشر. وهذا يعني ضرورة البحث الاجتماعي التاريخي لتركيب صورة الواقع الذي حاوره النص.
4. **حضور واقع النص المعاصر استقرائياً،** فسبب الحاجة أصلاً للاجتهاد؛ هو تجدد الواقع وقضاياه، والواقع هو ما يرشح الخيارات الأقرب للنفاذ لحل إشكال الواقع او تخفيف الضرر.
5. **أن تُعتَبر الضرورة مستبطنة في كل واقع،** وهذا يعني أن النص يبقى حيّاً، ويجادل كل واقع بضروراته، فالضرورة هنا ليست حالة استثنائية بل حالة متجددة، تفرض تجدد النظر، وتديم حياة النص، وهي فارق جوهري بين مقولة الضرورة الاستثنائية التي

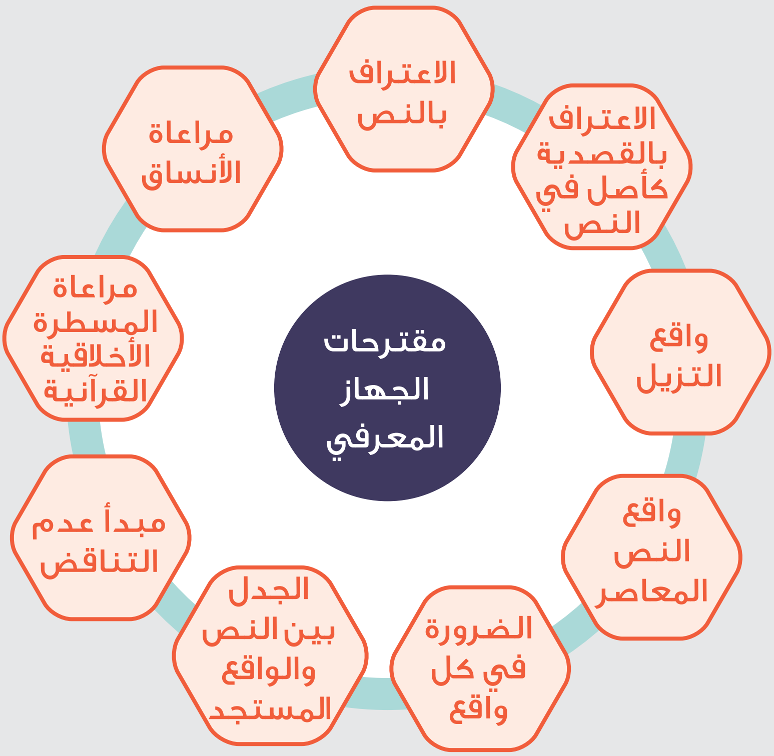
يتوقع لها الانتهاء للعودة للحكم السابق ما لم يكون هو المرشح بحسب الجدل الجديد، وبين النص والواقع.

6. أن يقيم جدلاً بين النص والواقع المستجد محافظاً على مجال النص وقصديته والجدل بين النص والواقع محكوم بالمقاصد وعند فساد الواقع فالمقصد حاكم.

7. أن يحافظ على مبدأ عدم التناقض.

8. أن يراعي المسطرة الأخلاقية القرآنية فلا يتم تجاوزها.

9. أن تراعى الأنساق بجمع النصوص المتعلقة بموضع واحد؛ فلا ينفرد أحدها بتحديد المعنى بمعزل عن النسق.



إلى هنا وبحمد الله وفضله نكون قد أنهينا هذه السلسلة من المنهج الأساس، ولعل الله ينفع بها أيها الأخوة القرّاء.. وصلى الله وسلم وبارك على النبي المختار.

معاً نحو
نهضة أمة

safwacultural
contact@safwacenter.org
www.safwacenter.org

الصفوة للدراسات الحضارية
Safwa Cultural Studies"SCS"

9 786057 192202